

تفسير ابن عطية

المحضر الوحي

في

تفسير الكتاب العزيز

لأبي محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي

الجزء الرابع عشر

تحقيق وتعليق

الشيخ العلامة السيد محمد باقر

طبع على نفقة

صاحب السمو الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني

أمير دولة قطر

«تفسير ابن عطية»

المحرر الوجيز

مكتبة الشيخ عبد الله الأنصاري
الرقم العام : ٥٦٤
رقم التصنيف : ٣٤٤٢

في

تفسير الكتاب العزيز

لأبي محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي

الجزء الرابع عشر

تحقيق وتعليق

الشيخ محمد صالح المنجد

طبع على نفقة

صاحب السمو الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني
أمير دولة قطر

مكتبة الشيخ عبد الله الأنصاري
الرقم العام : ٥٦٤
رقم التصنيف : ٣٤٤٢

٦٠٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حقوق الطبع محفوظة
من الجزء «الأول» إلى الجزء «الخامس عشر»
الطبعة الأولى
١٤١١ هـ - ١٩٩١ م

من مطبوعات
رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية بدولة قطر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تنبؤيه

الحمد لله الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً ، وصلى الله وسلم على خيرته ، المصطفى لوجه ، المنتخب لرسالته ، المفضل على جميع خلقه بختم نبوته ، وكمال دينه ، وعموم دعوته ، عبده ورسوله محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين ، وبعد .

فقد كانت إدارة إحياء التراث الإسلامي بإشراف واهتمام من مديرها الشيخ عبد الله إبراهيم الأنصاري غفر الله له قد بدأت نشر هذا الكتاب فأكملت طباعة ثلاثة عشر جزءاً منه وقسماً من الجزء الرابع عشر ، وقد كلفت إدارة الشؤون الإسلامية برئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية بمتابعة تنفيذ وطباعة هذا السفر الجليل .

ومن تمام المنة علينا أن يسر الله بتوفيقه إكمال هذا الكتاب بإصدار جزأيه الأخيرين الرابع عشر والخامس عشر ، وفق النسق الذي بدأه سلغنا الفاضل ، بتحقيق الشيخ السيد عبد العال السيد إبراهيم ، الذي كان لجهده العلمي الأثر الأوفى بتحقيق هذا الكتاب .

والله نسأل أن يتفع به أهل الدعوة والملة ، وأن يوفقنا لخدمة هذا الكتاب العزيز .

كما نرفع لسمو أمير دولة قطر خالص الشكر وعظيم الشاء لرعايته إخراج هذا الكتاب على نفقته جزاءه الله خيراً على دعمه لتحقيق وطباعة تراثنا العلمي والديني .

ونرجوه تبارك وتعالى أن يتقبل ممن ساهم في هذا العمل الطيب بأي جهد أو مال وإليه المرجع والمآل ، وله الحمد في الأولى والآخرة .

وكيل رئاسة المحاكم الشرعية

والشؤون الدينية بدولة قطر

« تفسيرُ ابن عطية خيرٌ من تفسير الزمخشري ، وأصح نقلا وبحثاً ،
وأبعد عن البدع بل هو خير منه بكثير ، بل لعله أرجح
هذه التفاسير . »

(ابن تيمية)

« لَمَّا رَجَعَ النَّاسُ إِلَى التَّحْقِيقِ وَالتَّمْحِصِ ، وَجَاءَ أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدِ الْحَقِّ
ابن عطية من المتأخرين بالمغرب ، فَلَخَّصَ تِلْكَ التَّفَاسِيرَ كُلَّهَا ، وَتَحَرَّى
مَا هُوَ أَقْرَبُ إِلَى الصَّحَّةِ مِنْهَا . »

(ابن خلدون)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الجزء الرابع عشر

ويبدأ بقوله تبارك وتعالى :

﴿ وَالذَّارِبَاتِ ذُرَّوًا ۝١ فَالْحَمَلَاتِ وِقْرًا ۝٢ فَالْجَارِبَاتِ يُسْرًا ۝٣
فَالْمُقَسَّمَاتِ أَمْرًا ۝٤ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝٥ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ۝٦ ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين
سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين



هذه السورة مكية بإجماع من المفسرين .

قوله عز وجل :

﴿ وَالذَّارِيَّاتِ ذُرُوءًا ﴾ ﴿١﴾ ﴿ فَالْحَمَلِمْتِ وَقُرًا ﴾ ﴿٢﴾ ﴿ فَالْجَحْرِ يَتِ بِسْرًا ﴾ ﴿٣﴾
﴿ فَالْمُقَسِّمَتِ أُمْرًا ﴾ ﴿٤﴾ ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴾ ﴿٥﴾ ﴿ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴾ ﴿٦﴾
﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴾ ﴿٧﴾ ﴿ إِنَّكَ لَنِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ ﴾ ﴿٨﴾ ﴿ يُؤْفِكُ عَنْهُ مَنْ
أَفِكَ ﴾ ﴿٩﴾ ﴿ قَتَلَ الْخَرَّاصُونَ ﴾ ﴿١٠﴾ ﴿ الَّذِينَ هُمْ فِي عَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴾ ﴿١١﴾ ﴿ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ
يَوْمِ الدِّينِ ﴾ ﴿١٢﴾ ﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ﴾ ﴿١٣﴾ ﴿ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي
كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ ﴿١٤﴾ ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ ﴿١٥﴾ ﴿ آخِذِينَ
مَاءً أَنَّهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴾ ﴿١٦﴾

أقسم الله تعالى بهذه المخلوقات تنبيهاً عليها ، وتشريفاً لها ، ودلالة

على الاعتبار فيها ، حتى يصير الناظر فيها إلى توحيد الله تعالى .

و «الذَّارِيَات» : الرِّيح ، بإِجماع من المتأولين ، يقال : ذرت الرِّيح وأذرت بمعنى (١) ، وفي الرِّيح مُعتبرٌ من شدتها حيناً ولينها حيناً ، وكونها مرّة رحمة ومرّة عذاباً ، إلى غير ذلك ، و [ذَرَوْا] نصب على المصدر .

و «الحاملات وقرأ» قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : هي السحاب الموقرة بالماء ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما ، وغيره : هي السفن الموقرة بالناس ومتاعهم ، وقال جماعة من العلماء : هي أيضاً - مع هذا - جميعُ الحيوان الحامل ، وفي جميع ذلك مُعتبر ، و [وَقَرَأ] مفعول صريح .

و «الجاريات يسراً» قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وغيره : هي السفن في البحر ، وقال آخرون : هي السَّحاب بالريح ، وقال آخرون : هي الجواري من الكواكب ، واللفظ يقتضي جميع هذا ، و [يُسْرَأ] نعت لمصدر محذوف ، وصفات المصادر المحذوفة تعود أحوالاً ، و [يُسْرَأ] معناه : بسهولة وقلة تكلف .

و «الْمُقَسَّمَاتُ أَمْرًا» : الملائكة ، و «الْأَمْرُ» هنا اسم الجنس ، فكأنه تعالى قال : والجماعات التي تقسم أمر الملكوت من الأرزاق

(١) ولكن قال الزجاج : يقال : ذَرَتْ فهي ذارية ، وأذرت فهي مُذرية .

والآجال والخلق في الأرحام وأمر الرياح وغير ذلك ؛ لأن كل هذا إنما هو بملائكة تخدمه ، فالآية تتضمن جميع الملائكة لأنهم كلهم في أمور مختلفة ، وأنث «المُقَسَّمات» من حيث أراد الجماعات ، وقال أبو الطفيل عامر بن واثلة (١) : كان علي رضي الله عنه على المنبر ، فقال : لا تسألوني عن آية من كتاب الله تعالى أو سنة ماضية إلا قلتُ ، فقام إليه ابن الكواء فسأله عن هذه فقال : الذّاريات : الرّياح ، والحاملات : السّحاب ، والجاريات : السفن ، والمقسّمات : الملائكة ، ثم قال له : سل سؤال تعلم ولا تسأل سؤال تعنت (٢) .

(١) هو عامر بن واثلة بن عبد الله بن عمرو بن جحش الليثي . أبو الطفيل ، وربما سمي عمراً ، وولد عام أحد . ورأى النبي صلى الله عليه وسلم ، وروى عن أبي بكر فمن بعده . وعمر إلى أن مات سنة عشر ومائة على الصحيح . وهو آخر من مات من الصحابة ، قال ذلك مُسلم وغيره . (تقريب التهذيب) ، أما ابن الكواء فاسمه عبد الله .

(٢) ورُوي أن رجلاً قال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه : إني مررتُ برجل يسأل عن تفسير مشكل القرآن -- وهذا الرجل اسمه صبيغٌ على وزن أمير -- فقال عمر : اللهم أمكيتني منه ، فدخَلَ هذا الرجل يوماً على عمر وهو يلبس ثياباً وعمامة ، وكان عمر يقرأ القرآن ، فلما فرغ قام إليه الرجل فقال : يا أمير المؤمنين ، ما «الذّارياتِ ذرّوا» ؟ فقام عمر فحسر عن ساعديه وجعل يجلده ، ثم قال : ألبسوه ثيابه . واحملوه على قَتَب ، وابلغوا به حيته ، ثم ليَقْمُ خطيب فليقل : إن «صبيغاً» طلب العلم فأخطأه ، فلم يزل وضيعاً في قومه بعد أن كان سيّداً فيهم .

وهذا القَسَمَ واقع على قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴾ ،
و [تُوعَدُونَ] يحتمل أن يكون من الإيعاد ، ويحتمل أن يكون من
الوعد ، وأيهما كان فالوصف له بالصدق صحيح ، و [صَادِقٌ] هنا
موضوع بدل «صدق» وضع الاسم موضع المصدر .

و «الدِّينُ» : الجزاء ، وقال مجاهد : الحسابُ ، والظاهر في الآية
أنها للكفار وأنها وعيدٌ محضٌ بيوم القيامة .

ثم أقسم الله تعالى بمخلوق آخر فقال : ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴾ ،
فظاهر لفظة «السماء» أنها لجميع السموات ، وقال عبد الله بن عمرو
ابن العاص : هي السماء السابعة ، و [الْحُبُكِ] - بضم الحاء والباء -
الطرائق التي هي على نظام في الأجرام ، فحُبُك الرِّمَالِ والماء : الطرائق
التي تصنع فيها الرياح الهابئةُ عليها ، ومنه قول زهير :
مُكَلَّلٌ بَعَمِيمٍ النَّبْتُ تَنْسِجُهُ رِيحٌ خَرِيقٌ لَصَاحِي مَائِهِ حُبُكٌ (١)

(١) هذا البيت من قصيدة زهير التي قالها بعد أن أغار الحارث بن ورقاء الأسدي على بني
عبد الله بن غطفان واستاق إبل زهير وراعيه يساراً ، فقال زهير القصيدة يطالبه بردَّ إبله وراعيه .
ورواية الديوان والمحتسب : (مُكَلَّلٌ بِأَصُولِ النَّبْتِ) ، ويروى : (بأصول النجم) كما
في القرطبي والكشاف ، ورواية اللسان كرواية ابن عطية هنا . والبيت في وصف ماءٍ ظاهر على
وجه الأرض قد اصطفت على حافته طيورٌ صغيرة بيضاء ، وزينته النبات الذي امتد على جوانبه
كالأكاليل ، وتَنْسِجُهُ : تضم بعضه إلى بعض ، فالريح تنسج الماء في هذا الوادي بمعنى أنها =

وَحُبُّكَ الدَّرْعُ : الطرائق المتصلة في موضع اتصال الحلق بعضها ببعض ،
وفي بعض أجنحة الطير حُبُّكَ على نحو هذا ، ويقال لتكسير الشعر:
حُبُّكَ ، وفي الحديث : (إِنْ مِنْ وَرَائِكُمُ الْكَذَّابِ الْمُضِلُّ ، وَإِنَّ رَأْسَهُ
مِنْ وَرَائِهِ حُبُّكَ حُبُّكَ) (١) ، يعني جَعُودَةُ شعره ، فهو تَكْسُرُهُ ، ويظهر
في المنسوجات من الأكسية وغيرها طرائق في موضع تداخل الخيوط
هُنَّ حُبُّكَ ، ويقال : نسج الثوب فَأَجَادَ حُبُّكَه ، فهذه من الحُبُّكَ
في اللغة ، وقال منذر بن سعيد : إِنْ السَّمَاءُ فِي تَأَلُّفِ جَرْمِهَا هِيَ هَكَذَا
لَهَا حُبُّكَ ، وذلك لجودة خلقتها وإتقان صنعتها ، ولذلك عَبَّرَ ابْنُ
عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُّكِ﴾
بِأَنَّ قَالَ : حُبُّكَهَا : حُسْنُ خَلْقَتِهَا ، وَقَالَ ابْنُ جَبْرِ : الْحُبُّكَ الزَّيْنَةُ ،
وَقَالَ الْحَسَنُ : حُبُّكَهَا كَوَاكِبُهَا ، وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ : الْحُبُّكَ الشَّدَّةُ ،

= تضرب وجهه فتجعل فيه طرائق بعد أن تضم بعضه إلى بعض ، والحريق : الشديدة ، وهي
صفة للريح ، والضاحي : البارز للشمس . والحُبُّكَ : الطرائق ، وهو موضع الاستشهاد هنا .
والمعنى أن هذا الماء الظاهر على وجه الأرض قد زينتته أكاليل النبات ومرت عليه الريح الشديدة
فجمعت بعضه إلى بعض حتى أصبح طرائق من تكسره .

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤-٢٠ . ٥-٣٧٢) عن هشام بن عامر قال : قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إِنْ رَأْسَ الدَّجَّالِ مِنْ وَرَائِهِ حُبُّكَ حُبُّكَ ، فَمَنْ قَالَ :
أَنْتَ رَبِّي افْتَتَنَ . وَمَنْ قَالَ : كَذَبْتَ . رَبِّي اللَّهُ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ : فَلَا يَضُرُّهُ ، أَوْ قَالَ :
فَلَا فِتْنَةَ عَلَيْهِ) .

حُبكت : شُدَّت ، وقرأ : ﴿سَبْعاً شِدَاداً﴾ (١) ، وقال ابن جنِّي :
 الحُبُّك طرائق الغَيْم ونحو هذا ، وواحد «الحُبُّك» حَبَاك ، ويقال
 للضَّفيرة التي تُشَدُّ بها حظار القصب ونحوه - وهي مستطية تصنع
 في ترحيب الغراسات المصطفة - : حِبَاكُ ، وقد يكون واحد الحُبُّك
 حبيكة ، وقال الرَّاجز :

كَأَنَّمَا جَلَّلَهَا الْحَوَاكُ طِنْفَسَةً فِي وَشِيهَا حِبَاكُ (٢)

وقرأ جمهور الناس : [أَلْحُبُّك] بضم الحاء والباء ، وقرأ الحسن بن
 أبي الحسن ، وأبو مالك الغفاري بضم الحاء وسكون الباء تخفيفاً ،
 وهي لغة بني تميم ، كرُسل في رُسل ، وهي قراءة أبي حيوة ، وأبي
 السَّمال ، وقرأ الحسن أيضاً ، وأبو مالك الغفاري : [أَلْحِبِّك] بكسر
 الحاء والباء على أنها لغة كاطل وإيل ، وقرأ الحسن أيضاً : [أَلْحِبُّك]

(١) من الآية (١٢) من سورة (النبا) .

(٢) يصف الرَّاجز ظهراً أتان من حُمُر الوحش بأن فيه خطوطاً وطرائق ، وجلَّلَهَا :
 ألبسها وكساها . والحَوَاكُ : الذي يحوك الثياب أي ينسجها ، والطِنْفَسَةُ : البساط أو
 النُّمرة فوق الرحل : والوشى : الزخرف والنقش ، والحِبَاك : الطريقة التي تخذها الرياح
 في الرمال أو المياه ، وهي موضع الاستشهاد هنا ، يقول : كأن ظهر هذه الأتان بما فيه من نقوش
 وخطوط قد كساه الحائك الذي ينسج الثياب طنفسة موشاة فيها خطوط مستقيمة ذات ألوان
 متعددة . والبيتان في تفسير الطبري ومعهما بيت ثالث ، وكذلك استشهد بهما القرطبي .

بكسر الحاء وسكون الباء ، كما قالوا على جهة التخفيف : «إِبْلٌ»
و «إِطْلٌ» بسكون الباء والطاء ، وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما :
[أَلْحَبِكْ] بفتح الحاء والباء ، وقرأ الحسن أيضاً فيما رُوي عنه :
[أَلْحُبِكْ] بكسر الحاء وضم الباء ، وهي قراءة شاذة غير متوجهة ،
وكأنه أراد كسرهما ثم تَوَهَّمَ [أَلْحُبِكْ] قراءة الضم بعد أن كسر
الحاء فضم الباء ، وهذا على تداخل اللغات ، وليس في كلام العرب
هذا البناء (١) ، وقرأ عكرمة : [أَلْحُبِكْ] بضم الحاء وفتح الباء جمع
حُبُكَة ، وهذه كلها لغات ، والمعنى ما ذكرناه ، والفرسُ المحبوكُ :
الشديد الخَلْقَة الذي له حُبْك في مَوَاضِع من منابت شعره ، وذلك
دليل على حسن بنيته (٢) .

وقوله تعالى : ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾ يحتمل أن يكون
خطاباً لجميع الناس ، مؤمن وكافر ، أي : اختلفتم بأن قال منكم
فريق : آمننا بمحمد وكتابه ، وقال فريق آخر : كفرنا ، وهذا قول
قتادة ، ويحتمل أن يكون خطاباً للكفرة فقط ، أي : أنتم في جنس
من الأقوال مختلف في نفسه ، قوم منكم يقولون : ساحر ، وقوم

(١) يعني بناء (فِعْلٌ) بكسر الفاء وضم العين ، وقال بعض العلماء : إن هذا ليس من
تداخل اللغات ، وإنما هو تركيب من قراءتين ، فإن صحَّ الأخذ به فإنه لا يبدو بعيداً .

(٢) أي : هيئة البناء الذي قام عليه شكله ، وفي بعض النسخ : «على حُسْنِ مُّبْتَه» .

يقولون : كاهن ، وقوم يقولون : شاعر ، وقوم يقولون : مجنون ،
إلى غير ذلك ، وهذا قول ابن زيد ، والضمير في [عنه] قال الحسن ،
وقتادة : هو عائد على محمد صلى الله عليه وسلم ، أو كتابه ، أو
شرعه ، و [يُؤْفَكُ] معناه : يُصْرَفُ ، فالعنى : يُصْرَفُ من الكفار
عن كتاب الله تعالى من صُرف ممن غلبت شقاوته ، وكان قتادة يقول :
المأفوك منا اليوم عن كتاب الله تعالى كثير ، ويحتمل أن يعود الضمير
على القول الذي يصرف بسببه من أراد الإسلام بأن يقال : هو سحر ،
هو كهانة ، وهذا قول حكاة الزهراوي ، ويحتمل أن يعود الضمير
في [عنه] على القول ، أي : يصرف عنه بتوفيق الله تعالى إلى الإسلام
من غلبت سعادته ، وهذا على أن يكون قوله تعالى : ﴿ إِنَّا كُنَّا لَفِي
قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴾ للكفار فقط ، وهذا وجه حسن لا يُخل به إلا أن عرف
الاستعمال في « أفك » إنما هو في الصرف من خير إلى شر ، وتأمل
ذلك تجدها أبداً في المصروفين المذمومين ، وحكى أبو عمرو عن قتادة
أنه قرأ : ﴿ مَنْ أَفَكَ ﴾ بفتح الهمزة والفاء .

وقوله تعالى : ﴿ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ﴾ دعاء عليهم ، كما تقول :
قاتله الله ، أو قتله الله ، وعَقَرَى حَلَقَى (١) ، وقال بعض المفسرين :

(١) يقال للمرأة : « عَقَرَى حَلَقَى » . بمعنى : عَقَرَهَا اللهُ وَحَلَقَهَا ، أي : حلق
شعرها أو أصابها بوجع في حلقها . وقد قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إن صفة بنت =

معناه : لُعِنَ الخراصون ، وهذا تفسير لا تعطيه اللفظة ، و «الخرَّاصُ» :
المُخَمَّنُ القائل بظنه وتقديره ، فَتَحَّتْهُ الكاهن والمرتاب ونحوه مِّنْ
لا يقين له ، والإشارة إلى مُكذِّبِي محمد صلى الله عليه وسلم على كل
جهة من طرقهم (١) . و «الغَمْرَةُ» ما يُغْشِي الإنسان ويغطيه كغمرة
الماء ، والمعنى : في غمرة من الجهالة ، و [سَاهُونَ] معناه : عن أنهم
في غمرة وعن غير ذلك من وجوه النظر ، وقوله تعالى : ﴿يَسْأَلُونَ
أَيَّانَ يَوْمَ الدِّينِ﴾ معناه : يقولون : متى يوم الدين ؟ على معنى التكذيب ،
وجائز أن يقترب بذلك من بعضهم هزواً وألاً يقترب ، وقرأ السَّلْمِي ،
والأعمش : [إِيَّانَ] بكسر الهمزة وفتح الياء مخففة .

قوله تعالى : ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ ، قال الزجاج : نصب
[يَوْمَ] على الظرف من مُقَدَّر تقديره : هو كائن يومَ هم على النار ،

= حَيِّيُّ رضي الله عنها حائض . فقال : (عَقْرَى حَلَقَى ، ما أراها إلا حابستنا) ، قال أبو
عبيد : هو : «عَقْرًا حَلَقًا» بالتنوين ، والمحدثون يقولون : «عَقْرَى حَلَقَى» ، وأصل
هذا ومعناه : عَقَرَهَا اللهُ وحَلَقَهَا ، أي أصابها بوجع في حلقها ، كما تقول : رأستُه ، وبَطَنْتُهُ .
(راجع اللسان . ومجمع الأمثال والمستقصى في أمثال العرب) .

(١) قيل للكذَّاب : خَرَّاصٌ لأن الخَرَّاصَ في الأصل هو حَزْرٌ ما على النخل من الرطب
تَمْرًا ، أي تقدير ما عليها من البلح ، وهو قائم على الظن والتخمين ، والخَرَّاصون جمع خارص ،
ويقال : خَرَّصَ واختَرَّصَ ، وخلَّقَ واختَلَقَ ، وبَشَكََ وابتَشَكَ ، وسَرَجَ واستَرَجَ ،
ومانَ ، بمعنى : كذَّبَ .

أو نحو هذا ، وقال الخليل وسيبويه : نصبه على البناء لما أضيف إلى غير متمكن ، قال بعض النحاة : وهو في موضع رفع على البدل من ﴿يَوْمَ الَّذِينَ﴾ ، و [يُفْتَنُونَ] معناه : يحرقون ويعذبون في النار ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، والجميع ، ومنه قيل لِلْحَرَّةِ : فَتِينٌ ، كَانَ الشَّمْسُ أَحْرَقَتْ حِجَارَتَهَا ، ومنه قول كعب بن مالك :

مَعَاظِنُ تَهْوِي إِلَيْهَا الْحُقُوبُ قُ يُحْسَبُهَا مَنْ رَأَاهَا الْفَتِينَا (١)

وَفَتَنَتُ الذَّهَبَ : أَحْرَقْتُهُ ، ولما كان لا يُحْرَقُ إِلَّا لمعنى الاختبار قيل لكل اختبار : فِتْنَةٌ ، واستعملوا افْتَنَ بِمعنى اخْتَبَرَ ، و [عَلَى] هنا موصولة إلى معنى «في» ، وفي قوله تعالى : ﴿ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ﴾ إضمار ،

(١) هذا البيت من قصيدة قالها كعب بن مالك في غزوة أحد يفتخر ، وقبل هذا البيت يقول :

وَأَبْقَتْ لَنَا جَلَمَاتُ الْجُرُوبِ مِمَّنْ نُوَازِي لَدُنْ أَنْ بُرِينَا

وجَلَمَاتُ : من الجَلَم وهو القطع ، ونُوَازِي : نُسَاوِي ، و بُرِينَا أصله بُرِينَا بمعنى خَلَقْنَا ، أما المعادن فهي مبارك الإبل على الماء ، والحِقُّ هو من أولاد الإبل الذي بلغ أن يُركب ويُحْمَلُ عليه وَيَضْرِبُ النَّاقَةَ ، وإن كان صاحب اللسان لم ينص على أن (الحقوق) تكون جمعاً له ، والفتين من الأرض : الحرة التي قد ألبستها كلها حجارة سود كأنها مُحْرَقَةٌ ، ويقال للأمة السوداء : مفتونة ؛ لأنها كالحررة في السواد كأنها مُحْرَقَةٌ ، وهذا هو موضع الاستشهاد هنا ، فالشاعر يشبه الجمال الرابضة في معاطنها بالحجارة السوداء التي حرقها الشمس بلهيبها . ومثل هذا البيت قول الكمي :

ظَعَانِ مِنْ بَنِي الْخُلَافِ تَأْوِي إِلَى خُرْسٍ نَوَاطِقَ كَالْفَتِينَا

أَيُّ يُقَالُ لَهُمْ : ذُوقُوا حَرْقَكُمْ وَعَذَابَكُمْ ، قَالَهُ قَتَادَةُ وَغَيْرُهُ ، وَالذُّوقُ اسْتِعَارَةٌ ، وَ [هَذَا] إِشَارَةٌ إِلَى حَرْقِهِمْ ، وَاسْتِعْجَالُهُمْ هُوَ قَوْلُهُمْ : ﴿ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ﴾ وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الَّتِي تَقْتَضِي اسْتِعْجَالَهُمْ عَلَى جِهَةِ التَّكْذِيبِ مِنْهُمْ .

وَمَا ذَكَرَ تَعَالَى حَالَ الْكُفْرَةِ وَمَا يَلْقَوْنَ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَمَبِ ذَلِكَ بِذِكْرِ الْمُتَّقِينَ وَمَا يَلْقَوْنَ مِنَ النِّعَمِ لِيُبَيِّنَ الْفَرْقَ وَيَتَّبِعَ النَّاسُ طَرِيقَ الْهُدَى ، وَ « الْجَنَاتِ » وَ « الْعِيُونَ » مَعْرُوفٌ (١) ، وَالْمُتَّقِي فِي الْآيَةِ مَطْلُوقٌ فِي اتِّقَاءِ الْكُفْرِ وَالْمَعَاصِي ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ آخِذِينَ ﴾ نَصَبٌ عَلَى الْحَالِ ، وَقَرَأَ ابْنُ أَبِي عِبْلَةَ : ﴿ آخِذُونَ ﴾ بِوَاوٍ ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا : الْمَعْنَى : آخِذِينَ فِي دُنْيَاهُمْ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ مِنْ أَوْامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ وَفَرَائِضِهِ وَشَرْعِهِ ، فَالْحَالُ عَلَى هَذَا مُحْكِيَةٌ ، وَهِيَ مُتَقَدِّمَةٌ فِي الزَّمَانِ عَلَى كَوْنِهِمْ فِي جَنَاتٍ وَعِيُونَ ، وَقَالَ جَمَاعَةٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ : مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ ﴾ أَيُّ مُخْلِصِينَ لِنِعْمِ اللَّهِ تَعَالَى الَّتِي أَعْطَاهُمْ مِنْ جَنَّتِهِ وَرِضْوَانِهِ ، وَهَذِهِ حَالٌ مُتَّصِلَةٌ فِي الْمَعْنَى لِكَوْنِهِمْ فِي الْجَنَاتِ ، وَهَذَا التَّأْوِيلُ أَرْجَحُ عِنْدِي لِاسْتِقَامَةِ الْكَلَامِ بِهِ ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ قَبْلَ ذَلِكَ ﴾ يُرِيدُ : فِي الدُّنْيَا ، [مُخْسِنِينَ] بِالطَّاعَةِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ .

(١) هَكَذَا فِي الْأَصُولِ ، وَكَأَنَّهُ يُرِيدُ : أَمْرَهُمَا مَعْرُوفٌ .

قوله عز وجل :

﴿ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾
 وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾
 وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ
 السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ ﴿٢٣﴾ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ
 ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ
 مُّنْكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ بِجَاءٍ يَّعِجِلٍ ﴿٢٦﴾ ﴾

معنى قوله تعالى : ﴿ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾
 أن نومهم كان قليلاً لاشتغالهم بالصلاة والعبادة ، فالمراد :
 من كل ليلة ، و «الهجوع» : النوم ، وقال الأحنف بن قيس :
 «لست من أهل هذه الآية» ، وهذا إنصاف منه ، وقيل لبعض
 التابعين : مدح الله تعالى قوماً كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون ،
 ونحن قليل من الليل ما نقوم ، فقال : رحم الله تعالى امرأ رقد
 إذا نعس ، وأطاع ربه إذا استيقظ . وفسر أنس بن مالك
 هذه الآية بأنهم كانوا يتنفلون بين المغرب والعشاء ، وقال
 الربيع بن خثيم : المعنى : كانوا يصيبون من الليل حظاً ،

وقال مُطَرِّف بن عبد الله : قلَّ ليلة أتت عليهم هجعوها كلها ،
وقال ابن أبي نُجَيْح ومجاهد : فالمراد عند هؤلاء بقوله تعالى :
﴿ مِنْ اللَّيْلِ ﴾ أي من اللَّيالي ، وظاهر الآية عندي أنهم كانوا
يقومون الأكثر من ليلهم ، أي من كلِّ ليلة ، وقد قال الحسن
في تفسير هذه الآية : كابدوا قيام الليل ، لا ينامون منه
إِلَّا قَلِيلًا .

وأما إعرابُ الآية فقال الضحّاك في كتاب الطبري ما يقتضي
أن المعنى : كانوا قليلاً في عددهم ، وتم خبر [كَانَ] ، ثم ابتدأ
﴿ مِنْ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾ ، ف [مَا] نافية ، و [قَلِيلًا] وقف
حسن . وقال بعض النحاة : [مَا] زائدة ، و [قَلِيلًا] مفعول
مقدم ل [يَهْجَعُونَ] ، وقال جمهور النحويين : [مَا] مصدرية ،
و [قَلِيلًا] خبر [كَانَ] ، والمعنى : كانوا قليلاً من الليل هجوعهم ،
و «الهجوع» مرتفع ب [قَلِيلًا] على أنه فاعل ، وعلى هذا الإعراب
يجيء قول الحسن وغيره - وهو الظاهر عندي - أن المراد :
كان هجوعهم من الليل قليلاً ، وفسر ابن عمر والضحّاك
[يَسْتَغْفِرُونَ] ب «يُصَلُّون» ، وقال الحسن : معناه : يدعون
في طلب المغفرة ، والأسحار مظنة الاستغفار ، ويروى أن أبواب

الجنة تفتح فجر كل يوم ، وفي قصة يعقوب عليه السلام في قوله : ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾ (١) أنه آخر الاستغفار لهم إلى السحر ، قال أبو زيد في كتاب الطبري : السحر السدس الأخير من الليل .

قوله تعالى : ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ﴾ ، الصحيح أنها محكمة ، وأن هذا الحق هو على وجه الندب لا على وجه الفرض ، و [مَعْلُومٌ] (٢) يراد به : متعارف ، وكذلك قيام الليل الذي مدح به ليس من الفرائض ، وأكثر ما تقع الفضيلة بفعل المندوبات . وقال منذر بن سعيد : هي الزكاة المفروضة ، وهذا ضعيف لأن السورة مكية وفرض الزكاة بالمدينة ، وقال قوم من المتأولين : كان هذا ثم نسخ بالزكاة ، وهذا غير قوي ، وما شرع الله تعالى وجل بمكة قبل الهجرة شيئاً من أخذ الأموال .

واختلف الناس في [الْمَحْرُومِ] اختلافاً هو عندي تغليب من المتأخرين ؛ إذ المعنى واحد ، وإنما عبر علماء السلف في ذلك

(١) من الآية (٩٨) من سورة (يوسف) .

(٢) لم ترد كلمة [مَعْلُومٌ] في هذه الآية ، ولكنه يشير إلى ما ورد في الآيتين (٢٤ . ٢٥)

من سورة (المعارج) ، فقد قال الله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ . لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ .

العبارات على جهة المثالات فجعلها المتأخرون أقوالاً ، وحصرها مكى في ثمانية ، و « المحروم » هو الذي تبعد عنه إمكانات الرزق بعد قربها منه فينال حرمان وفاقه ، وهو مع ذلك لا يسأل ، فهذا هو الذي له حق في أموال الأغنياء كما للسائل حق ، قال الشعبي : أعياني أن أعلم ما « المحروم » ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : المحروم : المحارب الذي ليس له في الإسلام سهم مال ، فهو ذو الحرفة المحدود ، وقال أبو قلابة : جاء سيل باليمامة فذهب بمال رجل ، فقال رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم : هذا المحروم ، وقال ابن زيد : هو الذي أصيبت ثمرته ، وقال غيره : هو الذي ماتت ماشيته ، وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه : هو الكلب .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وقد يكون الكلب محروماً في بعض الأوقات والحالات ، ألا ترى إلى الذي كان يأكل الثرى من العطش ... الحديث (١) ؛ إلى غير هذا

(١) يشير إلى الحديث المعروف الذي أخرجه البخاري في الشرب والمظالم والأدب ، ومسلم في السلام ، وأبو داود في الجهاد ، ومالك في صفة النبي صلى الله عليه وسلم ، وأحمد في مسنده (٢-٣٧٥) ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (بينما رجل يمشي وهو بطريق إذ اشتد عليه العطش ، فوجد بئراً فنزل فيها فشرب ، ثم خرج فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش . فقال : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل =

من الأقوال التي إنما ذكرت مثلاً ، كأنه يقول : الذي أُصيبت ثمرته من المحرومين ، والمعنى الجامع لهذه الأقوال أنه الذي لا مال له لحرمان أصابه ، وإلاً فالذي تصاب ثمرته وله مالٌ غيرها كثير ليس في هذه الآية بإجماع .

وبعد هذا مقدرٌ من الكلام تقديره : فكونوا مثلهم أيها الناس وعلى طريقهم فإن النظر المؤدي إلى ذلك متجه ، ففي الأرض آيات لمن اعتبر وأيقن ، وهذه إشارة إلى لطائف الحكمة وعجائب الخلق التي في الأرضين والجبال والمعادن والعيون وغير ذلك ، وقرأ قتادة : [آية] على الأفراد .

وقوله تعالى : ﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ ﴾ إحالة على النظر في شخص الإنسان ، فإنه أكثر المخلوقات التي لدينا عبرة لما جعل الله تبارك وتعالى فيه - مع كونه من تراب - من لطائف الحواس ، ومن أمر النفس وحياتها ونطقها ، واتصال هذا الجزء منها بالعقل ، ومن هيئة الأعضاء واستعدادها لتنفع أو تحمل أو تعين ، قال ابن زيد : إنما القلب

= الذي بلغني ، فنزل البئر فملاً خفه ماءً ثم أمسكه بفيه حتى رقي به فسقى الكلب فشكر الله له فغفر له) ، قالوا : يا رسول الله ، وإن لنا في البهائم لأجرًا؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (في كل ذات كبد رطبة أجر) .

مضغّة في جوف ابن آدم جعل الله فيه العقل ، أفيدري أحدٌ ما ذاك العقل ؟ وما صغته ؟ وكيف هو ؟ وقال الرّماني : النفس خاصة الشيء الذي لو بطل كل ما سواها مما ليست مضمّنة به لم تبطل ، وهذا تعمق لا أحمدده . وقوله تعالى : ﴿ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ توقيف وتوبيخ .

قوله تعالى : ﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ ﴾ ، قال الضحاك ، ومجاهد ، وابن جبير : أراد تعالى المطر والثلج ، وقال واصل الأحدب ، ومجاهد : أراد القضاء والقدر ، أي : الرزق عند الله تعالى يأتي به كيف شاء ، لا ربّ غيره ، وقرأ ابن محيصن : ﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِازِقُكُمْ ﴾ . و [تُوَعَدُونَ] يحتمل أن يكون من الوعد ، ويحتمل أن يكون من الوعيد ، والكلُّ في السماء ، قال الضحاك : المراد : من الجنة والنار ، وقال مجاهد : من الخير والشر ، وقال ابن سيرين : المراد الساعة . ثم أقسم تعالى بنفسه على صحة هذا القول والخبر ، وشبّهه في اليقين به بالنطق من الإنسان ، وهو عنده في غاية الوضوح ولا يمكن أن يقع فيه من اللبس ما يقع في الروية والسمع ، بل النطق أشدّ تخلّصاً من هذه . واختلف القراء في قوله تعالى : ﴿ مِثْلَ مَا ﴾ - فقرأ حمزة ، والكسائي ، وعاصم - في رواية أبي بكر - : [مِثْلُ] بالرفع ، ورويت عن الحسن ، وابن أبي إسحق ، والأعمش - بخلاف عنهم - ،

وقرأ نافع ، وأبو عمرو ، وابن كثير ، وابن عامر ، وأبو جعفر ،
وأهل المدينة ، وجلُّ الناس : [مِثْلَ] بالنصب ، فوجه الأُولى
الرفع على النعت لـ [حَقٌّ] ، وجاز نعت النكرة بهذا الذي قد أُضيف
إلى المعرفة من حيث كان [مِثْلَ] شائعاً عاماً لوجوه كثيرة ، فهو
لا تُعرِّفه الإضافة إلى معرفة ؛ لأنك إذا قلت : «رَأَيْتُ مِثْلَ زَيْدٍ»
فلم تُعرِّف شيئاً لأن وجوه المماثلة كثيرة ، فلما بقي الشياخ جرى
عليه حكم النكرة فُنعتت به النكرة ، و [مَا] زائدة تعطي تأكيداً ،
وإضافة [مِثْلُ] هي إلى قوله تعالى : [أَنْكُمْ] . ووجه قراءة النصب
أحد ثلاثة أوجه : إما أن يكون [مِثْلَ] قد بُني لِمَا أُضيف إلى غير
متمكن وهو في موضع رفع على الصفة لـ [حَقٌّ] ، ولحقه البناء لأن
المضاف إليه قد يُكسبُ المضافَ بعض صفاته كالتأنيث
في قوله :

..... شَرَقْتُ صَدْرُ الْقَنَاةِ . . . (١)

(١) هذه الجملة جزء من بيت قاله الأعشى ميمون بن قيس ، ويسمى صنّاجة العرب ،
أدرك الإسلام ولم يسلم ، والبيت من الطويل ، وهو بتمامه :
وَتَشَرَّقُ بِالْقَوْلِ الَّذِي قَدْ أَدْعَتْهُ كَمَا شَرَقْتُ صَدْرُ الْقَنَاةِ مِنَ السَّدَمِ
ومعنى أَدْعَتْهُ : أَفْشَيْتُهُ وَأَعْلَنْتُهُ . والقناة : الرمح ، وشَرَّقَ بريقه إذا غَصَّ وهو من
باب عَلِمَ يَعْلَمُ ، وقد استشهد به المؤلف على أن المضاف إليه قد يُكسب المضاف بعض =

وكالتعريف في «غلام زيد» إلى غير ذلك ، ويجرى [مثل] حينئذ
مجري ﴿عَذَابٍ يَوْمَئِذٍ﴾ (١) على قراءة من فتح الميم ، ومنه قول
الشاعر :

عَلَى حِينَ عَاتَبْتَ الْمَشِيبَ عَلَى الصَّبَا (٢)

= صفاته كالتأنيث ، فالقناة مؤنث ، وصدرٌ مذكّر ، ولكن لما أضيف إلى القناة اكتسب منها
التأنيث ولهذا أنث الفعل «شَرِقَ» فلحقت به ناء التأنيث فقبل : «شَرِقَتْ» ، والقياس أن
يقال : «شَرِقَ صَدْرُ» . ومثل هذا كثير في اللغة .

(١) من قوله تعالى في الآية (١١) من سورة (المعارج) : ﴿يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي
مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِيَتِيهِ﴾ في قراءة نصب الميم ، ومعنى هذا أنها مبنية على الفتح لأنها
مضافة إلى مبني ، قال الخليل في كتاب سيبويه تعليلا لنصب الذي في موضع الرفع : «هذا
كنصب بعضهم «يَوْمِئِذٍ» في كل موضع ، ومثل هذه الآية قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا
نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِن خِزْيِ يَوْمِئِذٍ﴾ .
(٢) هذا صدر بيت للنايفة الديباني ، والبيت بتمامه :

عَلَى حِينَ عَاتَبْتَ الْمَشِيبَ عَلَى الصَّبَا وَقُلْتُ: أَلَمَّا أَصْحُ وَالشَّيْبُ وَأَزْعُ ؟

وهو في الديوان ، وابن الشجري ، والإنصاف ، وشرح شواهد المغني ، وابن يعيش ، والمنصف ،
وخزانة الأدب ، والهمع ، وشرح شواهد العيني . والوازع : الزاجر الناهي ، وقد أسند الوازع
إلى الشيب تجوزاً ، يقول : إنه بكى على الديار في وقت مشيبه ومعاتبته لنفسه على هذا الضرب ،
أي : عاتب نفسي على الصبا لمكان شيبتي . والشاهد في «حين» لأنه بُنِيَ على الفتح لإضافته
إلى فعل بناؤه لازم وهو زمان مبهم ، فهو ظرف ، والمعنى : في وقت عاتبْتُ ، كقوله تعالى :
﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ﴾ أي : في وقت غفلة . قال النحويون : ويجوز
كسره للإعراب ، ولكن المختار والأرجح بناؤه إذا تلاه فعلٌ مبنيٌ للتناسب بينهما ، قال سيبويه : =

ومنه قول الآخر :

لَمْ يَمْنَعِ الشُّرْبَ مِنْهَا غَيْرَ أَنْ هَتَفَتْ (١)

ف «غَيْرَ» فاعلة ولكنه فتحها .

والوجه الثاني - وهو قول المازني - أن [مِثْلَ] بُنِيَ لكونه مع [مَا]

شيئاً واحداً ، ويجيء - على هذا - في مضمارة : « وَيَحْمَا ، وَأَيْنَمَا ، وَابْنَمَا » ،

- « كَأَنَّهُ جَعَلَ (حِينَ) وَ (عَاتِبْتَ) شَيْئاً وَاحِداً » ، ومثله قول الشاعر :

لَأَجْتَدِيَنَّ مِنْهُنَّ قَلْبِي تَحَلُّمًا عَلَيَّ حِينَ يَسْتَصْبِينُ كُلَّ حَلِيمٍ

إلا أن بناء الفعل في البيت الأول لازم ، وفي البيت الثاني عارض .

(١) هذا صدر بيت ، وهو بتمامه :

لَمْ يَمْنَعِ الشُّرْبَ مِنْهَا غَيْرَ أَنْ هَتَفَتْ حَمَامَةً فِي غُصُونِ ذَاتِ أَوْقَالٍ

وهذا البيت مختلف في نسبه - فقيل : هو لأبي قيس بن الأسلت « صيفي بن عامر » ، وقيل :

لقيس بن رفاعه ، وقيل : للشَّمَّاح « معقل بن ضرار » . وليس في ديوانه ، وهو في خزانة

الأدب ، واللسان - وكتاب سيويه ، ومغني اللبيب ، وانظر أيضاً ابن يعيش . والتصريح ،

وابن الشجري ، والهمع . والضمير في « منها » يعود على الوجناء وهي الناقة في بيت قبله ،

وفي البيت قلب ، إذ أصل الكلام : « لم يمنعها من الشُّرْبِ » فقال بعد القلب : « لم يمنع الشرب

منها » ، ويروى « نطقت » بدلا من « هتفت » ، ويروى : « في سَحُوقٍ » بدلا من « غصون » ،

والسَّحُوق : ما طال من شجر الدوم ، والأوقال : جمع وَقْلٍ ، والوقل ثمار شجر الدوم

كما قال في اللسان : والشاهد في البيت هنا أن « غَيْرَ » فاعل ولكنها رويت بفتح الراء ، ومعنى

هذا أنها مبنية على الفتح لأنها مضافة إلى مبني غير متمكن . ومعنى البيت أن هذه الناقة أرادت

الشرب ولكن منعها منه أنها سمعت صوت حمامة في الغصون فنفرت وخافت ، يصفها بأنها

حديدة النفس ، شديدة الحذر ، دائمة الفرع .

ومنه قول حُمَيْدِ بْنِ ثَوْرٍ :

أَلَا هَيْمًا مِمَّا لَقِيتُ وَهَيْمًا
وَوَيْحٌ لِمَنْ لَمْ يَدْرِ مَا هُنَّ وَيَحْمًا (١)

فلولا البناءُ وجب أن يكون منوناً ، وكذلك قول الشاعر :

فَأَكْرِمُ بِنَا خَالًا وَأَكْرِمُ بِنَا ابْنَمَا (٢)

- (١) هذا البيت في اللسان ، و « هَيَّ » كلمة معناها التأسف والأسى ، وقيل : التعجب .
و « ما » في موضع رفع زائدة ، قال ابن بَرِّي : ومنه قول حُمَيْدِ الأَرْقَطِ : أَلَا هَيْمًا ...
البيت . وقال الكسائي : « ومن العرب من يتعجب بِهَيَّ وَفَيَّ وَشَيَّ ، ومنهم من يزيد « ما »
فيقول : يَا هَيْمًا وَيَا فَيْمًا وَيَا شَيْمًا . أي : ما أحسن هذا » . وقيل : بل هو تلهُفٌ ،
و « وَيِيحٌ » كلمة تقال رحمة ، وكذلك « وَيَحْمًا » ، قال الليث : « وَيِيحٌ كلمة رحمة لمن تنزل
به بليَّةٌ ، وربما جعلت مع « ما » كلمة واحدة فقيل : وَيِيحًا ، ومعنى هذا أن [مِثْلَ]
في الآية ركبت مع [مَا] في كلمة واحدة كما جعلت « وَيِيحٌ » مع « ما » في البيت .
(٢) هذا عجز بيت قاله حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ من قصيدة له في الفخر مطلعها :

أَلَمْ تَسْأَلِ الرَّبْعَ الْحَدِيدَ التَّكَاثُمَا
بِمَدْفَعِ أَشْدَاخِ فَبِرُقَّةٍ أَظْلَمَا

والبيت بتمامه :

وَلَدُنَا بَنِي الْعَنْقَاءِ وَابْنِي مُحَرَّقٍ
فَأَكْرِمُ بِنَا خَالًا وَأَكْرِمُ بِنَا ابْنَمَا

وقد ورد الشطر الثاني في الأصول : « فَأَكْرِمُ بِهَا أُمَّمًا وَأَكْرِمُ بِنَا ابْنَمَا » ، والتصويب
عن الديوان واللسان . والعنقاء : ثعلبة بن عمرو مزيقياء بن عامر بن ماء السماء ، ومُحَرَّقٌ
هو الحارث بن عمرو مزيقياء . وكان أول من عاقب بالنار . وقال الكلبي : سمي عمرو بن
هند مُحَرَّقًا لأن سويد بن ربيعة التميمي قتل أخًا له ثم هرب ، فقتل ابن هند سبعة من ولد
سويد . وأقسم ليقتلن مائة من بني تميم . فبلغ ثمانية وتسعين أحرقهم بالنار . وصادف أن =

والوجه الثالث أن ينصب [مَثَل] على الحال من قوله تعالى : [لَحَقَّ] ، وهي حال من نكرة ، وفيه خلاف ، ولكن جَوَز ذلك الجرميُّ ، وأما غيره فيراه حالاً من الذَّكر (١) المرفوع في قوله تعالى : [لَحَقَّ] ؛ لأنَّ التقدير : لَحَقَّ هو ، وفي هذا نظر ، و «النطق» في هذه الآية : الكلام بالحروف والأصوات في ترتيب المعاني ، وروى أن بعض العرب الفصحاء سمع هذه الآية فقال : من أحوج الكريم إلى أن يحلف ؟ والحكاية وقعت في كتاب الثعلبي و «سبل الخيرات» متممة عن الأصمعي ، وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (قاتل الله قوماً أقسم لهم ربهم بنفسه فلم يصدقوه) (٢) ، وروى أبو سعيد الخدري أن النبي عليه

= أقبل رجل من البراجم حين رأى الدخان ساطعاً وهو يحسب الطعام يُعمل - والبراجم جماعة من بني تميم تحالفوا وقالوا : نكون كبراجم اليد ، أي مفاصلها - فلما دنا الرجل من النار قيل له : مِمَّن أنت ؟ قال : من البراجم ، فقال ابن هند : «إنَّ الشَّقِي وأفد البراجم» وألقاه في النار ، فذهب قوله مثلاً ، وتحلل من يمينه بالحمراء بنت ضمرة النهشلية تنمة المائة . أما «ابنمًا» فهي «ابن» زيدت عليها الميم كما زيدت في (شَدَقَم وزُرُقَم وشَجَعَم) لنوع من الحيات ، ويجوز عند إعراب «ابنم» أن تعرب الميم وحدها لأنها صارت آخر الاسم ، وتبقى النون مفتوحة على كل حال ، ومنهم من يُعربه من مكانين ، أي يجعل علامة الإعراب على النون والميم ، وابن عطية يستشهد بالبيت لأن «ابن» بُنِيَتْ مع «ما» فصارتا معاً كلمة واحدة ، وجاءت «ابن» مفتوحة على الرأي الأول الذي ذكرناه في الإعراب .

(١) يعني : من ضمير الذَّكر ، والذَّكر هو القرآن ، إذ تقدير الكلام : إن الذَّكر لَحَقَّ .

(٢) أخرجه ابن جرير ، وابن أبي حاتم عن الحسن رضي الله عنه في قوله تعالى : ﴿ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ الآية . (الدر المنثور) .

الصلاة والسلام قال : (لو فرَّ أحدكم من رزقه لتبعه كما يتبعه الموت) (١) ،
وأحاديث الرزق والأشعار فيه كثيرة .

قوله تعالى : ﴿ هَلْ أَتَاكَ ﴾ تقرير لتجتمع نفس المخاطب ، وهذا
كما تبدأ المرء إذا أردت أن تحدّثه بعجيب فتقرّره : هل سمع ذلك
أم لا ؟ فكأنك تقتضي منه أن يقول : لا ، ويستطعمك الحديث (٢) .
و [ضَيْف] اسم جنس يقع للجميع وللواحد ، وروي أن أضياف
إبراهيم عليه السلام هؤلاء هم جبريل وميكائيل وإسرافيل وأتباع
لهم من الملائكة عليهم السلام ، وجعلهم تعالى مكرمين إمّا لأنهم
عنده كذلك ، وهذا قول الحسن ، وإمّا من حيث أكرمهم إبراهيم
عليه السلام وخدمهم هو وسارة وذبح لهم العجل ، وقيل : من حيث
رفع مجالسهم . و [سَلَامًا] منصوب على المصدر ، كأنهم قالوا : نُسَلِّمُ
سلاماً ، أو سلمت سلاماً (٣) ، ويتجه أن يعمل فيه [قَالُوا] على أن

(١) قال القرطبي بعد أن ذكر هذا الحديث : « أسنده الثعلبي » .

(٢) استَطْعَمَ فلاناً الحديث : طلب منه أن يحدّثه فيديقه طعم حديثه . (المعجم الوسيط) .

وفي قوله تعالى : ﴿ هَلْ أَتَاكَ ﴾ تفخيم لحديث ضيف إبراهيم ، وتنبه على أنه لم يكن
معروفاً للنبي صلى الله عليه وسلم وإنما عرفه بالوحي .

(٣) فهو المصدر السادّ مسدّ الفعل المستغني به .

يجعل [سلاماً] بمنزلة «قولاً» ، ويكون المعنى حينئذ أنهم قالوا تحية وقولاً معناه سلاماً ، وهذا قول مجاهد ، و [سَلَامٌ] مرتفع على خبر ابتداء ، أي أمري سلام ، أو واجب لكم سلام ، أو على الابتداء والخبر محذوف كأنه قال : سلام عليكم ، وإبراهيم عليه السلام قد حياً بأحسن ؛ لأن قولهم دعاءً وقوله واجب فله تحصّل لهم .
 وقرأ ابن وثاب ، والنخعي ، وحمزة ، والكسائي ، وطلحة ، وابن جبير : (قَالَ سَلِمٌ) بكسر السين وسكون اللام ، والمعنى : نحن سلام ، أو أنتم سلام ، وقوله تعالى : (قَوْمٌ مُنْكَرُونَ) معناه : لا نميزهم ولا عهد لنا بهم ، وهذا أيضاً على تقدير : أنتم قوم منكرون ، وقال أبو العالية : أنكر سلامهم في تلك الأرض وذلك الزمن .

و «راغ» معناه : مضى أثناء حديثه مخفياً زواله وانصرف مستعجلاً كأنه لم يرد أن يفارقهم فمضى إلى ناحية من داره مستعجلاً ورجع لحينه ، وهذا تشبيه بالروغان المعروف ؛ لأن الرائغ يوهم أنه لم يزل ، و «العجل» هو الذي حنّده لهم (١) ، وحسبك أنه عليه السلام أوقف للضيافة أوقافاً تمضيها الأمم على اختلاف أديانها وأجناسها .

(١) كما قال الله تعالى في سورة هود : (فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ) .

والحنيد : المشوي . أو الذي يقطر دهنه .

قوله عز وجل :

﴿ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴿٢٨﴾ قَالُوا لَا نَحْفَظُ
وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتْ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ
عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾
* قَالَ فَاخْطَبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ
﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ جِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾
فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ
الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾

المعنى : فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ فَأَمْسَكُوا عَنْهُ فَقَالَ : أَلَا تَأْكُلُونَ ؟ فيروى
في الحديث أَنَّهُمْ قَالُوا لَهُ : إِنَّا لَا نَأْكُلُ إِلَّا مَا أَدَيْتَنَا ثَمَنَهُ ، فَقَالَ
لَهُمْ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ : وَأَنَا لَا أُبِيحُهُ لَكُمْ إِلَّا بِثَمَنِ ، قَالُوا :
وَمَا هُوَ ؟ قَالَ : أَنْ تَسْمُوا اللَّهَ تَعَالَىٰ عِنْدَ الْإِبْتِدَاءِ ، وَتَحْمَدُوهُ عِنْدَ
الْفِرَاقِ مِنَ الْأَكْلِ ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ : بِحَقِّ اتَّخِذَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ
خَلِيلًا ، فَلَمَّا اسْتَمَرُّوا عَلَىٰ تَرْكِ الْأَكْلِ أَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ، وَ «الْوَجَسُ» :
تَحَسُّسُ النَّفْسِ وَخَوَاطِرِهَا فِي الْحَذَرِ ، وَذَلِكَ أَنَّ أَكْلَ الضَّيْفِ أَمَنَةٌ

ودليل على انبساط نفسه ، والطعام حُرْمَةٌ وذمامٌ ، والامتناع عن ذلك وحشة ، فخشي إبراهيم عليه السلام أن امتناعهم من أكل طعامه إنما هو لشراً يريدونه ، فقالوا له : لا تخف ، وعرفوه أنهم ملائكة ، وبشروه وبشروا سارة معه بسلام عليم ، أي عالم في حال تكليفه وتحصيله ، أي سيكون عليمًا ، و «عليم» بناءً مبالغة . وجمهور الناس على أن الغلام هنا هو إسحق بن سارة عليه السلام الذي ذكرت البشارة به في غير موضع ، وقال مجاهد : هذا الغلام هو إسماعيل عليه السلام ، والأول أرجح ، وهذا وهمٌ ، ويروى أنه عرف كونهم ملائكة استدلالاً من بشارتهم إياه بالغيب .

وقوله تعالى : ﴿ فَأَقْبَلَتْ أَمْرَاتُهُ ﴾ يحتمل أن يكون : قَرَّبَتْ إِلَيْهِمْ من ناحية من نواحي المنزل ، ويحتمل أن يكون هذا الإقبال كما تقول : أقبل فلان يشتمني أو يفعل كذا إذا جدَّ في ذلك وتلبَّس به ، و «الصَّرة» : الصَّيْحَةُ ، كذا فسره ابن عباس ، ومجاهد ، وسفيان ، والضحاك ، والمضطر الذي يصيح ، وقال قتادة : معناه : في رنة ، وقال الطبري : قال بعضهم : قالت : أَوْه (١) ، بصياح وتعجب ، وقال النحاس : وقيل : ﴿ فِي صَرَّةٍ ﴾ : في جماعة نسوة يتبادرن نظراً إلى الملائكة . وقوله تعالى : ﴿ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا ﴾ معناه : ضربت وجهها ،

(١) مقصورة الألف ، كما قال الطبري .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : لطمت ، وهذا مما يفعله الذي يرِدُّ عليه أمر يستهوله ، وقال سفيان ، والسدي ، ومجاهد : ضربت بكفّيها وجهها ، وهذا مستعمل في الناس حتى الآن ، وقولها : ﴿عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ إما أن يكون تقديره : إني عجوز عقيم فكيف ألدُّ؟ وإما أن يكون التقدير : عجوزٌ عقيمٌ يكون منها ولادة ؟ وقدّره الطبري : أتلد عجوز عقيم ، ويروى أنها كانت لم تلد قط ، و «العقيم» من النساء التي لا تلد ، ومن الرياح التي لا تلقح شجراً فهي لا بركة فيها . وقولهم : ﴿كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ﴾ أي كقولنا الذي أخبرناك به قال ربك أن يكون ، و «الحكيم» ذو الحكمة ، و «العليم» معناه : بالمصالح وغير ذلك من المعلومات .

ثم قال إبراهيم عليه السلام للملائكة : ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ﴾ ، والخطبُ : الأمر المُبهم ، وقيل : إنما يُعبّر به عن الشدائد والمكاره غالباً حتى قالوا : «خطوب الزّمان» وغير ذلك ، وكأنه يقول : ما هذه الطّامة التي جئتم لها ؟ فأخبروه حينئذ أنهم أرسلوا إلى سدوم قرية لوط عليه السلام بإهلاك أهلها الكفرة العاصين المجرمين ، و «المجرم» : فاعل الجرائم وهي صفات المعاصي من كفر ونحوه ، واحداثها جريمة . وقولهم ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ﴾ أي : لنهلكهم بهذه الحجارة ،

ومتى اتصلت «أرسل» بـ «علَى» فهي في معنى المبالغة في المباشرة والعذاب ،
ومتى اتصلت بـ «إلى» فهي أخف ، وانظر ذلك تجده مطرداً ، وقوله
تعالى : ﴿حِجَارَةً مِنْ طِينٍ﴾ بيان تخرج به عن معتاد حجارة البرد
التي هي من ماء ، ويُروى أنه طين طُبِخ في نار جهنم حتى صار حجارة
كالآجر ، و [مُسُومَةٌ] نعت لـ [حِجَارَةً] ، وقيل : معناه : متروكة .
وسومها من الإهلاك والإصابة ، وقيل : معناه : معلّمة بعلامتها من السماء ،
والسُومى (١) : العلامة ، أي أنها ليست من حجارة الدنيا ، وقال
الزهرائي والرّماني : قيل : معناه على كل حجر اسم المضروب به ،
قال الرّماني : وقيل : كان عليها أمثال الخواتيم ، وقال ابن عباس
رضي الله عنهما : تسويمها أن كان في الحجارة السود نقط بيض ،
وفي البيض سود ، ويحتمل أن يكون المعنى أنها بجملتها معلومة عند
ربك لهذا المعنى معلمة له ، لا أن كل واحد منها له علامة خاصة به .
و «المُسرف» : الذي يتعدى الطور ، فإذا جاء مطلقاً فهو لأبعد غايات
الكفر فما دونه .

(١) جاء في اللسان : «السُّومَةُ والسَّيْمَةُ والسَّيْمَاءُ والسَّيْمِيَاءُ : العلامة» . ثم جاء :
«والأصل في سَيْمًا وسَمَى ، فحولت الواو من موضع الفاء فوضعت في موضع العين ،
كما قالوا : ما أطيبه وأطيبه ، فصار سِوْمَى ، وجعلت الواو ياءً لسكونها وانكسار ما قبلها» .

ثم أخبر الله تعالى أنه أخرج بأمره من كان في قرية قوم لوط من المؤمنين منجياً لهم ، وأعاد الضمير على القرية ولم يصرح لها قبل ذلك بذكر لشهرة أمرها ، ولأن القوم المجرمين معلوم أنهم في قرية ولا بد ، قال المفسرون : ولا فرق بين تقدم ذكر المؤمنين وتأخره ، وإنما هما وصفان ، ذكرهم (١) أولاً بأحدهما ثم آخرأ بالثاني ، قال الرماني : الآية دالة على أن الإيمان هو الإسلام .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ويظهر أن في المعنى زيادة تحسن التقديم للإيمان ، وذلك أنه ذكره مع الإخراج من القرية كأنه تعالى يقول : لقد أمرنا بإخراج كل مؤمن ، ولا يشترط فيه أن يكون عاملاً بالطاعات بل التصديق بالله تعالى فقط ، ثم لما ذكر حال الموجودين ذكرهم بالصفة التي كانوا عليها وهي الكاملة التصديق والأعمال . والبيت من المسلمين هو بيت لوط عليه السلام وكان هو وابنتاه ، وقيل : وبنته ، وفي كتاب الثعلبي : وقيل : لوط وأهل بيته ثلاثة عشر ، وهلكت امرأته فيمن هلك . وهذه القصة بجملتها ذكرت على جهة المثال لقريش ، أي أنهم إذا كفروا أصابهم مثل ما أصاب هؤلاء المذكورين .

(١) الضمير في « ذكرهم » يعود على الموصوفين بالإيمان وبالإسلام .

قوله عز وجل :

﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾ وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سِحْرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٤٤﴾﴾

المعنى : وتركنا في القرية المذكورة - وهي سدوم - أثراً من العذاب باقياً مؤرخاً لا يفنى ذكره ، فهو آية - أي علامة - على قدرة الله تبارك وتعالى وانتقامه من الكفرة ، ويحتمل أن يكون المعنى : وتركنا في أمرها ، كما قال : ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلِّسَّائِلِينَ﴾ (١) ، وقال ابن جريج : ترك فيها حجراً منضوداً كبيراً جداً ، و «الَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ» هم العارفون بالله تعالى .
وقوله تعالى : ﴿وَفِي مُوسَى﴾ يحتمل أن يكون عطفاً على قوله تعالى : [فيها] ، أي : وتركنا في موسى وقصته أثراً أيضاً هو آية ،

(١) الآية (٧) من سورة (يوسف) .

ويحتمل أن يكون عطفاً على قوله تعالى قبل : ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ، وفرعون هو صاحب مصر ، و «السُّلْطَانُ» في هذه الآية : الحجة ، و«تَوَلَّى» معناه أَعْرَضَ وأدبر عن أمر الله تعالى ، و «رُكْنُهُ» : سلطانه وجنده وشدة أمره ، وهو الأمر الذي يركن فرعون إليه ويستند في شدائده ، وقال ابن زيد : [بِرُكْنِهِ] : بجموعه ، وقال قتادة : بقومه ، وقَوْلُ فرعون في موسى عليه السلام : «سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ» هو تقسيم ظنَّ أن موسى عليه السلام لا بُدَّ أن يكون أحد هذين ، وقال أبو عبيدة : [أَوْ] هنا بمعنى «الواو» ، واستشهد ببيت جرير :

أثْعَلِبَةَ الْفَوَارِسِ أَوْ رِيَاحًا عَدَلْتَ بِهِمْ طُهْيَةَ وَالْخِشَابَا؟ (١)

والخشاب : بيوت في بني تميم ، وقولُ أبي عبيدة ضعيف لا داعية إليه في هذا الموضع ، و [نَبَذْنَاهُمْ] معناه : طرحناهم ، و «الْيَمُّ» : البحر ، وفي مصحف ابن مسعود : «فنبذناه» ، و «المُليِّمُ» : الذي

(١) قال جرير هذا البيت من قصيدة يهجو بها الراعي النميري ، والبيت في اللسان أيضاً ، وطُهْيَةَ على وزن سُمِّيَّة : حيٌّ من تميم نُسبوا إلى أمّهم ، والخِشَاب : بنو رازم بن مالك ، وربيعة وكعب بن مالك ، وحنظلة ، وهم بطون من تميم أيضاً . قال أبو عبيدة : [أَوْ] ها هنا في موضع الواو التي للمؤالاة - أي للعطف - لأنه قد قالهما جميعاً له . ولكن ابن عطية لا يوافق أبا عبيدة على رأيه هذا لأن فرعون قالهما فعلا لموسى عليه السلام ولكنه أراد بهما الإبهام على السامع . قال ذلك أبو حيان الأندلسي في البحر .

أتى من المعاصي ونحوها ما يُلامُّ عليه ، وقال أمية بن أبي الصلت :

وَمَنْ يَخْذُلُ أَخَاهُ فَقَدْ أَلَامَا (١)

وقوله تعالى : ﴿ وَفِي عَادٍ ﴾ عطف على قوله عز وجل : ﴿ وَفِي مُوسَى ﴾ .

و عَادُ هي قبيلة هود النبي صلى الله عليه وسلم ، و «العقيم» معناه :

التي لا بركة فيها ، لا تلتح شجراً ولا تسوق مطراً ، وقال سعيد بن

المسيب : كانت ريح الجنوب ، وروي عن علي رضي الله عنه : كانت

نكباء (٢) ، وهذا عندي لا يصح عن علي رضي الله عنه لأنه يرادُّ

قول النبي صلى الله عليه وسلم : (نُصِرْتُ بِالصَّبَا ، وَأُهْلِكْتُ عَادُ

بالدبور) (٣) ، و [تَذُرُ] معناه : تَدَعُ ، وقوله تعالى : ﴿ مَنْ شَاءَ ﴾

(١) هذا عجز بيت ، وهو بتمامه :

تَعُدُّ مَعَاذِرًا لَا عُدْرَ فِيهَا وَمَنْ يَخْذُلُ أَخَاهُ فَقَدْ أَلَامَا

ولم أجده في ديوان أمية ، ولكن وجدته في لسان العرب منسوباً إلى أمِّ عُمَيْرِ بنِ سَلَمَى الخنفي تخاطب ولدها عُمَيْرًا لأنه كان قد أسلم أخاه لرجل كلابي له عليه دمٌ فقتله ، فعاتبته أمه في ذلك وقالت هذا البيت ، قال ابن برِّي : وعُدْرُه الذي اعتذر به أن الكلابي التجأ إلى قبر سلمى والد عُمَيْرِ ، فقال لها عُمَيْرُ :

فَتَلْنَا أَخَانًا لِلْوَفَاءِ بِيَجَارِنَا وَكَانَ أَبُونَا قَدْ تُجِيرُ مَقَابِرُهُ

(٢) الريح النكباء : ريح انحرقت ووقعت بين ريحين كالصبا والشمال ، والجمع «نكب» .

(٣) أخرجه البخاري في الاستسقاء والمغازي وبدء الخلق والأنبياء ، ومسلم في الاستسقاء ،

وأحمد في مسنده (١-٢٢٣ ، ٣٢٤ ، ٣٥٥) عن ابن عباس رضي الله عنهما . ومعنى قول

المؤلف قبل هذا الحديث : « لأنه يرادُّ قول النبي صلى الله عليه وسلم » أنه يعارضه ويختلف عنه .

أَتَتْ عَلَيْهِ) يعني مِمَّا أَدْنَى اللهُ تَعَالَى لَهَا فِي إِهْلَاكِهِ ، وَ «الرَّمِيمِ» :
 الْفَانِي الْمَتَقَطَّعُ بَيْسًا أَوْ قَدَمًا مِنَ الْأَشْجَارِ وَالْوَرَقِ أَوْ الْحَبَالِ أَوْ الْعِظَامِ .
 وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ (١) ، أَيْ فِي
 قَوَامِ الرَّمَادِ ، وَرُوي حَدِيثٌ : (إِنَّ تِلْكَ الرِّيحَ كَانَتْ تَهْبُ عَلَى النَّاسِ
 فِيهِمُ الْعَادِيُّ وَغَيْرُهُ ، فَتَنْزَعُ الْعَادِيَّ مِنْ بَيْنِ النَّاسِ وَتَذْهَبُ بِهِ) (٢).

وقوله تعالى : ﴿وَفِي ثُمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ﴾
 يَحْتَمَلُ أَنْ يَرَادَ : قِيلَ لَهُمْ فِي أَوَّلِ بَعْثِ صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ : آمَنُوا
 وَأَطِيعُوا فَتَمَتَّعُوا مَتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ آجَالِكُمْ ، وَهُوَ «الْحِينُ» عَلَىٰ هَذَا ،
 وَهُوَ قَوْلُ الْحَسَنِ حَكَاهُ عَنْهُ الرَّمَّانِيُّ ، وَيُجِيءُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿فَعَتَّوْا﴾
 مُرْتَبًا لَفْظًا فِي الْآيَةِ وَمَعْنَى فِي الْوُجُودِ مَتَأَخَّرًا عَنِ الْقَوْلِ لَهُمْ : ﴿تَمَتَّعُوا﴾ ،
 وَيَحْتَمَلُ أَنْ يَرِيدَ : إِذْ قِيلَ لَهُمْ بَعْدَ عَقْرِ النَّاقَةِ : ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ
 ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ (٣) ، وَهِيَ «الْحِينُ» عَلَىٰ هَذَا التَّأْوِيلِ ، وَهُوَ قَوْلُ الْفَرَاءِ ،

(١) مِنَ الْآيَةِ (٧٨) مِنْ سُورَةِ (يَسْنَ) .

(٢) أَخْرَجَ ابْنُ عَسَاكِرٍ عَنْ وَهْبٍ قَالَ : لَمَّا أُرْسِلَ اللهُ الرِّيحَ عَلَىٰ عَادٍ اعْتَزَلَ هُودٌ وَمِنْ
 مَعَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي حَظِيرَةٍ ، مَا يَصِيبُهُمْ مِنَ الرِّيحِ إِلَّا مَا تَلِينُ عَلَيْهِ الْجُلُودُ وَتَلْذَهُ الْأَنْفُسُ ،
 وَإِنَّمَا لَتَمَرُّ بِالْعَادِيِّ فَتَحْمَلُهُ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَتَدْمِغُهُ بِالْحِجَارَةِ - ذَكَرَ ذَلِكَ الْإِمَامُ السِّيُوطِيُّ
 فِي (الدَّرِّ الْمَشُورِ) ، وَالْعَادِيُّ : نَسَبَةٌ إِلَىٰ عَادٍ .

(٣) مِنَ الْآيَةِ (٦٥) مِنْ سُورَةِ (هُودٍ) .

ويجيء قوله تعالى : [فَعَتُّوْا] غير مُرْتَب المعنى في وجوده ، لأن عتوهم كان قبل أن يقال لهم : [تَمَتَّعُوا] ، وكأن المعنى : فكان من أمرهم قبل هذه المقالة أن عَتَوْا ، وهو السبب في أن قيل لهم ذلك وعُذِّبُوا .
وقرأ جمهور القراء : [أَلصَّاعِقَةُ] ، وقرأ الكسائي - وهي قراءة عُمَر وعثمان رضي الله عنهما - : [أَلصَّعِقَةُ] ، وهي - على القراءتين - الصيحةُ العظيمة ، ومنه يقال للوعدة الشديدة من الرعد : صاعقة ، وهي التي تكون معها النار التي يُروى في الحديث أنها من المخراق الذي بيد ملك يسوق السحاب (١) . وقوله تعالى : ﴿وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ يحتمل أن يريد : فجأة وهم يُبصرون بعيونهم حالهم ، وهذا قول الطبري ، ويحتمل أن يريد : وهم ينتظرون ذلك في تلك الأيام الثلاثة التي أعلموا به فيها ورأوا علاماته في تَلَوْنِهِمْ ، وهذا قول مجاهد حسب ما تقدّم تفسيره ، وانتظارهم للعذاب هو أشد من العذاب .

(١) حديث الملك الذي يسوق السحاب أخرجه الترمذي في تفسير سورة الرعد ، وأخرجه أحمد في مسنده (٦-٢٧٤) ، وهو حديث طويل رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وفيه أن اليهود أقبلوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فسألوه عن خمسة أشياء ، وقالوا : إن أنباتنا بهن عرفنا أنك نبي ، وكان آخر سؤال هو : أخبرنا ما هذا الرعد ؟ قال : (ملك من ملائكة الله عز وجل موكَّل بالسحاب ، بيده أو في يده مِخْرَاق من نار يزجر به السحاب يسوقه حيث أمر الله) . قالوا : فما هذا الصوت الذي يُسمع ؟ قال : (صوته) ، قالوا : صدقت . الخ الحديث . والمِخْرَاق : السيف .

قوله عز وجل :

﴿ فَاَسْتَطَعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّنْ قَبْلُ
 إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٤٦﴾ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾
 وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمُهَيَّدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ
 تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوْا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا
 ءَاخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾ كَذَلِكَ مَا آتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا
 قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ ﴾

قال بعض المفسرين : ﴿ مِنْ قِيَامٍ ﴾ معناه : ما استطاعوا أن يقوموا
 من مصارعهم ، وقال قتادة وغيره : معناه : من قيامٍ بالأمر ودفعه ،
 كما تقول : فلان له بكذا وكذا قيام ، أي : استصلاح وانتهاض ،
 وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وابن عامر ، وعاصم : ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ ﴾
 بالنصب ، وهو عطف إما على الضمير في قوله تعالى : [فَأَخَذْتَهُمْ] ،
 إذ هو بمنزلة « أهلكتناهم » ، وإما على الضمير في قوله تعالى : [فَنَبَذْنَاهُمْ] ،
 وقرأ أبو عمرو - فيما روى عنه عبد الوارث - : ﴿ وَقَوْمُ نُوحٍ ﴾
 بالرفع ، وذلك على الابتداء والخبر ، وقرأ أبو عمرو ، وحمزة ،
 والكسائي : ﴿ وَقَوْمِ نُوحٍ ﴾ بالخفض عطفاً على ما تقدم من قوله
 تعالى : ﴿ وَفِي ثَمُودَ ﴾ ، وقد روي النصب عن أبي عمرو .

وقوله تعالى : [وَالسَّمَاءَ] نصب بإضمار فعل تقديره : وبيننا السماء بنيناها ، و «الأيد» : القُوَّة ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، ووقعت في المصحف ببياءَيْن ، وذلك على تخفيف الهمز ، وفي هذا نظر . وقوله تعالى : [لَمُوسِعُونَ] يحتمل أن يريد : إنا نوسع الأشياء قوة وقدرة ، كما قال تعالى : ﴿ وَعَلَى الْمَوْسَىٰ قَدْرُهُ ﴾ (١) ، أي الذي يوسع أهله إنفاقاً ، ويحتمل أن يريد : لموسعون في بناء السماء ، أي جعلناها واسعة ، وهذا تأويل ابن زيد ، وقال الحسن : أوسع الرزق بمطر السماء ، و «الماهد» : المهْيُ المَوْطِيُّ للموضع الذي يتمهد ويفترش .

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾ أي مُصْطَحِبِينَ مُتَلَازِمَيْن ، وقال مجاهد : معناه أن هذه إشارة إلى المتضادات والمتقابلات من الأشياء كالليل والنهار ، والشقوة والسعادة ، والهدى والضلال ، والسماء والأرض ، والسواد والبياض ، والصحة والمرض ، والكفر والإيمان ، ونحو هذا ، ورجحه الطبري بأنه أدل على القدرة التي توجد الضدين بخلاف ما يفعل بطبعه فعلاً واحداً كالتسخين والتبريد ، وقال ابن زيد وغيره : هي إشارة إلى الأُنثى والذكر من كل حيوان ،

(١) من الآية (٢٣٦) من سورة (البقرة) .

والترجيّ الذي في قوله تعالى : [لَعَلَّكُمْ] هو بحسب خلق البشر وعرفهم ،
 وقرأ الجمهور : [تَذَكَّرُونَ] بتشديد الذال والإدغام ، وقرأ أبي بن
 كعب : [تَتَذَكَّرُونَ] بتاءين وخفة الذال .

وقوله تعالى : ﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ ﴾ أمرٌ بالدخول في الإيمان وطاعة
 الله تعالى ، وجعل الأمر بذلك بلفظ الفرار لينبه على أن وراء الناس
 عقاباً وعذاباً وأمرأً حقّه أن يُفَرَّ منه ، فجمعت لفظة «فِرُّوا» بين
 التحذير والاستدعاء ، وينظر إلى هذا المعنى قول النبي صلى الله عليه
 وسلم : (لا ملجأ ولا منجى منك إلّا إليك...) الحديث (١) . قال الحسين
 ابن الفضل : من فرّ إلى غير الله تعالى لم يمتنع من الله عزّ وجلّ .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ﴾ نهى عن عبادة
 الأصنام والشياطين وكل مدعوٍّ من دون الله تعالى ، وفائدة تكرار
 قوله تعالى : ﴿ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ الإبلاغ وهز النفس وتحكيم
 التحذير ، وإعادة الألفاظ بعينها في هذه المعاني بليغة بقرينة
 شدة الصوت .

(١) أخرجه البخاري في الرضوء والدعوات والتوحيد ، ومسلم في الذّكر ، وأبو داود
 في الأدب ، والترمذي وابن ماجه في الدعاء ، والدارمي في الاستئذان ، وأحمد في مسنده
 (٤-٢٨٥ ، ٢٩٠ ، ٢٩٢) . وهو عن البراء بن عازب ، ولفظه أن رسول الله صلى الله عليه
 وسلم أمر رجلاً من الأنصار أن يقول إذا أخذ مضجعه : (اللّهم أسلمت نفسي إليك ، ووجهت
 وجهي إليك ، وفوضت أمري إليك ، وألجأت ظهري إليك . رغبة ورهبة إليك ، لا ملجأ
 ولا منجى منك إلّا إليك ، آمنت بكتابك الذي أنزلت ، وبنيك الذي أرسلت) . فإن مات
 مات على الفطرة .

وقوله تعالى : [كَذَلِكَ] تقديره : سيرة الأمم كذلك ، أو الأمر في القديم كذلك ، وقوله تعالى : ﴿ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ معناه : إِلَّا قَالَ بَعْضُ هَذَا وَبَعْضُ هَذَا وَبَعْضُ الْجَمِيعِ ، ألا ترى أن قوم لوط عليه السلام لم يقولوا قط : هو ساحر ، وإنما قالوا : به جنّة ، فلما اختلفت الفرق جعل الخبر عن ذلك بإدخال [أَوْ] بين الصيغتين ، وليس المعنى أن كل أمة قالت عن نبيّها : إنه ساحر أو مجنون ، فليست هذه كالمقدمة في فرعون ، بل هذه كأنه تعالى قال : إِلَّا قَالُوا : هو ساحر ، أو قالوا : هو مجنون .

قوله عزّ وجلّ :

﴿ اتَّوَصَّوْا بِهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَآغُوتٌ ۝٥٦﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ
 ۝٥٧﴿ وَذَكَرْ فَإِنَّ الدِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ۝٥٨﴾ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ
 إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٩﴿ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطِيعُونِ ۝٦٠﴾
 إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ۝٦١﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِثْلَ ذُنُوبِ
 أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ ۝٦٢﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي
 يُوعَدُونَ ۝٦٣﴾ ﴿

قوله تعالى : ﴿ اتَّوَصَّوْا بِهِ ﴾ توقيف وتعجيب من توارد نفوس الكفرة في تكذيب الأنبياء صلوات الله تعالى وسلامه عليهم على تفرّق

أزمانهم ، أي : إنهم لم يتواصوا لكنهم فعلوا فعلاً كأنه فعل من
تَوَاصَى ، والعلّة في ذلك أن جميعهم طاغ ، والطاغي : المستعلي في
الأرض المفسد العاتي على الله .

قوله تعالى : ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ أي عن الحرص المفرط عليهم وذهاب
اليقين حسرات ، ويحتمل أن يراد : فتولّى عن التعب المفرط في
دعائهم وضمهم إلى الإسلام ، فلست بمسيطر عليهم ولست بملوم
إذ بَلَغْتَ ، فَنَحَّ نَفْسَكَ عَنِ الْحُزَنِ عَلَيْهِمْ وَذَكَرَ فَقَطْ فَإِنَّ الذِّكْرَ
نافعة للمؤمنين ولمن قُضِيَ لَهُ أَنْ يَكُونَ مِنْهُمْ فِي ثَانِي حَالٍ ، وعلى هذا
التأويل فلا نَسَخَ فِي الآيَةِ إِلَّا فِي مَعْنَى الْمَوَادِعَةِ الَّتِي فِيهَا ؛ فَإِنَّ آيَةَ
السيف نسخت جميع الموادعات ، وروى قتادة - وذكره الطبري -
عن علي رضي الله تعالى عنه أَنَّهُ لَمَّا نَزَلَتْ : ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ
بِمَلُومٍ ﴾ حَزَنَ الْمُسْلِمُونَ وَظَنُوا أَنَّهُ أَمْرٌ بِالتَّوَلَّى عَنِ الْجَمِيعِ وَأَنَّ الْوَحْيَ
قَدْ انْقَطَعَ ، حَتَّى نَزَلَتْ ﴿ وَذَكَرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾
فَسُرُّوا بِذَلِكَ .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ ، اختلف
الناسُ في معناه مع إجماع أهل السُّنَّةِ عَلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يُرِدْ أَنْ تَقَعَ
العبادة من الجميع ؛ لِأَنَّهُ تَعَالَى لَوْ أَرَادَ ذَلِكَ لَمْ يَصِحَّ أَنْ يَقَعَ الْأَمْرُ

بخلاف إرادته - فقال علي بن أبي طالب ، وابن عباس رضي الله عنهم : المعنى : ما خلقت الجن والإنس إلا لأمرهم بعبادتي وليتقروا لي بالعبودية ، فعبر عن ذلك بقوله تعالى : [لِيَعْبُدُونِ] ؛ إذ العبادة هي مضمن الأمر ، وقال زيد بن أسلم ، وسفيان : المعنى خاص ، والمراد وما خلقت الطائعين من الجن والإنس إلا لعبادتي ، ويؤيد هذا التأويل أن ابن عباس رضي الله عنهما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قرأ : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ ، وقال ابن عباس أيضاً : معنى [لِيَعْبُدُونِ] : ليتذللوا لي ولقدرتي وإن لم يكن ذلك على قوانين الشرع ، وعلى هذا التأويل فجميع الجن والإنس عابد متذلل ، والكفار كذلك ، ألا تراهم عند القحوط والأمراض وغير ذلك ؟ وتحتمل الآية أن يكون المعنى : وما خلقت الجن والإنس إلا مُعَدِّينَ ليعبدوني ، وكأن الآية تعيد نعمة ، أي : خلقت لهم حواساً وعقولاً وأجساماً منقاداً لحق العبادة ، وهذا كما تقول : البقر مخلوق للحرث ، والخيول للحرب ، وقد يكون منها ما لا يحرث وما لا يُحارب به أصلاً ، فالمعنى أن الإعداد في خلق هؤلاء إنما هو للعبادة ، لكن بعضهم تكسب صرف نفسه عن ذلك ، ويؤيد هذا المنزع قول النبي صلى الله عليه وسلم : (اعملوا

فَكُلُّ مَيْسَرٍ لِّمَا خُلِقَ لَهُ (١) ، وقوله : (كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ) (٢) ... الحديث .

وقوله تعالى : ﴿مِنْ رِزْقٍ﴾ أي أن يرزقوا أنفسهم ولا غيرهم ،
 وقوله تعالى : ﴿أَنْ يُطْعَمُونَ﴾ إما أن يكون المعنى : أن يطعموا خلقي ،
 فأُضيف إلى الضمير على جهة التَّجَوُّز ، وهذا قول ابن عباس رضي الله
 عنهما ، وإما أن يكون الإطعام هنا بمعنى النفع على العموم ، كما تقول :
 أعطيت فلاناً كذا وكذا طُعْمَةً ، وأنت قد أعطيته عرضاً أو بلداً
 يجيبه ، ونحو هذا ، فكأنه تعالى قال : «ولا أريد أن ينفعون» ،
 فذكر جزءاً من المنافع وجعله دالاً على الجميع . وقرأ الجميع : ﴿إِنَّ اللَّهَ
 هُوَ الرَّزَّاقُ﴾ ، وروى أبو إسحق السبيعي ، عن عبد الله بن زيد ،
 قال أبو عمرو الداني : عن ابن مسعود قال : أقرأني رسول الله صلى الله
 عليه وسلم : ﴿إِنِّي أَنَا الرَّزَّاقُ﴾ ، وقرأ جمهور القراء : [الْمَتِينُ]

(١) أخرجه الطبراني في الكبير عن ابن عباس ، وعن عمران بن حصين رضي الله عنهما ،
 ورمز له الإمام السيوطي في (الجامع الصغير) بأنه صحيح .

(٢) أخرجه أبو يعلى في مسنده . والطبراني في الكبير ، والبيهقي في السنن ، عن الأسود
 ابن سريع ، ولفظه كما ذكره الإمام السيوطي في (الجامع الصغير) : (كل مولود يولد على
 الفطرة حتى يعرب عنه لسانه ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه) ، وقد رمز له
 السيوطي بأنه حديث صحيح .

بالرفع ، إِمَّا عَلَى أَنَّهُ خَبِرَ بَعْدَ خَبْرٍ ، أَوْ صِفَةً لِـ [الرَّزَاقُ] ، وَقَرَأَ
يَحْيَى بْنُ وَثَّابٍ ، وَالْأَعْمَشُ : [الْمَتِينِ] بِالْخَفْضِ عَلَى النِّعْتِ لِـ [الْقُوَّةِ] ،
وَجَازَ ذَلِكَ مِنْ حَيْثُ تَأْنِيثُ [الْقُوَّةِ] غَيْرَ حَقِيقِي ، فَكَأَنَّهُ قَالَ :
ذُو الْأَيْدِ وَالْحَبْلِ (١) ، وَنَحْوَهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ ﴾ (٢) ،
وَجَوَّزَ أَبُو الْفَتْحِ أَنَّ يَكُونُ خَفْضُ [الْمَتِينِ] عَلَى الْجَوَارِ ، وَ «الْمَتِينُ» :
الشَّدِيدُ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ ، يَرِيدُ تَعَالَى أَهْلَ مَكَّةَ ، وَهَذِهِ
آيَةٌ وَعِيدٌ صَرَّاحٌ ، وَقَرَأَ الْأَعْمَشُ : « فَإِنَّ لِلَّذِينَ كَفَرُوا » ، وَ «الذُّنُوبُ» :
الْحِطُّ وَالنَّصِيبُ ، وَأَصْلُهُ مِنَ الدَّلْوِ ، وَذَلِكَ أَنَّ الذُّنُوبَ هُوَ مِلْءُ الدَّلْوِ
مِنَ الْمَاءِ ، وَقِيلَ : الذُّنُوبُ : الدَّلْوُ الْعَظِيمَةُ ، وَمِنْهُ قَوْلُ الشَّاعِرِ :

إِنَّا إِذَا نَازَلْنَا غَرِيبُ
لَهُ ذُنُوبٌ وَلَنَا ذُنُوبُ
فَإِنَّ أَبِيئْتُمْ فَلَنَا الْقَلِيبُ (٣)

(١) هَذَا رَأَى أَبِي الْفَتْحِ ابْنَ جَنِي : يَقُولُ : ذَكَرَهُ عَلَى مَعْنَى الْحَبْلِ ، يَرِيدُ : قُوَى
الْحَبْلِ ، لِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ : ﴿ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا ﴾ .
(٢) مِنَ الْآيَةِ (٢٧٥) مِنْ سُورَةِ (البقرة) ، وَقَدْ سَقَطَتْ تَاءُ التَّأْنِيثِ فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ :
(جَاءَهُ) لِأَنَّ تَأْنِيثَ «الموعظة» غَيْرَ حَقِيقِي .

(٣) اسْتَشْهَدَ الْفَرَاءَ فِي (معاني القرآن) بِالْبَيْتَيْنِ الثَّانِي وَالثَّلَاثِ ، قَالَ : «وَالذُّنُوبُ فِي=

وهو السَّجَلُ (١) ، ومنه قول علقمة بن عبيدة :

وَفِي كُلِّ يَوْمٍ قَدْ خَبَطْتَ بِنِعْمَةٍ فَحَقَّ لِشَأْسٍ مِنْ نَدَاكَ ذُنُوبٌ (٢)

= كلام العرب : الدَّلُو العظيمة ، ولكن العرب تذهب بها إلى الخطِّ والنصيب ، وبذلك أتى التفسير : فإن للذين ظلموا خطاً من العذاب ، كما نزل بالذين من قبلهم ، وقال الشاعر :

لَنَا ذُنُوبٌ وَلَكُمْ ذُنُوبٌ فَإِنْ أَبِيْتُمْ فَلَنَا الْقَلْبُ

والذّنوب يُذَكَّرُ وَيُؤنَّثُ . وقد أخذ عنه المفسرون هذا الاستشهاد ، ونقلوا البيتين كما رواهما « لَنَا وَلَكُمْ » ، لكن ابن عطية زاد هنا البيت الأول ، وجاءت الرواية فيه : « له ولنا » كما ترى ، والبيتان أيضاً في اللسان والتاج ، والرواية فيهما : « لها ذنوبٌ ولكم ذنوب » ، وقد نقل صاحب الكلام الفراء الذي نقلناه هنا . والقليب : البئر ، تذكّر وتؤنث ، وفي الحديث أنه صلى الله عليه وسلم وقف على قليب بدر ، واجمع قُلبٌ .

(١) السَّجَلُ : الدَّلُو العظيمة ، مملوءة ، أو فيها ماء قلّ أو أكثر (مذكّر) .

(٢) هذا البيت لعلقمة الفحل ، وهو من قصيدة له يمدح فيها الحارث ملك الغساسنة في الشام على أثر الوقعة المعروفة باسم « يوم حليلة » ، ومطلع القصيدة :

طَحَا بِكَ قَلْبٌ فِي الْحِسَانِ طَرُوبٌ بُعَيْدَ الشَّبَابِ عَصَرَ حَانَ مَشِيبٌ

وكان الحارث قد انتصر في « يوم حليلة » وأسر شأساً شقيق الشاعر ، وقد طلب الشاعر من الملك بعد أن مدحه أن يعفو عن أخيه تقديراً لبطولته وإخلاصه لقومه وإن كان قد حارب الملك ، واستجاب الملك لطلب الشاعر وأطلق سراح شأس وجميع الأسرى ، وكان لكلمة الشاعر الأثر الكبير في ذلك .

ومعنى : « قَدْ خَبَطْتَ بِنِعْمَةٍ » : أعطيت من غير معرفة بمن تعطيه ، وهذا غاية المدح ، والذّنوب : الدَّلُو فيها ماء ، أو لا ماء فيها ، أو التي يكون الماء فيها قريباً من مَلئها ... على اختلاف كلام اللغويين ، ولكن المراد بها الخطُّ والنصيب ، يقول الشاعر : إنك أيها الملك تعطي النعمة من لا تعرفه ، وتجوّد على كل الناس ، وهذا يعطي أخي حقاً في أن يكون له نصيب من جودك ومعروفك ، وقد سارت أبيات علقمة في الحارث مثلاً في مديح الملوك .

فروي أن الملك لما سمع هذا البيت قال : نعم وأذنبُ ، ومنه قول حسان :

لَا تَبْعَدَنَّ رَبِيعَةَ بِنَ مَكْدَمٍ وَسَقَى الْغَوَادِي قَبْرَهُ بِذُنُوبِ (١)

و «أصحابهم» يراد به من تقدم من الأمم المُعَذِّبَة ، وقوله تعالى : (فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ) تحقيق للأمر ، بمعنى : هو نازل بهم لا محالة في وقته المعلوم فلا يستعجلوه ، وقرأ ابن وثاب : (فَلَا تَسْتَعْجِلُونَ) بالتاء من فوق ، وبه قرأت فرقة ، والباقون بالياء .

ثم أوجب تعالى لهم الويل من يومهم الذي يأتي فيه عذابهم ، و «الويلُ» : الشقاء والهَمُّ ، ورُوي أن في جهنم وادياً يُسمى ويلاً ، والطبري يذهب أبداً إلى أن التواعد إنما هو به ، وذلك في هذا الموضع

(١) هذا البيت واحد من أربعة أبيات نُسبت لحسان بن ثابت ، وقيل : لضرار بن الخطاب الفهري ، وقيل : لمكرز بن خوص بن الأخيف العامري ، وقال ابن سلام : الصحيح أنها لعمر بن شقيق بن سلامان ، وربيعةُ بن مكدم من بني كنانة ، وكانت بينهم وبين بني سليم وقعة قتل فيها ربيعةُ أربعة من بني سليم ، وطعنه بعضهم طعنة قاتلة ، فذهب إلى أمه يطلب منها أن تسقيه فرفضت وطلبت إليه أن يقف على ثنية الوادي حتى لا يهاجمهم القوم ، ولكن ثعلباً مرّ بفرسه التي كان عليها وقد مات ، فنفرت الفرس وسقط ربيعة فدفن على الثنية ، وقال الشاعر هذه الأبيات . والغوادي : جمع غادية وهي السحابة تنشأ فتمطر غلوة ، يدعو له بالسقيا والري لما أظهره من الشجاعة والتضحية .

قلق ؛ لأن هذا الويل إنما هو من يومهم الذي هو في الدنيا ، و [مِنْ] لابتداء الغاية ، وقال جمهور المفسرين : هذا التوعُّد هو بيوم القيامة ، وقال آخرون - ذكره الثعلبي - : هو بيوم بدر ، وفي [يُوعَدُونَ] ضمير عائذ على الكسلا م ، التقدير : يوعدون به ، أو يوعدونه .

تم تفسير سورة الذَّارِيَاتِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الخلق
سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين



هي مكية بإجماع من المفسرين والرواة (١) .

قوله عز وجل :

﴿ وَالطُّورِ ١ ﴾ وَكَتَبَ مَسْطُورٍ ٢ ﴿ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ٣ ﴾ وَاللَّيْتِ
الْمَعْمُورِ ٤ ﴿ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ٥ ﴾ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ٦ ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ
لَوَاقِعٌ ٧ ﴿ مَالَهُ مِنْ دَافِعٍ ٨ ﴾ يَوْمَ تُمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ٩ ﴿ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ
سَيْرًا ١٠ ﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُكذِّبِينَ ١١ ﴿ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ١٢ ﴿ يَوْمَ
يَدْعُونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً ١٣ ﴿ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكذَّبُونَ ١٤ ﴾

(١) روى الأئمة عن جُبَيْرِ بْنِ مطعم قال : سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ

بالطور في المغرب . متفق عليه .

هذه مخلوقات أقسم الله تعالى بها تنبيهاً منه وتشريفاً ، وليكون ذلك سبب النظر فيها والاعتبار بها ، وذلك يؤول إلى التوحيد والمعرفة بحقوق الله تعالى .

و «الطور» ، قال بعض أهل اللغة : كل جبل طور ، فكأنه تبارك وتعالى أقسم بالجبال ؛ إذ هو اسم جنس ، وقال آخرون : الطور : كل جبل أجرد لا يُنبت شجراً ، وقال مجاهد في كتاب الطبري : الطور : الجبل بالسريانية ، وهذا ضعيف ؛ لأن من حكاه في العربية يقضي على هذا ، ولا خلاف أن في الشام جبلاً يُسمى بالطور ، وهو طور سيناء ، فقال نوف البكالي : إنه الذي أقسم الله تعالى به لفضله على الجبال ؛ إذ قد رُوي أن الله تعالى أوحى إلى الجبال أني مهبط على أحدكم أمري - يريد رسالة موسى عليه السلام - ، فتناولت كلها إلا الطور فإنه استكان لأمر الله تعالى وقال : حسبي الله ، فأهبط الله تعالى الأمر عليه ، ويقال : إنه بمدين ، وقال مقاتل بن حيان : هما طوران .

و «الكتاب المسطور» معناه بإجماع : المكتوب أسطواراً ، واختلف الناس في هذا الكتاب المقسم به - فقال بعض المفسرين : هو الكتاب المنتسخ من اللوح المحفوظ للملائكة لتعرف منه جميع ما يفعله وتصرفه في العالم ، وقال آخرون : بل أقسم الله تعالى بالقرآن ، فإنه قد كان

علم أنه يتخذ في رَقٍّ منشور ، وقال آخرون : أقسم الله تعالى بالكتب القديمة المنزلة ، التوراة والإنجيل والزيبور ، وقال الفراء - فيما حكى الرماني - : أقسم بالصحف التي تُعطى وتؤخذ يوم القيامة بالأيمان والشمائل ، وقال قوم : أقسم بالكتاب الذي فيه أعمال الخلق ، وهو الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، وكتب بعض الناس [مَضْطُورٍ] بالصاد ، والقصد بذلك تشابه النطق بالحروف ، والجمهور على السين . و «الرَّقُّ» : الورق المعدة للكتب ، وهي مُرَقَّعة فلذلك سُميت رَقًّا ، وقد غلب الاستعمال على هذا الذي هو من جلود الحيوان ، و «المنشور» خلاف المطوي ، وقد يحتمل أن يكون نَشْرُهُ بمعنى بَشْرُه وترقيقه وصنعتة ، وقرأ أبو السَّمال : (في رِقِّ) بكسر الراء .

واختلف الناس في (الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ) - فقال الحسن بن أبي الحسن البصري : هي الكعبة ، وقال علي بن أبي طالب ، وابن عباس ، وعكرمة رضي الله عنهم : هو بيت في السماء يقال له : الضراح ، وهو بحيال الكعبة ، ويقال : الضريح ، ذكر ذلك الطبري ، وهو الذي ذكر في حديث الإسراء ، قال جبريل للنبي صلى الله عليه وسلم : (هذا البيت المعمور ، يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون

إليه ، آخر ما عليهم) (١) ، وبهذا عمارته ، ويروى أنه في السماء السابعة ، وقيل : السادسة ، وقيل : إنه مقابل الكعبة ، لو خرَّ لسقط عليها ، وقال مجاهد ، وقتادة ، وابن زيد : في كل سماء بيت معمور ، وفي كل أرض كذلك ، وهي كلها على خط مع الكعبة ، وقاله علي ابن أبي طالب رضي الله عنه .

و «السَّقْفُ الْمَرْفُوعُ» : السماء ، و «السَّقْفُ» طول في انحناء ، ومنه أسقف النصارى ، ومنه السَّقْفُ ؛ لأن الجدار وسقفه فيهما طول في انحناء .

واختلف الناس في [الْمَسْجُورِ] - فقال مجاهد ، وشمر بن عطية (٢) : معناه : الموقد ناراً ، وروي (إن البحر هو جهنم) (٣) وقال علي بن

(١) أخرجه ابن جرير ، ومسلم ، عن أنس ، عن مالك بن صعصعة ، رجل من قومه قال : قال نبي الله صلى الله عليه وسلم : (رفع إليَّ البيت المعمور ، فقلت : يا جبريل ما هذا ؟ قال : البيت المعمور ، يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ، إذا خرجوا منه لم يعودوا ، آخر ما عليهم) ، وقال ابن كثير في تفسيره : «ثبت في الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في حديث الإسراء بعد مجاوزته إلى السماء السابعة : (ثم رُفِعَ إليَّ البيت المعمور ، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألفاً ، لا يعودون إليه ، آخر ما عليهم) ، يعني يتعبدون فيه ويطوفون كما يطوف أهل الأرض بكعبتهم ، كذلك ذلك البيت المعمور هو كعبة أهل السماء السابعة» .

(٢) شمر بن عطية - بكسر الشين المعجمة وسكون الميم - الأسدي ، الكاهلي ، الكوفي ، قال عنه الخافظ العسقلاني في تقريب التهذيب : «صدوق من السادسة» . وقد كتب في الأصول : سيمر - بالسين الخالية من النقط .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ، عن صفوان بن يعلى ، عن أبيه ، أن النبي صلى الله -

أبي طالب رضي الله عنه ليهودي : أين جهنم ؟ فقال : هي البحر ،
فقال علي رضي الله عنه : ما أظنه إلا صادقاً ، وقرأ : ﴿وَالْبَحْرِ
الْمَسْجُورِ﴾ ، [ومنه ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم : (إن البحر
هو جهنم) ،] (١) قال الثعلبي : وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :
(لا يركب البحر إلا حاج أو معتمر أو مجاهد ، فإن تحت البحر
ناراً ، وتحت النار بحراً) (٢) ، وفي حديث آخر قال : (البحر نار
في نار) . وقال قتادة : المسجور : المملوء ماءً ، وهذا معروف من اللغة ،
ورجحه الطبري لوجود ماء البحر كذلك ، ولهذا يعود القول الأول ؛
لأن قولهم : «سَجَرْتُ النَّوْرَ» معناه : ملأتها بماء يحترق ويتقد ،
والبحر المسجور : المملوء ماءً ، وهكذا هو معرض للعبارة ، ومنه قول
النمر بن تَوَلَّب :

= عليه وسلم قال : (البحر هو جهنم) ، قالوا لِيَعْتَلَى ، فقال : ألا ترون أن الله عز وجل
يقول : ﴿نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ ، قال : لا والذي نفس يعلى بيده لا أدخلها أبداً
حتى أعرض على الله عز وجل ، ولا يصيبني منها قطرة حتى ألقى الله عز وجل . (المسند
٢٢٣-٤) .

(١) ما بين العلامتين [....] سقط من أكثر النسخ ، وأثبتته النسخة التونسية . ولعله
تكرار للحديث السابق تخريجه في الهامش قبل هذا .
(٢) أخرجه أبو داود في الجهاد .

إِذَا شَاءَ طَالَعَ مَسْجُورَةٌ تَرَى حَوْلَهَا النَّبْعَ وَالسَّمَّاسِمَا
سَقَّتْهَا رَوَاعِدٌ مِنْ صَيْفٍ وَإِنْ مِنْ خَرِيفٍ فَلَنْ يَغْدَمَا (١)

يصف ثوراً وعينا مملوءة ماءً . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : المسجور هو الذي ذهب ماؤه ، فالمسجور : الفارغ ، ويروى أن البحار يذهب ماؤها يوم القيامة ، وهذا معروف في اللغة ، فهو من الأضداد (٢) ، وقيل : يوقد البحر ناراً يوم القيامة ، فذلك السَّجْرُ ، وقال ابن عباس أيضاً : الْمَسْجُورُ : المحبوسُ ، ومنه ساجور الكلب ، وهي القلادة من عود أو حديد التي تمسكه ، وكذلك لولا أن البحر يُمَسِّكُ لفاض على الأرض ، وقال علي بن أبي طالب ، وعبد الله بن عمر رضي الله

(١) قال هذين البيتين النَّمِيرُ بن تَوَلِّب العُكْلِيُّ ، وقد استشهد بهما أبو عبيدة في (مجاز القرآن) ، وهو في البيتين يصف ثوراً وعيناً مملوءة بالماء كما قال المؤلف ، وَمَسْجُورَةٌ : مملوءة ، يريد أنه يشاهد عيناً مملوءة بالماء ، والنَّبْعُ : نوع من الشجر خشبه متين ولهذا تتخذ منه القيسيُّ ، والسَّمَّاسِمُ : الآبنوس أو شجر يشبهه ، وكلُّ من النَّبْعِ والسَّمَّاسِمِ ينبت في أعالي الجبال ، والضمير في «سقتها» يعود على العين ، والرواعد : جمع راعدة ، وهي السحابة الممطرة ، وغالباً ما يكون معها صوت الرعد ، والصَّيْفُ : المطر الذي يأتي في الصيف ، والخريف : الفصل المعروف الذي يأتي بعد الصيف وقبل الشتاء ، وقول الشاعر : «وإن من خريف» يعني به أنه إذا لم تمتلئ العين من مطر الصيف فإنها تمتلئ من مطر الخريف ... والمعنى أن هذا الثور يشاهد الماء في هذه العين المملوءة به إما من مطر الصيف وإما من مطر الخريف ، فإنها دائماً يملؤها الماء ، والشاهد أن مسجورة بمعنى مملوءة .

(٢) يأتي المسجور بمعنى الفارغ في اللغة ، وقد روى عطية وذو الرُّمَّة الشاعر عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : خرجت أمةً لتستقي ، فقالت : إن الخوض مسجور : أي : فارغ ، قال ابن أبي داود : « ليس لذي الرُّمَّة حديث إلا هذا » ، وفي اللسان - سجر - « وبثر سَجِرَةٌ : ممثلة » ، والمسجور : الفارغ من كل ما تقدم ، صِدٌّ ، عن أبي علي ، أبو زيد : المسجور يكون المملوء ويكون الذي ليس فيه شيء .

عنهم : البحر المُقسَّم به هو في السماء تحت العرش ، والجمهور على أنه بحر الدنيا ، ويؤيد ذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا أَلْبَحَارُ سُجِّرَتْ ﴾ (١) ، وقال منذر بن سعيد : المعنى هو القسم بجهنم ، وسماها بحراً لِسَعْتِهَا وتموجها ، كما قال صلى الله عليه وسلم في الفرس : (وإن وجدناه لبحراً) (٢) .

والقسَم واقع على قوله تعالى : ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴾ ، ويريد عذاب الآخرة للكفار ، قاله قتادة ، والعامل في [يَوْمًا] هو [وَاقِعٌ] ، ويجوز أن يكون العامل فيه [دَافِعٌ] ، والأول أبين ، قال مكِّي : لا يعمل فيه [دَافِعٌ] ، وقوله تعالى : [تَمُورًا] معناه : تذهب وتجيء بالرياح متقطعة متفتتة ، والغبارُ الموارُ : الذي يجتمع ويذهب ويجيء بالرياح ثم هو كله إلى ذهاب ، ومنه قول الأعرابي : « وَغَادَرَتِ التُّرَابَ مَوْرًا » يصف سنة قحطٍ ، وأنشد ابن المثنى :

مَوْرُ السَّحَابَةِ لَا رَيْثٌ وَلَا عَجَلُ (٣)

(١) الآية (٦) من سورة (التكوير) .

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والأدب ، ومسلم في الفضائل ، وأبو داود في الأدب ، والترمذي وابن ماجه في الجهاد ، وأحمد في أكثر من موضع من مسنده ، عن أنس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الناس . وكان أجود الناس ، وكان أشجع الناس ، قال : ولقد فرغ أهل المدينة ليلةً فانطلق قبيل الصوت ، فرجع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول للناس : لم تُراعوا ، لم تُراعوا ، وقال للفرس : وجدناه بحراً . وإنه لبحر ، قال أنس : وكان الفرسُ قبيل ذلك يبطئُ ، قال : ما سبق بعد ذلك .

(٣) هذا عجز بيت من قصيدة الأعشى المعروفة (وَدَعَّ هُرَيْرَةَ إِنَّ الرِّكْبَ مُرْتَحِلٌ) ،

والبيت بتمامه على رواية ابن المثنى :

أراد مُضِيَّهَا . وقال الضحاك : [تَمُورٌ] : تموج ، وقال مجاهد : تدور ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : تشقق ، وهذه كلها تفاسير بالمعنى ؛ لأن السماء العالية يعتربها هذا كله .

وسيرُ الجبال هو في أول الأمر ثم تَفَتَّتْ أثناء السير حتى تصير أخيراً كالعهن المنفوش (١) . والفاء في قوله تعالى : [فَوَيْلٌ] عاطفة جملة على جملة ، وهي تتضمن ربط المعنى وتأكيده وإثبات الويل للمكذِّبين ، و « الوَيْلُ » : السوء والمشقة والهَمُّ الأطول ، ويروى أن في جهنم وادياً يُسَمَّى وَيلاً . و « الخَوْضُ » : التخبط في الأباطيل ، يُشَبَّه بحوض الماء ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ (٢) ، و [يَوْمٌ] الثاني بدل من [يَوْمٌ] ، و [يُدْعُونَ] قال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره : معناه : يدفعون

= كَأَنَّ مِشِيَّتَهَا مِنْ بَيْتِ جَارَتِهَا مَوْرُ السَّحَابَةِ لَا رَيْثٌ وَلَا عَجَلٌ
 أما الرواية المشهورة ، وهي التي في الديوان — ففيها (مَرُّ السَّحَابَةِ) ، وعليها فلا شاهد في البيت ، وقد استشهد به أبو عبيدة في (مجاز القرآن) . وفي اللسان أن المَوْرَ هو التَّرْهِيؤُ . ومعناه : التحرك والمجيء والذهاب كما تتكفأ النخلة العيدانة ، يصفها بأنها عند عودتها من بيت جاريتها تمشي في حركة مترددة وتمايل في خيلاء ، وهي لا تبطئ في مشيتها ولا تسرع بل تمضي في يسر وسهولة .

(١) العِهْنُ : الصوف المصبوغ ألواناً ، والقطعة منه عِهْنَةٌ ، والجمع عهون .

(٢) من الآية (٦٨) من سورة (الأنعام) .

في أعناقهم بشدة وإهانة وتعتة ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فَذَلِكَ الَّذِي
يَدْعُ الْيَتِيمَ ﴾ (١) ، وفي الكلام محذوف مختصر ، تقديره : يقال
لهم : ﴿ هَذِهِ النَّارُ ﴾ ، وإخبارهم بهذا على جهة التوبيخ والتقريع .
وقرأ أبو رجاء العطاردي (٢) : ﴿ يَوْمَ يُدْعَوْنَ ﴾ من الدعاء ، بسكون
الดาล وفتح العين .

قوله عز وجل :

﴿ أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ أَصَلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تُصْبِرُوا
سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِمَّا تُبْجِزُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ
وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَكَيْهِنَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَّهْم رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿١٨﴾
كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَكِينِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ
وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ ﴾

(١) الآية (٢) من سورة (الماعون) .

(٢) هو عمران بن مباحان - بكسر الميم وسكون اللام بعدها مهملة - ، ويقال :
ابن تيم ، أبو رجاء العطاردي ، مشهور بكنيته ، وقيل غير ذلك في اسم أبيه ، مخضرم ،
ثقة ، معمر ، مات سنة خمس ومائة ، واه من العمر مائة وعشرون سنة ، (تقريب التهذيب) .
هذا وقد قرأ نفس القراءة ابن السميع .

لَمَّا قِيلَ لَهُمْ : ﴿ هَذِهِ النَّارُ ﴾ وَقَفُوا بَعْدَ ذَلِكَ عَلَى الْجِهَتَيْنِ اللَّتَيْنِ
يُمْكِنُ مِنْهُمَا دُخُولُ الشُّكِّ فِي أَنَّهَا النَّارُ ، وَهُمَا : إِمَّا أَنْ يَكُونَ ثُمَّ سَحْرٌ
يُلْبَسُ ذَاتَ الْمَرْتَبِيِّ ، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ فِي بَصَرِ النَّاظِرِ اخْتِلَالٌ ، وَأَمْرُهُمْ
بِصَلِّيئِهَا عَلَى جِهَةِ التَّقْرِيعِ ، ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ عَلَى جِهَةِ قَطْعِ رَجَائِهِمْ :
﴿ أَصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ ﴾ ، أَي : عَذَابِكُمْ حَتْمٌ فَسَوَاءٌ
جَزَعَكُمْ وَصَبْرَكُمْ ، لَا بَدَّ مِنْ جَزَاءِ أَعْمَالِكُمْ .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ﴾ الآيات ... يحتمل
أَنْ يَكُونَ مِنْ خُطَابِ أَهْلِ النَّارِ فَيَكُونُ إِخْبَارُهُمْ بِذَلِكَ زِيَادَةً فِي غَمِّهِمْ
وَسُوءِ حَالِهِمْ ، وَيَحْتَمِلُ - وَهُوَ الْأَظْهَرُ - أَنْ يَكُونَ إِخْبَاراً لِمُحَمَّدٍ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَعَاصِرِيهِ ، لَمَّا فَرَّغَ مِنْ ذِكْرِ عَذَابِ الْكُفَّارِ عَقَبَ
ذَلِكَ بِنَعِيمِ الْمُتَّقِينَ لِيُبَيِّنَ الْفَرْقَ وَيَقَعُ التَّحْرِيزُ عَلَى الْإِيمَانِ . وَ « الْمُتَّقُونَ »
هُنَا هُمْ مُتَّقُوا الشُّرْكِ لِأَنَّهِمْ لِأَبَدٍ مِنْ مَصِيرِهِمْ إِلَى الْجَنَّاتِ ، وَكَلَّمَا
زَادَتِ الدَّرَجَةُ فِي التَّقْوَى قَوِي الْحُصُولِ فِي حُكْمِ الْآيَةِ حَتَّى أَنْ الْمُتَّقِينَ
عَلَى الْإِطْلَاقِ هُمْ فِي هَذِهِ الْآيَةِ قَطْعاً عَلَى اللَّهِ تَعَالَى بِحُكْمِ خَبَرِهِ الصَّادِقِ .
وَقَرَأَ جَمْهُورُ النَّاسِ : [فَآكِهِينَ] ، وَمَعْنَاهُ : فَرِحِينَ مَسْرُورِينَ ، وَقَالَ
أَبُو عُبَيْدَةَ : هُوَ مِنْ بَابِ « لَابِنٍ وَتَامِرٍ » ، أَي لَهُمْ فَآكِهَةٌ ، وَالْمَعْنَى
الْأَوَّلُ أَبْرَعُ (١) ، وَقَرَأَ خَالِدٌ فِيمَا حَكَى أَبُو حَاتِمٍ : [فَكِهِينَ] ، وَالْفَكْهُ

(١) فِي بَعْضِ النُّسخِ : « وَالْمَعْنَى الْأَوَّلُ أَبْدَعُ » .

والفَاكَةُ: المسرور المتنعم . وقوله تعالى : ﴿بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾ أي : من إنعامه ورضاه عنهم ، وقوله تعالى : ﴿وَوَقَّاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ . هذا متمكن في مُتَّقِي المعاصي الذي لا يدخل النار ، ويكون في مُتَّقِي الشُّرْكَ الذي ينفذ عليه الوعيد بمعنى : ووقاهم ربهم عذاب الخلود في الجحيم ، ويحتمل أن يكون [الْجَحِيمِ] من طبقات جهنم ليست بمأوى العصاة من المؤمنين ، بل هي مخصصة للكفرة ، فهم وإن عُدُّوا في نار فليسوا في عذاب الجحيم . وقرأ الجمهور : [وَوَقَّاهُمْ] بتخفيف القاف ، وقرأ أبو حيوه بتشديدها على المبالغة ، وذلك كله مُسْتَقٌّ من الوقاية وهي الحائل بين الشيء وبين ما يضره . والمعنى : يقال لهم : ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا﴾ ، و [هَنِيئًا] نصب على المصدر ، وقوله تعالى : ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ معناه أن رُتِبَ الجنة ونعيمها هي بحسب الأعمال ، وَأَمَّا نَفْسُ دُخُولِهَا فهو برحمة الله تعالى وتغمُّده ، والأكل والشرب والتَّهْنِيُّ ليس من الدخول في شيء ، وأعمال العباد الصَّالِحَة لا توجب على الله تعالى التنعيم إيجاباً ، لكنه سبحانه قد جعلها أَمَارَةً على من سبق في علمه تنعيمه ، وعلَّق الثواب والعقاب بالتكسب الذي في الأعمال .

وقوله تعالى : [مُتَّكِّئِينَ] نصب على الحال ، على حدِّ قوله تعالى : [فَاكِهِينَ] ، والعامل في هاتين الحالتين الفعل المقدر في قوله تعالى : ﴿فِي جَنَّاتٍ﴾ ، ويجوز غير هذا ، وفي هذا نظر ، وقرأ أبو السَّمَال :

(عَلَى سُرْرٍ) بفتح الراء الأولى و [زَوَّجْنَاهُمْ] معناه: جعلنا لكل فرد منهم زوجاً ، و «الحُور» جمع حوراء ، وهي البيضاء القوية بياضَ بَيَاضِ الْعَيْنِ وسوادَ سوادِها ، و «الْعَيْنُ» جمع عيناة ، وهي الكسيرة العينين مع جمالهما ، وفي قراءة ابن مسعود ، وإبراهيم النخعي : (وَزَوَّجْنَاهُمْ بِعَيْسٍ عَيْنٍ) ، قال أبو الفتح : الْعَيْسَاءُ : البيضاء ، وقرأ عكرمة : (وَزَوَّجْنَاهُمْ حُوراً عَيْنًا) ، وحكى أبو عمرو عن عكرمة أنه قرأ : (بعيس عينٍ) على إضافة [عيسٍ] إلى [عينٍ] (١) .

قوله عز وجل :

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلْتَنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمَدَدْنَاهُمْ فِيكِهِمُ وَالْحَمْدِ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَنْزِعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوَ فِيهَا وَلَا تَأْتِيمٌ ﴿٢٣﴾ * وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤُ مَكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَنَنْزِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ ﴿٢٨﴾ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿٢٩﴾ ﴾

(١) قال أبو الفتح ابن جني : العيساء : البيضاء ، والأعيس : الأبيض ، ومثله : جمل أعيس وناقاة عيساء ، قال في وصف امرأة :
* كَأَنَّهَا الْبَكْرَةُ الْعَيْسَاءُ *
وفي اللسان أن العيساء هي البيضاء التي يخالط بياضها شيء من شقرة .

قرأ ابن كثير ، وعاصم ، وحمزة ، والكسائي ، وابن مسعود .
 وابن عباس ، ومجاهد ، وطلحة ، والحسن ، وقتادة ، وأهل مكة :
 ﴿وَاتَّبَعْتَهُمْ ذُرِّيَّتَهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ ، وقرأ نافع ، وأبو
 جعفر ، وابن مسعود - بخلاف عنه - وأبو عمرو - بخلاف عنه -
 وشيبة ، والجحدري ، وعيسى : ﴿وَاتَّبَعْتَهُمْ ذُرِّيَّتَهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا
 بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ ، وروى خارجة عنه مثل قراءة حمزة ، وقرأ ابن عامر ،
 وابن عباس ، وعكرمة ، وابن جبیر ، والضحاك : ﴿وَاتَّبَعْتَهُمْ ذُرِّيَّتَهُمْ
 بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ ، وقرأ أبو عمرو ، والأعرج ، وأبو
 رجاء ، والشعبي ، وابن جبیر ، والضحاك : ﴿وَاتَّبَعْنَاهُمْ ذُرِّيَّتَهُمْ
 بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ ، فلكون «الذرية» جمعاً في نفسه
 حسن الأفراد في هذه القراءات ، ولكون المعنى يقتضي انتشاراً وكثرة
 حسن جمع الذرية في قراءة من قرأ : [ذُرِّيَّتَهُمْ] .

واختلف الناس في معنى الآية - فقال ابن عباس ، وابن جبیر ،
 والجمهور : أخبر الله تعالى أن المؤمنين الذين تتبعتهم ذريتهم في الإيمان
 فيكونون مؤمنين كأبائهم - وإن لم يكونوا في التقوى والأعمال
 كالآباء - فإنه يلحق الأبناء بمراتب أولئك الآباء كرامةً للآباء ،
 وقد ورد في هذا المعنى حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم (١) ، فجعلوا

(١) وهو حديث أخرجه سعيد بن منصور ، وهناد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن
 أبي حاتم ، والحاكم ، والبيهقي في سننه ، عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : (إن الله =

الحديث تفسير الآية ، وكذلك وردت أحاديث تقتضي أن الله تعالى يرحم الآباء رعيًا للأبناء الصالحين (١) ، وذهب بعض الناس إلى إخراج هذا المعنى من هذه الآية ، وذلك لا يترتب إلا بأن نجعل اسم «الذرية» بمثابة نوعهم على نحو ما في قوله تعالى : ﴿أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ﴾ (٢) ، وفي هذا نظر . وقال ابن عباس أيضاً ، والضحاك : معنى هذه الآية أن الله تعالى يلحق الأبناء الصغار بأحكام الآباء المؤمنين في الموارثة والدفن في قبور الإسلام ، وفي أحكام الآخرة في الجنة ، وحكى أبو حاتم عن الحسن أنه قال : الآية في الكبار من الذرية وليس فيها من الصغار شيئاً ، وقال منذر بن سعيد : هي

= ليرفع ذرية المؤمن معه في الجنة وإن كانوا دونه في العمل ليتقر بهم عينه) ، ثم قرأ : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَنبَعَثَهُمْ فِي مَقَامَاتِهِمْ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ (١) ، وأخرج البزار ، وابن مردويه رفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم . كذلك رواه مرفوعاً النحاس في «الناسخ والمنسوخ» له عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهم ، قال أبو جعفر : «فصار الحديث مرفوعاً عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وكذا يجب أن يكون ؛ لأن ابن عباس لا يقول هذا إلا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه إخبار عن الله عز وجل بما يفعله ، وبمعنى أنه أنزلها جل ثناؤه .»

(١) منها ما أخرجه الطبراني ، وابن مردويه . عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (إذا دخل الرجل الجنة سأل عن أبويه وذريته وولده ، فيقال : إنهم لم يبلغوا درجتك وعملك : فيقول : يا رب قد عملت لي ولهم ، فيؤمر بإلحاقهم به) ، وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ﴾ الآية .

(٢) من الآية (٤١) من سورة (يسن) .

في الصغار لا في الكبار ، وحكى الطبري قولاً معناه أن الضمير في قوله تعالى : [بِهِمْ] عائد على الذرية ، والضمير الذي بعده في [ذُرِّيَّاتِهِمْ] عائد على [الَّذِينَ] ، أي : اتَّبِعْهُمْ الكبار وألْحَقْنَا نحن بالكبار الصغار ، وهذا قولٌ مستكره .

وقوله تعالى : [بِإِيمَانٍ] هو في موضع الحال ، فمن رأى أن الآية في الأبناء الصغار فالحال من الضمير في قوله تعالى : [اتَّبَعْتَهُمْ] ، فهو من المفعولين ، ومن رأى أن الآية في الأبناء الكبار فيحتمل أن يكون الحال من المفعولين ، ويحتمل أن يكون من المتتبعين الفاعلين ، وأرجح الأقوال في هذه الآية القول الأول ؛ لأن الآيات كلها في صفة إحسان الله تعالى إلى أهل الجنة ، فذكر من جملة إحسانه أنه يرعى الْمُحْسِنِينَ في المسيء ، ولفظة [أَلْحَقْنَا] تقتضي أن للملحق بعض التقصير في الأعمال .

وقرأ الجمهور من القراء : [أَلْتَنَاهُمْ] بفتح اللام من « أَلَتَ » ، وقرأ ابن كثير ، وأبو يحيى ، وشبل : [أَلْتِنَاهُمْ] من « أَلَتَ » بكسر اللام ، وقرأ الأعرج : (وَمَا أَلْتِنَاهُمْ) على وزن أَفْعَلْنَاهُمْ ، وقرأ ابن كعب ، وابن مسعود : « لَتِنَاهُمْ » من « لَاتَ » ، وهي قراءة ابن مصرف ، ورواها القواسم عن ابن كثير ، وتحتل قراءة من قرأ :

[الْتَنَاهُمْ] بفتح اللام أن تكون من «ألات» فإنه يقال : أَلَاتٌ يُلِيْتُ
إِلَاتَةً ، وَاَلَاتٌ يَلِيْتُ لَيْتًا ، وَاَلَتْ يُولِتُ إِيْلَاتًا ، وَاَلَتْ يَأَلْتُ ،
وَاَلَتْ يَأَلْتُ إِتْمًا ، وَاَلَتْ يَلِتُ وَاَلَتْ ، كلها بمعنى بعض (١) .

ومعنى هذه الآية أن الله تعالى يلحق المقصّر بالمحسن ولا يُنقص
المحسن من أجره شيئاً ، وهذا تأويل ابن عباس ، وابن جُبَيْر والجمهور ،
ويحتمل قوله تعالى : ﴿وَمَا الْتَنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ أن يريد :
من عملهم الحسن والقبيح ، ويكون الضمير في [عَمَلِهِمْ] عائداً على
الأبناء ، وهذا تأويل ابن زيد ، ويحسن هذا الاحتمال قوله تعالى :
﴿كُلُّ أَمْرٍ إِيمًا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ ، والرَّهِينُ : المُرْتَهَنُ ، وفي هذه
الألفاظ وعيد ، وحكى أبو حاتم عن الأعمش أنه قرأ : ﴿وَمَا لَتَنَاهُمْ﴾
بغير ألف وبفتح اللام ، قال أبو حاتم : لا تجوز هذه القراءة على
وجه من الوجوه .

و «أَمَدَدْتُ الشَّيْءَ» إذا سيرت إليه شيئاً آخر يكثره أو يكثر لديه ،
وقوله تعالى : ﴿مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ إشارة إلى ما روي من أن المُنْعَمَ إذا
اشتبهى لحماً نزل ذلك الحيوان بين يديه على الهيئة التي اشتهاه فيها ،

(١) نقل هذا كله أبو الفتح ابن جني عن قطرب ، وذكر معاني أخرى للفظ «أَلَتْ» ،
واستشهد على كلامه بالشعر العربي ، راجع المحتسب (٢-٢٩٠) . والمراد من كلامه أن
جميع هذه الصيغ بمعنى واحد .

وليس يكون في الجنة لحم يَخْتَرُ (١) ، ولا يتكلف فيه الذبح والسلخ والطبخ ، وبالجملة لا كلفة في الجنة .

و [يَتَنَازَعُونَ] معناه : يتعاطون ، ومنه قول الأخطل :

نَازَعَتْهُ طَيْبَ الرَّاحِ الشَّمُولِ وَقَدْ صَاحَ الدَّجَاجُ وَحَانَتْ وَقَعَةُ السَّارِي (٢)
و «الكأس» : الإناء وفيه الشراب ، ولا يقال في فارغ «كأس» ،
قاله الزجاج ، وقرأ الجمهور من السبعة وغيرهم : ﴿لَا لَغْوٌ﴾ بالرفع
﴿وَلَا تَأْتِيمٌ﴾ كذلك ، وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، والحسن :

(١) أي : يفسد ويؤتت ، يقال : ختير اللحم والتمر والجوز ختوراً ، ويختتر ختراً
بمعنى : فسد وأنن ، وفي الحديث الشريف : (لولا بنو إسرائيل ما أنن اللحم ولا ختير
الطعام) . اللسان .

(٢) الضمير في (نازعه) يعود على شارب كان يشرب معه ، وهو في بيت قبل هذا البيت
يقول فيه :

وَشَارِبٍ مُرْبِحٍ بِالكَّاسِ نَادِمَ مَنِي لا بِالحَصُورِ ولا فِيهَا بِسَوَّارٍ

ومعنى مُرْبِحٍ أنه يذبح للضيوف الرِّبْح وهو الفضلان الصغار ، واحدها رابح ، والحصور :
الصَّبِيْقُ البخيل ، والسَّوَّارُ : المعربد الوثاب ، وتنازعا الشراب : تناولناه بعضنا من بعض ،
فهو يعطيني وأنا أعطيه ، والرَّاحُ : الخمر ، والشمول : الخمر أيضاً ، سميت بذلك لأنها تشمل
بريحها الناس ، وقيل : الشمول هي الخمر الباردة ، والدجاج يراد به هنا الديوك ، يعني أن
وقت السحر قد حان ، وإذا قيل : هذا دجاج فهم يريدون الديوك ، وإذا قيل : هذه دجاج
فهم يريدون الأثني ، والسَّارِي : السائر بالليل ، ووقعة السَّارِي من قولهم : وقعت الإبل
إذا بركت ، ويروى : (وقفة) بالفاء .

(لَا لَغْوَ فِيهَا وَلَا تَأْتِيمَ) بالنصب على التبرية ، وعلى الوجهين ،
 فقوله تعالى : [فِيهَا] هو موضع الخَبَرِ ، وَأَغْنَى خِبر الأول عن ذكر
 خبر الثاني ، و «اللَّغْوُ» : السقط من القول ، و «التَّأْتِيمُ» يلحق خمر
 الدنيا في نفس شُرْبها وفي الأفعال التي تكون من شُرَابها ، وذلك كله
 مرتفع في الآخرة .

و «اللُّؤْلُؤُ الْمَكْنُونُ» أجمل اللُّؤْلُؤُ لِأَنَّ الصَّوْنَ وَالكِنَّ يُحَسِّنُهُ ،
 وقال ابن جبير : أراد أنه الذي في الصَّدْفِ لم تَنَلَّهُ الأيدي ، وقيل
 للنبي صلى الله عليه وسلم : إذا كان الغلمان كاللؤلؤ المكنون فكيف
 المخدومون ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : (هم كالقمر ليلة البدر) (١) ،
 ثم وصف تعالى عنهم أنهم في جملة تَنَعَّمهم يتساءلون ، أي عن أحوالهم
 وما نال كل واحد منهم ، وأنهم يتذكرون حال الدنيا وخشيتهم
 فيها عذاب الآخرة ، وحكى الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما
 قال : تسأولهم إذا بُعثوا في النفخة الثانية ، و «الإشفاقُ» أشد الخشية

(١) أخرجه عبد الرزاق ، وابن جرير ، وابن المنذر ، عن قتادة ، قال : بلغني أنه قيل
 لرسول الله صلى الله عليه وسلم : هذا الخدم مثل اللؤلؤ ، فكيف بالمخدوم ؟ قال : (والذي
 نفسي بيده إن فضل ما بينهما كفضل القمر ليلة البدر على النجوم) ، هكذا ذكره السيوطي
 في الدر المنثور ، وفي لفظ لابن جرير (إن فضل المخدوم على الخادم كفضل القمر ليلة البدر
 على سائر الكواكب) .

ورقة القلب ، وقد قرأ أبو حيوة : [وَوَقَّانَا] بتشديد القاف ، وقرأ الجمهور بتخفيفها ، وأمال عيسى الثقفي [وَقَانَا] بتخفيف القاف ، و «السُّموم» : الحارُّ ، قال الرُّماني : هو الذي يبلغ مسامَّ الإنسان ، وهو النار في هذه الآية ، وقد يقال في حرِّ الشمس وفي الريح : سُموم ، وقال الحسن : السُّموم اسم من أسماء جهنم . و [نَدْعُوهُ] يحتمل أن يريد : نعبده ، ويحسن هذا على قراءة من قرأ : [أَنَّهُ] بفتح الألف ، وهي قراءة نافع - بخلاف - والكسائي ، وأبي جعفر ، والحسن ، وأبي نوفل ، أي : من أجل أنه ، وقرأ باقي السبعة ، والأعرج ، وجماعة : [إِنَّهُ] على القطع والاستثناف ، ويحسن مع هذه القراءة أن يكون [نَدْعُوهُ] بمعنى نعبده ، أو بمعنى الدعاء نفسه ، ومن رأى [نَدْعُوهُ] بمعنى الدعاء نفسه فيحتمل أن يجعل قوله تعالى : [أَنَّهُ] بالفتح هو نفس الدعاء الذي كان في الدنيا ، و [الْبِرُّ] هو الذي يَبْرُ وَيُحْسِنُ (١) ، ومنه قول ذي الرِّمَّة :

جَاءَتْ مِنْ الْبَيْضِ زُعْرًا لَا لِبَاسَ لَهَا إِلَّا الدِّدَّاسُ وَأُمُّ بَرَّةٌ وَأَبُ (٢)

(١) في اللسان : « البرُّ من صفات الله تعالى . وهو العطف على عباده بغيره ولطفه » وفيه : بَرٌّ يَبْرُ وَيَبْرُ بالفتح والكسر .

(٢) البيت في اللسان ، وقد ساقه شاهداً على أن « الدُّهْسَةَ » لونٌ يعلوه أدنى سواد ، ويكون في الرمال والمعز ، والزُّعْرُ : قِلَّةٌ وِرْقَةٌ وتفرَّقٌ في الشَّعر ، و«زُعْرٌ» هنا : جمع أَزْعَرٌ =

قوله عز وجل :

﴿ فَذَكَرْنَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٣١﴾ أَمْ يَقُولُونَ
شَاعِرٌ تَتَّبَعُ بِهِ رَيْبَ الْمُنُونِ ﴿٣٢﴾ قُلْ تَرَبُّوا فِرَاقِي مَعَكُمْ مِنَ
الْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣٣﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَمُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ
يَقُولُونَ تَقْوَاهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٥﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ
﴿٣٦﴾ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ خَلِقُوا السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُؤْقِنُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾

هذا أمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم بالدعاء إلى الله تعالى ومتابعة
نشر الرسالة ، ثم قال تعالى مؤنساً له عليه الصلاة والسلام : فما أنت
بإنعام الله تعالى عليك ولطفه بك كاهن ولا مجنون (١) ، وكانت العرب

= وَرَعِيرٍ . وفي حديث ابن مسعود أن امرأة قالت له : إنني امرأة زعراء ، أي قليلة الشعر ،
والبررة : الرحمة الكثيرة الحنان ، يصف الشاعر جماعة من المعز بأنها أقبلت بلونها الأبيض
وشعرها القليل المتفرق ، وقد غطى لونها شيئاً من السواد الخفيف ، ولكنها كانت تتمتع
برعاية الأب والأم وما يحوطانها من الاهتمام والبر .

(١) قيل : إن قوله تعالى : ﴿ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ ﴾ معناه القسَم ، أي : وبنعمة
الله ما أنت بكاهن ولا مجنون ، وقيل : ليس قسماً ، وإنما هو كما تقول : ما أنت بحمد الله
بجاهل ، أي : قد برأك الله تعالى من ذلك .

قد عهدت ملابسة الجنِّ الإنسَ بهذين الوجهين ، فنسبت محمداً
صلى الله عليه وسلم إلى ذلك ، فنفى الله تعالى عنه ذلك .
قوله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ ﴾ الآية . روي أن قريشاً اجتمعت
في دار الندوة فكثرت آراؤهم في محمد صلى الله عليه وسلم . حتى
أُتِيَ قائل منهم : تربصوا به ريب المنون فإنه شاعر سيهلك كما هلك
زهير والنابغة والأعشى وغيرهم ، فافترقوا على هذه المقالة ، فنزلت
الآية في ذلك .

و « التَّربُّصُ » : الانتظار ، ومنه قول الشاعر :

تَرَبِّصْ بِهَا رَبِّبَ الْمُنُونِ لَعَلَّهَا تُطَلِّقُ يَوْمًا أَوْ يَمُوتُ حَلِيلُهَا (١)
وَأَنشُدِ الطَّبْرِيَّ :

سَيَهْلِكُ عَنْهَا زَوْجُهَا أَوْ سَيَجْنَحُ (٢) لَعَلَّهَا

(١) البيت في اللسان ، والطبري ، والقرطبي ، والبحر المحيط ، وفتح القدير ، وقد
ذكروه جميعاً شاهداً على أن التَّربُّصَ هو الانتظار ، وزاد بعضهم أن الفعل (تَرَبَّصَ)
يتعدى بإسقاط حرف الجر ، وأن الأصل : تَرَبَّصَ إلى ريب المنون . وأنَّ (ريب المنون)
هو الموت أو حوادث الدهر ، والحليل هو الزوج ، ومعنى البيت : انتظر الأيام وحوادثها
فلعلَّ ذلك يحقق أملك بأن يموت زوجها أو يطلقها .

(٢) هذه هي الرواية التي انفرد بها الطبري لهذا البيت . ومع ذلك وقع تحريف في الكلمة
الأخيرة ، فوردت في أصول الطبري - كما ذكر مُحَقِّقُهُ - « أو شحيج » ، وبهذا اختل
المعنى والوزن ، وحاول الإصلاح فاختر بدلها منها كلمة « تُسَّرِّحُ » ، والتَّسْرِيحُ هو الطلاق =

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ تَرَبَّصُوا ﴾ وعيدٌ في صيغة أمر ، و « الْمُنُونُ » من أسماء الموت ، وبه فسّر ابن عباس رضي الله عنهما ، ومن أسماء الدهر ، وبه فسّر مجاهد ، وقال الأصمعي : الْمُنُونُ واحد لا جمع له ، وقال الأَخْفَشُ : هو جمع لا واحد له .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

و « الرِّيب » هنا : الحوادث والمصائب لأنها تريب من نزلت به ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم في أمر بنته فاطمة رضي الله تعالى عنها حين ذكر أن علياً رضي الله عنه يتزوج بنت أبي جهل : (إنما فاطمة بضعة مني يُرِيبُني ما أرابها) (١) ، يقال : أرابَ ورأبَ ،

= ويناسب المعنى ، وفي الأصول المخطوطة هنا وردت الكلمة « أو سَيَجْنَحُ » أي يميل ويبعد عنها ، وهو يعنى الفراق والطلاق . ومن الغريب أن القرطبي نسب البيت إلى ابن عباس رضي الله عنهما ، لكن المحقق أكرمه الله غير ذلك إلى : « قال الشاعر » .

(١) حديث فاطمة رضي الله عنها المشار إليه هنا أخرجه مسلم في فضائل الصحابة ، والترمذي في المناقب ، وابن ماجه في النكاح ، وهو عن المسنور بن مخزوم ، من طرق مختلفة ، وفيه - واللفظ لمسلم - أن المسنور سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر وهو يقول : (إن بني هشام بن المغيرة استأذوني أن يُنكحوا ابنتهم علي بن أبي طالب ، فلا آذن لهم ، ثم لا آذن لهم ، ثم لا آذن لهم ، إلا أن يُحب ابن أبي طالب أن يطلق ابنتي وينكح ابنتهم ، وإنما ابنتي بضعة مني . يربيني ما أرابها . ويؤذيني ما آذاها) ، وفي رواية : (وإنني لستُ أحرّم حلالاً ولا أحلّ حراماً ، ولكن والله لا تجتمع بنت رسول الله وبنت عدو الله مكاناً واحداً أبداً) ، وفي رواية ثالثة : (وإنها والله لا تجتمع بنت رسول الله وبنت عدو الله عند رجل واحد أبداً) ، قال الراوي : فترك علي الحطبة .

ومنه قول الشاعر :

فَقَدَّ رَابِيَّ مِنْهَا الْغَدَاةَ سُفُورَهَا (١)

وقول الآخر :

وَقَدَّ رَابِيَّ قَوْلُهَا يَا هَنَّا هُ (٢)

(١) هذا عجز بيت قاله توبة بن الحُمَيْر في ليلي بنت عبد الله بن الرَّحالة التي أحبها وقال فيها الشعر ولما خطبها إلى أبيها رفض أن يزوجه إياها ، والبيت بتمامه :
وَكَئْتُ إِذَا مَا جِئْتُ لَيْلَى تَبَرَّقَعَتْ فَقَدَّ رَابِيَّ مِنْهَا الْغَدَاةَ سُفُورَهَا
وكان من خبر توبة أنه كان يزور ليلي بعد أن تزوجت في بني الأدلج ، وجاء يوماً لزيارتها فإذا هي سافرة لتحذره ، ولم ير منها البشاشة التي تعودها ، فعلم أن ذلك لأمر ما ، فرجع إلى راحلته فركبها ومضى ، وتابعه بنو الأدلج ولكنه فاتهم ، وقال في ذلك قصيدة منها هذا البيت ، والشاهد أن « راب » في البيت بمعنى : فعل ما يُرِيب ، فهي مثل أراب ، قال ابن الأثير :
هما بمعنى شككتني .

(٢) هذا صدر بيت قاله امرؤ القيس من قصيدة له يصف فيها فرسه وخروجه إلى الصيد ، والبيت بتمامه :

وَقَدَّ رَابِيَّ قَوْلُهَا يَا هَنَّا هُ وَيَحْكُ الْحَقَّتْ شَرًّا بِشَسْرُ
والبيت في اللسان ، وقد ذكره شاهداً على أن « هَنَّا » اسم من أسماء النداء ، ومعناه : « يا فلان » ، قال : « وقولهم : يا هَنُّ أَقْبِيل ، يا رجلُ أَقْبِيل ، ويا هنانُ أَقْبِلَا ، ويا هنونُ أَقْبِلُوا ، ولك أن تدخل فيه الهاء لبيان الحركة فتقول : يا هَنَّهُ ، كما تقول : لِمَهُ وَسُلْطَانِيَّةً ، ولك أن تُشيع الحركة فتولد ألف فتقول : يا هَنَاةُ أَقْبِل ، وهذه اللفظة تخص بالنداء خاصة ، والهاء في آخره تصير تاءً في الوصل ، ولك أن تقول : « يا هَنَاةُ أَقْبِل » بهاء مضمومة ... وأنشد أبو زيد لامرئ القيس : (وقد رابني ... البيت) . يعني : كنا مُتَهَمِّينَ فحَقَّقْتَ الأَمْرَ .
والشاهد هنا كالشاهد في البيت السابق . ولكن قيل : إن « أرابني في كذا » معناها : شككتني وأوهمني الريبة فيه ، فإذا استيقنت قلت : « رابني » بغير ألف . راجع اللسان .

وأمر الله تعالى نبيّه صلى الله عليه وسلم بتوعدهم بقوله تعالى : ﴿ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ ﴾ .

وقوله تعالى : [بهذا] يحتمل أن يشير إلى هذه المقالة « هو شاعر » ،
ويحتمل أن يشير إلى ما هم عليه من الكفر وعبادة الأصنام ،
و « الأحلام » : العقول ، و [أم] المتكررة في هذه الآية قدّرها بعض
النحاة بألف الاستفهام ، وقدّرها مجاهد ب « بَلْ » ، والنظر المحرّر
في ذلك أن منها ما يتقدّر ب « بل والهمزة » على حدّ قول سيبويه في
قولهم : « إِنَّهَا لِأَبِلٌ أَمْ شَاءُ » ، ومنها ما هي معادلة ، وذلك قوله تعالى :
﴿ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ ، وقرأ مجاهد : ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ ،
وهو معنى قراءة الناس إلّا أن العبارة ب [أم] خرجت مخرج التوقيف
والتوبيخ ، وحكى الثعلبي عن الخليل أنه قال : « ما في سورة الطور
من استفهام كلّهُ استفهام وليس بعطف » ، و [تَقَوْلُهُ] معناه : « قال
عن الغير : إنه قاله » ، فهي عبارة عن كذب مخصوص .

ثم عجزهم تعالى بقوله : ﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ ﴾ ، والمماثلة
المطلوبة منهم هي في النظم والرصف والإيجاز ، واختلف الناس ،
هل كانت العرب قادرة على الإتيان بمثل القرآن قبل مجيء محمد
صلى الله عليه وسلم ؟ فقال شُدَّادٌ يُسَمَّونَ أهل الصرفة : كانت قادرة

وَصُرِفَتْ ، وقال الجمهور : لم تكن قطُّ قادرة ، ولا في قدرة البشر
 أَنْ يَأْتِي بِمِثْلِهِ ؛ لِأَنَّ الْبَشَرَ لَا يَفَارِقُهُ النِّسْيَانُ وَالسَّهْوُ وَالْجَهْلُ ، وَاللَّهُ
 تَعَالَى مُحِيطٌ بِعِلْمِهِ بِكُلِّ شَيْءٍ ، فَإِذَا تَرْتَبَتِ اللَّفْظَةُ فِي الْقُرْآنِ عِلْمٌ
 بِالْإِحْاطَةِ الَّتِي تَصْلُحُ أَنْ تَلِيَهَا وَيَحْسُنُ مَعَهَا الْمَعْنَى ، وَذَلِكَ مُتَعَذِّرٌ فِي
 الْبَشَرِ . وَالْهَاءُ فِي [مِثْلِهِ] عَائِدَةٌ عَلَى الْقُرْآنِ ، وَقَرَأَ الْجَحْدَرِيُّ :
 (بِحَدِيثِ مِثْلِهِ) بِإِضَافَةِ « الْحَدِيثِ » إِلَى [مِثْلِهِ] ، فَإِنَّهَا (١) - عَلَى هَذَا -
 عَائِدَةٌ عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

وقوله تعالى : (أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ) ، قال الطبري : معناه :
 أَمْ خُلِقُوا خَلَقَ الْجَمَادِ مِنْ غَيْرِ حَيٍّ (٢) فهم لا يؤمرون ولا يُنْهَوْنَ
 كما هي الجمادات عليه ؟ وقال آخرون : معناه : أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ
 عِلَّةٍ وَلَا لِمَا يَنْبَغِي عِقَابٍ وَلَا ثَوَابٍ فَهَمْ لِذَلِكَ لَا يَسْمَعُونَ وَلَا يَتَشَرَّعُونَ ؟
 وَهَذَا كَمَا تَقُولُ : فَعَلْتُ كَذَا وَكَذَا مِنْ غَيْرِ عِلَّةٍ ، أَيْ لِمَا يَنْبَغِي عِلَّةً ،
 ثُمَّ وَقَفَهُمْ تَعَالَى عَلَى جِهَةِ التَّوْبِيخِ عَلَى أَنْفُسِهِمْ ، أَهْمَ الَّذِينَ خَلَقُوا
 الْأَشْيَاءَ فَهَمْ لِذَلِكَ يَتَكَبَّرُونَ ؟ ثُمَّ خَصَّصَ تَعَالَى مِنَ الْأَشْيَاءِ السَّمَاوَاتِ
 وَالْأَرْضِ لِعَظَمَتِهَا وَشَرَفِهَا فِي الْمَخْلُوقَاتِ ، ثُمَّ حَكَمَ تَعَالَى عَلَيْهِمْ بِأَنَّهَمْ
 لَا يَوْقِنُونَ وَلَا يَنْظُرُونَ نَظْرًا يُوَدِّعُهُمْ إِلَى الْيَقِينِ .

(١) أي الهاء في [مِثْلِهِ] .

(٢) عبارة الطبري أوضح ، وهي : « أُنْخَلِقُ هَذَا الْمَشْرُوكُونَ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ » ، أي من

غير آباء ولا أمهات ؟ » .

قوله عز وجل :

﴿ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُضَيِّطُونَ ﴾ (٣٧) أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ
يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعَهُمْ سُلْطٰنٌ مُّبِينٌ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ
الْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَبٍ مُثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ
يَكْتُمُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلٰهٌ
غَيْرُ اللَّهِ سُبْحٰنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾ وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا
سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ ﴿

قوله تعالى : ﴿ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ ﴾ بمنزلة قوله تعالى : « أَمْ
عندهم الاستغناء عن الله تعالى في جميع الأمور » ؟ لأن المال والصحة
والقوة وغير ذلك من الأشياء كلها من خزائن الله تبارك وتعالى .
قال الزهراوي : وقيل : يريد بالخزائن العلم ، وهذا قول حسن إذا
تؤمل وبُسط ، قال الرماني : خزائنه تعالى : مقدوراته . و « الْمُضَيِّطُ » :
المُسلِّط القاهر ، وبذلك فسّر ابن عباس رضي الله عنهما ، وأصله
بالسين ، ولكن كتبه بعض الناس وقرأه بالصاد مراعاة للطاء ليتناسب
النطق ، وحكى أبو عبيدة : « تسيطرَ عليَّ » إذا اتخذتني خولاً .

و «السُّلْمُ» : السبب الذي يصعد به كان ما كان من خشب أو بناء أو جبال أو غيره ، ومنه قول ابن مقبل :

لَا تُحْرِزُ الْمَرْءَ أَحْجَاءُ الْبِلَادِ وَلَا تُبْنِي لَهُ فِي السَّمَوَاتِ السَّلَالِيمُ (١)

وحكى الرُّمَّانِي قال : لا يقال «سُلْمٌ» إِلَّا لِمَا بُنِيَ مِنَ الْأَدْرَاجِ وَإِنَّمَا السُّلْمُ الْمُشَبَّكُ ، وَبِيتِ الشَّعْرِ يَرُدُّ عَلَيْهِ ، وَالْمَعْنَى : أَلَهُمْ سُلْمٌ إِلَى السَّمَاءِ يَسْتَمْعُونَ فِيهِ ؟ أَي عَلَيْهِ وَمِنْهُ ، وَهَذِهِ حُرُوفٌ يَسُدُّ بَعْضُهَا مَسَدًا بَعْضُ (٢) ، وَالْمَعْنَى : يَسْتَمْعُونَ الْخَبَرَ (٣) بِصِحَّةِ مَا يَدْعُونَ ، فَلْيَأْتُوا بِالْحِجَّةِ الْمَبِينَةِ فِي ذَلِكَ .

وقوله تعالى : ﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ﴾ الآية ... معناه : أم هم أهل الفضيلة علينا فيلزم لذلك انتحائهم وتكبرهم ؟ ثم قال تعالى : أَمْ تَسْأَلُهُمْ يَا مُحَمَّدُ عَلَى الْإِيمَانِ بِاللَّهِ تَعَالَى وَشِرْعِهِ أَجْرَةً يُثْقَلُهُمْ غُرْمُهَا

(١) البيت لتميم بن أبي بن مقبل العجلاني ، وهو في اللسان ، وتُحْرِزُ : تصون وتحفظ ، والأحجاء : النواحي ، مثل الأرجاء ، والواحد فيهما حجاً ورجاً مقصور ، ويروى : أعناء البلاد ، والأعناء أيضاً النواحي والجوانب ، والواحد عنو ، والسلايم جمع سلْم ، وهو الدرجة والمرقاة ، يذكر ويؤنث ، وقد سمى السلْم سلماً لأنه يُسَلَّمُ الإنسان إلى حيث يريد . وقد احتاج الشاعر إلى زيادة الياء في «السلايم» حتى يسلم الوزن .

(٢) ومثل هذا كثير ، ومنه قوله تعالى : ﴿وَأَصْلَبْنَاكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ﴾ . أي على جدوع النخل ، وهذا تقدير الأخفش ، وأما أبو عبيدة فقد رده : «يستمعون به» . (٣) يعني أن (يستمعون) لها مفعول محذوف تقديره : الخبر ، وقد جاءت هذه الجملة في بعض الأصول : «يستمعون الجن» .

فهم لذلك يكرهون الدخول فيما يوجب غرامتهم؟ ثم قال تعالى :
 أم عندهم علم الغيب فهم يُبَيِّنُونَ ذلك للناس سُناً وشرعاً يكتبونه ،
 وذلك عبادة الأوثان وتسييب السوائب وغير ذلك من شرهم؟ وقيل :
 المعنى : فهم يعلمون متى يموت محمد الذي يتربصون به ؟ و [يَكْتُبُونَ]
 بمعنى يحكمون ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : يعني تعالى : أم
 عندهم اللوح المحفوظ فهم يكتبون ما فيه ويخبرون؟ ثم قال تعالى :
 أم يُريدون كيداً بك وبالشرع؟ ثم جزم الخبر بأنهم هم المكيدون ،
 أي هم المغلوبون ، فسمى تعالى غلبتهم كيداً إذ كانت عقوبة الكيد .

ثم قال تعالى : أم لهم إله غير الله يعصمهم ويمنعهم ويدفع في
 صدر إهلاكهم ، ثم نزه تبارك وتعالى نفسه عما يُشركون به من
 الأصنام والأوثان ، وهذه الأشياء التي وقفهم تعالى عليها حصرت جميع
 المعاني التي توجب الانتحاء والتكبر والبعد من الائتمار ، فوقفهم
 تعالى عليها ، أي ليست لهم ، ولا يبقى شيء يوجب ذلك إلا أنهم
 قوم طاغون ، وهذه صفة فيها تكسبهم وإيثارهم ، فتعلق بذلك عقابهم .
 ثم وصفهم تعالى بأنهم على الغاية من العتو والتمسك بالأقوال الباطلة
 في قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا ﴾ الآية ، وذلك أن قريشاً كان في
 جملة ما اقترحت « أَنْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ عَلَيْنَا كِسْفًا » ، وهي القطع ، واحدها

كِسْفَةً ، وتُجْمَعُ أَيْضاً عَلَى « كِسْفٍ » كَتَمْرَةٍ وَتَمْرٍ ، وَقَالَ الرَّمَّانِيُّ :
 هِيَ الَّتِي تَكُونُ بِقَدْرِ مَا يَكْسِفُ ضَوْءَ الشَّمْسِ ، فَأَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ
 فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّهِمْ لَوْ رَأَوْا كِسْفًا سَاقِطًا حَسَبَ اقْتِرَاحِهِمْ لَبَلَّغَ بِهِمُ
 الْعُتُوَّ وَالْجَهْلَ وَالْبَعْدَ عَنِ الْحَقِّ أَنْ يُغَالِطُوا أَنْفُسَهُمْ وَغَيْرَهُمْ وَيَقُولُوا :
 « سَحَابٌ مَرْكُومٌ » ، أَي كَثِيرٌ قَدْ تَرَكَمُ بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ ، وَلِهَذَا
 الْآيَةُ نِظَائِرٌ فِي آيَاتٍ أُخْرَى (١) .

قوله عز وجل :

﴿ فَذَرَهُمْ حَتَّى يَلْتَقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يَصْعَقُونَ ٤٥ ﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي
 عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصُرُونَ ٤٦ ﴿ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ
 وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٤٧ ﴾ وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ
 بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ٤٨ ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَرَ النُّجُومِ ٤٩ ﴾ ﴿

قوله تعالى : [فَذَرَهُمْ] وما جرى مجراه من المواعدة منسوخ بآية
 السيف ، وقرأ أبو جعفر ، وأبو عمرو - بخلاف عنه - : [يَلْتَقُوا] ،

(١) من ذلك قوله تعالى في الآية (٩٢) من سورة (الإسراء) : ﴿ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ
 كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا كَيْسَفًا ﴾ ، وقوله تعالى في الآية (١٨٧) من سورة (الشعراء) :
 ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كَيْسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ .

والجمهور على [يُلاقُوا] . واختلف الناس في اليوم الذي تُوَعَّدُوا به - فقال بعض المتأولين : هو موتهم واحداً واحداً ، وهذا على تجوز ، و «الصَّعْقُ» : التعذيب في الجملة وإن كان الاستعمال قد كثر فيه فيما يصيب الإنسان من الصيحة المفرطة ونحوه ، ويحتمل أن يكون اليوم الذي تُوَعَّدُوا به يوم بدر لأنهم عُدِّبوا فيه ، وقال الجمهور : التوعد بيوم القيامة لأن فيه صعقة تعم جميع الخلائق ، ولكن لا محالة أن بين صعقة المؤمن وصعقة الكافر فرقاً ، وقرأ جمهور القراء : [يَصْعَقُونَ] من : صَعِقَ الرَّجُلُ بكسر العين ، وقرأ أبو عبد الرحمن : [يَصْعِقُونَ] بفتح الياء وكسر العين ، وقرأ عاصم ، وابن عامر ، وأهل مكة - في قول شبيل - : [يُصْعَقُونَ] بضم الياء وفتح العين ، وذلك من : أصعق الرجل غيره ، وحكى الأنخفش : «صَعِقَ الرَّجُلُ» بضم الصاد وكسر العين ، قال أبو علي : فجائز أن يكون منه ، فهو مثل «يُضْرَفُونَ» ، قال أبو حاتم : وفتح أهل مكة الياء في قول إسماعيل .

و [يُغْنِي] معناه : يكون منه غناءً ودفاعاً ، ثم أخبر تعالى بأنهم لهم دون هذا اليوم - أي قبله - عذاب ، واختلف الناس في تعيينه - فقال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره : هو بدر والفتح ونحوه ،

وقال مجاهد : هو الجوع الذي أصاب قريشاً ، وقال البراء بن عازب ،
وابن عباس أيضاً : هو عذاب القبر ، ونزع ابن عباس رضي الله عنهما
في وجود عذاب القبر بهذه الآية ، وقال ابن زيد : هو مصائب الدنيا
في الأجسام وفي الأحبة وفي الأموال ، هي للمؤمنين رحمة وللكافرين
عذاب ، وفي قراءة ابن مسعود رضي الله عنه : « دُونَ ذَلِكَ قَرِيباً وَلَكِنْ
لَا يَعْلَمُونَ » .

ثم أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بالصبر لحكم الله
تبارك وتعالى والمضي على نذارته ووَعْدِهِ بقوله تعالى : ﴿ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ ،
ومعناه : بإدراكنا وأَعْيُنُ حَفْظْنَا لك وحيططنا ، كما تقول : فلان
يرعاه الملك بعين ، وهذه الآية ينبغي أن يُقَدَّرَها كلُّ مؤمن في نفسه
فإنها تفسح مضائق الدنيا ، وقرأ أبو السَّمَالِ : [بِأَعْيُنِنَا] بنون واحدة
مشددة .

واختلف الناس في قوله تعالى : ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ - فقال
أبو الأحوص عوف بن مالك (١) : هو التَّسْبِيحُ المعروف ، أي يقول

(١) هو عوف بن مالك بن نَضْلَةَ - بفتح النون وسكون الضاد المعجمة - الجُشْتَمِي -
بضم الجيم وفتح الشين المعجمة - أبو الأحوص الكوفي ، مشهور بكنيته « أبو الأحوص » ،
ثقة ، من الثالثة ، قُتِلَ في ولاية الحجاج على العراق . (تقريب التهذيب) .

في كل قيام : سبحان الله وبحمده ، وقال عطاء : المعنى : حين تقوم من كل مجلس ، وقال ابن زيد : التسبيح هنا هو صلاة النوافل ، وقال الضحاك ، وابن زيد : هذه إشارة إلى الصلوات المفروضة ، فقوله تعالى : ﴿ حِينَ تَقُومُ ﴾ : الظهر والعصر ، أي : حين تقوم من نوم القائلة ، وقوله تعالى : ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ ﴾ : المغرب والعشاء ، وقوله تعالى : ﴿ وَإِذْبَارَ النُّجُومِ ﴾ : الصُّبْح ، وَمَنْ قَالَ هِيَ النُّوَافِلُ جَعَلَ « إِذْبَارَ النُّجُومِ » رَكْعَتِي الْفَجْرِ ، وعلى هذا القول جماعة كثيرة منهم : عمر بن الخطاب ، وعلي بن أبي طالب ، وأبو هريرة ، والحسن ، رضي الله عنهم ، وقد روي مرفوعاً ، ومن جعله التسبيح المعروف جعل قوله تعالى : ﴿ حِينَ تَقُومُ ﴾ مثلاً ، أي : حين تقوم وحين تقعد وفي كل تصرفك ، وحكى منذر عن الضحاك أن المعنى : حين تقوم في الصلاة بعد تكبيرة الإحرام فقل : (سبحانك اللهم وبحمدك ، تبارك اسمك ، وتعالى جدك...) الحديث (١) .

(١) هذا الحديث أخرجه الترمذي في الصلاة ، والنسائي في الافتتاح ، وابن ماجه في الإقامة ، والدارمي في الصلاة ، وأحمد في مسنده (٣-٥٠ ، ٦٩) ، عن أبي سعيد الخدري ، ولفظه كما في مسند أحمد : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قام من الليل واستفتح صلاته وكبّر قال : (سبحانك اللهم وبحمدك ، تبارك اسمك ، وتعالى جدك ، ولا إله غيرك) ، ثم يقول : (لا إله إلا الله) ثلاثاً ، ثم يقول : (أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم) =

وقرأ سالم بن أبي الجعد (١) ، ويعقوب : ﴿وَأَذْبَارَ النُّجُومِ﴾
بفتح الهمزة بمعنى : وأعقاب ، ومنه قول الشاعر :

فَأَصْبَحْتُ مِنْ لَيْلَى الْغَدَاةِ كَنَاطِرٍ مَعَ الصُّبْحِ فِي أَعْقَابِ نَجْمٍ مُغْرَبٍ (٢)
وقرأ جمهور الناس : ﴿وَأَذْبَارَ النُّجُومِ﴾ بكسر الهمزة .

كامل تفسير سورة الطور والحمد لله رب العالمين

= من همزه ونفحه) ، ثم يقول : (الله أكبر) ثلاثاً ، ثم يقول : (أعوذ بالله السميع العليم
من الشيطان الرجيم ، من همزه ونفحه ونفته) .

(١) هو سالم بن أبي الجعد رافع ، الغطفاني الأشجعي مولاهم ، الكوفي ، ثقة ، وكان
يرسل كثيراً ، من الثالثة ، مات سنة سبع أو ثمان وتسعين ، وقيل : مائة أو بعد ذلك ، ولم يثبت
أنه جاوز المائة . (تقريب التهذيب) .

(٢) هذا البيت لقيس بن الملوّح ، وهو في الديوان ، والأغاني ، واللسان ، وذكر صاحب
اللسان أن المبرد نسب هذا البيت إلى أبي حبيّة النميري ، والمغرب : الذي يأخذ في ناحية
المغرب ، والشاهد في البيت أن « أعقاب » بمعنى : بَعْدَهُ ، أو خَلْفَهُ ، وأعقاب النجوم
بمعنى (أذبار النجوم) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين
سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين



هي مكيّة بإجماع من المتأولين (١) ، وهي أول سورة أعلن بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجهر بقراءتها في الحرم والمشركون يستمعون ، وفيها سجد وسجد معه المؤمنون والمشركون والجن والإنس غير أبي لهب فإنه رفع حفنة من تراب إلى جبهته وقال : يكفيني هذا (٢) ،

سورة النجم مكيّة ، وهي أول سورة أعلن بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفيها سجد وسجد معه المؤمنون والمشركون والجن والإنس غير أبي لهب فإنه رفع حفنة من تراب إلى جبهته وقال : يكفيني هذا (٢) ،

(١) لكن حكى عن ابن عباس وقتادة أنهما قالوا : إلا آية منها ، وهي قوله تعالى في الآية ٣٢ : ﴿ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْأَسْمِ وَالْفَوَاحِشِ ﴾ الآية . قال القرطبي : والصحيح أنها مكية لما روى ابن مسعود أنه قال : هي أول سورة أعلنها رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة .

(٢) روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : سجد النبي صلى الله عليه وسلم بالنجم وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس ، وروى أيضاً مثله عن عبد الله ، وفيه أن الرجل الذي أخذ كفاً من تراب هو أمية بن خلف ، وقد أخرج هذا الحديث أيضاً الإمام =

وسبب هذه السورة أن المشركين قالوا : إنَّ محمداً يتقول القرآن ويخلق أقواله ، فنزلت السورة في ذلك .

قوله عز وجل :

﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝۱ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝۲ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝۳ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝۴ عَلَيْهِ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ۝۵ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ۝۶ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ۝۷ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝۸ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝۹ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ ۝۱۰ مَا أَوْحَىٰ ۝۱۱ مَا كَذَّبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ۝۱۲﴾

أقسم الله تعالى بهذا المخلوق تشریفاً له وتنبيهاً منه ليكون معتبراً فيه ، حتى تؤول العبرة فيه إلى معرفة الله تبارك وتعالى ، وقال الزهراوي : المعنى : وربّ النجم ، وفي هذا قلق مع لفظ الآية ، واختلف المتأولون في تعيين النجم المُقسم به - فقال ابن عباس ، ومجاهد ، والفراء ، وبينه منذر بن سعيد : هو الجملة من القرآن إذا تنزلت ، وذلك أنه روي أن القرآن نزل على النبي صلى الله عليه وسلم نجوماً ، أي أقداراً مقدرة في أوقات ما ، ويجيء [هوى] - على هذا التأويل - بمعنى

= مسلم ، وابن أبي شيبة ، وأبو داود ، والنسائي ، وابن مردويه ، ذكر ذلك الإمام السيوطي في الدر المنثور .

نزل ، وفي هذا الهويُّ بُعدٌ وتحاملٌ على اللُّغة ، ونظير هذه الآية قوله تعالى : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴾ (١) ، والخلاف في هذا كالاخلاف في ذلك ، وقال الحسن ، ومعر بن المثنى ، وغيرهما : النجم هنا اسم جنس ، أراد : والنجوم إذا هوت ، واختلف قائلوا هذه المقالة في معنى [هوى] - فقال جمهور المفسرين : هوى للغروب ، وهذا هو السابق إلى الفهم من كلام العرب ، وقال الحسن بن أبي الحسن ، وأبو حمزة اليماني : هوى عند الانكدار في القيامة ، فهي بمعنى قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ أُنْتَثَرَتْ ﴾ (٢) ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما - في كتاب الثعلبي - : هوى في الانقضاض في أثر العفريّة (٣) ، وهي رجوم الشياطين (٤) ، وهذا القول تُسعدُه اللُّغة ،

(١) الآية (٧٥) من سورة (الواقعة) . وقد نقل الفراء عن عبد الله أنه قال عن قراءة الكسائي : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴾ : هو مُحْكَم القرآن .

(٢) الآية (٢) من سورة (الانفطار) .

(٣) في اللسان « قال الخليل : شيطانٌ عِفْرِيَّةٌ وَعِفْرِيَّتٌ ، وهم العفارية والعفاريث ، والعِفْرِيَّةُ : الداهية » .

(٤) وهي التي أشار إليها قوله تعالى في سورة الصافات : ﴿ إِنَّا زَيْنًا أَلْسَمَاءَ أَلْدُنِّيَا بَيْرِيْنَةَ الْكَوَاكِبِ ، وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ ﴾ الآيات إلى قوله سبحانه : ﴿ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾ .

والتأويلات في [هوى] محتملة كلها قوية ، ومن الشاهد في النجم الذي هو اسم الجنس قول الراعي :

فَبَاتَتْ تَعْدُ النُّجْمَ فِي مُسْتَحِيرَةٍ سَرِيعٍ بِأَيْدِي الْآكِلِينَ جُمُودَهَا (١)

يصف إهالة صافية ، والمستحيرة : القدر التي يُطبخ فيها ، قاله الزجاج ، وقال الرَّمَانِي : هي شحمة صافية حين ذابت . وقال مجاهد ، وسفيان : النجم في قَسَم الآية : الثُّرَيَّا ، وسقوطها مع الفجر هو هُويُّها ، والعرب لا تقول النجم مطلقاً إلا للثُّرَيَّا ، ومنه قول العرب : « طَلَعَ النُّجْمُ عِشَاءً ، فابْتَغَى الرَّاعِي كِسَاءً ، طَلَعَ النُّجْمُ غُدِيَّةً ، فابْتَغَى

(١) الراعي هو حُصَيْن بن معاوية التَّمِيمِي ، لُقِّبَ بِالرَّاعِي لِأَنَّهُ كَانَ يَصِفُ رَاعِي الْإِبِلِ فِي شِعْرِهِ ، وَالْبَيْتُ فِي اللِّسَانِ ، وَفِي حِمَاسَةِ أَبِي تَمَامٍ ، وَفِي مَجَازِ الْقُرْآنِ لِأَبِي عُبَيْدَةَ ، وَالْمُسْتَحِيرَةُ : الْحَقِيقَةُ أَوْ الْقِدْرُ الَّتِي يُطْبَخُ فِيهَا ، سَمِّيَتْ مُسْتَحِيرَةً لِأَنَّ الدَّسْمَ يَتَحِيرُ فِيهَا ، وَالشَّاعِرُ يَتَحَدَّثُ فِي الْبَيْتِ عَنِ امْرَأَةٍ أَضَافَهَا ، وَقَالَ : إِنَّهَا كَانَتْ تَعْدُ النُّجْمَ فِي هَذِهِ الْقِدْرِ ، وَأَرَادَ بِالنُّجْمِ كَمَا قَالَ صَاحِبُ اللِّسَانِ : الثُّرَيَّا ؛ لِأَنَّ فِيهَا سِتَّةَ أَنْجُمٍ ظَاهِرَةٌ يَتَخَلَّلُهَا نَجُومٌ صَغِيرَةٌ خَفِيَّةٌ ، وَابْنُ عَطِيَّةٍ يَقُولُ : إِنَّ النُّجْمَ هُنَا اسْمُ جِنْسٍ يَرَادُ بِهِ جَمِيعُ النُّجُومِ ، وَمَعْنَى (تَعْدُ النُّجْمَ) أَنَّهَا تَرَى النُّجُومَ فِي هَذِهِ الْمُسْتَحِيرَةِ وَتَسْتَطِيعُ أَنْ تَعْدَّهَا - مِنَ الْعَدَدِ - لِأَنَّهَا صَافِيَةٌ وَالنُّجُومُ ظَاهِرَةٌ فِيهَا ، قَالَ أَبُو الْعَلَاءِ : وَقَدْ يَجُوزُ هَذَا الْوَجْهُ ، وَقَدْ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ (تَعْدُ) بِمَعْنَى : تَحْسَبُ وَتَظُنُّ ، بِمَعْنَى أَنَّ الْمَرْأَةَ تَظُنُّ أَنَّ النُّجْمَ فِي الْقِدْرِ لَمَّا تَرَاهُ مِنْ بَيَاضِ الشَّحْمِ ، وَهَذَا الشَّحْمُ الصَّافِي الَّذِي ذَابَ فِي الْقِدْرِ يَجْمَدُ بِسُرْعَةٍ عِنْدَمَا يَأْخُذُهُ الْآكِلُونَ بِأَيْدِيهِمْ وَيَبْعُدُ عَنِ النَّارِ .

الرَّاعِي شُكِيَّةٌ» (١) ، و [هَوَى] - على هذا القول - يحتمل الغروب
ويحتمل الانكدار (٢) ، و «هَوَى» في اللُّغة معناه : خرق الهواء ومقصده
السُّفْلُ ، أو مَصيره وإن لم يقصده ، ومنه قول الشاعر :

هَوَى ابْنِي مِنْ شَفَا جَبَلٍ فَزَلْتُ رِجْلُهُ وَيَسْدُهُ (٣)

وقول الشاعر :

وَإِنَّ كَلَامَ الْمَرْءِ فِي غَيْرِ كُنْهِهِ لَكَالِنَبْلِ تَهْوِي لَيْسَ فِيهَا نِصَالُهَا (٤)

(١) ذكر هذا السجع صاحب اللسان في (نجم) ، قال : «وفي التنزيل العزيز ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى﴾ ، أقسم الله تعالى بالنجم : وجاء في التفسير أنه الشَّرِيًّا ، وكذلك سمتها العربُ ، ومنه قول ساجعهم : طلع النجم عشاء... الخ والسُّكِيَّةُ هي الشُّكْوَى ، يقال : شكوتُ فلاناً أشكوهُ شُكْوَى وشِكَايَةً وشُكِيَّةً وشِكَاةً .

(٢) أي : التَّنَاثُرُ في جهات متفرقة ، قال الله تعالى : ﴿وَإِذَا أَنْجَمُوا أَنْكَدَرَتْ﴾ ، والمعنى : انْتَشَرَتْ .

(٣) هَوَى : سقط إلى أسفل وهو لم يقصد ذلك ، وهذا هو موضع الشاهد ، والشَّفَا : حرف الشيء وحده ، قال الله تعالى : ﴿عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾ ، وزلَّ : زَلِقَ ، ولم أقف على قائله .

(٤) البيت في اللسان غير منسوب ، قال : «كُنْهُ كُلُّ شَيْءٍ : قَدْرُهُ ونهايته وغايته ... تقول : بلغت كُنْهُ هذا الأمر . أي غايته ، وفعلتُ كذا في غير كُنْهِه ، وأنشد : (وَإِنَّ كَلَامَ الْمَرْءِ فِي غَيْرِ كُنْهِهِ... البيت) ، ولا يُسْتَقُ منه فعل ، والنَّبْلُ : السهم ، وهي مؤنثة لا واحد لها من لفظها ، لا يقال نبلة . وتهوي : تسرع إلى الرَّمِيَّةِ ، والنَّصْلُ : حديدة السَّهْمِ ، يقول الشاعر : إن كلام المرء في غير مكانه ووقته وبدون هدف كالنَّبْلِ يرمي بها الإنسان وليس فيها نصلها ، فهي لا تصيب هدفاً ولا تحقق غاية ولا قيمة لها ولا نتيجة .

وقول زهير :

..... هُوِيَّ الدَّلُوْ أَسْلَمَهَا الرَّشَاءُ (١)

ومنه قولهم للجراد : الهاوي (٢) ، ومنه : هُوِيَّ العقاب .

والقَسَمَ واقع على قوله تعالى : ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى ﴾ ،
و « الضَّالُّ » أبداً يكون بغير قصد من الإنسان إليه ، و « الغيُّ »
شيءٌ كأنك تتكسبه وتريده ، فنفي الله تعالى عن قلبه هذين الحالين ،
و غَوَى الرجل يَغْوِي إذا سلك سبيل الفساد والْعُوج ، نفى الله تعالى
عن نبيه صلى الله عليه وسلم أن يكون ضلَّ في هذه السبيل التي أسلكه

(١) هذا عجز بيت قاله زهير بن أبي سلمى ، والبيت بتمامه :

فَشَجَّ بِهَا الْأَمَاعِزَ فَهَيَّ تَهْوِي هُوِيَّ الدَّلُوْ أَسْلَمَهَا الرَّشَاءُ

والبيت في الديوان ، وفي اللسان ، والشاعر يصف فيه حماراً وحشياً يقود قطعاً من الأذن
في أرض وعرة ، فالفاعل بالفعل « شَجَّ » هو الحمار ، والضمير في « بها » يعود على الأذن ،
وشجَّ الأرض معناها : ركب الأرض وعلاها ، والأماعز : حُزُونُ الأَرْضِ الكَثِيرَةُ الحَصَى ،
وتَهْوِي : تُسْرِعُ فِي انْطِلَاقِهَا وَسَطَ هَذِهِ الحُزُونِ ، والرشاء : الحبل الذي ترفع به الدلو من
البر ، ومعنى « أسلمها » تركها وانقطع فهي تسقط بسرعة ، يشبه زهير هذه الأذن وهي تجري
بسرعة كبيرة وسط هذه الأرض الجرداء وخلف هذا الحمار الذي يقودها ، يشبهها في سرعتها
وانقضاضها بالدلو التي انقطع حبلها وهي مملأى بالماء فاندفعت تهوي إلى أسفل .

(٢) إذا أجذب الناس قال العرب : « أتى الهاوي والعاوي ، فالهاوي : الجراد ، والعاوي :

الذئب » (من اللسان) .

الله تعالى إياها ، وأثبت الله تعالى في سورة الضحى أنه قد كان قبل النبوة ضالاً بالإضافة إلى حاله من الرشد بعدها (١) .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى ﴾ يريد تعالى محمداً صلى الله عليه وسلم أنه ليس بمتكلم عن هواه ، أي بهواه وشهوته ، وقال بعض العلماء : المعنى : وما ينطق القرآن المنزل عن هوى وشهوة ، ونسب تعالى النطق إليه من حيث يفهم منه ، كما قال تعالى : ﴿ هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ ﴾ (٢) ، وأسند الفعل إلى القرآن ولم يتقدم له ذكر لدلالة المعنى عليه . وقوله تعالى : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴾ يُراد به القرآن بإجماع ، والوحي : إلقاء المعنى في خفاء ، وهذه العبارة تعم الملك والإلهام والإشارة وكل ما يُحفظ من معاني الوحي . والضمير في قوله تعالى : [عَلَّمَهُ] يحتمل أن يكون للقرآن ، والأظهر أنه لمحمد صلى الله عليه وسلم ، وأما المُعَلِّمُ فقال قتادة ، والربيع ، وابن عباس : هو جبريل عليه السلام ، أي : علّم محمداً صلى الله عليه وسلم القرآن ، وقال الحسن : المُعَلِّمُ الشَّدِيدُ الْقُوَى هو الله تعالى ، و « أَلْقَوَى » جمع قُوَّة ، وهذا في جبريل عليه السلام متمكن ، ويؤيده

(١) وذلك في قوله تعالى في سورة الضحى : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهْتَدَى ﴾ .

(٢) من الآية (٢٩) من سورة (الجاثية) .

قوله تعالى : ﴿ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ (١) ، و ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾
 معناه : ذو قُوَّة ، قاله قتادة ، وابن زيد ، والربيع ، ومنه قول النبي
 صلى الله عليه وسلم : (لا تحلُّ الصَّدقة لِغَنِيِّ ولا لِذِي مِرَّةٍ سَوِيٍّ) (٢) ،
 وأصل المِرَّة من مرائر الحبل (٣) وهي فتله وإحكام عمله ، ومنه قول
 امرئ القيس :

بِكُلِّ مُمَرٍّ الْفَتْلِ شُدَّتْ بِيَذْبُلِ (٤)

(١) الآية (٢٠) من سورة (التكوير) .

(٢) أخرجه أبو داود ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجه ، والدارمي ، وأحمد ،
 عن عبد الله بن عمرو ، والسَّوِيُّ : الصحيح السليم الأعضاء .

(٣) في اللسان : « المرائر : الحبال المقتولة على أكثر من طاق ، واحدها مرير ومريرة »
 وفيه « كلُّ قُوَّةٍ من قوى الحبل مِرَّةٌ ، وجمعها مِرَرٌ » .

(٤) هذا عجز بيت لامرئ القيس ، روي بهذه الألفاظ ، وورد هكذا في الأصول ،
 ولكن الرواية الثابتة في الديوان ، وفي شرح القوائد السبع لأبي بكر الأنباري ، وفي موسوعة
 الشعر العربي تختلف عن ذلك ، وليس فيها شاهد هنا ، والبيت بتمامه كما في الديوان :

فَيَا لَكَ مِينَ لَيْلٍ كَأَنَّ نَجُومَهُ
 بِكُلِّ مُغَارٍ الْفَتْلِ شُدَّتْ بِيَذْبُلِ

ويروى : (كَأَنَّ نَجُومَهُ بِأَمْرَاسٍ كَتَّانٍ إِلَى صُمِّ جَتْدَلِ) ، وقد قال ابن الأنباري : إن
 الأصمعي لم يرو هذا البيت ضمن معلقة امرئ القيس ، ورواه يعقوب وغيره ، قال يعقوب :
 معناه : كأن نجومه شُدَّتْ بِيَذْبُلِ ، وهو الجبل ، والمغار : الحبل الشديد الفتل ، وكذلك
 (مُمَرٍّ الْفَتْلِ) معناه : مُحْكَمِ الْفَتْلِ ، وقوله : (مِينَ لَيْلٍ) معناه التفسير للتعجب ، ولم
 يستشهد بهذا البيت أحد من المفسرين المعروفين كالطبري والقرطبي والزمخشري لأن الرواية
 الصحيحة ليست فيها كلمة (مِرَّةٍ أو مُمَرٍّ) .

وقال قوم ممن قال إنَّ « ذا المرّة » جبريل : معنى ﴿ ذُو مِرَّةٍ ﴾ : ذو هيئة حسنة ، وقال آخرون : بل معناه : ذو جسم طويل حسن ، وهذا كله ضعيف (١) .

و [أَسْتَوَى] مُسْتَدٌ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي قَوْلِ الْحَسَنِ الَّذِي قَالَ : إِنَّهُ الْمُتَّصِفُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ شَدِيدُ الْقُوَى ﴾ ، وَكَذَلِكَ يَجِيءُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى ﴾ صِفَةً لِلَّهِ تَعَالَى عَلَى مَعْنَى : وَعَظَمَتُهُ وَقَدْرَتُهُ وَسُلْطَانُهُ نَتَلَقَى نَحْنُ أَنَّهُ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى ، وَيَجِيءُ الْمَعْنَى نَحْوَ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ أَسْتَوَى ﴾ (٢) ، وَمَنْ قَالَ : إِنَّ الْمُتَّصِفَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ شَدِيدُ الْقُوَى ﴾ هُوَ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ : إِنَّ [أَسْتَوَى] مُسْتَدٌ إِلَى جَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَاخْتَلَفُوا بَعْدَ ذَلِكَ - فَقَالَ الرَّبِيعُ ، وَالزَّجَّاجُ : الْمَعْنَى : فَاسْتَوَى جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الْجَوِّْ وَهُوَ إِذْ ذَاكَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى فَرَأَاهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِحِرَاءٍ قَدْ سَدَّ الْأُفُقَ ، لَهُ سِتْمَائَةٌ جَنَاحُ ، وَحِينَئِذٍ دَنَا مِنْ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى كَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ ، وَكَذَلِكَ هُوَ الْمُرْتَبِيُّ - فِي هَذَا الْقَوْلِ - فِي « النَّزْلَةِ

(١) استشهد المفسرون على ذلك بأبيات من الشعر ، ولكن ابن عطية لم يقبلها ويرى أنها

أقوال ضعيفة .

(٢) الآية (٥) من سورة (طه) .

الأخرى» في صفته العظيمة له ستمائة جناح عند السُدرة . وقال الطبري والفراء : المعنى : فاستوى جبريل عليه السلام ، وقوله تعالى : (وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى) يعني محمداً صلى الله عليه وسلم وقد تقدم ذكره في الضمير في [عَلَّمَهُ] ، وفي هذا التأويل العطفُ على المُضمَر المرفوع دون أن يؤكد ، وذلك عند النحاة مستقبح ، وأنشد الفراء حُجَّةً على قوله :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ النَّبْعَ يَصْلُبُ عُوْدُهُ وَلَا يَسْتَوِي وَالْخِرْوَعُ الْمَتَقَصِّفُ (١)

(١) هذا البيت من شواهد الفراء في (معاني القرآن) ، والرواية فيه (يُخَلِّقُ) بدلا من (يَصْلُبُ) ، والنَّبْعُ : شجر صلب متين ينبت في أعالي الجبال ، ومن خشبه تُتَّخَذُ الْقِسِيُّ وَالسَّهْمُ ، وَالْخِرْوَعُ : شجر لين يتقصف بسهولة ، ومن بلوره الملساء الكبيرة الحجم يُسْتَخْرَجُ زَيْتُ الْخِرْوَعِ ، وهو بكسر الخاء . أما الْخِرْوَعُ ففتح الخاء فهو المرأة الفاجرة أو الناعمة التي تنشئ لينا ، وفرق كبير بين النَّبْعِ وَالْخِرْوَعِ فلا يستوى الخروع بالنبع في الصلابة والمتانة ، وهذا هو معنى البيت ، أما الشاهد فيه فقد وضَّحه الفراء بقوله : « استوى هو وجبريل بالأفق الأعلى لما أسري به ، وهو مطلع الشمس الأعلى . فأضمير الاسم في (أَسْتَوَى) . ورد عليه (هُوَ) ، وأكثر كلام العرب أن يقولوا : استوى هو وأبوه ، ولا يكادون يقولون : استوى وأبوه ، وهو جائز لأن في الفعل مُضْمَرًا . أنشدني بعضهم : أَلَمْ تَرَ أَنَّ النَّبْعَ ... البيت » ، ومعنى ذلك أنه تمَّ عطف (هُوَ) الضمير البارز على الضمير المستتر في (أَسْتَوَى) . وفي البيت هنا عطف (الْخِرْوَعِ) على الضمير المستتر في (يَسْتَوَى) . ومثله في ذلك قوله تعالى : ﴿ أَلَيْسَ لَنَا بِمَدِينَةٍ مَّيْمَنَةٌ مِّنْ دُونِ الْمَدِينَةِ وَمَا كُنَّا بِمُقَرَّبِينَ إِلَيْهَا فَمَا لِمَ آلَيْنَاكُم بِذُنُوبِكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ . وحسن ذلك الفصلُ بينهما بقوله : (تُرَابًا) .

هذا هو الرأي الذي قاله الطبري واستشهد بكلام الفراء . وقد علّق عليه الإمام ابن كثير =

وقد ينعكس هذا الترتيب فيكون [أَسْتَوَى] لمحمد صلى الله عليه وسلم ، و [هُوَ] لجبريل عليه السلام ، وأَمَّا [الْأَعْلَى] فهو عندي لِقِمَّةِ الرَّأْسِ وما جرى معه ، وقال الحسن وقتادة : هو أَفُقُ مَشْرِقِ الشَّمْسِ ، وهذا التخصيص لا دليل عليه .

واختلف الناس ، إلى من استند قوله تعالى : ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴾ - فقال الجمهور : استند إلى جبريل عليه السلام ، أي : دنا إلى محمد صلى الله عليه وسلم عند حراء ، فقال ابن عباس ، وأنس رضي الله عنهم في حديث الإسراء ما يقتضي أنه مُسْتَنَدٌ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ، ثم اختلف المتأولون - فقال مجاهد : كان الدنوُّ إِلَى جَبْرِئِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وقال بعضهم : كان إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، و ﴿دَنَا فَتَدَلَّى﴾ - على هذا القول - معه حذف مضاف ، أي دنا سُلْطَانَهُ وَوَحْيَهُ وَقَدْرَهُ ، والانتقال وهذه الأوصاف منتفية في حق الله تبارك وتعالى .

والصحيح عندي أن جميع ما في هذه الآيات هو مع جبريل عليه السلام ، بدليل قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾ ، فإن

= في تفسيره فقال : « وهذا الذي قاله من جهة العربية متجه ، ولكن لا يساعده المعنى على ذلك ؛ فإن هذه الرؤيا لجبريل لم تكن ليلة الإسراء بل قبلها ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم في الأرض ، فهبط عليه جبريل عليه السلام وتدلَّى إليه ، فاقترَب منه وهو على الصورة التي خلقه الله عليها ، له ستمائة جناح ، ثم رآه بعد ذلك نزلةً أُخْرَى عند سدرة المنتهى ، يعني ليلة الإسراء » .

ذلك يقتضي بنزلة متقدمة ، وما رُوي قط أن محمداً صلى الله عليه وسلم رأى ربه عزَّ وجلَّ قبل ليلة الإسراء ، أما إنَّ رؤية القلب لا تُمنع بحال .

و [دَنَا] أعم من [تَدَلَّى] ، فبيَّن تعالى بقوله : [فَتَدَلَّى] هيئة الدُّنُوِّ كيف كانت . و [قَابَ] معناه : قَدَرَ ، وقال قتادة وغيره : معناه : من طرف العود إلى طرفه الآخر ، وقال الحسن ومجاهد : من الوتر إلى العود في وسط القوس عند المقبض . وقرأ محمد بن السَّمِيفَع اليماني : «وكان قيسَ قَوْسَيْنِ» ، والمعنى قريب من قاب ، ومن هذه اللفظة قول النبي صلى الله عليه وسلم : (لَقَابُ قَوْسٍ أَحَدَكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا) (١) ، وفي حديث آخر (لَقَابُ قَوْسٍ أَحَدَكُمْ فِي الْجَنَّةِ) . وقوله تعالى : (أَوْ أَدْنَى) معناه : على مقتضى نظر البشر ، أي : لو رآه أحدكم لقال في ذلك : قوسان أو أدنى ، وقال أبو رزين : ليست بهذه القوس ولكن قدر الذراعين أو أدنى ،

(١) أخرجه البخاري في الجهاد ، وبدء الخلق ، والرقاق ، والترمذي في فضائل الجهاد ، وأحمد في مسنده (٢-٤٨٢ ، ٣-١٤١) ، ولفظه كما في البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (لَقَابُ قَوْسٍ فِي الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِمَّا تَطَّلِعُ عَلَيْهِ الشَّمْسُ وَتَغْرُبُ) ، وقال : (لَعَدْوَةٌ أَوْ رُوْحَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ خَيْرٌ مِمَّا تَطَّلِعُ عَلَيْهِ الشَّمْسُ وَتَغْرُبُ) .

وحكى الزهراوي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن القوس في هذه الآية ذراع تُقاس به الأطوال ، وذكره الثعلبي وأنه من لغة الحجاز .

قوله تعالى : ﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴾ ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : المعنى : فأوحى الله تعالى إلى عبده محمد - صلى الله عليه وسلم - ما أوحى ، وقال بعض العلماء : المعنى : فأوحى الله تعالى إلى عبده جبريل - عليه السلام - ما أوحى ، وفي قوله تعالى : ﴿ مَا أَوْحَى ﴾ إبهام على جهة التفضيم والتعظيم ، والذي عُرف من ذلك فرض الصلاة . وقال الحسن : المعنى : فأوحى جبريل إلى عبد الله محمد عليهما الصلاة والسلام ما أوحى ، كالأول في الإبهام ، وقال ابن زيد : المعنى : فأوحى جبريل إلى عبد الله ما أوحى الله تعالى إلى جبريل عليهما الصلاة والسلام .

قوله تعالى : ﴿ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى ﴾ ، قرأ جمهور القراء بتخفيف الذال على معنى : لم يكذب قلب محمد عليه الصلاة والسلام الشيء الذي رأى بل صدقه وتحققه نظراً ، و « كَذَبَ » يتعدى ، وقال أهل التأويل - ومنهم ابن عباس رضي الله عنهما ، وأبو صالح - : رأى محمد صلى الله عليه وسلم الله تعالى بفؤاده ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم : (جعل الله تعالى نور بصري في فؤادي فنظرتُ إليه

بفؤادي» (١) ، وقال آخرون من المتأولين : ما رآه بعينه لم يكذب ذلك قلبه بل صدقه وتحققه ، ويحتمل أن يكون التقدير : «فيما رأى» ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما - فيما روي عنه - وعِكرمة ، وكعب الأحبار : إن محمداً صلى الله عليه وسلم رأى ربه عز وجل بعيني رأسه ، ويبسط الزهراوي هذا الكلام عنهم ، وأبت عائشة رضي الله عنها ، وقالت : أنا سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) هذا جزء ورد في آخر حديث الخصومات من رواية لابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما ، قال عنها ابن كثير : فيها زيادة غريبة ، وبعد أن نقل الحديث قال : وإسناده ضعيف ، وحديث الخصومات أخرجه الإمام أحمد عن معاذ رضي الله عنه ، وقال عنه الإمام ابن كثير : «وهو حديث المنام المشهور» ، يعني أن الرؤيا التي وردت فيه كانت مناماً ، وكذلك أخرجه الترمذي من حديث جهضم بن عبد الله اليمامي ، وقال الحسن : صحيح ، وأخرجه عبد الرزاق عن ابن عباس أيضاً وفي أوله : (أتاني ربي الليلة في أحسن صورة - أحسبه يعني في النوم -) ، أما رواية ابن جرير التي فيها هذا الجزء الذي ذكره ابن عطية فهي كما في تفسير الطبري : (رأيت ربي في أحسن صورة ، فقال لي : يا محمد ، هل تدري فيم يختصم الملائكة الأعلى ؟ فقلت : لا يارب ، فوضع يده بين كتفي ، فوجدت بردها بين ثديي ، فعلمت ما في السموات والأرض ، فقلت : يارب في الدرجات والكفارات ونقل الأقدام إلى الجمعات . وانتظار الصلاة بعد الصلاة ، فقلت : يارب إنك اتخذت إبراهيم خليلاً ، وكلمت موسى تكليماً ، وفعلت وفعلت ، فقال : ألم أشرح لك صدرك ؟ ألم أضع عنك وزرك ؟ ألم أفعل بك ؟ ألم أفعل ؟ قال : فأفضى إليّ بأشياء لم يؤذن لي أن أحدثكموها ، قال : فذلك قوله في كتابه يحدثكموه : ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ، فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ، فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى ، مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ ، فجعل نور بصري في فؤادي فنظرت إليه بفؤادي .

عن هذه الآيات فقال لي : (هو جبريل فيها كلها) (١) ، وقال الحسن :
المعنى : ما رأى من مقدورات الله تعالى وملكوته ، وسأل أبو ذر النبي
صلى الله عليه وسلم : هل رأيت ربك ؟ فقال : (نوراً أنى أراه) (٢) ،

(١) هذا جزء من حديث أخرجه البخاري في تفسير سورة النجم ، ومسلم في الإيمان ،
وأحمد في مسنده (٦-٤٩) ، والترمذي في تفسير سورة النجم ، وهو عن مسروق ، وزاد
السيوطي في « الدر المنثور » نسبه إلى عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، والحاكم ،
وابن مردويه عن الشعبي ، ولفظه كما جاء في صحيح مسلم : قال : كنت متكئاً عند عائشة ،
فقلت : يا أبا عائشة - وهذه كنية الإمام مسروق - ثلاثٌ من تكلم بواحدة فيهن فقد أعظم
على الله الفرية ، قلت : ما هن ؟ قالت : من زعم أن محمداً صلى الله عليه وسلم رأى ربه
فقد أعظم على الله الفرية ، قال : وكنت متكئاً فجلست فقلت : يا أم المؤمنين أنظريني ولا
تعجليني ، ألم يقل الله عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ ﴾ ، ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ
نَزْلَةً أُخْرَى ﴾ ، فقلت : أنا أول هذه الأمة سأل عن ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم
فقال : إنما هو جبريل ، لم أره على صورته التي خلق عليها غير هاتين المرتين ، رأيته مُنْهَبِطاً
من السماء ساداً عِظَمُ خلقه ما بين السماء إلى الأرض ، فقلت : أو لم تسمع أن الله يقول :
﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ ، أو لم تسمع
أن الله يقول : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحِيّاً أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ
أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ . قالت : ومن زعم
أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كتم شيئاً من كتاب الله فقد أعظم على الله الفرية ، والله يقول :
﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ
رِسَالَاتَهُ ﴾ . قالت : ومن زعم أنه يخبر بما يكون في غد فقد أعظم على الله الفرية ، والله يقول :
﴿ قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ .

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان ، والترمذي في التفسير ، وأحمد في مسنده (٥-١٥٧) ،
١٧١ ، ١٧٥) ، عن عبد الله بن شقيق ، ولفظه كما جاء في صحيح مسلم (عن أبي ذر قال : =

وهذا هو قول الجمهور ، وحديث عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم قاطع لكل تأويل في اللفظ ؛ لأن قول غيرها إنما هو منتزعٌ من ألفاظ القرآن . وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما - فيما روى عنه هشام - : ﴿ مَا كَذَّبَ ﴾ بتشديد الذال ، وهي قراءة أبي رجاء ، وأبي جعفر ، وقتادة ، والجحدري ، وخالد ، ومعناه بين على بعض ما قلناه ، وقال كعب الأحبار : إن الله تعالى قسم الكلام والرؤية بين موسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام : فكلم موسى مرتين ، ورآه محمد مرتين ، وقالت عائشة رضي الله تعالى عنها : لقد قفَّ شعري لسماح هذا ، وقلت : ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ ﴾ الآية (١) . وذهبت هي وابن مسعود ، وقتادة ، وجمهور العلماء إلى أن المرئي هو جبريل عليه السلام في المرتين : في الأرض وعند سِدرة المنتهى ليلة الإسراء ، وقد تقدّم ذلك في سورة الإسراء ، وهو مشهور في كتب الصحاح .

وقرأ ابن كثير ، وعاصم ، وابن عامر هذه السورة كلها بفتح أوآخر الآيات فيها ، وأمال عاصم - في رواية أبي بكر - [رَأَى] ، وقرأ نافع ، وأبو عمرو ، بين الفتح والكسر ، وأمال حمزة والكسائي

= سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل رأيت ربك ؟ قال : نورٌ أنَّى أراه ؟ . قال شراح الحديث : المعنى : حجابُه نورٌ فكيف أراه ؟ وقال بعضهم : المعنى : إن النور منعي من الرؤية . (١) راجع الهامش (١) من صفحة (٩٣) فهو نفس الحديث . والآية من سورة (الأنعام) . ورقبها (١٠٣) .

جميع ما في السُّورة ، وأمال أبو عمرو - فيما روى عنه أبو عبيد -
[الأعلى] و [تدلى] .

قوله عز وجل :

﴿ أَفْتَمَّرُونَهُ عَلَىٰ مَآرِبٍ ۙ ۝١٤ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِنْدَ سِدْرَةِ
الْمُنْتَهَىٰ ۝١٤ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ۝١٥ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝١٦ مَا زَاغَ
الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ۝١٨ ﴾

قوله تعالى : [أفتمارونهُ] خطاب لقريش ، وهو من المراء ، والمعنى :
أتجادلونه في شيء رآه وأبصره ؟ وهذه قراءة الجمهور وأهل المدينة ،
وقرأ علي بن أبي طالب ، وابن عباس ، وابن مسعود ، وحمزة والكسائي :
[أفتمارونهُ] بفتح التاء دون ألف بعد الميم ، والمعنى : أفتمجدونه (١) ؟
وذلك أن قريشاً لما أخبرها رسول الله صلى الله عليه وسلم بأمره في الإسراء

(١) قال ابن خالويه : « الحجة لمن أثبت الألف في [أفتمارونهُ] أنه أراد : أفتمجدونه ،
من المماراة والمجادلة بالباطل ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : (لا تماروا بالقرآن فإن مراء
فيه كفر) ، والحجة لمن حذفها أنه أراد : أفتمجدونه » ، واختار أبو عبيد هذه الأخيرة ،
قال : « لم يماروه وإنما جحدوه » ، ويقال : مرَّيتُه حقَّه أي جحدته ، قال الشاعر :

لئن هَجَرْتَ أَخَا صِدْقٍ وَمَكْرُمَةٍ لَقَدْ مَرَّيْتَ أَخَا مَا كَانَ يَمْرِيكَ

كذَّبوا واستخفُّوا حتى وصف لهم بيت المقدس وأمر غيرهم وغير ذلك مما هو في حديث الإسراء مستقصى ، ورواها سعيد عن النَّخَعِي : [أَفْتَمُرُونَهُ] بضم التاء ، قال أبو حاتم : وذلك غلط من سعيد . وقوله تعالى : [يَرَى] مستقبلاً والرؤية قد مضت عبارة تُعَمُّ ما مضى وتشير إلى ما يمكن أن يقع بَعْدُ ، وفي هذا نظر .

واختلف الناس في الضمير في قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ رَآهُ﴾ حسب ما قدمناه ، فقال ابن عباس رضي الله عنهما ، وكعب الأحبار : هو عائذ على الله تعالى ، وقال ابن مسعود ، وعائشة ، ومجاهد ، والربيع : هو عائذ على جبريل عليه السلام ، و [نَزَلَةً] معناه : مرّة ، ونصبه على المصدر في موضع الحال . و «سِدْرَةُ الْمُنْتَهَى» هي شجرة نَبِق (١) ، قال كعب : هي في السماء السابعة ، وروى ذلك مالك بن صعصعة عن النبي صلى الله عليه وسلم (٢) ، وقال ابن مسعود رضي الله عنه : في السماء السادسة ، وقيل لها «سدرة المنتهى» لأنها إليها ينتهي علم

(١) النَّبِقُ - بكسر الباء - : ثمر السِّدْر ، والواحدة نَبِيقَةٌ ، ويقال : نَبِقٌ بفتح النون وسكون الباء ، وقد ذكر اللغتين ابنُ السكيت في (إصلاح المنطق) . وهي لغة المِصْرِيِّين . والأولى أفصح ، وهي التي ثبتت عن النبي صلى الله عليه وسلم .

(٢) جاء ذلك في حديث أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة ، رواه أحمد في مسنده .

كل عالم ، ولا يعلم ما وراءها صُعُداً إِلَّا اللهُ تبارك وتعالى ، وقيل : سُمِّيت بذلك لأنها إليها ينتهي من مات على سُنَّةِ النبي صلى الله عليه وسلم ، وهم المؤمنون حقاً من كل جيل ، وقيل : سُمِّيت بذلك لأن ما نزل من أمر الله تعالى فعندها يُتَلَقَّى ، ولا يتجاوزها ملائكة العلو ، وما صعد من الأرض فعندها يُتَلَقَّى ولا يتجاوزها ملائكة السفلى ، ورُوي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أَنَّ الأُمَّةَ من الأُمَّم تستظل بظلِّ الفَنَنِ منها (١) ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (رُفِعَت لي سُدْرَةُ المنتهى فإذا نَبَقَهَا مثل قلال هَجَرَ ، وإذا ورقها مثل آذان الفيلة) (٢).

قوله تعالى : ﴿عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى﴾ ، قال الجمهور : أراد تعالى أَنَّ يعظم مكان السُدْرَةِ ويشرفه بَأَنَّ جنة المأوى عندها ، قال الحسن : وهي الجنة التي وعد بها المؤمن العالم ، وقال قتادة ، وابن عباس - بخلاف - : هي جنة تأوي إليها أرواح الشهداء والمؤمنين وليست بالجنة التي وعد بها المؤمنون جنة النعيم ، وهذا يحتاج إلى سند ، وما أراه

(١) رواه الترمذي عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما . وزاد السيوطي في الدر المنثور نسبه إلى ابن جرير ، والحاكم ، وابن مردويه ، قالت : (سمعتُ النبي صلى الله عليه وسلم يصف سُدْرَةَ المنتهى ، قال : يسير الراكب في الفَنَنِ منها مائة سنة ، يستظل بالفَنَنِ منها مائة راکب . فيها فراش من ذهب ، كأن ثمرها القلال) . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن . (٢) أخرجه أحمد ، وابن جرير ، عن أنس رضي الله عنه . (الدر المنثور) .

يصح عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وأنس بن مالك - بخلاف - وابن الزبير ، وأبو الدرداء ، وزر بن حُبَيْش ، وقتادة ، ومحمد بن كعب : ﴿عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى﴾ بالهاء في [جَنَّةُ] ، وهو ضمير محمد صلى الله عليه وسلم ، والمعنى : سَتَرَهُ وَضَمَّهُ إِيْوَاءَ اللَّهِ تَعَالَى وَجَمِيلٌ صَنَعَهُ بِهِ ، يُقَالُ : «جَنَّهُ اللَّيْلُ وَأَجَنَّهُ» ، وَرَدَّتْ عَائِشَةُ وَصَحَابَةٌ مَعَهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ هَذِهِ الْقِرَاءَةُ وَقَالُوا : أَجَنَ اللَّهُ مِنْ قَرَأَهَا ، وَالْجَمْهُورُ قَرَأَ : [جَنَّةُ] كَالآيَةِ الْأُخْرَى : ﴿فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا﴾ (١) ، وَحَكَى الثَّعْلَبِيُّ أَنَّ مَعْنَى ﴿جَنَّهُ الْمَأْوَى﴾ : ضَمَّهُ الْمَبِيتُ وَاللَّيْلُ (٢) . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿إِذْ يَغْشَى السُّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾ ، الْعَامِلُ فِي [إِذْ] [رَأَاهُ] ، وَالْمَعْنَى : رَأَاهُ فِي هَذِهِ الْحَالِ ، وَ ﴿مَا يَغْشَى﴾ مَعْنَاهُ : مِنْ قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَأَنْوَاعِ الصِّفَاتِ الَّتِي يَخْتَرَعُهَا لَهَا ، وَذَلِكَ مُبْتَهَمٌ عَلَى جِهَةِ التَّفْخِيمِ وَالتَّعْظِيمِ ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ : ذَلِكَ تَبَدُّلُ أَغْصَانِهَا دُرًّا وَيَاقُوتًا وَنَحْوَهُ ، وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ ، وَمَسْرُوقٌ ، وَمُجَاهِدٌ ، وَإِبْرَاهِيمُ : ذَلِكَ جَرَادٌ مِنْ ذَهَبٍ كَانَ يَغْشَاهَا ، وَرَوَى ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : (رَأَيْتَهَا

(١) من الآية (١٩) من سورة (السجدة) .

(٢) قال أبو حاتم بعد أن ذكر هذه القراءة وما فيها من اختلاف : «والذي عليه اللغة

أن «جَنَّهُ اللَّيْلُ» : أدركه الليل ، و «جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ» ، وَأَجَنَّتَهُ : ألبسه سواده .

ثم حال دونها فراش من الذهب (١)، وقال الربيع ، وأبو هريرة :
كان يغشاها الملائكة كما يغشى الطير الشجر ، وقيل غير هذا مما هو
تكلف في الآية لأن الله تعالى أبهم ذلك وهم يريدون شرحه ، وقد
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (فغشيتها ألوان لا أدري ما هي) (٢) .

قوله تعالى : ﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ ﴾ ، قال ابن عباس رضي الله عنهما :
معناه : ما حال هكذا ولا هكذا (٣) ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا طَغَى ﴾ معناه :
ولا تجاوز الحد المرئي بل وقع عليه وقوعاً صحيحاً ، وهذا تحقيق
للأمر ونفي لوجوه الريب عنه .

قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ﴾ . قالت جماعة
من أهل التأويل : لقد رأى الكبرى من آيات ربه ، والمعنى : من

(١) رواه الحكيم الترمذي ، وأبو يعلى . عن ابن عباس رضي الله عنهما .
(٢) جاء ذلك في حديث رواه أنس عن أبي كعب الأنصاري ، وقد أخرجه عبد الله بن
الإمام أحمد في مسند أبيه ، وفيه يقول النبي صلى الله عليه وسلم : (ثم انطلق بي - يعني جبريل -
حتى أتى سِدْرَةَ الْمُنْتَهَى ، قال : فغشيتها ألوان ما أدري ما هي) ، قال : (ثم دخلت الجنة
فإذا فيها جنابذ اللؤلؤ ، وإذا ترابها المسك) ، قال الإمام ابن كثير بعد أن ذكر هذا الحديث :
« هكذا رواه عبد الله بن أحمد في مسند أبيه . وليس هو في شيء من الكتب الستة ، وقد تقدم
في الصحيحين من طريق يونس ، عن الزهري ، عن أنس ، عن أبي ذر هذا السياق سواء ،
فإنه أعلم » .

(٣) يعني : ما اعوجَّ ولا مال هكذا ولا هكذا ، يقال : حال الشيء بمعنى : اعوجَّ

آيات ربه التي يمكن أن يراها البشر ، ف [الْكُبْرَى] - على هذا -
مفعول ب [رَأَى] ، وقال آخرون : المعنى : لقد رأى بعضاً من آيات
ربه الكبرى ، ف [الْكُبْرَى] - على هذا - وصف ل [آيَاتِ] ، والجمع
مما لا يعقل في المؤنث يوصف أبداً على حد وصف الواحدة ، وقال
ابن مسعود ، وابن عباس رضي الله عنهم : رأى رفرفاً أخضر من الجنة
قد سد الأفق ، وقال ابن زيد : رأى جبريل عليه السلام في الصورة
التي هو بها في السموات .

قوله عز وجل :

﴿ أَفَرَأَيْتُمْ آلَ لُوطٍ وَالْعُرَىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنْوَةَ الْفَالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ
الَّذِكْرُ وَلَهُ الْأَنْبِيَاءُ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ
سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ
وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَىٰ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلإِنْسَانِ
مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ * وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي
شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ ﴿٢٦﴾ ﴾

قوله تعالى : [أَفَرَأَيْتُمْ] مخاطبة لقريش ، وهي من رؤية العين
لأنه أحال على أجرام مرئية ، ولو كانت «رأى» التي هي استفعاء
لم تتعد .

ولما فرغ من ذكر عظمة الله تعالى وقدرته قال - على جهة التوقيف - :
 أَرَأَيْتُمْ هَذِهِ الْأَوْثَانَ وَحَقَّارَتِهَا وَبُعْدَهَا عَنْ هَذِهِ الْقُدْرَةِ وَالصِّفَاتِ الْعَلِيَّةِ ؟
 و «اللَّات» صنم كانت العرب تُعظِّمُه ، قال أبو عبيدة وغيره :
 كان في الكعبة ، وقال قتادة : كان بالطائف ، وقال ابن زيد : كان
 بِنَخْلَةَ عِنْدَ سَوِّقِ عَكَاظِ ، وقول قتادة أرجح ، ويؤيده قول الشاعر :

وَفَرَّتْ ثَقِيفٌ إِلَى لَاتِهَا بِمُنْقَلَبِ الْخَائِفِ الْخَاسِرِ (١)

والتاء في «اللَّات» لام فعل كالباء من «باب» ، وقال قوم : هي تاء
 التأنيث ، والتصريف يمنع ذلك ، وقرأ ابن عباس ، ومجاهد ،
 وأبو صالح : [اللَّات] بشدِّ التاء ، وقالوا: كان هذا الصنم حجراً ،
 وكان عنده رجل من بَهْزٍ يُلْتُ سَوِّقِ الْحَاجِ عَلَى ذَلِكَ الْحَجَرِ وَيَخْدَمُ
 الْأَصْنَامَ ، فلما مات عبدوا ذلك الحجر الذي كان عنده إجلالاً لذلك
 الرجل وسمَّوه باسمه ، ورُويَت هذه القراءة عن ابن كثير ، وابن عامر (٢).
 و «العُزَّى» صخرة بيضاء كانت العرب أيضاً تعبدها وتُعظِّمها ،
 قاله سعيد بن جبير ، وقال مجاهد : كانت شجيرات تعبد ثم لما
 بليت انتقل أمرها إلى صخرة ، و «عُزَّى» مؤنثة «عزيز» ككُبرى

(١) ثقيف : قبيلة كانت بالطائف ، وهذا دليل على أن «اللَّات» كانت بالطائف .

(٢) وهي أيضاً قراءة منصور بن المعتمر بن عتاب السلمي الكوفي المتوفى سنة ١٣٣ هـ .

وَعُظْمَى (١) ، وكانت هذه الأوثان تُعَظَّم وتُعبَد ، الوثن منها له قبيلة تُعَظَّمه ، ويجيء كل من عزَّ من العرب فيعظمها بتعظيم حاضرها ، وقال أبو عبيدة معمر : كانت العزَّى ومناة في الكعبة ، وقال ابن زيد : كانت العزَّى في الطائف ، وقال قتادة : كانت بنخلة ، وأما مناة فكانت بالمشلل من قديد ، وذلك بين مكة والمدينة ، وكانت أعظم هذه الأوثان قدراً ، وأكثرها عابداً ، وكانت الأوس والخزرج تهلُّ لها ، ولذلك قال الله تعالى : ﴿ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى ﴾ فأكدتها بهاتين الصفتين ، كما تقول : رأيت فلاناً وفلاناً ، ثم تذكر ثالثاً أجلاً منهما فتقول : وفلاناً الآخر الذي من أمره وشأنه ، ولفظة «آخر» و «أخرى» يوصف بهما الثالث من المعدودات ، وذلك نصٌّ في الآية ، ومنه قول ربيعة بن مكدم :

* وَلَقَدْ شَفَعْتُهُمَا بِآخَرَ ثَالِثٍ * (٢)

(١) وقيل : هي واحدة من شجر السَّمُر ، وكانت لطفان ، وكانوا يعبدونها وأقاموا عليها بيتاً وجعلوا لها سدنة ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد إليها فهدم البيت وأحرق السَّمُرَة وهو يقول :

يَا عَزَّ كُفْرَانِكَ لَا سُبْحَانَكَ إِنِّي رَأَيْتُ اللَّهَ قَسِداً أَهَانَكَ

و «عبد العزَّى» هو أبو لهب ، وقد كناه الله تعالى فقال : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ﴾ . ولم يُسمَّه لأن اسمه محال .

(٢) هذا شاهد على أن لفظة «آخر» يوصف بها الثالث ، فالشاعر يقول : لقد أتبعتهما

وهو التأويل الصحيح في قول الشاعر :

جَعَلْتُ لَهَا عُودَيْنِ مِنْ نَشْمٍ وَآخَرَ مِنْ ثَمَامَةٍ (١)

وقرأ ابن كثير وحده : [وَمَنَاءَةٌ] بالهمز والمد ، وهي لغة فيها ، والأولى

أشهر وهي قراءة الناس ، ومنها قول جرير :

أَزِيدُ مَنَاءَةً تُوعِدُ يَا بَنَ تَيْمٍ تَأْمَلُ أَيْنَ تَاهَ بِكَ الْوَعِيدُ (٢)

= بثالث ، وقال عنه : آخر ، ولكن في اللسان أن الشفيع من الأعداد : ما كان زوجاً ، تقول : كان وتراً فشفعته بآخر . قال الشاعر :

مَا كَانَ أَبْصَرَتِي بِغِيْرَاتِ الصَّبَا فَالآنَ قَدْ شَفِيعَتْ لِي الْأَشْبَاحُ

يعني أنه يحسب الشخص اثنين لضعف بصره ، فقد وصف الثاني بلفظ «آخر» .

(١) النَّشْمُ : شجر جبليٌّ تُتَّخَذُ مِنْهُ الْقِسِيُّ . وهو من عُنُقِ الْعِيدَانِ ، وهو مثل النَّبْعِ فِي الْمَنَاءَةِ وَالِاسْتِعْمَالِ ، وَالثَّمَامَةُ : وَاحِدَةُ الثَّمَامِ ، وَهُوَ نَبْتٌ ضَعِيفٌ لَهُ خَوْصٌ أَوْ مَا يُشْبِهُ الْخَوْصَ ، وَرَبْمَا حُسِّيٌّ بِهِ وَسُدٌّ بِهِ خِصَاصُ الْبُيُوتِ ، وَالشَّاهِدُ فِي الْبَيْتِ هُوَ اسْتِعْمَالُ لَفْظِ «آخِرٍ» صِفَةَ الْعَدَدِ الثَّلَاثِ ، فَقَدْ جَعَلَ الشَّاعِرُ عُودَيْنِ مِنْ هَذَا الشَّجَرِ الْمَتِينِ الْقَوِي الْمُسَمَّى بِالنَّشْمِ ، ثُمَّ جَعَلَ ثَالِثًا مِنْ هَذَا النَّبَاتِ الضَّعِيفِ ، وَوَصَفَهُ بِأَنَّهُ «آخِرٌ» ، وَلَمْ أَقِفْ عَلَى قَائِلِ هَذَا الْبَيْتِ .

(٢) هذا البيت من قصيدة قالها جرير يهجو التميم ، ومطلعها :

أَلَا زَارَتْ وَأَهْلُ مَنِيٍّ هُجُودُ وَلَيْتَ خَيَالَهَا بِمِنِيٍّ يَعْوَدُ

والرواية في الديوان : «تَبَيَّنَ» بدلا من «تأمل» ، ومناة : صنم كان لهذيل وخزاعة بين مكة والمدينة ، يعبدونها من دون الله ، والهَاءُ فِيهِ لِلتَّأْنِيثِ ، وَيُسَكَّتْ عَلَيْهَا بِالنَّوْءِ ، وَزَيْدُ مَنَاءَةٍ : ابْنُ تَمِيمِ بْنِ مُرَّةٍ ، يُمَدُّ وَيُقْصَرُ ، قَالَ ابْنُ بَرِّيٍّ : قَالَ الْوَزِيرُ : مَنْ قَالَ زَيْدُ مَنَاءِ بِالْهَاءِ فَقَدْ أَخْطَأَ . (راجع اللسان) .

وقف تعالى الكفار على هذه الأوثان وعلى قولهم فيها ؛ لأنهم كانوا يقولون : هي بناتُ الله ، فكأنه قال : أرأيتم هذه الأوثان وقولكم هي بنات الله ؟ ألكم الذكر وله الأُنثى ؟ أي : النوعُ المستحسنُ المحبوبُ هو لكم موجودٌ فيكم ، والمذمومُ المستثقلُ عندكم هو له بزعمكم ؟ ثم قال تعالى - على جهة الإنكار - : ﴿ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى ﴾ . أي عوجاءُ ، قاله مجاهد ، وقيل : [ضِيزَى] معناه : جائرة ، قاله ابن عباس وقتادة ، وقال سفيان : معناه : منقوصة ، وقال ابن زيد : معناه : مُخَالِفَةٌ ، والعرب تقول : « ضِرْتُهُ حَتْمَةٌ أَضِيرُهُ » بمعنى : منعه منه وظلمته فيه ، و « ضِيزَى » من هذا التصريف ، وأصلها فُعْلَى بضم الفاء « ضُوزَى » لأنه القياسُ ؛ إذ لا يوجد في الصفات فِعْلَى بكسر الفاء ، كذا قال سيبويه وغيره ، فإذا كان هذا فهو « ضُوزَى » كسروا أولها كما كُسِرَ أَوَّلُ « عَيْنٍ وَبَيْضٍ » طلباً للتخفيف ؛ إذ الكسرة والياء أخف من الضمة والواو ، كما قالوا : « بِيُوتٌ وَعِصِيٌّ » وهي في الأصل فُوعول بضم الفاء ، وتقول العرب : « ضِرْتُهُ أَضُوزُهُ » ، فكان يلزم على هذا التصريف أن تكون « ضُوزَى » فُعْلَى ، وفي جميع هذا نظر . وقرأ ابن كثير : [ضِيزَى] بالهمز على أنه مصدر كذِكْرَى . وقرأ الجمهور بغير همز .

ثم قال تعالى : ﴿ إِن هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ ﴾ ، يعني تعالى أن هذه الأوصاف - من أنها إناثٌ ، وأنها تُعبد من دون الله آلهة ونحو هذا - ما هي إِلَّا أَسْمَاءُ ، أي تسمياتٌ اخترعتموها أنتم وآباؤكم ، لا حقيقة لها ، ولا أنزل الله تعالى بها بُرْهَانًا ولا حُجَّةً ، وقرأ عيسى بن عمر : [سُلْطَانٍ] بضم اللام ، وقرأ هو وابن مسعود ، وابن عباس ، وابن وثاب ، وطلحة ، والأعمش : ﴿ إِن تَتَّبِعُونَ ﴾ بالتاء على المخاطبة ، وقرأ أبو عمرو ، وعاصم ، ونافع ، والأعمش أيضاً ، والجمهور : ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ ﴾ بالياء على الحكاية عن الغائب .

و «الظَّنُّ» : مَيْلُ النفس إلى أحد معتقدين متخالفين دون أن يكون ميلها بحجة ولا بُرْهَان ، و «هَوَى الأنفس» هو إرادتها الملذة لها ، وإنما تجد هوى الأنفس دائماً في ترك الأفضل لأنها مجبولة بطبعها على حب اللذذ ، وإنما يردعها ويسوقها إلى حسن العاقبة العقل والشرع .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى ﴾ اعتراضٌ بين الكلامين فيه توبيخ لهم ؛ لأن سرد القول إنما هو : «إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الباطل وما تهوى الأنفس أم للإنسان ما تمنى» ، ثم اعتراضٌ بعد قوله تعالى : ﴿ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ ﴾ بقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى ﴾ ، أي : يفعلون هذه القبائح والهدى حاضر والحال هذه ،

فقوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى﴾ جملة في موضع الحال .
 و «الهُدَى» المشار إليه هو محمد صلى الله عليه وسلم وشرعهُ ، وقرأ
 ابن مسعود ، وابن عباس رضي الله عنهم : ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾
 بالكاف فيهما ، وقال الضحاك عنهما : إنهما قرآ : ﴿وَلَقَدْ جَاءَكَ
 مِنْ رَبِّكَ﴾ .

و «الإنسان» في قوله تعالى : ﴿أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى﴾ اسم الجنس ،
 كأنه تعالى يقول : ليست الأشياء بالتمني والشهوات ، إنما الأمر كله
 لله تعالى ، والأعمال جارية على قانون أمره ونهيه ، فليس لكم أيها
 الكفرة مرادكم في قولكم : «هذه آلهتنا وهي تشفع لنا وتُقربنا زلفى»
 ونحو هذا . وقال ابن زيد ، والطبري : الإنسان هنا هو محمد صلى الله
 عليه وسلم ، بمعنى أنه لم ينل كرامتنا بتأميل بل بفضل من الله تعالى ،
 أو بمعنى : بل إنه تمنى كرامتنا فنالها ؛ إذ الكلُّ لله تعالى يهب من يشاء ،
 وهذا ما تقتضيه الآية وإن كان اللفظ يعمه .

و «الآخِرَةُ وَالْأُولَى» : الداران ، أي : له كل أمرهما ملكاً ومقدوراً
 وتحت سلطانه .

وقوله تعالى : ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ﴾ الآية ... رَدُّ عَلَى قَرِيشٍ فِي قَوْلِهِمْ :
 «الْأَوْثَانُ شَفَعَاؤُنَا» ، كأنه تعالى يقول : هذه حال الملائكة الكرام

فكيف بأوثانكم؟ و [كَمْ] للتكثير ، وهي في موضع رفع بالابتداء ،
والخبر (لَا تُغْنِي) ، والغنى : جَلْبُ النَّفْعِ ودفع الضرِّ بحسب الأمر
الذي يكون فيه الغنى ، وجمع الضمير في [شَفَاعَتُهُمْ] على معنى [كَمْ] ،
ومعنى الآية أَنْ يَأْذَنَ اللهُ تَعَالَى فِي أَنْ يُشْفَعَ لِشَخْصٍ مَا يَرْضَى عَنْهُ كَمَا
أَذْنُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ﴾ الآية (١) .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنثَى ﴿٢٧﴾
وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ
شَيْئًا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٢٩﴾
ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ
بِمَنْ أَهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ
اسْتَعَاؤا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَىٰ ﴿٣١﴾﴾

(الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ) هم كفَّار العرب ، وقوله
تعالى : ﴿لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ﴾ معناه : ليصفون الملائكة بأوصاف

الأثوثة ، وأخبر الله تعالى عنهم أنهم لا علم لهم بذلك ، وإنما هي ظنون منهم لا حجة لهم عليها ، وقرأ ابن مسعود رضي الله عنه : « مِنْ عِلْمٍ إِلَّا أَتْبَاعَ الظَّنِّ » ، وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾ يعني : في المعتقدات والمواضع التي يريد الإنسان أن يُحرر ما يفعل ويعتقد ، فإنها مواضع وحقائق لا تنفع الظنون فيها ، وأما في الأحكام وظواهرها فيُجتزأُ فيها بالظنون . ثم سألَ تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم وأمره بالإعراض عن هؤلاء الكفرة ، وما في الآية من موادعتهم منسوخ بآية السيف . وقوله تعالى : ﴿ وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ معناه أنه لا يُصدق بغيرها ، وسعيه وعمله إنما هو لدنياه .

وقوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ مَبْلُغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ ﴾ معناه : هنا انتهى تحصيلهم من المعلومات ، وذلك أن المعلومات منها ما هي معقولات نافعة في الآخرة ، ومنها ما هي أمور فانية وأشخاص بائدة كالفلاحة وكثير من الصنائع وطلب الرياسة على الناس بالمخرقة ، وكلها معلومات ولها علم ، ومبلغ علم الكفرة إنما هو في هذه الدنياويات .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ ﴾ الآية ... متصل في معنى التَّسْلِيَةِ بقوله تعالى : ﴿ فَأَعْرِضْ عَمَّن تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا ﴾ ، وفي قوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ ﴾ الآية ... وعيدٌ للكفار ووعدٌ للمؤمنين ، وأسند الضلالة والهدى إليهم بكسبهم وإن كان الجميع خلقاً له واختراعاً ،

واللّام في قوله تعالى : [لِيَجْزِيَ] متعلقة بقوله تعالى : [ضَلَّ] ، وبقوله تعالى : [أَهْتَدَى] ، فكأنه تعالى قال : ليصير أمرهم جميعاً إلى أن يجزي ، وقوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ اعتراض بين الكلامين ، وقال بعض النحويين : اللام متعلقة بما في المعنى من التقدير ، لأن تقديره : والله ما في السموات وما في الأرض يضل من يشاء ويهدي من يشاء لِيَجْزِيَ . والنظر الأول أقل تكلفاً من هذا الإضمار ، وقال قوم : اللام متعلقة بقوله تعالى في أول السورة : ﴿ إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴾ ، وهذا بعيد . و « الْحُسْنَى » هي الجنة ، ولا حُسْنَى دونها .

قوله عز وجل :

﴿ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ
 الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجْنَةٌ فِي بُطُونِ
 أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوْا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴿٣٢﴾ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى
 ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى ﴿٣٤﴾ أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ بِرَى ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا
 فِي صُحُفِ مُوسَى ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴿٣٧﴾ أَلَا تَرَى وَازِرَةً وَزَرَ أُخْرَى ﴿٣٨﴾

قوله تعالى : [الَّذِينَ] نعت لـ [الَّذِينَ] المتقدم قبله ، و [يَجْتَنِبُونَ]

معناه : يدعون جانباً ، وقرأ جمهور القراء والناس : ﴿ كَبَائِرَ الْإِثْمِ ﴾ ،

وقرأ ابن وثاب ، وطلحة ، والأعمش ، وعيسى ، وحمزة ، والكسائي :
 ﴿ كَبِيرَ الْإِثْمِ ﴾ على الأفراد الذي يراد به الجمع ، وهذا كقوله تعالى :
 ﴿ فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴾ (١) ، وكقوله تعالى :
 ﴿ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴾ (٢) .

واختلف الناس في الكبائر ، ما هي ؟ فذهب الجمهور إلى أنها
 السبع الموبقات التي وردت في الأحاديث ، وقد مضى القول في ذكرها
 واختلاف الأحاديث فيها في سورة النساء ، وتحريم القول في الكبائر
 أنها كل معصية يوجد فيها حدٌ في الدنيا وتوعدهُ بنار في الآخرة ،
 أو لعنة أو نحو هذا خاصاً بها ، فهي كثيرة العدد ، ولهذا قال ابن
 عباس رضي الله عنهما - حين قيل له : أسبغُ هي ؟ - فقال : هي إلى
 السبعين أقربُ منها إلى السبع ، وقال زيد بن أسلم : كبير الإثم هنا
 يرادُ به الكفر ، و « الفواحش » هي المعاصي المذكورة ، وقوله تعالى :
 ﴿ إِلَّا أَلَّيْمًا ﴾ هو استثناءٌ يصح أن يكون متصلاً ، وإن قدرته منقطعاً
 ساغ ذلك .

واختلف الناس في معنى [أَلَّيْمًا] - فقال ابن عباس ، وابن زيد :
 معناه : ما أَلَّموا به من الشُّرك والمعاصي في الجاهلية قبل الإسلام ،

(١) الآيتان (١٠٠) ، (١٠١) من سورة (الشعراء) .

(٢) من الآية (٦٩) من سورة (النساء) .

قال الثعلبي ، عن ابن عباس ، وزيد بن ثابت ، وزيد بن أسلم ، وأبيه : إن سبب الآية أن الكفار قالوا للمسلمين : قد كنتم بالأمس تعملون أعمالنا ، فنزلت الآية ، فهي مثل قوله تعالى : ﴿ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ (١) ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره : معناه : إلا ما ألموا به من المعاصي ، الفلانة والسقطة دون دوام ، ثم يتوبون منه ، وذكر الطبري عن الحسن بن أبي الحسن أنه قال : هي اللّمة من الزنى والسرقة وشرب الخمر ثم لا يعود ، وهذا كالذي قبله ، فكأن هذا التأويل يقتضي الرفق بالناس في إدخالهم في الوعد بالحسنى ؛ إذ الغالب في المؤمنين واقعة المعاصي ، وعلى هذا أنشدوا - وقد تمثل به النبي صلى الله عليه وسلم - :

إِنْ تَغْفِرِ اللَّهُمَّ تَغْفِرْ جَمًّا وَأَيُّ عَبْدٍ لَكَ لَا أَلْمَا (٢)

(١) من الآية (٢٣) من سورة (النساء) .

(٢) يُنسب هذا البيت إلى أمية بن أبي الصلت ، على أنه قاله عند احتضاره ، والجم الكثير ، وألم الرجل : من اللّم وهو صغار الذنوب ، أو هو مقارنة المعصية دون واقعة ، والأول هو المناسب لمعنى البيت ، وهو موضع الشاهد هنا ، وقد نسب هذا البيت مع بيت آخر قبله إلى أبي خراش ، قيل إنه مرّ يسعى بين الصفا والمروة وهو يقول :

لَا هُمْ هَذَا خَامِسٌ إِنْ تَمَّا أَتَمَّهُ اللَّهُ وَقَدْ أَتَمَّا
إِنْ تَغْفِرِ اللَّهُمَّ تَغْفِرْ جَمًّا وَأَيُّ عَبْدٍ لَكَ لَا أَلْمَا ؟

وقد ذكر ذلك صاحب اللسان نقلا عن ابن برّي ، وقد أخرج سعيد بن منصور ، والترمذي =

وقال أبو هريرة ، وابن عباس ، والشعبي . وغيرهم : اللَّمَمُ : صغار الذنوب التي بين الحدّين الدنيا والآخرة ، وهي ما لا حدّ فيه ولا وعيد مختصاً بها مذكوراً لها ، وإنما يقال صغار بالإضافة إلى غيرها ، وإلّا فهي بالإضافة إلى الناهي عنها كبائر كلها ، ويعضد هذا قول النبي صلى الله عليه وسلم : (إن الله كتب على ابن آدم حفظه من الزنى لا محالة ، فزنى العين النظر ، وزنى اللسان النطق ، والفرج يكذب ذلك أو يصدقه ، فإن تقدم فرجه فهو زانٍ ، وإلّا فهو اللَّمَمُ) (١) . ورؤي أن هذه الآية نزلت في نَبَهَانَ التَّمَارِ (٢) ، فالناس لا يتخلصون

= وصححه ، والبزار ، وابن جرير ، وابن المنذر : وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي في شعب الإيمان ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : ﴿إِلَّا اللَّمَمَ﴾ ، قال : هو الرجل يُأْمُ بِالْفَاحِشَةِ ثم يتوب منها ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن تغفر اللهم تغفر جَمَماً ، وأي عبد لك لا ألماً) ؟ ذكر ذلك الإمام السيوطي في الدر المنثور ، وهذا هو الذي أشار إليه ابن عطية بقوله : « وقد تمثّل به النبي صلى الله عليه وسلم » .

(١) أخرجه عبد الرزاق ، وسعيد بن منصور ، وأحمد ، وعبد بن حميد ، والبخاري ، ومسلم ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن مردويه ، والبيهقي في سننه ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : ما رأيت شيئاً أشبه باللّمم مما قال أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : (إن الله كتب على ابن آدم ... الحديث . (الدر المنثور) .

(٢) وكان لبهان هذا حانوت يبيع فيه تمرأ ، فجاءت امرأة تشتري منه تمرأ ، فقال لها :

إن داخل الدكان ما هو خير من هذا ، فلما دخلت راودها فأبت وانصرفت ، فندم لبهان =

من موافقة هذه الصغائر ، ولهم - مع ذلك - الحسنى إذا اجتنبوا التي هي في أنفسها كبائر ، وتظاهر العلماء في هذا القول وكثر المائل إليه ، وذكر الطبري عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أنه قال : اللَّمَمَ ما دون الشُّرك ، وهذا عندي لا يصح عن عبد الله بن عمرو ، وذكر المهدي عن ابن عباس ، والشعبي : اللَّمَمَ ما دون الزُّنى ، وقال نفطوية : اللَّمَمَ ما ليس بمعتاد ، وقال الرُّمَّاني : اللَّمَمُ الهَمُّ بالذنب وحديث النفس به دون أن يواقع ، وحكى الثعلبي عن سعيد ابن المسيب أنه ما خطر على القلب ، وذلك هو لَمَّة الشَّيطان ، قال الزهراوي : وقيل : اللَّمَمَ نظرة الفجأة ، وقاله الحسن بن الفضل . ثم أنس تعالى بعد هذا بقوله : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ ﴾ .

= وأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله : ما من شيء يصنعه الرجل إلا وقد فعلته إلا الجماع ، فقال : (لعل زوجها غازي) ؟ وفي رواية عن أبي اليسر أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال له : (أَخَلَقْتَ غَازِيًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فِي أَهْلِهِ بِمِثْلِ هَذَا ؟) حتى تمنى - أي نبهان - أنه لم يكن أسلم إلا تلك الساعة . حتى ظن أنه من أهل النار ، قال : وأطرق رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أوحى الله إليه ﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنْ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبُنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرِي لِلذَّاكِرِينَ ﴾ ، قال أبو اليسر : فأنته فقرأها علي رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال أصحابه : يا رسول الله ! ألهذا خاصة أم للناس عامة ؟ فقال : (بل للناس عامة) ، قال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب ، وفي الترمذي : هذا حديث حسن صحيح .

قوله تعالى : ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ ﴾ الآية . روي عن عائشة رضي الله تعالى عنها أنها نزلت بسبب قوم من اليهود كانوا يُعظمون أنفسهم ، ويقولون للطفل إذا مات عندهم : هذا صديق عند الله تعالى ، ونحو هذا من الأقاويل الممّوّهة ، فنزلت الآية فيهم (١) ثم هي بالمعنى عامة لجميع البشر . وحكى الثعلبي عن الكلبي ومقاتل أنها نزلت في قوم من المؤمنين فخرّوا بأعمالهم . وقوله تعالى : ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ ﴾ قال مكّي بن أبي طالب في المشكل : معناه : هو عالم بكم ، وقال جمهور أهل المعاني : بل هو التفضيل بالإطلاق ، أي هو أعلم من الموجودين جملة ، والعامل في [إِذْ] هو [أَعْلَمُ] ، وقال بعض النحاة : العامل فيها فعل مضمر تقديره : اذكروا إذ ، والمعنى الأول أبين ؛ لأنّ تقديره : فإذا كان علمه قد أحاط بكم وأنتم في هذه الأحوال ووقع بكم التخفي فأحرى أن يقع بكم وأنتم تغفلون وتجترحون .

(١) أخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والطبراني ، وأبو نعيم في المعرفة ، وابن مردويه ، والواحدي ، عن ثابت بن الحارث الأنصاري ، قال : كانت اليهود إذا هلك لهم صبي صغير قالوا : هذا صديق ، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فقال : (كذبت يهود ، ما من نسمة يخلقها الله في بطن أمها إلاّ أنه شقي أو سعيد) ، فأنزل الله عند ذلك ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ ﴾ إذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ ﴾ الآية . (الدر المنثور) .

والإنشاء من الأرض يراد به خلق آدم عليه السلام ، ويحتمل أن يراد به إنشاء الغذاء ، و [أَجِنَّةٌ] جمع جنين ، وقوله تعالى : (فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ) ظاهره النهي عن أن يُزَكِّي أَحَدٌ نفسه ، ويحتمل أن يكون نهياً عن أن يُزَكِّي بعض الناس بعضاً ، وإذا كان هذا فإنما ينهى عن تزكية السمعة والمدح للدنيا ، أو القطع بالتزكية ، ومن ذلك الحديث في عثمان بن مظعون عند موته (١) ، وأما تزكية الإمام والقدوة أحداً ليؤتم به أو لِيَتَّهَمَ النَّاسُ بِالْخَيْرِ فجائز ، وقد زكَّى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض أصحابه ، أبا بكر وغيره رضي الله عنهم ، وكذلك تزكية الشهود في الحقوق جائز للضرورة إليها ، وأصل التزكية إنما هو التقوى ، والله تعالى هو أعلم بتقوى الناس منكم .

(١) حديث عثمان بن مظعون أخرجه البخاري في الجنايز والتعبير ، وأحمد في مسنده (٦-٤٣٦) ، ولفظه كما في البخاري عن خارجة بن زيد بن ثابت أن أمّ العلاء - امرأة من الأنصار - بايعت النبي صلى الله عليه وسلم ، أخبرته أنه اقتسم المهاجرون قرعةً ، فطار لنا عثمان ابن مظعون : فأنزله في أبياتنا . فوجع وجعه الذي توفي فيه ، فلما توفي وغسل وكفن في أثوابه دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقلت : رحمة الله عليك أبا السائب : فشهادتي عليك لقد أكرمك الله ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : وما يُدريك أن الله أكرمك ؟ فقلت : بأبي أنت يا رسول الله ، فمن يُكرمك الله ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : أمّا هو فقد جاءه اليقين ، والله إنّي لأرجو له الخير ، والله ما أدري - وأنا رسول الله - ما يُفعل بي ، قالت : فوالله لا أُرَكِّي أحداً بعده أبداً .

قوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى ﴾ الآية . قال مجاهد ، وابن زيد ، وغيرهما : نزلت في الوليد بن المغيرة المخزومي ، وذلك أنه كان قد سمع قراءة النبي صلى الله عليه وسلم ، وجلس إليه ، ووعظه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فَقَرَّبَ من الإسلام ، وطمع النبي صلى الله عليه وسلم فيه ، ثم إنه عاتبه رجل من المشركين وقال له : أترك ملة آبائك ؟ ارجع إلى دينك واثبت عليه وأنا أتحمّل لك بكل شيء تخافه في الآخرة ، لكن على أن تعطيني كذا وكذا من المال ، فوافق الوليد بن المغيرة على ذلك ، ورجع عما همّ به من الإسلام ، وضلّ ضلالاً بعيداً ، وأعطى ذلك المال لذلك الرجل ثم أمسك عنه وشحّ ، فنزلت الآية فيه . وذكر الثعلبي عن قوم أنها نزلت في عثمان بن عفان رضي الله عنه في قصة جرت له مع عبد الله ابن سعيد بن أبي سرح (١) ، وذلك كله عندي باطل ، وعثمان عن

(١) ذكر القرطبي أن خبر عثمان بن عفان مع أخيه ابن أبي سرح نقل عن ابن عباس ، والسدي ، والكلبي ، والمسيّب بن شريك ، وفيه أن عثمان رضي الله عنه كان يتصدق وينفق في الخير ، فقال له أخوه من الرضاعة عبد الله بن أبي سرح : ما هذا الذي تصنع ؟ يوشك ألا يبقى لك شيء ، فقال عثمان : إن لي ذنباً وخطايا ، وإني أطلب بما أصنع رضا الله تعالى وأرجو عفوه ، فقال له عبد الله : أعطني ناقتك برحلتها وأنا أحمّل عنك ذنوبك كلها ، فأعطاه وأشهد عليه ، وأمسك عما كان يصنع من الصدقة ، فأنزل الله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي =

مثله مُنَزَّةٌ . وقال السُّدي : نزلت في العاص بن وائل ، فقوله تعالى :
 ﴿وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى﴾ - على هذا القول - هو في المال ، وقال
 مقاتل بن حيان في كتاب الثعلبي : المعنى : وأعطى من نفسه قليلاً
 في قربه من الإيمان ، ثُمَّ أَكْدَى ، أي انقطع ما أعطى ، وهذا بين
 من اللَّفْظِ ، والآخر يحتاج إلى رواية ، و [تَوَلَّى] معناه : أدبر وأعرض ،
 والمراد : عن أمر الله تعالى ، و [أَكْدَى] معناه : انقطع عطاؤه ، وهو
 مُشَبَّهٌ بالحافر في الأرض ، فإنه إذا انتهى إلى كُؤْدِيَّةٍ - وهي ما صلب
 من الأرض - وقف وانقطع حفره ، وكذلك : أَجْبَلُ الحافر إذا انتهى
 إلى جبل ، ثم قيل لمن انقطع عمله : أَكْدَى وَأَجْبَلُ .

وقوله تعالى : ﴿أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى﴾ معناه : أَعْلِمُ من
 الغيب أَنَّ من تحمَّل ذنوب آخر فإن المُتَحَمِّلَ عنه ينتفع بذلك
 فهو لهذا الذي عِلِمَهُ يرى الحقَّ وله فيه بصيرة ، أم هو جاهل لم
 يُنْبَأُ بما في صحف موسى - وهي التوراة - وفي صحف إبراهيم -
 وهي كتب نزلت عليه من السماء - من أنه لا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ؟

= تَوَلَّى ، وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى﴾ ، فعاد عثمان إلى أحسن ذلك وأجمله ، وقد ذكر ذلك
 الثعلبي ، وذكره الواحدي في (أسباب النزول) ، وسابقة عثمان رضي الله عنه وتاريخه في
 الإسلام يجعلنا نؤكد رأي ابن عطية في نفي ذلك عنه .

أي : لا تحمل حاملة حمل أخرى ، وإنما يؤخذ كل أحد بذنوب نفسه ، فلما كان جاهلاً بهذا وقع في إعطاء ماله للذي قال له : أنا أَتَحْمَلُ عنه دَرَكَ الآخرة (١).

واختلف المفسرون في معنى قوله تعالى : ﴿الَّذِي وَفَّى﴾ ، وفي ما هو المَوْفَى ؟ فقال ابن عباس رضي الله عنهما : كانوا قبل إبراهيم عليه السلام يأخذون الولي بالولي في القتل ونحوه ، فوفى إبراهيم عليه السلام وبلغ هذا الحكم من أنه لا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً ، والربيع : وفى طاعة الله تعالى في ذبح ابنه عليهما السلام ، وقال الحسن ، وابن جبير ، وقتادة : وفى تبليغ رسالته والمجاهدة في ذات ربه تعالى ، وقال عكرمة : وفى هذه العشر الآيات : ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ فما بعدها ، وقال ابن عباس ، وقتادة ، وعكرمة : وفى ما افترض عليه من الطاعات على وجهها ، وتكملت له شعب الإيمان والإسلام ، فأعطاه الله تعالى براءته من النار ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : وفى شرائع الإسلام ثلاثين سهماً ، وقال أبو أمامة - ورفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم - : وفى أربع صلوات في كل يوم ، والأقوى من هذه كلها القول العام لجميع الطاعات المستوفية لدين الإسلام ، فروي أنها لم تُفرض على

(١) أي : تَبِعَةَ الآخرة ، يقال : ما لحقك من دَرَكَ فعليّ خلاصه .

أحد مُكَمَّلَة فَوْفَاها إِلَّا على إبراهيم ومحمد صلى الله تعالى عليهما وسلم .
ومن الحجَّة لذلك قوله تعالى : ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ
فَاتَمَّهِنَّ﴾ (١) .

وقرأ ابن جُبَيْر ، وأبو مالك ، وابن السميع : [وَفَى] مخففة
الفاء ، والخلاف فيما وَفَى به كالخلاف فيما وَفَّاه على القراءة الأولى
التي فَسَّرنا ، ورويت هذه القراءة عن النبي صلى الله عليه وسلم ،
وقرأها أبو أمامة (٢) .

و «الوزرُ» : الثقل ، وأنث «الوازرة» إمَّا لأنه أراد النفس ،
وإمَّا أنه أراد المبالغة كعلامة ونسابة وما جرى مجراها ، و [أَنْ]
في قوله سبحانه : ﴿أَلَّا تَزِرُ﴾ مخففة من الثقيلة ، وتقديرها : أنه
لا تزر ، وحسن الحائل بينها وبين الفعل أَنْ بقي الفعل مرتفعاً ،
فهي كقوله تعالى : ﴿عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضًى﴾ (٣) ونحوه ،
و [أَنْ] في موضع رفع أو خفض كلاهما مترتب .

(١) من الآية (١٢٤) من سورة (البقرة) .

(٢) قال ابن جنِّي : « وهذا على تسمية المُسَيَّب باسم سبيه ، ألا ترى أن معناه ، الذي
وعد ذلك فوفى بحاضره وسيفي بغائبه يوم القيامة ، وذلك منهم لصدق الوعد ، أي : إذا قال
فقد فعل أو قد وقع ما يقوله ، وهذا كقولهم : وعند الكريم نقد ، ونقد اللثيم وعند . »

(٣) من الآية (٢٠) من سورة (المزمل) .

قوله عز وجل :

﴿ وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴿٣٦﴾ وَأَنْ سَعِيهِ سَوْفَ يُرَى ﴿٣٧﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى ﴿٣٨﴾ وَأَنْ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى ﴿٣٩﴾ وَأَنْهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى ﴿٤٠﴾ وَأَنْهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤١﴾ وَأَنْهُ خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ﴿٤٢﴾ مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى ﴿٤٣﴾ وَأَنْ عَلَيْهِ النُّشْأَةُ الْأُخْرَى ﴿٤٤﴾ وَأَنْهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى ﴿٤٥﴾ وَأَنْهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى ﴿٤٦﴾ وَأَنْهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى ﴿٤٧﴾ وَتَمُودًا فَآخٍ ﴿٤٨﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأَنْ لَيْسَ ﴾ ، وقوله تعالى بعد ذلك : ﴿ وَأَنْ ، وَأَنْهُ ﴾ معطوف كل ذلك على « أن » المقدره في قوله تعالى : ﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ ﴾ ، وهي كلها بفتح الألف في قراءة الجمهور ، وقرأ أبو السمال قعنب : ﴿ وَإِنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى ﴾ بكسر الهمزة فيها وفيما بعدها ، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن قوله تعالى : ﴿ وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴾ منسوخ بقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ (١) ، وهذا لا يصح عندي عن ابن عباس رضي الله عنهما لأنه خبر لا يُنسخ ، ولأن شروط النسخ ليست هنا

(١) من الآية (٢١) من سورة (الطور) .

اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يُتَجَوَّزَ فِي لَفْظَةِ النَّسْخِ لِيَفْهَمَ سَائِلًا ، وَقَالَ عَكْرَمَةُ :
 هَذَا الْحَكْمُ كَانَ فِي قَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ ، وَأَمَّا هَذِهِ
 الْأُمَّةُ فَلَهَا سَعْيٌ غَيْرُهَا ، وَالِدَلِيلُ حَدِيثُ سَعْدِ بْنِ عِبَادَةَ ، قَالَ :
 يَا رَسُولَ اللَّهِ : هَلْ لِأُمَّيِّ إِنْ تَطَوَّعَتْ عَنْهَا أَجْرٌ ؟ قَالَ : نَعَمْ (١) ،
 وَقَالَ الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ : هَذَا الْإِنْسَانُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ هُوَ الْكَافِرُ ، وَأَمَّا
 الْمُؤْمِنُ فَلَهُ مَا سَعَى وَمَا سَعَى لَهُ غَيْرُهُ ، وَسَأَلَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ طَاهِرِ بْنِ
 الْحُسَيْنِ وَالِي خِرَاسَانَ الْحُسَيْنِ بْنِ الْفَضْلِ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ مَعَ قَوْلِهِ :
 ﴿وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ (٢) ، فَقَالَ لَهُ : لَيْسَ لَهُ بِالْعَدْلِ إِلَّا مَا سَعَى ،
 وَلَهُ بِفَضْلِ اللَّهِ مَا شَاءَ اللَّهُ ، فَقَبَّلَ عَبْدُ اللَّهِ رَأْسَ الْحُسَيْنِ ، وَقَالَ
 الْجُمْهُورُ : الْآيَةُ مُحْكَمَةٌ . وَالتَّحْرِيرُ عِنْدِي فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ مَلَكَ

(١) أَخْرَجَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ عَنْ هِشَامٍ ، قَالَ : أَخْبَرَنِي أَبِي ، قَالَ : أَخْبَرْتَنِي عَائِشَةُ
 أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إِنْ أُمَّيِّ افْتُلَّتْ نَفْسُهَا ، وَأَظْنَهَا لَوْ تَكَلَّمْتَ تَصَدَّقْتَ ،
 فَهَلْ لَهَا أَجْرٌ أَنْ أَتَصَدَّقَ عَنْهَا ؟ قَالَ : نَعَمْ ، وَأَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ مِنْ عِدَّةِ طُرُقٍ ، كُلُّهَا
 تَنْتَهِي إِلَى هِشَامٍ ، وَمَعْنَى « افْتُلَّتْ » : مَاتَتْ فَجَاءَتْ . قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ حَزَامٍ النَّوَوِيُّ فِي شَرْحِهِ
 لِصَحِيحِ مُسْلِمٍ : « وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ أَنَّ الصَّدَقَةَ عَنِ الْمَيِّتِ تَنْفَعُ الْمَيِّتَ وَيُصَلِّهِ ثَوَابُهَا ، وَهُوَ كَذَلِكَ
 بِإِجْمَاعِ الْعُلَمَاءِ ، وَكَذَلِكَ أَجْمَعُوا عَلَى وَصُولِ الدُّعَاءِ وَقَضَاءِ الدِّيْنِ بِالنُّصُوصِ الْوَارِدَةِ فِي الْجَمِيعِ ،
 وَيُصَحُّ الْحَجُّ عَنِ الْمَيِّتِ إِذَا كَانَ حَجَّ الْإِسْلَامِ ، وَكَذَا إِذَا وَصَّى بِحَجِّ التَّطَوُّعِ عَلَى الْأُصْحَحِ عِنْدَنَا ،
 وَاخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي الصُّومِ إِذَا مَاتَ وَعَلَيْهِ صَوْمٌ ، فَالرَّاجِعُ جَوَازُهُ عَنْهُ لِلْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ
 فِيهِ . وَأَمَّا الصَّلَاةُ وَسَائِرُ الطَّاعَاتِ فَلَا تُصَلِّهِ عِنْدَنَا وَلَا عِنْدَ الْجُمْهُورِ ، وَقَالَ أَحْمَدُ : يُصَلِّهِ
 ثَوَابُ الْجَمِيعِ » . وَقَدْ وَضَحَ الْقُرْطُبِيُّ اسْمَ الرَّجُلِ كَمَا هُنَا ، وَذَكَرَ أَنَّ الرَّجُلَ سَأَلَ : فَأَيُّ الصَّدَقَةِ
 أَفْضَلُ ؟ قَالَ : سَقَى الْمَاءَ .

(٢) مِنَ الْآيَةِ (٢٦١) مِنْ سُورَةِ الْبَقَرَةِ .

المعنى هو في اللام من قوله تعالى : [لِلْإِنْسَانِ] ، فإذا حققت الشيء الذي حق الإنسان أن يقول فيه : « لي كذا » لم تجده إلا سعيه ، وما تم بعد من رحمة بشفاعة أو رعاية أب صالح أو ابن صالح أو تضعيف حسنات أو تغمد بفضل أو رحمة دون هذا كله ، فليس هو للإنسان ولا يسعه أن يقول : « لي كذا وكذا » إلا على تجوز وإلحاق بما هو له حقيقة ، واحتج بهذه الآية من يرى أنه لا يعمل أحد عن أحد بعد موته ببدن ولا مال ، وفرق بعض العلماء بين البدن والمال ، وهي عندي كلها فضائل للعامل وحسنات تذكر للمعمول عنه ، وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم سعداً رضي الله عنه بالصدقة عن أمه ، والسعي : الكسب .

وقوله تعالى : [يُرَى] فاعله حاضر القِيامة ، أي يراه الله تعالى ومن شاهد الأمر ، وفي عرض الأعمال على الجميع تشريف للمُحْسِنِينَ وتوبيخ للمُسيئين ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : (من سمع بأخيه فيما يكره سمع الله به سامع خلقه يوم القيامة) (١).

(١) أخرجه البخاري في الرقاق والأحكام ، ومسلم في الزهد ، والترمذي في النكاح ، وابن ماجه في الزهد ، وأحمد في مسنده (٣-٤٠ ، ٥-٤٥) . ولفظه كما في مسلم ، عن سعيد ابن جبير ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من سمع سمع الله به ، ومن رأى رأى الله به) ، وروي مثله عن جندب العَلَقِيّ ولكن بلفظ المضارعة : (من يُسمع ...) .

وفي قوله تعالى : ﴿ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى﴾ وعيدٌ للكافرين
ووعدٌ للمؤمنين .

و «الْمُنْتَهَى» : يحتمل أن يريد به الحشر والمصير بعد الموت ،
فهو مُنتهى بالإضافة إلى الدنيا وإن كان بعده مُنتهى آخر هو الجنة
أو النار ، ويحتمل أن يريد بالمنتهى الجنة أو النار ، فهو منتهى
على الإطلاق ، ولكن في الكلام حذفُ مضاف ، أي : إلى عذاب ربك
ورحمته ، وقال أبيُّ بن كعب رضي الله عنه : قال النبي صلى الله
عليه وسلم في قوله تعالى : ﴿وَإِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ أَلْمُنْتَهَى﴾ : (لا فكرة
في الرَّبِّ) (١) ، وروى أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم
قال : (إذا ذُكر الرَّبُّ فانتَهوا) (٢) ، وقال أبو هريرة رضي الله عنه :
خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً على أصحابه فقال : (فيهم
أنتم) ؟ قالوا : نتفكَّر في الخالق سبحانه وتعالى ، فقال عليه الصلاة
والسلام : (تَفَكَّرُوا في الخَلْق ولا تَتَفَكَّرُوا في الخالق فإنه لا تحيط
الفكرة) ... الحديث (٣) .

(١) أخرجه الدارقطني في الأفراد ، والبغوي في تفسيره ، عن أبيِّ بن كعب ، وأخرجه
أبو الشيخ في العظمة عن سفيان الثوري .

(٢) ذكره القرطبي بلفظ : (إذا ذكر الله تعالى فانتَه) ، وذكره الإمام السيوطي في
(الجامع الصغير) ، عن البزار : عن أبي سعيد المقبري مرسلًا بلفظ (إذا ذكرتُم بالله فانتَهوا) .

(٣) أخرجه أبو الشيخ عن يونس بن مسيرة ، قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم
على أصحابه وهم يذكرون عظمة الله تعالى ، فقال : ما كنتم تذكرون ؟ قالوا : كنا نتفكر =

وذكر تعالى الضحك والبكاء لأنهما صفتان تجمعان أصنافاً كثيرة من الناس ؛ إذ الواحدة دليل السرور والأخرى دليل الحزن في الدنيا والآخرة ، فنبه تعالى على هاتين الخاصتين اللتين هما للإنسان وحده ، وقال مجاهد : المعنى : أضحك أهل الجنة وأبكى أهل النار (١) ، وحكى الثعلبي في هذا أقوالاً استعارية كمن قال : أضحك الأرض بالنبات وأبكى السماء بالمطر ، ونحوه ، و (أَمَاتَ وَأَحْيَا) بَيْنٌ ، وحكى الثعلبي قولاً أنه أحيا بالإيمان وأمات بالكفر . و «الزَّوْجَيْنِ» في هذه الآية يريد به الْمُصْطَحِبَيْنِ من الناس ، من الرجل والمرأة وما ضارع من الحيوان ، وَالخُنْثَى مُتَمَيِّزٌ وَلَا بُدَّ لِإِحْدَى الْجَهْتَيْنِ .

و «النُّطْفَةُ» في اللغة : القطعة من الماء كانت يسيرة أو كثيرة ، ويراد بها هنا الذُّكْرَانُ (٢) ، وقوله : [تُمنَى] يحتمل أن يكون من قولك :

= في عظمة الله تعالى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألا في الله فلا تفكروا ، ثلاثاً ، ألا فتفكروا في عظيم ما خلق ، ثلاثاً ، وأخرج مثله أيضاً أبو الشيخ عن أبي أمية مولى شبرمة واسمه الحكم ، عن بعض أئمة الكوفة ، مع زيادة في آخره ، وأخرج أبو الشيخ أيضاً عن ابن عباس رضي الله عنهما مثله مع زيادة واختلاف في الألفاظ . ذكر ذلك الإمام السيوطي في « الدر المنثور » .

(١) أخرج ابن مردويه عن عائشة رضي الله عنها قالت : مرَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم على قوم يضحكون ، فقال : لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيراً ولضحكتم قليلاً ، فنزل عليه جبريل فقال : إن الله هو أضحك وأبكى ، فرجع إليهم فقال : ما خطوت أربعين خطوة حتى أتاني جبريل فقال : ائت هؤلاء فقل لهم : إن الله أضحك وأبكى . « الدر المنثور » .

(٢) أي : يراد بها ماء الرجال .

«أَمْنَى الرَّجُلِ» إِذَا خَرَجَ مِنْهُ الْمَنِيُّ ، وَيَحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ مِنْ قَوْلِكَ :
 «مَنْىَ اللهُ الشَّيْءَ» إِذَا خَلَقَهُ ، فَكَأَنَّهُ قَالَ : إِذَا تُخْلَقُ وَتُقَدَّرُ ، وَ «النَّشْأَةُ
 الْآخْرَى» هِيَ إِعَادَةُ الْأَجْسَامِ إِلَى الْحَشْرِ بَعْدَ الْبَلَى فِي التَّرْكِيبِ ، وَقَرَأَ
 النَّاسُ : [النَّشْأَةَ] بِسُكُونِ الشَّيْنِ وَبِالْهَمْزَةِ وَالْقَصْرِ ، وَقَرَأَ أَبُو عَمْرٍو ،
 وَالْأَعْرَجُ : [النَّشْأَةَ] مَمْدُودَةً ، وَ «أَقْنَى» مَعْنَاهُ : أَكْسَبَ ، تَقُولُ :
 قَنَيْتُ الْمَالَ أَيْ كَسَبْتَهُ ، ثُمَّ تُعَدَّى بَعْدَ ذَلِكَ بِالْهَمْزَةِ ، وَتُعَدَّى بِالتَّضْعِيفِ ،
 وَمِنْهُ قَوْلُ الشَّاعِرِ :

كَمْ مِنْ غَنِيٍّ أَصَابَ الدَّهْرُ ثَرَوَتَهُ وَمِنْ فَقِيرٍ تَقَنَّى بَعْدَ إِقْلَالِ (١)
 وَعَبَّرَ الْمَفْسُرُونَ عَنِ «أَقْنَى» بِعِبَارَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ : أَقْنَى
 مَعْنَاهُ : اكْتَسَبَ مَا يُقْتَنَى ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ : مَعْنَاهُ : أَرْضَى وَأَغْنَى ،
 وَقَالَ حَضْرَمِيٌّ : مَعْنَاهُ : أَغْنَى نَفْسَهُ وَ «أَقْنَى» أَفْقَرَ عِبَادَهُ إِلَيْهِ ، وَقَالَ
 الْأَخْفَشُ : أَغْنَى : أَفْقَرَ ، وَهَذِهِ عِبَارَاتٌ لَا تَقْتَضِيهَا اللَّفْظَةُ ، وَالْوَجْهُ
 فِيهَا بِحَسَبِ اللَّغَةِ : أَكْسَبَ مَا يُقْتَنَى ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ
 عَنْهُمَا : أَقْنَى : أَفْنَعَ .

(١) هَذَا الْبَيْتُ شَاهِدٌ هُنَا عَلَى أَنَّ (قَنَيْتَ) تَعَدَّى بِالتَّضْعِيفِ ، وَ «كَمْ» هُنَا لِلتَّكْثِيرِ ،
 وَأَصَابَ ثَرَوَتَهُ : أَضَاعَهَا ، فَكَأَنَّهُ أَنْزَلَ بِهَا إِصَابَةَ مَاحِقَةٍ ، وَالْإِقْلَالُ : الْفَقْرُ وَالْحَاجَةُ ، يَقُولُ :
 كَثِيرٌ مِنَ الْأَغْنِيَاءِ أَصَابَهُمُ الدَّهْرُ فَضَاعَتْ ثَرَوَاتُهُمْ ، وَكَثِيرٌ مِنَ الْفُقَرَاءِ أَغْنَاهُمُ الدَّهْرُ وَأَكْسَبَهُمُ
 الثَّرْوَةَ ، وَلَمْ أَقْفِ عَلَى قَائِلِ الْبَيْتِ .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والقناة خير قنينة ، والغنى عرض زائل ، قلله در ابن عباس رضي الله عنهما .

و «الشعري» : نجم في السماء ، وقال مجاهد وابن زيد : هو مرزم الجوزاء (١) ، وهما شعريان : إحداهما الغميصاء (٢) والأخرى العبور ، لأنها عبرت المجرة ، وكانت خزاعة ممن يعبد هذه الشعري ، ومنهم أبو كبشة ، ذكره الزهراوي والثعلبي ، واسمه عبد الشعري ، فلذلك خصت بالذكر ، أي : وهو رب هذا المعبود الذي هو لكم .

و «عاد» : قوم هود ، واختلف في معنى وصفها بالأولى - فقال ابن زيد والجمهور : ذلك لأنها في وجه الدهر وقديمه ، فهي أولى بالإضافة إلى الأمم المتأخرة ، وقال الطبري : سميت بالأولى لأن عاداً أخيرة - وهي قبيلة - كانت بمكة مع العماليق وهم بنو لقيم

(١) أي الذي يأتي بعد الجوزاء ويتبعها . وهو اسم لعدد من النجوم أشهرها ميرزمان : هما الشعريان : العبور والغميصاء ، وأم مرزم : الريح ، أو ريح الشمال الباردة ؛ لأنها تأتي بنوء المرزم ومعه المطر والبرد . (المعجم الوسيط) . وفي اللسان : «الشعري : كوكب نير يقال له : المرزم ، يطلع بعد الجوزاء وطلوعه في شدة الحر» .

(٢) سماها العرب بالغميصاء لأنهم قالوا : إنها بكت على إثر العبور حتى غميصت ، أي صغرت ، وهذا كناية عن قلة ضوءها .

ابن هزال ، والقول الأول أبين ؛ لأن هذا الأخير لم يصح ، وقال
المبرد : عاد الأخيرة هي ثمود ، والدليل قول زهير :

..... كَأَحْمَرَ عَادٍ ثُمَّ تُرْضِعُ فَتَقْطِمِ (١)

ذكره الزهراوي ، وقيل : الأخيرة : الجبارون . وقرأ ابن كثير ،
وعاصم ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي : [عَادًا] منونةً [الْأُولَى]
مهموزة ، وقرأ نافع فيما يروى عنه : (عَادَ الْوَلَى) بإزالة
التنوين والهمز ، وهذا كقراءة من قرأ : (أَحَدُ اللَّهِ) (٢) ،

(١) هذا عجز بيت من المعلقة ، وهو واحد من الأبيات التي يصف فيها الحرب وينفر منها ،
والبيت بتمامه مع بيت قبله :

فَتَعْرُكُكُمْ عَرَكَ الرَّحَى بِثِفَالِهَا وَتَلْقَحُ كِشَافًا ثُمَّ تُنْجِحُ فَتُنْجِمِ
فَتُنْجِحُ لَكُمْ غِلْمَانَ أَشْأَمَ كُلُّهُمْ كَأَحْمَرَ عَادٍ ثُمَّ تُرْضِعُ فَتَقْطِمِ

يقول : إن الحرب تعرككم كما تعرك الرحى الحصى الحب مع الثفاله وهو الخريقة التي توضع
تحت الرحى ليقع عليها الطحين ، والحرب تلقح في السنة مرتين وتلد توأمين ، والشؤم : ضد
اليمن ، ورجل مشؤوم كما يقال رجل ميمون ، والأشأم : أفعال من الشؤم وهو مبالغة ،
وأراد بأحمر عاد أحمر ثمود وهو قدار بن سالف الذي عقر الناقة ، يقول : فَتَلِدُ لَكُمْ أَبْنَاءَ
في أثناء تلك الحروب كل واحد منهم أشأم كماقر الناقة ، ثم ترضعهم الحرب وتقطمهم ،
أي تكون ولادتهم ونشأتهم في أثناء الحرب فيصبحون مشائيم على آبائهم ، والشاهد هو أنه
أراد بأحمر عاد أحمر ثمود ، فعاد تطلق على ثمود ، وهي عاد الأخيرة .

(٢) من قوله تعالى في الآيتين الأولى والثانية من سورة (الصمد) : (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ،

اللَّهُ الصَّمَدُ) ، فقد قرئت : [أَحَدُ] بدون تنوين .

وكقول الشاعر :

..... وَلَا ذَاكِرِ اللَّهِ إِلَّا قَلِيلاً (١)

وقرأ قوم : ﴿عَادِ الْأُولَى﴾ ، والنطق بها «عَادِنِ الْأُولَى» ، اجتمع

سكون نون التنوين وسكون لام التعريف فكسرت النون لالتقاء الساكنين ،

ولا فرق بينها وبين قراءة الجمهور إِلَّا ترك الهمز ، وقرأ نافع أيضاً ،

وأبو عمرو بالوصل والإدغام : ﴿عَادَا لُولَى﴾ بإدغام النون في اللام

ونقل حركة الهمزة إلى اللام ، وعاب أبو عثمان المازني والمبرد هذه

القراءة وقالوا : إن هذا النقل لا يخرج اللام عن حدِّ السكون ، وحقُّ

ألف الوصل أن تبقى كما تقول العرب إذا نقلت الهمزة من قولهم :

«الْأَحْمَرُ» فإنهم يقولون : «الْحَمْرُ جَاءَ» ، فكذلك يقال هنا : «عَادَا

للولَى» ، قال أبو علي : والقراءة سائغة ، وأيضاً فمن العرب من يقول :

(١) هذا عَجَزُ بيت لأبي الأسود الدؤلي - ظالم بن عمرو بن سفيان الدؤلي - والبيت بتمامه :

فَأَلْفَيْتُهُ غَيْرَ مُسْتَعْتَبٍ وَلَا ذَاكِرِ اللَّهِ إِلَّا قَلِيلاً

وهو في الكتاب ، وخزانة الأدب ، وابن الشجري . والأغاني ، والمغني . واللسان . ويروى

أن أبا الأسود أغوته امرأة يجملها ، وزعمت أنها صناعُ الكفِّ حسنة التدبير . وعرضت عليه

الزواج فتزوجها ، ولكنه وجدها قد أسرفت في ماله ، ومدت يدها إلى خيانته . فهجاها بأبيات

منها هذا البيت . وغير مُسْتَعْتَبٍ : أي غير راجع بالعتاب عن قبيح فعله ، وهو يعني هذه

المرأة ، والشاهد في البيت حذف التنوين من «ذاكر» لالتقاء الساكنين ونصب ما بعده وإن

كان الوجه الإضافة .

«لَحْمَرٌ جَاءَ» فيحذف الألف مع النقل وَيَعْتَدُّ بحركة اللام ولا يراها في حكم السكون ، وقرأ نافع فيما روي عنه : (عَاداً اللَّوْئِي) بهمز «اللَّوْئِي» ، يهزم الواو ، ووجه ذلك أنه لم يكن بين الواو والضمة حائل يحمل الهمزة فهزما كما تهزم الواو المضمومة ، وكذلك فعل من قرأ : (عَلَى سُوْقِهِ) (١) ، وكما قال الشاعر :

لَحَبَّ الْمُؤَقِدَانَ إِلَيَّ مُوسَى (٢)
وهي لغة . وقرأ الجمهور : [وَتَمُوداً] بالنصب عطفاً على [عَاداً] ،

(١) من قوله تعالى في الآية (٢٩) من سورة (الفتح) : ﴿ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوْقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ﴾ .

(٢) هذا صدر بيت قاله جرير من قصيدة له يمدح هشام بن عبد الملك ، ويروي : لَحَبَّ الواقدان ، وأحب الموقدين ، وأنشده الزمخشري في كشافه كما هنا ، والبيت بتمامه :

لَحَبَّ الْمُؤَقِدَانَ إِلَيْكَ مُوسَى وَجَعَدَةَ إِذْ أَضَاءَهُمَا التُّوْقُودُ

وَحَبَّ : فِعْلٌ مَاضٍ أَصْلُهُ حَبَّبَ : مَثَلُ كَرَّمَ . وَمَعْنَاهُ : صَارَ مَحْبُوباً ، فَأَدْغَمْتَ الْبَاءَ الْأُولَى فِي الثَّانِيَةِ إِمَّا لِلْقَلْبِ . وَإِمَّا لِنَقْلِهَا إِلَى الْخَاءِ قَبْلِهَا ، فَلَمَّا رُوي «لَحَبَّ» بِفَتْحِ الْخَاءِ وَضَمِّهَا - وَاللَّامِ فِي «لَحَبَّ» لَامُ جَوَابِ قَسَمٍ مَحذُوفٍ ، وَالْمُؤَقِدَانِ هُمَا مُوسَى وَجَعَدَةُ ، فَإِنَّهُمَا يوقدان نار القرى للضيوف ، كناية عن الكرم ، والتُّوْقُودُ - بضم الواو - : مصدر بمعنى الإيقاد ، وبالفتح ما يوقد به من حطب ونحوه ، والمعنى : لما أضاء إيقاد النار موسى وجعدة ورأيتهما ذوي ضياءٍ وبهجة صاروا محبوبين . والشاهد هو قلب الواو همزة في «الموقدان» . وفي «مُوسَى» إجراءً لضمة ما قبلها مجرى ضممتها هي ، وهذا هو مذهب سيبويه ، وقد سبق الاستشهاد بهذا البيت في أكثر من مناسبة .

وقرأ عاصم ، والحسن ، وعصمة : [وَتَمُودًا] بغير صرف ، وهي في مصحف ابن مسعود رضي الله عنه بغير ألف بعد الدال .
 وقوله تعالى : ﴿ فَمَا أَبْقَى ﴾ ظاهره : فما أبقى عليهم ، وتأول ذلك بعضهم : فما أبقى منهم عينا تطرف ، وقد قال ذلك الحجاج حين سمع قول من يقول : إن ثقيفاً من ثمود ، فأنكر ذلك وقال : إن الله تعالى قال : ﴿ وَتَمُودَ فَمَا أَبْقَى ﴾ ، وهؤلاء يقولون : بقي منهم باقية .

قوله عز وجل :

﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى ۗ ﴿٥٢﴾ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى ۗ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّيْنَا مَا غَشَّى ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ آيَاتِ رَبِّكَ نَتَمَارَى ۗ ﴿٥٥﴾ هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النَّذْرِ الْأُولَى ۗ ﴿٥٦﴾ أَرَفَتِ الْأَرْضُ كَاشِفَةَ ﴿٥٨﴾ أَفِنَّ هَذَا الْحَدِيثِ تَعَجَّبُونَ ۗ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَتَّبِعُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنْتُمْ سَمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ﴿٦٢﴾ ﴾

نصب ﴿ قَوْمَ نُوحٍ ﴾ عطفاً على [تَمُودًا] ، وقوله تعالى : ﴿ مِنْ قَبْلُ ﴾ لأنهم كانوا أول أمة كذبت من أهل الأرض ، و «نوح» أول الرسل ، وجعلهم «أظلم وأطغى» لأنهم سبقوا إلى التكذيب

دون اقتداءً بأحد قبلهم ، وأيضاً فإنهم كانوا في غاية من العتو^١ ، وكان عُمَرُ نوح عليه السلام قد طال في دعائهم ، وكان الرجل يأتي إليه مع ابنه فيقول : احذرك من هذا الرجل فإنه كذاب ، ولقد حذرنى منه أبي وأخبرني أن جدِّي حذره منه ، فمشت على هذا أخلاقهم ألفاً إلا خمسين عاماً .

و « الْمُؤْتَفِكَةُ » قرية قوم لوط عليه السلام بإجماع من المفسرين ، ومعنى « الْمُؤْتَفِكَةُ » : المتقلبة ؛ لأنها أَفِكَتْ فَأَتَفَكَتْ ، ومنه « الإِفْكُ » لأنه قلب الحق كذباً ، وقرأ الحسن بن أبي الحسن : [وَالْمُؤْتَفِكَاتِ] على الجمع ، و [أَهْوَى] معناه : طرحها في هواءِ عالٍ إلى أسفل ، وهذا ما رُوي من أن جبريل عليه السلام اقتلعها بجناحه حتى بلغ قرب السماء فهبط الجميع ، ثم اتبعوا بحجارة ، وهي التي غشاها الله تبارك وتعالى .

وقوله تعالى : ﴿ فَبِأَيِّ آيَاتِ رَبِّكَ تَتَمَارَى ﴾ مخاطبة للإنسان الكافر ، كأنه قيل له : هذا هو الذي له هذه الأفاعيل ، وهو خالقك المنعم عليك بكل النعم ، ففي أيها تشكُّ ؟ و [تَتَمَارَى] معناه : تَتَشَكَّكُ ، وقرأ يعقوب : ﴿ رَبِّكَ تَمَارَى ﴾ بتاءٍ واحدة مشددة ، وقال أبو مالك الغفاري (١) :

(١) اسمه غَزْوَانُ الْغِفَارِيُّ ، أبو مالك الكوفيُّ ، مشهور بكنيته ، ثقة ، من الثالثة . (تقريب التهذيب) .

إن قوله تعالى : ﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ ﴾ إلى قوله تعالى : [تَتَمَارَى] هو في صحف إبراهيم وموسى عليهما السلام .

وقوله تعالى : ﴿ هَذَا نَذِيرٌ ﴾ يحتمل أن يشير إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو قول قتادة ، وأبي جعفر ، ومحمد بن كعب القرظي ، ويحتمل أن يشير إلى القرآن ، وهو تأويل قوم ، وقال أبو مالك : الإشارة بهذا النذير إلى ما سلف من الأخبار عن الأمم ، و [نَذِيرٌ] يحتمل أن يكون بناء اسم فاعل ، ويحتمل أن يكون مصدراً ، و «نُذِرٌ» جمع نذير ، وقال : [الْأَوْلَى] بمعنى أنه في الرتبة والأوصاف والمنزلة من تلك المتقدمة ، والأشبه أن تكون الإشارة إلى محمد صلى الله عليه وسلم .

وقوله تعالى : ﴿ أَزِفَتِ الْأَرْفَةُ ﴾ معناه : قربت القريبة ، و [الْأَرْفَةُ] عبارة عن القيامة بإجماع من المفسرين ، و «أزف» معناه : قَرَبَ جداً ، وقال كعب بن زهير :

بَانَ الشَّبَابُ وَأَمْسَى الشَّيْبُ قَدْ أَزِفَا وَلَا أَرَى لِشَبَابٍ ذَاهِبٍ خَلْفًا (١)

وقوله تعالى : [كَاشِفَةٌ] يحتمل أن يكون صفةً لمؤنثة ، والتقدير :

(١) يبكي شبابه ويتوجس خيفة من الشيب ، وبان : ذهب وارتحل ، وأزف : دنا واقرب جداً ، وهو موضع الاستشهاد هنا ، يقول : ذهب الشباب واقرب المشيب فالكبر والعجز ، وليس بعد ذلك إلا الفناء ، فإذا ذهب الشباب فقد ذهب العمر كله في الحقيقة .

حالٌ كاشفةٌ ، أو منةٌ كاشفةٌ ، أو سعايةٌ ، قال الرُّمَّاني : أو جماعةٌ ،
ويحتمل أن يكون مصدرًا كالعاقبة و ﴿ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ ﴾ (١) ، ويحتمل
أن يكون بمعنى « كاشف » والهَاءُ للمبالغة ، كما قال تعالى : ﴿ فَهَلْ
تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ﴾ (٢) ، وأما معنى [كَاشِفَةٌ] فقال الطبري ، والزجاج :
هو من كشف السرَّ ، أي : ليس من دون الله من يكشف وقتها ويعلمه ،
وقال الزهراوي عن منذر بن سعيد : هو من كشف الضرَّ ودفعه ،
أي : ليس من يكشف هولها وخطبها ، وقرأ طلحة : « لَيْسَ لَهَا
مِمَّا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ وَهِيَ عَلَى الظَّالِمِينَ سَاعَتِ
الْغَاشِيَةِ » (٣) .

(١) جاءت في قوله تعالى في الآية (١٩) من سورة (غافر) : ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ
وَمَا تُخْفِي الصُّدُورِ ﴾ .

(٢) الآية (٨) من سورة (الحاقة) .

(٣) قال أبو الفتح ابن جني : « هذه القراءة تدل على أن المراد بقراءة الجماعة :
﴿ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴾ ، حذف مضاف بعد مضاف ، ألا ترى أن التقدير :
« ليس لها من جزاء عباد معبودٍ دون الله كاشفةٌ » ، فالعبادة — على هذا — مصدر مضاف
إلى المفعول ، كقوله تعالى : ﴿ لَا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ ﴾ ، ثم حذف المضاف
الأول فصار تقديره : « ليس لها من عبادة معبودٍ دون الله كاشفةٌ » ، ثم حذف المضاف الثاني
الذي هو « عبادة » فصار التقدير : « ليس لها من معبودٍ دون الله كاشفةٌ » ، ثم حذف المضاف
الثالث فصار إلى ﴿ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴾ . وقوله : « وَهِيَ عَلَى الظَّالِمِينَ
سَاعَتِ الْغَاشِيَةِ » جارٍ مجرى قولهم : « زيدٌ بيئس الرجلُ » ؛ لأن ساءَ بمعنى بيئس .

و (هَذَا الْحَدِيثِ) هو القرآن ، وقوله تعالى : [أَفَمِنْ] ؟ توقيف وتوبيخ ، وفي حرف أبي ، وابن مسعود رضي الله عنهما «تَعْجِبُونَ ، تَضْحَكُونَ» بغير واو عطف ، وقرأ الحسن : (تُعْجِبُونَ تَضْحَكُونَ) بضم التاء فيهما وكسر الجيم والحاء وحذف واو العطف . وفي قوله تعالى وجل : (وَلَا تَبْكُونَ) حضُّ على البكاء عند سماع القرآن ، وروى سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (إن هذا القرآن أنزل يُخَوِّفُ ، فإذا قرأتموه فابكوا ، فإن لم تبكوا فتباكوا) (١) ، ذكره الشعلبي .

و «السَّامِدُ» : اللاعبُ اللاهي ، وبهذا فسَّر ابن عباس رضي الله عنهما وغيره من المفسرين ، وقال الشاعر :

قِيلَ قُمْ فَانظُرْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ دَعَّ عَنْكَ السُّمُودَا (٢)

(١) أخرجه ابن ماجه في الإقامة والزهد . وسعد هو أول من رمى بسهم في سبيل الله ، وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة .

(٢) البيت في اللسان - سمد - غير منسوب ، وفي «الدر المنثور» ذكره الإمام السيوطي مع بيت آخر قبله منسوباً إلى هزيلة بنت بكر . قال : أخرج الطبراني ، والطبراني ، عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق سأله عن قوله تعالى : [سَامِدُونَ] ، قال : السُّمُودُ : اللهوُّ والباطل ، قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم ، أما سمعت قول هزيلة بنت بكر وهي تبكي قوم عاد :

لَيْتَ عَاداً قَبِلُوا الْحَقَّ وَلَمْ يُبَدُّوا جُحُوداً
قِيلَ قُمْ فَانظُرْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ دَعَّ عَنْكَ السُّمُودَا

و «سَمَدٌ» بلغة حَمِير : غَنَى ، وهذا كله معنى قريب بعضه من بعض ،
 وأسند الطبري عن أبي خالد الوالي (١) ، قال : خرج علينا عليٌّ
 رضي الله عنه ونحن قيام ننتظره للصلاة فقال : مالي أراكم سامدين ؟

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

يشبه أنه رآهم في أحاديث ونحوها مما يُظن أنه غفلة ما ، وقال
 إبراهيم : كانوا يكرهون أن ينتظروا خروج الإمام قياماً ، وفي الحديث :
 (إذا أُقيمت الصلاة فلا تقوموا حتى تروني) (٢) .

= وقد فُسِّرَ السمود بمعاني كثيرة ، فقيل : هو اللّهُو واللّعب ، وقيل : هو الغِنَاءُ ، وقيل :
 الاستكبار ، وقيل : القيام في تَحْيِيرٍ ، وهذا المعنى يلائم البيت موضع الاستشهاد ، وقيل :
 السمود : الغفلة والذّهاب عن الشيء ، وقيل : السُّمُودُ يكون سروراً وحرزاً . ومما رُوِيَ
 في السُّمُود قول القائل :

رَمَى الحِدْثَانُ نِسْوََةَ آلِ حَرْبٍ بِأَمْرٍ قَدِ سَمَدُنْ لَهُ سُمُودَا
 فَرَدَّ شَعُورَهُنَّ السُّودَ بَيْضاً وَرَدَّ وُجُوهَهُنَّ البَيْضَ سُودَا

(١) هو أبو خالد الوالي — بموحدة قبلها كسرة — الكوفيُّ : اسمه هُرْمَزُ ، وقيل : هَرِمٌ ،
 مقبول ، من الثانية : وفد على عمر ، وقيل : حديثه مرسل فيكون من الثالثة ، وخبره المروي
 هنا أخرجه عبد الرزاق ، وعبد بن حميد ، وابن جرير . ذكر ذلك السيوطي في « الدر المنثور » .
 (٢) أخرجه البخاري في الجمعة والأذان ، ومسلم في المساجد ، وأبو داود ، والترمذي
 في الصلاة ، والنسائي في الإمامة والأذان . والدارمي في الصلاة ، وأحمد في مسنده (٣٠٤-٥) ،
 ٣٠٥ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ٣١٠) ، ولقظه كما في مسلم . عن أبي قتادة قال : قال رسول الله
 صلى الله عليه وسلم : (إذا أُقيمت الصلاةُ فلا تقوموا حتى تروني) ، وقال ابن حاتم : (إذا =

ثم أمر تعالى بالسجود وعبادة الله تعالى تحذيراً وتخويفاً ، وها هنا سجدة في قول كثير من أهل العلم منهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه وردت بها أحاديث صحاح ، وليس يراها مالك رحمه الله تعالى (١) ، وقال زيد بن ثابت رضي الله عنه : إنه قرأ بها عند النبي صلى الله عليه وسلم فلم يسجد .

تم تفسير سورة النجم والحمد لله رب العالمين

= أقيمت أو نودي (وزاد إسحق في روايته حديث معنمر وشيبان : (حتى تروني قد خرجت) . قال العلماء : والنهي عن القيام قبل أن يروه لئلا يطول عليهم القيام ، ولأنه قد يعرض له عارض فيتأخر بسببه .

(١) لأنه يرى أن السجود المطلوب في الآية هو سجود الفرض في الصلاة ، أما أكثر العلماء فيرون أن المراد هو سجود تلاوة القرآن . وبه قال أبو حنيفة والشافعي .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين
سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين



تفسير سورة القمر (*)

وهي مكية بإجماع إلا آية واحدة اختلف فيها ، فقال جمهور الناس :
هي مكية ، وقال قوم : هي مما نزل يوم بدر ، وقيل : بالمدينة ، وهي
قوله تعالى : ﴿ سَيَهْزِمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ (١) ، وسيأتي القول
في ذلك .

(*) في أكثر الأصول : « تفسير سورة اقتربت الساعة » ، وآثرنا الاسم الذي يتفق مع
المصحف الشريف الذي بين أيدينا .

(١) هي الآية (٤٥) ، وقد قيل عن قتادة : إن الخلاف وقع في ثلاث آيات (٤٤ ، ٤٥ ،

٤٦) . ولكن أكثر العلماء يرون أن هذا ضعيف .

قوله عز وجل :

﴿ أَقْرَبَتْ السَّاعَةُ وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ ۗ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۗ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ۗ وَكُلُّ أُمَّةٍ مُّسْتَقِرٌّ ۗ وَوَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۗ حِكْمَةٌ بَلِغَةٌ ۗ فَمَا تُغْنِ الْأُنذُرَ ۗ فَنَوَّلْنَاهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكْرٍ ۗ خُشَعًا أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۗ مَهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكٰفِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ۗ﴾

[أَقْرَبَتْ] معناه : قربت إلا أنه أبلغ ، كما أن اقتدر أبلغ من قدر ، و [السَّاعَةُ] القيامة ، وأمرها مجهول التحديد ، لم يعلم إلا أنها قُرْبَتْ دون تحديد ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم : (بُعثت أنا والسَّاعَةُ كهاتين) وأشار بالسَّبَابَةِ والوسطى (١) ، وقال أنس رضي الله عنه : خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد كادت الشمس تغيب ، فقال : (ما بقي من الدنيا فيما مضى إلا كمثل ما بقي من

(١) أخرجه الإمام أحمد ، والبخاري ، ومسلم ، والترمذي ، عن أنس رضي الله عنه ، وأخرجه الأئمة أحمد ، والبخاري ، ومسلم عن سهل بن سعد : ذكر ذلك الإمام السيوطي في «الجامع الصغير» ورمز له بأنه حديث صحيح .

هذا اليوم فيما مضى (١) ، وقال عليه الصلاة والسلام : (إِنِّي لِأَرْجُو اللَّهَ أَنْ يُؤَخِّرَ أُمَّتِي نِصْفَ يَوْمٍ) (٢) وهذا منه صلى الله عليه وسلم على جهة الرجاء والظن ، لم يجزم به خبراً ، فأناف الله تعالى على أملة وأخر أمته أكثر من رجائه ، وكل ما يُروى في عمر الدنيا من التحديد فضعيف واهن .

وقوله تعالى : (وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ) إخبار عما وقع في ذلك ، وذكر الثعلبي في ذلك أنه قيل : إن المعنى : ينشق القمر يومئذ (٣) ، وهذا

(١) رواه الحافظ البزار بسنده عن قتادة عن أنس ، وقال ابن كثير بعد أن ذكر الحديث بسنده : « قلت : هذا حديث مداره على خلف بن موسى بن خلف العمي عن أبيه ، وقد ذكره ابن حبان في الثقات ، وقال : ربما أخطأ » ، ثم أورد حديثاً آخر رواه الإمام أحمد عن ابن عمر رضي الله عنهما ، وقال : إنه يُعصَّد الذي قبله ، ولفظه كما في مسند أحمد : (كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالشَّمْسُ عَلَى قُعَيْقَعَانَ بَعْدَ الْعَصْرِ ، فَقَالَ : مَا أَعْمَارِكُمْ فِي أَعْمَارٍ مِنْ مَضَى إِلَّا كَمَا بَقِيَ مِنَ النَّهَارِ فِيمَا مَضَى) .

(٢) أخرجه أبو داود في الملاحم . وأحمد في مسنده (١-١٧٠) ، ولفظه كما في المسند عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (إِنِّي لِأَرْجُو إِلَّا يَعِجْزُ أُمَّتِي عِنْدَ رَبِّي أَنْ يُؤَخِّرَهُمْ نِصْفَ يَوْمٍ) ، فقيل لسعد : وكم نصف يوم ؟ قال : خمسمائة سنة .

(٣) يعني : يوم القيامة . وقد قيل : إن انشقاق القمر هو زوال الظلمة عنه بطلوعه في أثنائها ، كما يُسمَّى الصبح فلَقًا لانفلاق الظلمة عنه ، وقد يُعبَّر عن انفلاقه بانشقاقه كما قال النابغة :

فَلَمَّا أَدْبَرُوا وَلَهُمْ دَوِيٌّ دَعَانَا عِنْدَ شَقِّ الصُّبْحِ دَاعٍ =

ضعيف والأئمة على خلافه ، وذلك أن قريشاً سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم آية ، فقيل : مجملة - وهذا قول الجمهور - وقيل : بل عِينُوا شق القمر ، ذكره الثعلبي عن ابن عباس رضي الله عنهما ، فأراهم الله تعالى انشقاق القمر ، فرآه رسول الله صلى الله عليه وسلم وجماعة من المسلمين والكفار ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (اشهدوا) (١) ، ومن قال من الصحابة : رأيتُه عبد الله بن مسعود ، وجبير بن مطعم ، وأخبر به عبد الله بن عمر ، وأنس ، وابن عباس ، وحذيفة بن اليمان ، وقال المشركون عند ذلك : سحرنا محمد ،

= ولكن جمهور العلماء على أن الانشقاق قد وقع فعلاً ، وقد ثبت ذلك في البخاري وغيره من حديث ابن مسعود ، وابن عمر ، وأنس ، وجبير بن مطعم ، وابن عباس رضي الله عنهم ، وقد أنكر أبو حيان كل رأي يخالف صريح العبارة بلفظ قوي صريح .

(١) أخرجه عبد بن حميد ، والبخاري ، ومسلم ، والترمذي ، وابن جرير ، وابن مردويه - من طريق أبي معمر - عن ابن مسعود ، قال : انشقَّ القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فرقتين : فرقة فوق الجبل وفرقة دونه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اشهدوا ، وأخرج مثله ابن مردويه ، وأبو نعيم في الدلائل - من طريق علقمة - عن ابن مسعود ، قال : كنتُ مع النبي صلى الله عليه وسلم بمنى ، فانشق القمر حتى صار فرقتين ، فتوارت فرقة خلف الجبل ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : اشهدوا ، وأخرج مثله مسلم ، والترمذي ، وابن جرير وابن المنذر ، وابن مردويه ، والحاكم ، والبيهقي ، وأبو نعيم في الدلائل - من طريق مجاهد - عن ابن عمر ، وفي آخره قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم اشهد ، وأخرج أبو نعيم في الحلية - من طريق عطاء ، والضحاك - عن ابن عباس ... مثله ، إلا أنه ذكر أسماء الكفار الذين طلبوا من الرسول صلى الله عليه وسلم آية .

وقال بعضهم : سَحَر القمر ، وقالت قريش : استخبروا المسافرين القادمين عليكم ، فما ورد أحد إلا أخبر بانشقاقه ، وقال ابن مسعود : رأيتُه انشق فذهبت فرقة وراء جبل حراء ، وقال ابن زيد : كان يُرى نصفه على قَعِيقَعَانَ والآخر على أبي قبيس ، وقرأ حذيفة : « أَقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَقَدْ انْشَقَّ الْقَمَرُ » ، وذكر الثعلبي عنه أن قراءته : « أَقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ انْشَقَّ الْقَمَرُ » دون واو .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا ﴾ ، جاء اللفظ مستقبلاً لينتظم ما مضى وما يأتي ، فهو إخبارٌ بأن حالهم هكذا ، واختلف الناسُ في معنى [مُسْتَمِرٌّ] - فقال الزجاج : قيل : معناه دائمٌ مُتَمَادٌ ، وقال قتادة ، ومجاهد ، والكسائي ، والفراء : معناه : ذاهبٌ مارٌّ عن قريب يزول ، وقال الضحاك ، وأبو العالية : معناه : مشدودٌ ، من مراير الجبل ، كأنه سحرٌ قد استمرَّ ، أي : أُحْكَمَ ، ومنه قول الشاعر :

حَتَّى اسْتَمَرَّتْ عَلَى شَدْرِ مَرِيرَتِهِ صَدَقَ الْعَزِيمَةَ لَا رَتًّا وَلَا ضَرَعًا (١)

(١) هذا البيت لِللَّقِيطِ بنِ يَعْمَرَ الإيادي من قصيدة قالها يدعو قومه إلى قتال كسرى ويحضهم على الحرب والفداء ، ويقول في مطلعها :

يَا دَارَ عِبَلَةٍ مِنْ مُحْتَلِّهَا الْجِرْعَا هَاجَتْ لِي الْهَمَّ وَالْأَحْزَانَ وَالْوَجَعَا
والبيت أحد الأبيات التي يتكلم فيها عن اختيار قائد شجاع ، قادر على الحرب ، قد حنكته =

ثم أخبر تعالى أنهم كذبوا واتبعوا شهواتهم وما يهْوُونَ من الأمور ،
 لا بدليل ولا بتثبيت ، ثم قال تعالى - على جهة الخبر الجزم - :
 ﴿ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقَرٌّ ﴾ ، كأنه تعالى يقول : وكلُّ شيءٍ إلى غاية ، فالحق
 يستقر ثابتاً ظاهراً ، والباطل يستقر زاهقاً ذاهباً ، وقرأ أبو جعفر
 ابن القعقاع : ﴿ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقَرٌّ ﴾ بالجرِّ في [مُسْتَقَرٌّ] ، يعني بذلك
 أشراطها ، والجمهور على كسر القاف من [مُسْتَقَرٌّ] ، وقرأ نافع -
 بخلاف - وابن نصاح بفتحها ، قال أبو حاتم : لا وجه لفتحها (١) ،
 و «الأنبياء» جمع نبياً ، ويدخل في هذا جميع ما جاء به القرآن
 من المواعظ والقصص ومثلات الأمم الكافرة ، و [مُزْدَجَرٌّ] معناه :

= الأيام وأكسبته الخبرة ، فهو لا يستكين إذا عضه مكروه ، ولا يعيش عيش المترفين إن ساعده
 رخاء العيش :

وَقَلَّدُوا أَمْرَكُمْ لَلَّهِ دَرَكُكُمْ رَحْبَ الدَّرَاعِ بِأَمْرِ الْحَرْبِ مُضْطَلِعًا
 لا مُتَرْفَأًا إِنْ رَخَاءَ الْعَيْشِ سَاعَدَهُ وَلَا إِذَا عَضَّ مَكْرُوهٌ بِهِ خَشَعَنَا
 ومعنى «استمرت» : أحكمت ، والشَّرُّ : فتل الحبل مما يلي اليسار ، وهو أشدُّ
 لفته ، والمريرة : إحكام الفتل ثم أريد بها القوة ، يقال : استمرت مريرة الرجل إذا
 قويت شكيمته ، والصدقُ : الكاملُ في كل شيء ، وصدقُ العزيمة : الثابت فيها المصمم
 عليها ، ويروى «مرَّ العزيمة» ، كما يروى «مُسْتَحْكِمَ السِّنِّ» بدلا من «صدقُ العزيمة» .
 والرَّتَّةُ : ردةٌ قبيحة في اللسان من العيب ، والذي في «الشعر والشعراء» وفي الديوان :
 «لا قحماً» والقحْمُ : الشيخ الهرم يعتره خرق وخوف ، والضرعُ : اللين الدليل .

(١) قال أبو حيان في البحر : «وخرَّجت على حذف مضاف ، أي : ذو استقرار

وزمان استقرار» .

موضع زجر وانتهاءً ، وأصله «مُزْتَجِرٌ» قلبت التاء دالاً ليناسب مخرجها مخرج الزاي ، وكذلك تبدل تاء «افتعل» من كل فعل أوله زايٌّ كازْدَلَفَ وازْدَانَ ونحوه .

وقوله تعالى : [حِكْمَةٌ] مرتفع إِمَّا على البدل من [مَا] في قوله تعالى : (مَا فِيهِ) ، وإِمَّا على خبر ابتداءٍ مضمرة تقديره : هذه حكمة ، و [بَالِغَةٌ] معناه : يبلغ المقصد بها من وعظ النفوس والبيان لمن له عقل ، وقوله تعالى : (فَمَا تُغْنِ الْنُّذُرُ) يحتمل أن تكون [مَا] نافية ، أي : ليس تُغني مع عُنُوُّ هذا الناس ، ويحتمل أن تكون استفهاماً بمعنى التقرير ، أي : فَمَا غَنَاءُ النُّذُرِ مع هؤلاء الكفرة ؟

ثم سَلَّى تعالى نبيّه عليه الصلاة والسلام بقوله : (فَتَوَلَّ عَنْهُمْ) ، أي : لا تذهب نفسك عليهم حسرات ، وتمّ القول في قوله تعالى : [عَنْهُمْ] ، ثم ابتداءً وعيدهم ، والعامل في قوله تعالى : [يَوْمَ] قوله تعالى : [يَخْرُجُونَ] ، و [خُشَعَاءً] حالٌ من الضمير في [يَخْرُجُونَ] ، وتصرف الفعل يقتضي تقدم الحال ، قال المهدي : ويجوز أن يكون حالاً من الضمير في [عَنْهُمْ] ، وقال الرُّمَّاني : المعنى : فتَوَلَّ عنهم واذكر يومَ ، وقال الحسن : المعنى : فتَوَلَّ عنهم اليومَ ، وانحذفت الواو من [يَدْعُ] لَأَنَّ كَتَبَةَ المصحف اتَّبَعُوا اللَّفْظَ لا ما يقتضيه

الهجاء ، وأما حذف الياء من [الدَّاعِ] ونحوه فقال سيبويه : حذفوها تخفيفاً ، وقال أبو علي* ، حذف مع الألف واللام ؛ إذ هي تحذف مع معاقبها وهو التنوين ، وقرأ جمهور القراء : (إِلَى شَيْءٍ نُّكْرٍ) بضم الكاف ، وقرأ ابن كثير ، وشبل ، والحسن : [نُكْرٍ] بسكون الكاف ، وقرأ مجاهد ، والجحدري ، وأبو قلابة : [نُكْرٍ] بكسر الكاف وفتح الراء على أنه مبني للمفعول ، والمعنى في ذلك كله أنه منكور غير معروف ولا يُرى مثله ، قال الخليل : النُّكْرُ نعتٌ للأمر الشديد والرجل الداهية ، وقال مالكُ بن عوف النَّضْرِي :

أَقْدِمُ مَحَاجٍ إِنَّهُ يَوْمٌ نُّكْرٌ مِثْلِي عَلَى مِثْلِكَ يَحْمِي وَيَكْرُ (١)
و «نُكْرٌ» فُعْلٌ ، وهو صفة ، وذلك قليل في الصِّفَات ، ومنه «مِشِيَّةٌ سُجَّحٌ» قال الشاعر :

دَعُوا التَّخَاجُؤَ وَامْشُوا مِشِيَّةً سُجَّحاً إِنَّ الرِّجَالَ ذُوو عَصَبٍ وَتَذْكَيرِ (٢)

(١) يريد الشاعر أن هذا اليوم يوم منكور غير معروف لأن أحداً لم ير مثله لما فيه من شدة ، يقال : أَنْكَرْتُهُ فهو مُنْكَرٌ ، وَنَكَرْتُهُ فهو مَنْكُورٌ ، وقد جمع الأعشى بين اللغتين حين قال : (وَأَنْكَرْتَنِي وَمَا كَانَ اللَّذِي نَكَرْتِ ...) ، ومعنى : يَحْمِي : يدافع ويحفظ الشيء وَيَمْنَعُهُ : وَيَكْرُ : يحمل على العدو ويعيد الحمل عليه مرة بعد أخرى . يطالبه بالإقدام في هذا اليوم الشديد العصيب الذي لم ير أحد مثله فإن اجتماعهما معاً يقوي عزمهما . ويساعدهما على حماية قومهما والكر على العدو وهزيمته .

(٢) هذا البيت أحد أبيات سبعة قالها حسان بن ثابت في هجاء بني الحارث بن كعب =

ومثله : «رجلٌ شُلٌّ» (١) و «نَاقَةٌ أُجْدٌ» (٢) .

وقرأ جمهور القراء : [خُشَعًا] ، وهي قراءة الأعرج ، وأبي جعفر ، وشيبة ، والحسن ، وقتادة . وقرأ أبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي : [خَاشِعًا] . وهي قراءة ابن عباس ، وابن جبير ، ومجاهد ، والجحدري ،

وهي أفراد بمعنى الجمع ، ونظيره قول الشاعر :

وَشَبَابٌ حَسَنٌ أَوْجُهُهُمُ
مَنْ إِيَادِ بْنِ نِزَارِ بْنِ مَعَدٍ (٣)

= رهط النجاشي الشاعر . والتَّخَاجُؤُ : التباطؤ في المشي ، وقد روي هكذا في خزانة الأدب . وفي الديوان ، ولكن جاء في معجم مقاييس اللغة : «ذروا التَّخَاجِيءُ» ، والصحيح هو التَّخَاجُؤُ ؛ لأن التَّفَاعُلُ في مصدر «تفاعل» حقه أن يكون مضموم العين ، ولا تأتي مكسورة إلا في المعتل اللام . والمِشِيَّةُ السُّجُوحُ - بضم السين والجيم ... هي المشية السهلة ، وقال الأزهري : هي أن يعتدل الإنسان في مشيه ولا يتمايل فيه تكبراً ، وقد ذكر صاحب اللسان هذا البيت شاهداً على ذلك ، وورد في حديث علي رضي الله عنه يُحَرِّضُ أصحابه على القتال : «وامشوا إلى الموت مِشِيَّةً سُجُوحاً» ، وألُو عَصَبٍ : أصحابٌ شِدَّةُ خَلْقٍ ، يقال : رجل معصوب الخلق . والرجل الذَّكْرُ : القوي الشديد الأبي .

(١) يقال رجل مِشَلٌّ وشَلُولٌ وشُلُّلٌ وشُلُّشُلٌّ ، والمعنى فيها كلها أنه خفيف

سريع . وجمع شُلُّلٌ : شُلُّلُونٌ .

(٢) ناقةٌ أُجْدٌ : متصلة الفقار . تراها كأنها عظم واحد ، والمراد أنها قوية موثقة

الخلق . والمادة تعطي معنى القوة والإحكام . يقال : بناءٌ مُؤَجَّدٌ بمعنى : مُقَوَّى مُحْكَمٌ . وكل هذه الأمثلة على وزن «فَعْلٌ» . وهذا الوزن قليل في الصفات كما قال ابن عطية .

(٣) هذا البيت للحارث بن دوس الإيادي ، ويروي لأبي ذؤاد الإيادي ، وهو في البحر

المحيط . وابن جرير الطبري . والقرطبي ، وكلهم أخذوه عن القراء الذي استشهد به في (معاني

القرآن) ، قال : «إذا تقدم الفعل قبل اسم مؤنث ، وهو له ، أو قبل جمع مثل الأنصار =

ورَجَّحَ أَبُو حَاتِمٍ هَذِهِ الْقِرَاءَةَ ، وَذَكَرَ أَنَّ رَجُلًا مِنْ الْمُتَطَوِّعَةِ قَالَ قَبْلَ أَنْ يَسْتَشْهَدَ : رَأَيْتَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي النَّوْمِ فَسَأَلْتَهُ عَنْ [خُشْعًا] وَ [خَاشِعًا] ، فَقَالَ : [خَاشِعًا] ، بِالْأَلْفِ ، وَفِي مِصْحَفِ أَبِي بِنِ كَعْبٍ ، وَعَبَدَ اللَّهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا [خَاشِعًا] ، وَخَصَّ تَعَالَى الْأَبْصَارَ بِالْخُشُوعِ لِأَنَّهُ فِيهَا أَظْهَرَ مِنْهُ فِي سَائِرِ الْجَوَارِحِ ، وَكَذَلِكَ سَائِرُ مَا فِي نَفْسِ الْإِنْسَانِ مِنْ حَيَاءٍ أَوْ صِلْفٍ أَوْ خَوْفٍ وَنَحْوِهِ إِذَا يَظْهَرُ فِي الْبَصَرِ .

و «الْأَجْدَاثُ» جَمْعُ جَدَثٍ وَهُوَ الْقَبْرُ ، وَشَبَّهَهُمُ تَعَالَى بِالْجِرَادِ الْمُنْتَشِرِ ، وَقَدْ شَبَّهَهُمُ فِي أُخْرَى بِالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ (١) ، وَفِيهِمْ مِنْ كُلِّ هَذَا شِبْهٌ ، وَذَهَبَ بَعْضُ الْمَفْسِّرِينَ إِلَى أَنَّهُمْ أَوْلَا كَالْفَرَاشِ حِينَ يَمُوجُ بَعْضٌ فِي بَعْضٍ ، ثُمَّ فِي رَتْبَةٍ أُخْرَى كَالْجِرَادِ إِذَا تَوَجَّهُوا نَحْوَ الْمَحْشَرِ وَالِدَّاعِي ، وَفِي الْحَدِيثِ أَنَّ مَرْيَمَ بِنْتَ عِمْرَانَ عَلَيْهَا السَّلَامُ دَعَتْ لِلْجِرَادِ فَقَالَتْ : «اللَّهُمَّ أَعْشِهَا بِغَيْرِ رِضَاعٍ ، وَتَابِعْ بَنِيهَا بِغَيْرِ شِيَاعٍ» .

و «الْمُهْطَعُ» : الْمُسْرَعُ فِي مَشْيِهِ نَحْوَ الشَّيْءِ مَعَ هَزٍّ وَرَهَقٍ وَمَدٍّ بِصَرٍّ نَحْوَ الْمَقْصِدِ إِذَا لَخَوْفٌ أَوْ طَمَعٌ وَنَحْوَهُ ، وَيَقُولُ الْكَافِرُونَ :

= وَالْأَعْمَارُ وَمَا أَشْبَهَهَا جَازَ تَأْنِيثَ الْفِعْلِ وَتَذَكِيرَهُ وَجَمَعَهُ ، وَقَدْ أَتَى بِذَلِكَ فِي هَذَا الْحَرْفِ ،

فَقَرَأَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا : [خَاشِعًا] .

(١) فِي قَوْلِهِ تَعَالَى فِي الْآيَةِ (٤) مِنْ سُورَةِ الْقَارِعَةِ : (يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ

الْمَبْثُوثِ) .

(هَذَا يَوْمٌ عَسِيرٌ) لما يَبُونَ من مخايل هوله وعلامات مشقته .

قوله عز وجل :

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴿١١﴾
 فَدَعَا رَبَّهُ وَأَنَّى مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرَ ﴿١٢﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَرٍ ﴿١٣﴾
 وَبَحَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٤﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ
 الْأَوْجِ وُدُورٍ ﴿١٥﴾ فَجَرَى بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا
 آيَةً فَهَلْ مِنْ مَّدَكِرٍ ﴿١٧﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذِرٍ ﴿١٨﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا
 الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿١٩﴾ ﴾

سَوْقُ هَذِهِ الْقِصَّةِ وَعِيدٌ لِقَرِيشٍ وَضَرْبٌ مِثْلُ لَهُمْ ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى :
 [وَازْدُجِرَ] إِنْخِبَارٌ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى أَنَّهُمْ زَجَرُوا نُوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالسَّبِّ
 وَالنَّجْهِ (١) وَالتَّخْوِيفِ ، قَالَ ابْنُ زَيْدٍ وَقَرَأَ : ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهَ يَا نُوحُ
 لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ (٢) ، وَذَهَبَ مُجَاهِدٌ إِلَى أَنَّ [وَازْدُجِرَ] مِنْ
 كَلَامِ قَوْمِ نُوحٍ ، كَأَنَّهُمْ قَالُوا : «مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ» ، وَالْمَعْنَى : اسْتَطِيرَ

(١) يُقَالُ : نَجَّهَ فُلَانًا نَجْهًا : رَدَّهَ رَدًّا قَبِيحًا .

(٢) مِنْ آيَةِ (١١٦) مِنْ سُورَةِ (الشُّعْرَاءِ) .

جُنُوناً واستعر جنوناً ، وهذا قول فيه تعسفٌ وتحكمٌ . وقرأ نافع ،
وأبو عمرو ، وعاصم ، والأعرج ، والحسن : [أني] بفتح الألف ،
أي : بآني ، كأن دعاءه كان هذا المعنى ، وقرأ عاصم أيضاً ، وابن
أبي إسحق ، وعيسى : [إني] بكسر الألف ، كأن دعاءه كان هذا
اللفظ ، قال سيبويه : المعنى : قال إني ، وذهب جمهور المفسرين
إلى أن المعنى : قد غلبني الكفار بتكذيبهم وتخويفهم فانتصر لي منهم
بأن تهلكهم ، ويحتمل أن يريد : فانتصر لنفسك إذ كذبوا رسولك ،
ويؤيده قول ابن عباس رضي الله عنهما : إن المراد بقوله : ﴿لِمَنْ
كَانَ كُفْرًا﴾ الله تعالى ، ف وقعت الإجابة على نحو ما دعا نوح عليه
السلام ، وذهبت المتصوفة إلى أن المعنى : إني قد غلبتني نفسي في
إفراطي في الدعاء على قومي فانتصر مني يا ربّ بمعاينة إن شئت ،
والقول الأول هو الحق إن شاء الله تعالى ، يدل على ذلك قوله تعالى :
﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ﴾ الآية ، وذلك هو الانتصار من الكفار .
وقرأ جمهور القراء : [فَفَتَحْنَا] بتخفيف التاء ، وقرأ ابن عامر ،
وأبو جعفر ، والأعرج : [فَفَتَحْنَا] بشدّها على المبالغة ، ورجحها
أبو حاتم بقوله تعالى : ﴿مُفْتَحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ﴾ (١) . قال أبو حاتم :

(١) من الآية (٥٠) من سورة (ص) .

يعني بالأبواب المجرة ، وهي شَرَج السماء كَشَرَج العَيْبَةِ (١) ، وقال قوم من أهل التأويل : الأبواب حقيقة ، فتحت في السماء أبوابٌ جَرَى منها الماء ، وقال جمهور المفسرين : هو تشبيه ومجاز لأن المطر كثر كأنه من أبواب ، و «المُنْهَمِر» : الشديدُ الوقوعِ الغزيرُ ، قال امرؤ القيس :

رَاحَ تَمْرِيهِ الصَّبَا ثُمَّ أَنْتَحَى فِيهِ شُثُوبٌ جَنُوبٌ مُنْهَمِرٌ (٢)

(١) العَيْبَةُ : وعاءٌ من جلد ونحوه يكون فيه المتاع ، وهو ما يُسَمَّى «الحقبة» ، وشرَج العَيْبَةِ : عُرْوَتُهَا ، فإذا أدخلت عُرَاها بعضها في بعض قيل : شَرَجْتَهَا ، والمراد الفتحات التي تكون في الحقبة إذا تركت عُرَاها بدون إحكام بإدخال بعضها في بعض فإن هذه الفتحات تكون كالأبواب ، تصوروا للسماء فتحات مثل الفتحات التي تكون في الحقبة .
(٢) هذا بيت من ثمانية أبيات قالها امرؤ القيس في وصف الغيث ، وقيل عنها في الديوان : « هذا أشعر ما جاء في وصفه » ، ورواية الديوان : « مُنْفَجِرٌ » بدلا من « مُنْهَمِرٌ » . وعلى هذا فلا شاهد فيه ، ويكون الشاهد في البيت السابق كما جاء في الديوان وهو :

سَاعَةٌ ثُمَّ أَنْتَحَاهَا وَأَبْلٌ سَاقِطُ الْأَكْنَافِ وَآهٍ مُنْهَمِرٌ

ومعنى « رَاحَ » : عادَ السحابُ بالمطر آخر النهار ، و تَمْرِيهِ : تَسْتَدِيرُهُ . وأصله من مَرَى الضَّرْعِ ، وهو مَسَحُهُ باليد حتى يُدِرَّ اللبن . وكذلك السحاب حين تضربه رياح الصَّبَا الباردة يتجمع ويتكاثف فيسقط مطراً ، فكأن رياح الصَّبَا مَرَّتْهُ لينزل منه الماء ، ثم جاءت الجنوبُ مُحَمَّلَةٌ بالأمطار من بحر الهند فأضافت إلى هذا السحاب ومطره سُؤْبُوباً آخر يتفجر وينزل بكثرة وشدّة . وقد خصَّ رياح الصَّبَا لأنهم يمحطون بها ، وذكر رياح الجنوب لأن مطرها يكون غزيراً متدفقاً .

وقرأ الجمهور : [وَفَجَّرْنَا] بشد الجيم ، وقرأ ابن مسعود وأصحابه ،
 وأبو حيوة ، والمفضل عن عاصم بتخفيفها ، وقرأ الجمهور : ﴿ فَالْتَقَى
 الْمَاءُ ﴾ على اسم الجنس الذي يُعَمُّ ماء السماء وماء العيون ، وقرأ علي
 ابن أبي طالب ، والحسن ، وعاصم ، والجحدري : « فَالْتَقَى الْمَاءَانِ » ،
 ويروى عن الحسن : « فَالْتَقَى الْمَاوَانِ » .

وقوله تعالى : ﴿ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾ قال فيه الجمهور : المعنى :
 على رتبة وحالة قد قدرت في الأول وقضيت ، وقال جمهور من المتأولين :
 المعنى : على مقادير قد قدرت ورتبت وقت التقائه ، ورووا أن ماء
 الأرض على سبعة عشر ذراعاً ، وكان ماء السماء ينزل عليه بقية
 أربعين ذراعاً أو نحو هذا لأنه مما اختلفت فيه الروايات ، ولا خبر
 يقطع العذر في شيء من هذا التحديد ، وقرأ أبو حيوة : [قُدِّرَ]
 بشد الدال .

و « ذات ألواح ودُسُر » هي السفينة ، قيل : كانت ألواحها وخشبها
 من ساج ، و « الدُسُر » : المسامير ، واحدها دسارٌ ، وهذا هو قول
 الجمهور ، وهو عندي من الدفع المُتَّابِع ؛ لأن المسامير يدفع أبداً
 حتى يستوي ، وقال الحسن ، وابن عباس أيضاً : الدُسُر مقادم السفينة
 لأنها تدسُر الماء أي تدفعه ، والدُسُر : الدَّفْع ، وقال مجاهد وغيره :

الدُّسْرُ : نُطُقُ (١) السَّفِينَةَ ، وقال أيضاً : الدُّسْرُ : عوارض السَّفِينَةِ ، وقال أيضاً : أضلاع السَّفِينَةِ ، وقد تقدم القول في شرح قصة السَّفِينَةِ مستوعباً . وجمهور الناس على أنها كانت كهيئة السُّنَنِ اليوم كجُوجُو الطائر (٢) ، وورد في بعض الكتب أنها كانت مربعة طويلاً في السماء واسعة السُّفْل ضيقة العُلُو ، وكان أعلاها مفتوحاً للهواء والتنفس ، قالوا : لأن الغرض منها إنما كان السلامة حتى يزول الماء ، ولم يكن طلبَ الجري وقصدَ المواضع المعينة ، ومع هذه الهيئة فلها مجرى ومرسى ، والله أعلم كيف كانت ، والجميع محتمل .

قوله تعالى : [بِأَعْيُنِنَا] ، قال الجمهور : معناه : بحفظنا وكفايتنا وتحت نظر منا لأهلها ، فسمى هذه الأشياءَ أَعْيُنًا تشبيهاً ، إذ الحافظ المُنْتَحَفِي من البشر إنما يكون ذلك الأمر نُصْبَ عَيْنِيهِ ، وقيل : المراد مَنْ حَفِظَهَا من الملائكة ، سمَّاهم عيوناً ، وقال الرُّمَّانِي : وقيل : إن قوله تعالى : [بِأَعْيُنِنَا] يريد به العيون المتفجرة من الأرض ، وهذا ضعيف ، وقرأ أبو السَّمَالِ : [بِأَعْيُنِنَا] مُدْغَمَةً ، وقرأ جمهور

(١) النُّطُقُ : جمع نطاق ، وهو حزام يُشَدُّ به وسط الشيء ليصير متيناً متماسكاً .
 (٢) جُوجُو الطائر : مجتمع رُمُوس عظام الصدر ، ويسمى صدرُ السَّفِينَةِ جُوجُوًّا ، وفي حديث علي رضي الله عنه : (كأنني أنظر إلى مسجدها كجُوجُو سنينة أو نعامه جامعة) .

الناس : [كُفِرَ] بضم الكاف وكسر الفاء ، واختلفوا في المعنى - فقال ابن عباس ، ومجاهد : يُراد بها الله تعالى ، كأنه قال : غَضَباً وانتصاراً لله تعالى ، أي : انتصر لنفسه فَأَنْجَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَغْرَقَ الْكَافِرِينَ ، وقال مكِّي : وقيل : [مَنْ] يُرادُ بها نوحٌ عليه السلام والمؤمنون ؛ لأنهم كَفَرُوا من حيث كُفِرَ بهم ، فجازاهم الله تعالى بالنجاة ، وقرأ يزيد ابن رومان (١) ، وعيسى ، وقتادة : [كَفَرَ] بفتح الكاف والفاء .

والضمير في [تَرَكَنَاهَا] قال مكِّي بن أبي طالب : هو عائذ على هذه الفعلة والقصة ، وقال قتادة ، والنقاش ، وغيرهما : هو عائذ على هذه السفينة ، قالوا : وإن الله تعالى أرساها على الجودي حين تناولت الجبال وتواضع هو ، وهو جُبَيْلٌ بالجزيرة بموضع يقال له : « بَاقِرْدَى » ، وأبقى خشبها هنالك حتى رأت بعضه أوائل هذه الأئمة ، قال قتادة : وكم من سفينة كانت بعدها قد صارت رماداً . و [مُدَّكِرٍ] أصله « مُدَّتَكِرٍ » ، أبدلوا من التاء دالاً لتناسب الدال في النطق ، ثم أدغموا الدال في الدال ، وهذه قراءة الناس ، قال أبو حاتم : رويت عن النبي صلى الله عليه وسلم بإسناد صحيح (٢) ، وقرأ قتادة : [مُدَّكِرٍ] بإدغام

(١) هو يزيد بن رومان المدني ، مولى آل الزبير . قال عنه في تقريب التهذيب : « ثقة ، من الخامسة ، مات سنة ثلاثين . وروايته عن أبي هريرة مرسله » .

(٢) فقد أخرج أحمد . والبخاري . ومسلم ، وأبو داود . والترمذي . والنسائي . =

الثاني في الأول ، قال أبو حاتم : وذلك رديءٌ ، ويلزمه أن يقرأ :
 ﴿وَأَذْكُرْ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ (١) ، و ﴿تَذَخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ (٢) .

وقوله تعالى : ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِي﴾ توقيف لقريش ،
 و «النُّذُرُ» هنا جمع «نذير» المصدر ، بمعنى : كيف كان عاقبة إنذاري
 لمن لم يحفل به كأنتم أيها القوم ؟

و ﴿يَسِّرْنَا الْقُرْآنَ﴾ معناه : سهلناه وقربناه ، و «الذِّكْرُ» : الحفظ
 عن ظهر قلب ، قاله ابن جبير : لم يُستظهر من كتب الله تعالى
 سوى القرآن .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

يُسَّرُ بما فيه من حُسْنِ النظم وشرف المعنى ، فله لَوَطَةٌ (٣) بالقلوب
 وامتزاجٌ بالعقول السليمة .

= وابن جرير ، والحاكم ، وابن مردويه ، عن ابن مسعود قال : قرأت على النبي صلى الله عليه
 وسلم : ﴿فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ بالسدال فقال : ﴿فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ بالسدال .
 (الدر المنثور) .

(١) من الآية (٤٥) من سورة (يوسف) .

(٢) من الآية (٤٩) من سورة (آل عمران) .

(٣) يقال : «لاط بالقلب» بمعنى : لصق به مع محبة .

﴿ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴾ استدعاءً وحضاً على حفظه وذكره لتكون زواجره وعلومه وهداياته حاضرة في النفس ، قال مطر : معناه : هل من طالب علم فيعان عليه ؟

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

الآية تعديد نعمة في أن الله تبارك وتعالى يسر الهدى ولا بخل من قبله ، فليله در من قبل واهتدى ، وتقدم تعليل : ﴿ مُدَكِّرٍ ﴾ .

قوله عز وجل :

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَدَابِي وَنُذْرِي ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أُعْجَازٌ مُنْقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَدَابِي وَنُذْرِي ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ بَيَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿٢٢﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوا أَبَشْرًا مِثْلًا نَبِيًّا وَإِنَّا إِذَا لَنِي ضَلَّلِ وَسُعِرِ ﴿٢٤﴾ أَلْقَى الذِّكْرَ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ عَادًا مِنَ الْكَذَّابِ الْأَشِرِّ ﴿٢٦﴾ ﴾

«عاد» قبيلة ، وقد تقدم قصصها .

قوله تعالى : ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَدَابِي وَنُذْرِي ﴾ ، موضع [كَيْفَ] نصب ، إما على خبر [كَانَ] وإما على الحال ، و [كَانَ] بمعنى : وُجِدَ

وَوَقَعَ فِي هَذَا الْوَجْهِ ، وَ [نُذِرٍ] جَمْعُ «نَذِيرٍ» وَهُوَ الْمَصْدَرُ ، وَقُرْأَ وَرَشَ وَحَدَهُ: [نُذِرِي] بِالْيَاءِ ، وَقُرْأَ الْبَاقُونَ : [نُذِرٍ] بِغَيْرِ يَاءٍ عَلَى خَطِّ الْمَصْحُفِ .

وَ «الصَّرَصْرُ» قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ ، وَقَتَادَةُ ، وَالضَّحَّاكُ : مَعْنَاهُ : الْبَارِدَةُ ، وَهُوَ مِنَ الصَّرِّ ، وَقَالَ جَمَاعَةٌ مِنَ الْمَفْسِّرِينَ : مَعْنَاهُ : الْمُصَوِّتَةُ نَحْوَ هَذَيْنِ الْحَرْفَيْنِ ، مَأْخُوذٌ مِنْ : صَرَّتِ الرِّيحُ إِذَا هَبَتْ دُفْعًا كَأَنَّهَا تَنْطِقُ هَذَيْنِ الْحَرْفَيْنِ : الصَّادُ وَالرَّاءُ ، وَضَوْعُ الْفِعْلِ كَمَا قَالُوا : «كَبَّكَ وَكَفَّكَ» مِنْ «كَبَّ وَكَفَّ» ، وَهَذَا كَثِيرٌ ، وَلَمْ يَخْتَلَفْ الْقِرَاءُ فِي سَكُونِ الْحَاءِ مِنْ [نَحْسٍ] وَإِضَافَةِ الْيَوْمِ إِلَيْهِ إِلَّا مَا رُوِيَ عَنِ الْحَسَنِ أَنَّهُ قَرَأَ : (فِي يَوْمٍ) بِالتَّنْوِينِ [نَحْسٍ] بِكَسْرِ الْحَاءِ ، وَ [مُسْتَمِرٌّ] مَعْنَاهُ : مُتَتَابِعٌ ، قَالَ قَتَادَةُ : اسْتَمَرَ بِهِمْ ذَلِكَ النَّحْسُ حَتَّى بَلَغَهُمْ جَهَنَّمَ ، قَالَ الضَّحَّاكُ فِي كِتَابِ الثَّلَعِيِّ : الْمَعْنَى : كَانَ مُرًّا عَلَيْهِمْ ، وَذَكَرَهُ النَّقَاشُ عَنِ الْحَسَنِ ، وَرُوِيَ أَنَّ ذَلِكَ الْيَوْمَ الَّذِي كَانَ لَهُمْ فِيهِ نَحْسٌ مُسْتَمِرٌّ كَانَ يَوْمَ أَرْبَعَاءٍ ، وَرُوِيَ فِي بَعْضِ الْأَحَادِيثِ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ : يَوْمَ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ يَوْمَ الْأَرْبَعَاءِ ، فَتَأَوَّلَ بَعْضُ النَّاسِ فِي ذَلِكَ أَنَّهُ مُسْتَصْحَبٌ فِي الزَّمَانِ كُلِّهِ ، وَهَذَا عِنْدِي ضَعِيفٌ ، وَإِنْ كَانَ أَبُو بَشْرٍ الدُّوَلَابِيُّ ذَكَرَ حَدِيثًا رَوَاهُ أَبُو جَعْفَرٍ الْمَنْصُورُ عَنْ أَبِيهِ مُحَمَّدٍ عَنْ أَبِيهِ عَلِيِّ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : قَالَ

رسول الله صلى الله عليه وسلم : (آخر أربعاء من الشهر يوم نحس مستمر) (١) ، ويوجد نحو هذا في كلام الفرس والأعاجم ، وقد وجد ذكر الأربعاء التي لا تدور في بعض شعر الخراسانيين المولدين ، وذكر الثعلبي عن زر بن حبيش في تفسير هذه الآية لعاد أنه كان في أربعاء لا تدور ، وذكره النقاش عن جعفر بن محمد وقال : كان القمر منحوساً في رجل ، وهذه نزعة سوء عياداً بالله تعالى أن تصح عن جعفر بن محمد .

وقوله تعالى : (تَنْزِعُ النَّاسَ) معناه : تنقلهم من مواضعهم نزعاً فتطرحهم ، وروي عن مجاهد أنها كانت تلقي الرجل على رأسه فيتفتت رأسه وعنقه وما يلي ذلك بين يديه .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

فلذلك حسن التشبيه بأعجاز النخل ، وذلك أن المنقر هو الذي ينقلع من قعره ، فذلك التشعب الذي لأعجاز النخل كان يشبهها ما تقطع وتشعب من شخص الإنسان ، وقال قوم : إنما شبهم بأعجاز النخل لأنهم كانوا يحفرون حفراً ليمتنعوا فيها من الريح ، فكأنه

(١) أخرجه وكيع في الفرر ، وابن مردويه في التفسير ، والخطيب ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ، ورمز له السيوطي في (الجامع الصغير) بأنه ضعيف .

شبه الحُفْرَ بعد النَّزْعِ بحفر أعجاز النَّخْلِ ، والنَّخْلُ تُذَكَّرُ وتُؤنثُ
 فلذلك قال تعالى هنا : [مُنْقَعِرٍ] ، وفي غير هذه السُّورة : [خَاوِيَةٍ] (١) ،
 والكاف في قوله تعالى : ﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازٌ ﴾ في موضع الحال ، قاله
 الزجاج ، وما رُوي من خبر الخلجان وغيره ضعيف كله ، وفائدة
 قوله تعالى : ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي ﴾ التخويف وهزُّ الأَنْفُسِ .
 قال الرُّمَّانِي : لما كان الإِنْذَارُ أنواعاً كَرَّرَ التَّذْكِيرَ والتَّنْبِيهَ ، وفائدة
 تكرار قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴾
 التَّأْكِيدَ والتَّحْرِيزَ وتنبية الأَنْفُسِ ، وهذا موجود في تكرار الكلام ،
 مثل قول النبي صلى الله عليه وسلم : (أَلَا هَلْ بَلَغْتَ ؟ أَلَا هَلْ بَلَغْتَ ؟
 أَلَا هَلْ بَلَغْتَ ؟) (٢) ، ومثل قوله عليه الصلاة والسلام : (أَلَا وَقَوْلِ
 الزُّورِ ، أَلَا وَقَوْلِ الزُّورِ ، أَلَا وَقَوْلِ الزُّورِ) (٣) ، وكان رسول الله صلى الله

(١) في قوله تعالى في الآية (٧) من سورة (الحاقة) : ﴿ فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ .

(٢) تكرر ذلك في حجة الوداع ، حيث قال صلى الله عليه وسلم : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، أَيُّ يَوْمٍ هَذَا ؟ قَالُوا : هَذَا يَوْمٌ حَرَامٌ ، قَالَ : أَيُّ بَلَدٍ هَذَا ؟ قَالُوا : بَلَدٌ حَرَامٌ ، قَالَ : فَأَيُّ شَهْرٍ هَذَا ؟ قَالُوا : شَهْرٌ حَرَامٌ ، قَالَ : إِنْ أَمْوَالِكُمْ وَدِمَائِكُمْ وَأَعْرَاضِكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ كَحَرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا ، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا ، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا ، ثُمَّ أَعَادَهَا مِرَاراً ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ فَقَالَ : اللَّهُمَّ هَلْ بَلَغْتَ ، مِرَاراً) ، والحديث متفق عليه ، وهذا جزء منه كما رواه أحمد .

(٣) جاء ذلك في حديث عن الكبار وأكبرها ، وقد أخرجه مسلم في الإيمان ، والترمذي في الشهادات ، وأحمد في المسند (٣٧-٥) ، ولفظه كما في مسلم عن عبد الرحمن بن أبي بكر =

عليه وسلم إذا سلم على قوم سلم عليهم ثلاثاً ، فهذا كله نحو واحد وإن تنوع .

و «ثمود» قبيلة صالح عليه السلام ، وهم أهل الحجر ، وقرأ الجمهور : ﴿أَبَشْرًا مِنَّا وَاحِدًا﴾ ، ونصبه بإضمار فعل يدل عليه [نَتَّبِعُهُ] ، و [وَاحِدًا] نعت لـ [بَشْرًا] ، وقرأ أبو السَّمَّال : ﴿أَبَشْرٌ مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ﴾ ، ورفعهُ إِمَّا على إضمار فعل مَبْنِي للمفعول ، والتقدير : أَيَنْبَأُ بَشْرٌ؟ وإِمَّا على الابتداء ، والخبرُ في قوله تعالى : [نَتَّبِعُهُ] ، و [وَاحِدًا] على هذه القراءة حالٌ ، إِمَّا من الضمير في [نَتَّبِعُهُ] وإِمَّا على المقدر مع [مِنَّا] ، كأنهم يقولون : أَبَشْرٌ كائناً مِنَّا واحداً؟ وفي هذا نظر (١) ، وحكى أبو عمرو الداني أن قراءة أبي السَّمَّال : ﴿أَبَشْرٌ مِنَّا وَاحِدًا﴾ بالرفع فيهما ، وهذه المقالة من ثمود حسدٌ منهم لصالح عليه السلام ، واستبعادُ أن يكون نوع من البشر

= عن أبيه ، قال : كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أَلَا أَنْبَيْتُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكِبَائِرِ؟ (ثلاثاً) ، الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، وشهادة الزور أو قول الزور ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم متكئاً فجلس ، فما زال يكررها حتى قلنا : ليته سكت .

(١) إن كان حالاً من الضمير في [نَتَّبِعُهُ] كان المعنى : أَنْتَبِعَهُ حالة كونه واحداً مفرداً لا نصير له؟ وإن كان حالاً من الضمير في [مِنَّا] كان المعنى : أَيَنْبَأُ بَشْرٌ كائناً مِنَّا؟ ويكون الناصب لهذه الحال الظرف

يفضل بعضه بعضاً هذا الفضل ، فقالوا : أنكون جميعاً ونتبع واحداً ، ولم يعلموا أن الفضل بيد الله تعالى يُؤْتِيهِ من يشاء ، ويُفِيض نور الهدى على من رَضِيهِ .

وقولهم : ﴿ فِي ضَلَالٍ ﴾ معناه : في أمرٍ مُتلفٍ مُهلكٍ بالإتلاف ، و [سُعْرٍ] معناه : في احتراق أنْفُسٍ واستعارها حنقاً وهماً باتباعه ، وقيل في «السُّعْر» : العناء ، وقيل : الجنون ، ومنه قيل : ناقة مسعورة إذا كانت تفرط في سيرها ، ثم زادوا بالتوقيف بقولهم : ﴿ أَوْلُقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا ﴾ ؟ و «أُلْقِيَ» بمعنى «أُنزِلَ» ، وكأنه يتضمن عجلة في الفعل ، والعرب تستعمل هذا الفعل ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَالْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي ﴾ (١) ، ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾ (٢) ، و «الذِّكْرُ» هنا : الرِّسَالَةُ وما يمكن أن جاءهم به من الحكمة والموعظة .

ثم قالوا : ﴿ بَلْ هُوَ كَذَابٌ أَشْرٌ ﴾ ، أي : ليس الأمر كما يزعم ، و «الأشْر» البَطْرُ المَرِحُ ، فكأنهم رَمَوْهُ بِأَنَّهُ أَشْرٌ فَأَرَادَ العُلُوَّ عليهم وأن يقتادهم ويتملك طاعتهم ، فقال الله تعالى لصالح عليه السلام :

(١) من الآية (٣٩) من سورة (طه) .

(٢) الآية (٥) من سورة (المزمل) .

﴿ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشْرُ ﴾ ، وهذه بالياء من تحت قراءة علي بن أبي طالب رضي الله عنه وجمهور الناس ، وقرأ ابن عامر ، وحمزة ، وعاصم (١) ، وابن وثاب ، وطلحة ، والأعمش : [سَتَعْلَمُونَ] بالثاء على معنى : قل لهم يا صالح ، وقوله تعالى : [غَدًا] تقريب يراد به الزمان المستقبل لا يوماً بعينه ، ونحوه المثل « مع اليوم غدٌ » (٢) . وقرأ جمهور الناس : [الْأَشْرُ] بكسر الشين كحذر بكسر الذال ، وقرأ مجاهد - فيما ذكر عنه - : [الْأَشْرُ] بضم الشين كحذر بضم الذال ، وهما بناءان من اسم الفاعل ، وقرأ أبو حيوه : [الْأَشْرُ] بفتح الشين كأنه وصف بالمصدر ، وقرأ أبو قلابه : [الْأَشْرُ] بفتح الشين وشدّ الراء ، وهو الأفعل ، ولا يستعمل إلا بالالف واللام ، وهو كان الأصل لكنه رفض تخفيفاً وكثرة استعمال .

(١) لعل ذلك في رواية أبي بكر عنه ، أما قراءته في رواية حفص فهي بالياء كما هي في المصحف .

(٢) يضرب هذا المثل في تنقل الدُّوَل على مرّ الأيام وكرها ، والمثل كما ذكره الميداني في « مجمع الأمثال » : (إن مع اليوم غداً يا مُسْعِدَة) . وقال الزمخشري في « المستقصى » : « يضربه الراجي للظفر بمراده في عاقبة الأمر وهو في بدئه غير ظافر ، قال :

لَا تَقْلُوهَا وَادْلُوهَا دَلُوهَا إِنَّ مَعَ الْيَوْمِ أَخَاهُ غَسْدُوهَا

وهو في حديث عن الإبل ، ومعنى « لَا تَقْلُوهَا » : لا تسوقوها سوقاً شديداً ، بل « ادْلُوهَا دَلُوهَا » أي : سوقوها سوقاً رقيقاً فإن الأيام ممتدة ولا داعي للسرعة ، وهناك بعد اليوم غدٌ يمكن الوصول فيه .

قوله عز وجل :

﴿ إِنَّا مَرْسَلُوا النَّاقَةَ فِتْنَةً لَهُمْ فَأَرْتَقِبَهُمْ وَأَصْطَبِرَ ۗ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئِهِمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ ۗ ﴿٢٨﴾ فَنَادُوا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ ۗ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي ۗ ﴿٣٠﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَبِيحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ۗ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ۗ ﴿٣٢﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذْرِ ۗ ﴿٣٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ ۗ ﴿٣٤﴾ نِعْمَةٌ مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ ۗ ﴿٣٥﴾ ﴾

هذه الناقة التي اقترحوها أن تخرج من صخرة صماء من الجبل ، وقد تقدم قصصها ، فأخبر الله تعالى صالحاً عليه السلام - على وجه التأنيس - أنه يُخرج لهم الناقة ابتداءً واختباراً ، ثم أمره تعالى بارتقاب الفرج وبالصبر ، و «اضطبر» أصله : اضطبر «أفتعل» ، أبدلت التاء طاءً لتناسب الصاد ، ثم أمره تعالى أن يخبر ثمود بأن الماء قسمة بينهم ، وهو ماء البئر الذي كان لهم .

واختلف المتأولون في معنى هذه القسمة - فقال جمهور منهم : قسمة بينهم ، يتساوون فيه في اليوم الذي لا ترد الناقة فيه ، وذلك

- فيما روي - أن الناقة كانت ترد البشر غباً (١) ، وتحتاج جميع مائها يوماً ، فنهاهم الله تعالى عن أن يستأثر أهل اليوم الذي لا ترد الناقة فيه بيومهم ، وأمرهم بالتساوي مع الذين ترد الناقة في يومهم . وقال آخرون : معناه : الماء بين جميعهم وبين الناقة قسمة . و [مُحْتَضِرٌ] معناه : محضور مشهود مُتَوَاسَى فيه (٢) ، وقال مجاهد : المعنى : ﴿ كُلُّ شَرِبٍ ﴾ ، أي من الماء يوماً ومن لبن الناقة يوماً [مُحْتَضِرٌ] لَهُمْ ، فكأنه أنبأهم بنعمة الله تعالى عليهم في ذلك .

و «صَاحِبُهُمْ» هو قُدار بن سالف ، وبسببه سُمِّيَ الجزار القُدَّارَ للشبه في الفعل ، قال الشاعر :

إِنَّا لَنَضْرِبُ بِالسُّيُوفِ رُمُوسَهُمْ ضَرَبَ الْقُدَّارَ نَقِيعَةَ الْقُدَّامِ (٣)

(١) أي تَرَدُّ يوماً ولا تَرِدُ يوماً .

(٢) بمعنى : التَّسَاوَى فيه .

(٣) هذا البيت للمُهَلِّهِلِ ، والقُدَّارُ في الأصل : الطَّبَّاحُ ، وقد يقال للجزَّار ، قال في اللسان : «وفي حديث عُمَيْرِ مولى أَبِي اللَّحْمِ : أمرني مولاي أن أقْدُرَ لحمًا ، أي : أطبخ قدرًا من لحم» ، والبيت في اللسان ، والرواية فيه : «لنضرب بالصَّوَّارِمِ هَامَهَا» ، والنَّقِيعَةُ : ما يُذْبَحُ للضيافة ، أو طعام الرجل ليلة عُرْسِهِ ، أو ما ينحر من النهب قبل القسمة ، والقُدَّامُ : جمع قادم ، وقيل : هو المَلِكُ . يقول : إنا لنضرب بالسُّيُوفِ رُمُوسَ أَعْدَائِنَا كما يضرب الطَّبَّاحُ أو الجزَّارُ اللحم الذي يقدم في الطعام للضيوف ، والشاهد أن القُدَّارَ بمعنى : الجزَّار .

وقد تقدم شرح أمر قدار بن سالف .

و «تَعَاطَى» هو مطاوع «عاطى» ، فكأن هذه الفعلة تدافعها الناسُ وأعطاهم بعضهم بعضاً ، فتعاطاها هو وتناول العقر بيده ، قاله ابن عباس رضي الله عنهما ، ويقال للرجل الذي يُدخل نفسه في تحمُّل الأُمور الثقيل : متعاط ، على الوجه الذي ذكرناه ، والأصل «عَطَا يعطو» إذا تناول ، ثم يقال : عاطى غيره ، ثم يقال : تعاطى ، وهذا كما يقال : جَرَى وجَارَى وتجارَى ، وهذا كثير .

ويُروى أنه كان مع شَرَبٍ - وهم التسعة رهط - فاحتاجوا ماءً فلم يجدوه بسبب وِرْدِ الناقة ، فحملة أصحابه على عقرها ، ويُروى أن ملأ القبيل اجتمع على عقرها ، ورويت أسباب غير هذين ، وقد تقدم ذلك .

و «الصَّيْحَةُ» يروى أن جبريل عليه السلام صاحها في طرف من منازلهم فتفتتوا وهمدوا وكانوا كهشيم المحتظر ، و «الهشيم» ما تهشم وتفتت من الأشياء ، وقرأ جمهور الناس : (كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ) بكسر الظاء ، ومعناه الذي يصنع حظيرة من الرعاء ونحوهم ، قاله ابن إسحق السبيعي ، والضحاك ، وابن زيد ، وهي مأخوذة من الحَظْر وهو المَنع ، والعرب وأهل البوادي يصنعونها للمواشي والسكنى أيضاً

من الأغصان والشجر المورق والقصب ونحوه ، ولهذا كله هشيم
يتفتت ، إما في أول الصنعة وإما عند بلى الحظيرة وتساقط أجزائها ،
وحكى الطبري عن ابن عباس ، وقتادة أن «المحتظر» معناه : المحترق ،
قال قتادة : كهشيم مُحْرَق . وقرأ الحسن بن أبي الحسن ، وأبو رجاء :
[المُحْتَظَر] بفتح الظاء ، ومعناه الموضع الذي احتظر ، فهو مُفْتَعَل
من الحظر ، أو الشيء الذي احتظر به ، وقد روي عن سعيد بن جبير
أنه فسّر (كهشيم المُحْتَظَر) بأن قال : هو التراب الذي يسقط
من الحائط البالي ، وهذا متوجه لأن الحائط حظيرة ، والساقط هشيم ،
وقال أيضاً هو وغيره : المُحْتَظَر معناه : المحرق بالنار ، أي كأنه
ما في الموضع المحتظر بالنار ، وما ذكرناه عن ابن عباس وقتادة هو
على قراءة كسر الظاء ، وفي هذا التأويل بعض البعد ، وقال قوم :
المحتظر - بالفتح - : الهشيم نفسه ، وهو مفتعل ، وهو كمسجد
الجامع وشبهه .

وقد تقدم قصص قوم لوط عليه السلام ، و «الحاصب» : السحابُ
الرامي بالبرد وغيره ، فشبّه تلك الحجارة التي رُمي بها قوم لوط
به في الكثرة والتوالي ، وهو مأخوذ من الحصباء ، كأن السحاب
تحصب مقصده ، ومنه قول الفرزدق :

مُسْتَقْبِلِينَ شَمَالَ الشَّامِ تَحْصِبُهُمْ بِحَاصِبٍ كَنَدِيفِ القُطْنِ مَنشُورٍ (١)
 وقال ابن المسيب : سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول لأهل
 المدينة : حصبوا المسجد ، و «آل لوط» : ابنتاه فيما روي ، و «سحر»
 مصروف لأنه نكرة لم يُرد به يوم معين .

وقوله تعالى : [نِعْمَةٌ] نصب على المصدر ، أي : فعلنا ذلك إِنْعَاماً
 على القوم الذين نجيناهم ، وهذا هو جزاؤنا لمن شكر نعمنا وآمن وأطاع .
 قوله عز وجل :

﴿ وَلَقَدْ أَنذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴾ (٣٦) ﴿ وَلَقَدْ رَاودُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ
 فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِي ﴾ (٣٧) ﴿ وَلَقَدْ صَبَحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ ﴾ (٣٨)
 ﴿ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِي ﴾ (٣٩) ﴿ وَلَقَدْ يَسْرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴾ (٤٠) ﴿ وَلَقَدْ
 جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ ﴾ (٤١) ﴿ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ
 ﴾ (٤٢) ﴿ أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أَوْلِيَّكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴾ (٤٣) ﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ
 جَمِيعٌ مُنتَصِرُونَ ﴾ (٤٤) ﴿

(١) قال الفرزدق هذا البيت من قصيدة طويلة يمدح فيها يزيد بن عبد الملك ويهجو يزيد
 ابن المهلب ، وبعده يقول :

عَلَى عَمَائِمِنَا يُلْقَى وَأَرْحُلِنَا عَلَى زَوَاحِفَ نَزْجِيهَا مَحَاسِيرِ
 وهو في البيت يصف حالهم في اتجاههم إلى الممدوح في الشام ، والريح الشديدة تحمل الحصباء
 فتلقها على عمائمهم وهم يحملون أرحلهم على نياق تزحف من شدة الإعياء والتعب .

المعنى : ولقد أنذر لوط قومه أخذنا إليهم وبطشنا بهم ، أي عذابنا لهم ، و [تَمَارَوْا] معناه : تشككوا وأهدى بعضهم الشك إلى بعض بتعاطيهم الشبه والضلال ، و «النُّذْرُ» جمع نذير وهو المصدر ، ويحتمل أن يراد بالنذر هنا وفي قوله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذْرِ ﴾ جمع نذير الذي هو اسم الفاعل . و «الضَّيْفُ» يقع للواحد وللجميع ، وقد تقدّم ذكر أضيفه وقصصهم مستوعباً .

وقوله تعالى : ﴿ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ ﴾ قال قتادة : هي حقيقة ، جرّ جبريل عليه السلام شيئاً من جناحه على أعينهم فاستوت مع وجوههم ، قال أبو عبيدة : مَطْمُوسَةٌ بجلد كالوجه ، وقال ابن عباس ، والضحاك : هذه استعارة ، وإنما حجب إدراكهم فدخلوا المنزل فلم يروا شيئاً ، فجعل ذلك كالطمس . وقوله تعالى : ﴿ بُكْرَةً ﴾ قيل : كان ذلك عند طلوع الشمس ، وأدغم ابن محيصة (١) الدال في الصاد من قوله سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ ﴾ ، والجمهور على الإظهار ، و [بُكْرَةً] نكرةٌ ها هنا فلذلك صُرفت .

وقوله تعالى : ﴿ فَذُوقُوا عَذَابِي ﴾ يحتمل أن يكون من قول الله تعالى لهم ، ويحتمل أن يكون من قول الملائكة ، و [نُذْرٍ] جمع

(١) في بعض النسخ : « وأدغم أبو محمد » .

المصدر ، أي : وعاقبة نُذْرِي التي كذَّبتم بها ، وقال تعالى : [مُسْتَقِرًّا] في صفة العذاب لأنه لم يكشفه عنهم كاشف بل اتصل ذلك بموتهم ، وهم مدة موتهم تحت الأرض معذبون بانتظار جهنم ثم يتصل ذلك بعذاب النار فهو أمر متصل مستقر ، وكرر قوله تعالى : ﴿ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذْرِي ﴾ تأكيداً وتوبيخاً ، وروى ورش عن نافع : [وَنُذْرِي] بياء .

و «آل فرعون» قومه وأتباعه ، ومنه قول الشاعر :
فَلَا تَبْكِ مَيْتاً بَعْدَ مَيْتِ أَجْنَهُ عَلِيٍّ وَعَبَّاسُ وَآلُ أَبِي بَكْرٍ (١)
يريد المسلمين في مواراة النبي صلى الله عليه وسلم ، ويحتمل أن يريد بـ ﴿آلَ فِرْعَوْنَ﴾ قرابته على عُرف الآل ، وخصهم بالذكر لأنهم عمدة القوم وكبرائهم .

وقوله تعالى : ﴿ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ يحتمل أن يريد آل فرعون المذكورين أخذناهم كذلك ، يريدهم بالضمير لأن ذلك الإغراق

(١) أَجْنَهُ : سَتَرَهُ أو وضعه في القبر ، قال في اللسان : « وفي الحديث : وَلِيَّ دَفْنِ سَيِّدِنَا رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَإِجْنَانَهُ عَلِيٌُّّ وَالْعَبَّاسُ ، أَي : دَفَّنَهُ وَسَتَرَهُ » ، يقول الشاعر : لا يستحق أي ميت أن تبكي عليه بعد أن مات محمد صلى الله عليه وسلم ، والشاهد أن «آل» بمعنى : قوم وأتباع .

الذي كان في البحر كان بالعزة والقدرة ، ويكون قوله : [بِآيَاتِنَا] يريد بها التسع ، ثم أكد بقوله : [كُلِّهَا] ، ويحتمل أن يكون قوله تبارك وتعالى : ﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ﴾ كلاماً تاماً ثم يكون قوله تعالى : ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا﴾ يعود الضمير في [كَذَّبُوا] على جميع من ذكر من الأمم ، ويجيء جميع الآيات مستقيماً ، ويجيء قوله تعالى : [فَأَخَذْنَاهُمْ] كذلك يعود على جميع الأمم المذكورة .

وقوله تعالى : ﴿أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أَوْلَائِكُمْ﴾ الآية ... خطابٌ لقريش ، وَقَفَّهْمَ عَلَى جِهَةِ التَّوْبِيخِ ، أُمَّ خَصْلَةٌ مِنْ مَالٍ أَوْ قُوَّةَ أَبْدَانٍ وَبَسْطَةَ أَوْ عَقْلٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَقْتَضِي أَنَّكُمْ خَيْرٌ مِنْ هَؤُلَاءِ الْمُعَذَّبِينَ لَمَّا كَذَّبُوا فَتُرْجَى لَكُمْ - بِذَلِكَ الْفَضْلِ - النِّجَاةُ مِنَ الْعَذَابِ حِينَ كَذَبْتُمْ رَسُولَكُمْ ؟ أَمْ لَكُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى الْمُنْزَلَةِ بَرَاءَةٌ مِنَ الْعَذَابِ ؟ قَالَ الضَّحَّاكُ ، وَابْنُ زَيْدٍ ، وَعَكْرَمَةُ .

ثم قال تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ وَاثِقُونَ بَأَنَّا مُنْتَصِرُونَ بِقُوَّتِنَا عَلَى جِهَةِ الْإِعْجَابِ وَالتَّعَاطِي ، سَيُهْزَمُونَ فَلَا يَنْفَعُ جَمْعَهُمْ ، وَقَرَأَ أَبُو حَيُّوَةَ : ﴿أَمْ تَقُولُونَ﴾ بِالتَّاءِ مِنْ فَوْقِ .

قوله عز وجل :

﴿ سِيَهْزِمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدَّبْرَ ٤٥ ﴾ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ
 أَذَى وَأَمْرٌ ﴿٤٦﴾ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعْرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ
 عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَا أَمْرُنَا
 إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مَدَكِرٍ ﴿٥١﴾
 وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي
 جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾ ﴿

هذه عدة من الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم أن جمع قريش
 سيهزم نصرة له ، والجمهور على أن الآية مكية ، وروي عن عمر
 بن الخطاب رضي الله تعالى عنه أنه قال : كنت أقول في نفسي :
 أي شيء يهزم ؟ فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم
 في الدرع وهو يقول : ﴿ سِيَهْزِمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدَّبْرَ ﴾ .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

فإنما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في بدر مستشهداً بالآية .

وقال قوم : إن الآية نزلت يوم بدر ، وذلك ضعيف ، والصواب أن الوعد أنجز يوم بدر ، قال أبو حاتم : قرأ بعض القراء : [سَيَهْزِمُ] بفتح الياء وكسر الزاي [أَلْجَمَعَ] نصباً ، قال أبو عمرو الداني : قرأ أبو حيوة : [سَنَهْزِمُ] بالنون وكسر الزاي [أَلْجَمَعَ] بالنصب [وَتَوَلَّوْنَ] بالتاء من فوق .

ثم تُرِكَت هذه الأقوال وأُضْرِب عنها تهماً بأمر الساعة التي عذابها أشد عليهم من كل هزيمة وقتال ، فقال تعالى : ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرٌ﴾ ، «أَدْهَى» أفعل من الداهية وهي الرزية العظمى تنزل بالمرء ، و «أَمَرٌ» من المرارة ، واللفظة ها هنا مستعارة لأنها ليست فيما يُذاق .

ثم أخبر تعالى عن المجرمين أنهم في الدنيا في حيرة وإتلاف وفقد هدى ، وفي الآخرة في احتراقٍ وتسعّرٍ من حيث هم صائرون إليه ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : المعنى : في خُسران وجنون ، و «السعّر» الجنون ، وأكثر المفسرين على أن المجرمين هنا يراد بهم الكفار ، وقال قوم : المراد بالمجرمين القدرية الذين يقولون إن أفعال العباد ليست بِقَدَرٍ من الله تعالى .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهم الْمُتَوَعَّدُونَ بالسَّحْبِ في جهنم ، والسَّحْبُ هو الجَرُّ ، وفي قراءة ابن مسعود رضي الله عنه : «إِلَى النَّارِ» . وقوله تعالى : [فَذُوقُوا] استعارة ، والمعنى : يقال لهم : ذوقوا ، على جهة التوبيخ .

واختلف الناس في قوله تعالى : ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ - فقرأ الجمهور من الناس : ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ﴾ بالنصب ، وقالوا : المعنى : إِنَّا خَلَقْنَا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ، وليست [خَلَقْنَاهُ] في موضع الصفة لـ [شَيْءٍ] ، بل هو فعل دالٌّ على الفعل المضمر ، وهذا المعنى يقتضي أن كل شيءٍ مخلوقٌ إلا ما قام دليل العقل على أنه ليس بمخلوق كالقرآن والصفة وقرأ أبو السَّمَّال - ورجَّحه أبو الفتح - : ﴿إِنَّا كُلُّ﴾ بالرفع على الابتداء ، والخبرُ ﴿خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ ، قال أبو حاتم : «هذا هو الوجه في العربية ، وقراءتنا بالنصب مع الجماعة» (١) .

(١) يرجح أبو الفتح الرفع لأنه من مواضع الابتداء ، فهو عنده كقولك : زيدٌ ضربته ، فـ ﴿كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ جملة وقعت خبراً عن مبتدأٍ ، ثم دخلت [إِنَّا] فنصب الاسم وبقي الخبر على تركيبه الأصلي . وقد اختار محمد بن يزيد النصب ، قال : التقدير : إِنَّا فعلنا كذا ، فالفعل منتظر بعد «إِنَّا» ، فلما دلَّ ما قبله عليه حسنُ إضماره ، وردَّ أبو الفتح بأنه لا معنى لِتَوَقُّعِ الفعل : لأن أصل خبر المبتدأ أن يكون اسماً ، ومع ذلك فإن أبا الفتح ابن =

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وقرأها قوم من أهل السنة بالرفع ، والمعنى عندهم على نحو ما هو
عند الأولين من أن كل شيء فهو مخلوق بقدر سابق ، و [خَلَقْنَاهُ]
- على هذا - ليست صفة ل [شيء] ، وهذا هو مذهب أهل السنة ،
ولهم احتجاج قوي بالآية على هذين القولين (١) .

جني يقول إن الجماعة على قراءة النصب ، ومما يُقَوِّبُهَا أن «إن» تطلب الفعل فهي أولى به ،
والنصب أدل على العموم في أن المخلوقات لله تعالى ، ولو حذفت [خَلَقْنَاهُ] المفسرة
وأظهرت المضمره لصار الكلام : إِنَّا خَلَقْنَا كُلَّ شَيْءٍ بِقَدَرٍ ، ولا يصح أن يكون [خَلَقْنَاهُ]
صفة ل [شيء] لأن الصفة لا تعمل فيما قبل الموصوف ، ولا تكون تفسيراً لما يعمل فيما قبله .
والخلاف في أساسه نحوي يرجع إلى الصناعة ، والأفضل أن نختار ما يتفق مع المعنى الصحيح .
(١) يقولون : إن الله تعالى قدر الأشياء بمعنى أنه عليم مقاديرها وأحوالها وأزمانها
قبل إيجادها ، ثم أوجد منها ما سبق في علمه أنه يوجد على نحو ما سبق في علمه ، فلا يحدث
شيء إلا وهو صادر عن علمه سبحانه وعن قدرته وإرادته ، والخالق ليس لهم إلا نوع اكتساب
ومحاولة ونسبة وإضافة ، وحصل لهم ذلك بتيسير الله تعالى وبقدرته وتوفيقه وإلهامه ، قال
أبو ذر رضي الله عنه : قدم وفد نجران على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : الأعمال
إلينا والآجال بيد غيرنا ، فنزلت هذه الآيات إلى قوله : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ ،
فقالوا : يا محمد ، يكتب علينا الذنب ويُعَدِّبُنَا ؟ فقال : أنتم خصماء الله يوم القيامة ،
وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة : جاء مشركو قريش يخاصمون رسول الله صلى الله عليه وسلم
في القدر فنزلت : ﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ،
إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ ، وخرجه الترمذي أيضاً وقال : حديث حسن صحيح ،
وروى مسلم عن طاوس قال : أدركتُ ناساً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم =

وقالت القَدْرِيَّةُ - وهم الذين يقولون : لا قَدْر ، والمرءُ وحده فاعلٌ أفعاله - (١) : القراءَةُ : (إِنَّا كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ) برفع [كُلُّ] ، و [خَلَقْنَاهُ] في موضع الصفة لـ [كُلُّ] ، أي : إِنَّ أَمْرَنَا وشأننا كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ فهو بِقَدْر ، أي بِمقدارٍ وعلى حدِّ ما في هيئته وزمنه وغير ذلك ، فيزيلون بهذا التأويل موضع الحُجَّة عليهم بالآية .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : إِنِّي أَجِدُ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى قَوْمًا يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يُكْذِبُونَ بِالْقَدْرِ ، يقولون : المرءُ يَخْلُقُ أفعاله ، وَإِنِّي لَا أَرَاهُمْ ، فلا أدري أَشَيْءٌ مَضَى أَمْ شَيْءٌ بَقِيَ ، وقال أبو هريرة رضي الله عنه : خاصمت قريش رسول الله صلى الله عليه وسلم في القَدْرِ فنزلت هذه الآية (٢) ، قال

= يقولون : كلُّ شَيْءٍ بِقَدْرِ ، وسمعت عبد الله بن عمر رضي الله عنهما يقول : قال النبي صلى الله عليه وسلم : (كُلُّ شَيْءٍ بِقَدْرِ حَتَّى الْعَجْزُ وَالْكَيْسُ ، أَوِ الْكَيْسُ وَالْعَجْزُ) .

(١) خرَّج ابن ماجه في سننه عن ابن عباس وجابر رضي الله عنهما قالا : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (صنفان من أمّتي ليس لهم في الإسلام نصيب : أهل الإرجاء والقدر) ، وفي صحيح مسلم أن ابن عمر رضي الله عنهما تبرأ من القدرية ، ولا يُتَبَرَّأُ إِلَّا من كافر . وفي مسند أحمد عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (لكل أمة مجوس ، ومجوس أمّتي الذين يقولون لا قَدْر ، إن مرضوا فلا تعودوهم ، وإن ماتوا فلا تشهدوهم) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه ، ورواه مسلم ، والترمذي ، وابن ماجه من حديث وكيع عن سفيان الثوري .

أبو عبد الرحمن السلمي: فقال رجلٌ: يا رسول الله ، ففيم العمل ؟
 أفي شيءٍ نستأنفه أو في شيءٍ قد فرغ منه ؟ فقال رسول الله صلى الله
 عليه وسلم : (اعملوا فكلُّ ميسرٍ لما خلق له ، سُنيسرُه لِلْمَيْسِرِ ،
 سُنيسرُه لِلْعُسْرِ) (١) . وقال أنس بن مالك : قال رسول الله صلى الله
 عليه وسلم : (القدرية الذين يقولون الخيرُ والشرُّ بأيدينا ، ليس لهم
 في شفاعتي نصيب ، ولا أنا منهم ولا هم مني) (٢) .

وقوله تعالى : ﴿إِلَّا وَاحِدَةً﴾ أي : إِلَّا قَوْلَةً واحدةً وهي «كُنْ» ،
 وقوله تعالى : ﴿كَلِمَةٍ بِالْبَصْرِ﴾ تفهيم للناس بأعجل ما يحسون ،
 وفي أشياء من أمر الله تعالى أوحى من لمح البصر ، و «الأشياءُ» : الفرقُ
 المتشابهة في مذهب أو دين ونحوه ، الأولُ شيعة لسلاخ والآخر
 شيعة للأول .

ثم أخبر تعالى أن كل أفعال الأُمم المَهْلَكَة مكتوبة محفوظة
 عليهم إلى يوم الحساب ، قاله ابن عباس ، وقتادة ، والضحاك ،

(١) أخرجه ابن جرير الطبري ، وأخرج مثله الإمام البخاري عن علي عن النبي صلى الله
 عليه وسلم أنه كان في جنازة ، فأخذ عوداً فجعل ينكت في الأرض ، فقال : ما منكم من
 أحدٍ إلا كتب مقعده من الجنة أو من النار ، قالوا: ألا نتكل ؟ قال: اعملوا فكلُّ ميسرٍ .
 ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى﴾ الآية ، ورواه مسلم بلفظ أطول من هذا ، وكذلك رواه
 أبو داود ، والترمذي ، وابن ماجه ، وقد أخرج أحمد مثله في مسنده عن أبي بكر رضي الله عنه .
 (٢) أخرجه النحاس عن أنس رضي الله عنه .

وابن زيد ، و [مُسْتَطْرٌ] مُفْتَعَلٌ مِنَ السَّطْرِ ، تقول : سَطَرْتُ وَأَسْطَرْتُ بِمَعْنَى ، وروى عن عاصم شُدُّ الرَّاءِ مِنَ [مُسْتَطْرٌ] ، قال أبو عمرو : وهذا لا يكون إلاَّ عند الوقوف ، لغة معروفة .

وقرأ جمهور الناس : [وَنَهْرٍ] بفتح الهاء والنون على أنها اسم الجنس يراد به الأنهار ، أو على أنه بمعنى سعة في الرزق والمنازل ، ومنه قول قيس بن الخطيم :

مَلَكَتْ بِهَا كَفِّي فَأَنْهَرْتُ فَتَقَهَا يَرَى قَائِمٌ مِنْ خَلْفِهَا مَا وَرَاءَهَا (١)
فقوله : « أَنْهَرْتُ » معناه جعلت فتقها كنهراً ، وقرأ زهير الفرقي (٢) ، والأعمش : [وَنَهْرٌ] بضم النون والهاء على أنه جمع نهارٍ ، إذ لا ليل

(١) قال قيس بن الخطيم هذا البيت من قصيدة قاله بعد أن أخذ بثأره من قاتلي أبيه وجده ، وقد اختلفت رواية الشطر الثاني من البيت ، ففي الحماسة ، والأغاني ، ولباب الآداب ، والمثل السائر ، واللسان ، والصحاح ، والمخصص ، والتاج ، ومنتهى الطلب ، وخزانة الأدب : (يرى قائمٌ من دونها) ، وفي الموشح ، والعكبري : (يرى قائمٌ من خلفها) . ومعنى (مَلَكَتْ) : شَدَدْتُ ، ومعنى (أَنْهَرْتُ) : فتحت بها فتحاً كبيراً وأجريت الدم ، ومعنى البيت كما قال المرزوقي : « شددتُ بهذه الطعنة كفي ووسعت خرقها حتى يرى القائم من دونها الشيء الذي وراءها » ، ويرى كثير من النقاد أن هذا البيت فيه مبالغة غير مقبولة ، قال ابن قتيبة في (المعاني الكبير) : « وهذا من إفراط الشعر » .

(٢) اختلفت الأصول في كتابة هذا الاسم ، والتصويب عن (المُحْتَسَبِ) لابن جني .

في الجنة ، وهذا سائغ في اللَّفْظِ قَلْتُ في المعنى (١) ، ويحتمل أن يكون جمع نَهْرٍ (٢) ، وقرأ مجاهد ، وحמיד ، وأبو السَّمَّال ، والفياض بن غزوان (٣) : [نَهْرٍ] بسكون الهاء على الإفراد .

وقوله تعالى : ﴿ فِي مَقْعَدِ صَدَقٍ ﴾ يحتمل أن يريد الصدق الذي هو ضد الكذب ، أي : في المقعد الذي صدقوا في الخبر به ، ويحتمل أن يكون من قولك : «عُودٌ صَدَقٌ» أي جيدٌ ، و «رَجُلٌ صَدَقٌ» أي خيرٌ وذو خلال حسان ، وقرأ جمهور الناس : ﴿ فِي مَقْعَدٍ ﴾ على اسم الجنس ، وقرأ عثمان البتي (٤) : ﴿ فِي مَقَاعِدٍ ﴾ على الجمع ، و «المليكُ المقتدرُ» هو الله تبارك وتعالى .

كامل تفسير سورة القمر والحمد لله رب العالمين

(١) وعلى أنه جمع نهار يكون مثل «سَحَابٍ وَسُحُبٍ» ، ومنه قول الشاعر :

لَوْلَا الثَّرِيدَانِ هَلَكْنَا بِالضَّمْرِ ثَرِيدٌ لَيْلٍ وَثَرِيدٌ بِالنَّهْرِ

فالنَّهْرُ هنا جمع نهارٍ .

(٢) قال ابن جني : وهذا كما جاء عنهم من تكسير فَعَلَّ على فَعُل ، مثل أسد وأسد ،

وَوَتَنٌ وَوَتْنٌ .

(٣) في بعض النسخ : «الفياضُ بن عدوان» ، ونميل إلى ترجيح ما أثبتناه .

(٤) هو أبو مسلم ، وقد اختلفت الأصول في كتابة اسمه ، والتصويب عن القرطبي

والبحر المحيط .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين
سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين



وهي مكِّيَّة فيما قال الجمهور من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم ، وقال نافع بن أبي نعيم (١) ، وعطاء ، وقتادة ، وكريب (٢) ، وعطاء الخراساني (٣) ، عن ابن عباس رضي الله عنهما : هي مدنية نزلت عند إباية سهيل بن عمرو وغيره أن يكتب في الصلح : « بسم الله الرحمن الرحيم » ، والأول أصح ، وإنما نزلت حين قالت قريش بمكة : « وما الرحمن ؟ أنسجد لما تأمرنا ؟ » ، وفي السيرة أن ابن مسعود جهر

(١) هو نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم القارئ ، المدني ، مولى بني ليث ، أصله من أصبهان ، وقد ينسب لجدّه ، صدوق ، ثبت في القراءة ، من كبار السابعة ، مات سنة تسع وستين . (تقريب التهذيب) .

(٢) كريب بن أبي مسلم الهاشمي : مولاهم . المدني ، أبو رشدين ، مولى ابن عباس ، ثقة ، من الثالثة ، مات سنة ثمان وتسعين . (تقريب التهذيب) .

(٣) هو عطاء بن أبي مسلم أبو عثمان الخراساني ، واسم أبيه ميسرة ، وقيل عبد الله ، صدوق ، « وقيل » : بهم كثيراً ويُرسل ويُدلس ، من الخامسة ، مات سنة خمس وثلاثين ، لم يصح أن البخاري أخرج له . (تقريب التهذيب) .

بقراءتها في المسجد حتى قامت إليه أندية قريش فضربوه ، وذلك قبل الهجرة .

قوله عز وجل :

﴿ الرَّحْمَنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿٤﴾ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴿٩﴾ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ﴿١١﴾ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَيِّ آيَاتِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ ﴾

[الرَّحْمَنُ] بناءً مبالغة من الرحمة ، وهو اسم اختص الله تعالى بالاتصاف به ، وحكى ابن فورك عن قوم أنهم يجعلون [الرَّحْمَنُ] آية تامة ، كأن التقدير : الرحمنُ ربُّنا ، وقاله الرُّمَّاني وأن التقدير : الله الرحمنُ ، وقال الجمهور : إنما الآية ﴿الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ ، فهو جزء آية .

وقوله تعالى : ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ تعديد نعمة ، أي : هو مَنْ به ، وعلمه الناس ، وخصَّ حُفَّاظَهْ وفهمته بالفضل ، قال رسول الله صلى الله

عليه وسلم : (خيركم من تعلم القرآن وعلمه) (١) ، ومن الدليل على أن القرآن غير مخلوق أن الله تعالى ذكر القرآن في كتابه في أربعة وخمسين موضعاً ما منها موضع صرح فيه بلفظة الخلق ولا أشار إليه ، وذكر الإنسان على الثلث من ذلك في ثمانية عشر موضعاً كلها نصت على خلقه ، وقد اقترن ذكرهما في هذه السورة على هذا النحو .

و «الإنسان» هنا اسم الجنس ، حكاه الزهراوي وغيره ، و «البيان» : النطق والفهم والإبانة عن ذلك بقول ، قاله ابن زيد والجمهور ، وذلك هو الذي فضل به الإنسان من بين سائر الحيوان ، وقال قتادة : هو بيان الحلال والحرام والشرائع ، وهذا جزء من البيان العام ، وقال قتادة : «الإنسان» هو آدم عليه السلام ، وقال ابن كيسان : «الإنسان» محمد صلى الله عليه وسلم ، وهذا التخصيص لا دليل عليه ، وكل المعلومات داخلية في البيان الذي علمه الإنسان ، فكأن الله تعالى قال : من ذلك البيان وفيه معتبر كون الشمس والقمر بحسبان ، فحذف هذا كله ، ورفع [أَلشَّمْسُ] بالابتداء ، وهذا ابتداءٌ تعديدٌ نعم .

(١) أخرجه البخاري في فضائل القرآن ، وأبو داود في الوتر ، والترمذي في ثواب القرآن ، وابن ماجه في المقدمة ، والدارمي في فضائل القرآن ، عن عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وفي رواية أخرجه البخاري عن عثمان بن عفان أيضاً قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : (إن أفضلكم من تعلم القرآن وعلمه) .

واختلف الناس في قوله تعالى : [بِحُسْبَانٍ] - فقال مكّي ، والزهرراوي ، عن قتادة : هو مصدر كالحساب في المعنى ، كالعُفْران والطُّغْيَان في الوزن ، وقال أبو عبيدة معمر بن المثنى ، والضحاك : هو جمع حِسَابٍ ، كَشِهَابٍ وشُهْبَانٍ ، والمعنى : إن هذين لهما في طلوعهما وغروبهما وقطعهما البروج وغير ذلك حساباتٌ ، وهذا مذهب ابن عباس ، وأبي مالك ، وقتادة . وقال ابن زيد : لولا الليل والنهار لم يدر أحد كيف يحسب شيئاً من مقادير الزمان ، وقال مجاهد : الحُسْبَانُ : الفَلَكُ المستدير ، شَبَّهَ بحسبان الرّحى وهو العود المستدير الذي باستدارته تدور المطحنة .

قوله تعالى : ﴿ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴾ ، قال ابن عباس ، والسدي ، وسفيان : « النَّجْمُ » : النباتُ الذي لا ساق له ، وسمي نجماً لأنه نجم أي ظهر وطلع ، وهو مناسب للشجر يشبه به ، وقال مجاهد ، وقتادة ، والحسن : النَّجْمُ : اسم الجنس من نجوم السماء ، والنسبة التي لها من السماء هي التي للشجرة من الأرض لأنهما في ظاهرهما ، وسمي الشجر من اشتجار غصونه وهو تداخلها ، واختلف الناس في هذا السجود - فقال مجاهد والحسن : ذلك في النجم بالغروب ونحوه ، وفي الشجر بالظل واستدارته ، وكذلك في النجم على القول

الآخر ، وقال مجاهد أيضاً ما معناه : إن السجود في هذا كله تجوز ، وهو عبارة عن الخضوع والتذلل ونحوه ، ومنه قول الشاعر :

تَرَى الْأَكْمَ فِيهِ سُجْدًا لِلْحَوَافِرِ (١)

وقال تعالى : [يَسْجُدَانِ] وهما جمعان لأنه راعى اللفظة ، لأنه اسم مفرد اسم للنوع ، وهذا كقول الشاعر :

أَلَمْ يَخْزُنْكَ أَنَّ حِبَالَ قَوْمِي وَقَوْمِكَ قَدْ تَبَايَنَّا انْقِطَاعًا (٢)

وقرأ الجمهور : (وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا) بالنصب عطفاً على الجملة الصغيرة وهي [يَسْجُدَانِ] ؛ لأن هذه جملة من فعل وفاعل وهذه كذلك ،

(١) هذا عجز بيت قاله زيد الخيل بن مهلهل الذي سمّاه النبي صلى الله عليه وسلم زيد الخير بعد إسلامه ، والبيت بتمامه :

بِجَمْعٍ تَنْضِلُ الْبُلْتُقُ فِي حَجَرَاتِهِ تَرَى الْأَكْمَ فِيهِ سُجْدًا لِلْحَوَافِرِ

والبُلْتُقُ : سوادٌ وبياض في الدابة ، والمراد هنا الخيل ، والبُلْتُقة فيها ارتفاع التحجيل إلى الفخذين ، والحَجَرَاتُ : النواحي ، وهي جمع حَجْرَةٍ ، وفي المثل - وهو في حديث علي - : « ودع عنك نبياً صبيحاً في حَجَرَاتِهِ » ، أي في نواحيه ، والأَكْمُ جمع الإكام ، والإكام جمع أَكْمٍ ، وَأَكْمٌ جمع أَكْمَةٍ وهي المكان المرتفع دون الجبال ، والشاهد أن السجود هنا مجازي يدل على الخضوع والذلة .

(٢) هذا البيت من قصيدة للقطامي مدح بها زُفَر بن الحارث الكلابي الذي حماه من بني أسد يوم الحابور وحمله وكساه وأعطاه مائة ناقة ، والخطاب هنا لضباعة بنت زُفَر لأنه كان أسيراً عند والدها ، والجبال : العهود والمواصلة التي كانت بين قومه وقومها وهما قيس وتغلب ، ولهذا يروى البيت (أَلَمْ يَخْزُنْكَ أَنَّ حِبَالَ قَيْسٍ... وتغلب) ، وتباينت : تفرقت ، وقد روي أن ضباعة لما سمعت هذا البيت قالت : بكتي والله قد أحزنتني ، والشاهد أنه راعى اللفظ حين قال : (تباينت) أي جبال القومين ، وإلا فلو راعى المعنى لقال : (تباينت) لأن الضمير يعود على (الجبال) ، وقد روي البيت : (تباينت) . وعلى هذا فلا شاهد فيه .

وقرأ أبو السَّمَّال : ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا﴾ بالرفع عطفاً على الجملة الكبيرة وهي قوله تعالى : ﴿وَالنَّجْمِ وَالشَّجَرِ يَسْجُدَانِ﴾ ؛ لأن هذه جملة من مبتدأ وخبر والأخري كذلك ، وفي مصحف ابن مسعود رضي الله عنه : «وخفض الميزان» ، ومعنى [وَضَعَ] : أَقْرَ وَأَثَبْت ، و «الميزانُ» : العَدْلُ فيما قال الطبري ، ومجاهد ، وأكثر الناس . وقال ابن عباس ، والحسن ، وقتادة : إِنَّهُ الميزان المعروف ، وهو جزءٌ من الميزان الذي يعبر به عن العدل ، ويظهر عندي أن قوله تعالى : ﴿وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ يريد به العدل ، وأن قوله تعالى : ﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾ ، وقوله : ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ﴾ ، وقوله : ﴿وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ يريد به الميزان المعروف ، وكل ما قيل محتمل سائغ . وقوله تعالى : ﴿أَلَّا تَطْغَوْا﴾ نهي عن التعمد الذي هو طغيان بالميزان ، وأما ما لا يقدر البشر عليه من التحرير بالميزان فذلك موضوع عن الناس ، و [أَلَّا] هو بتقدير : «لِئَلَّا» أو مفعولٌ من أجله ، و [تَطْغَوْا] نصب ، ويحتمل أن تكون [أَنَّ] مفسرة فيكون [تَطْغَوْا] جزم بالنهي (١) ، وفي مصحف ابن مسعود رضي الله عنه : «لَا تَطْغَوْا» بغير «أَنَّ» .

(١) علّق أبو حيان على ذلك في البحر بقوله : «لا يجوز أن تكون [أَنَّ] مفسرة لأنه يشترط أن يكون ما قبلها جملة فيها معنى القول ، وجملة ﴿وَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ ليس فيها معنى القول .

وقرأ جمهور الناس : ﴿وَلَا تُخْسِرُوا﴾ من أَخْسَرَ ، أي نَقَصَ وَأَفْسَدَ ،
 وقرأ بلال بن أبي بُردة : ﴿وَلَا تَخْسِرُوا﴾ بفتح التاء وكسر السين
 من خَسَرَ ، ويقال : خَسَرَ وَأَخْسَرَ بمعنى نقص وأفسد كَجَبَرَ وَأَجْبَرَ ،
 وقرأ بلالٌ أيضاً - فيما حكى عنه ابن جني - : [تَخْسِرُوا] بفتح
 التاء والسين من خَسِرَ بكسر السين (١) .

واختلف الناس في [الأنام] - فقال ابن عباس رضي الله عنهما
 في بعض ما روي عنه : هم بنو آدم فقط ، وقال الحسن بن أبي
 الحسن : هم الثقلان الجن والإنس ، وقال ابن عباس أيضاً ، وقتادة ،
 وابن زيد ، والشعبي : هم الحيوان كله . و «الأكمام» في النخل
 موجودة في موضعين : فجملة فروع النخلة في أكمام من ليفها ،
 وطلع النخلة في كِمٍّ (٢) من جهة ، وقال قتادة : أكمام النخل رقابها .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والكِمُّ من النبات كل ما التفَّ على شيءٍ وستره ، ومنه كمائم
 الزهر ، وبه شبه كُمُّ الثوب .

(١) قال أبو الفتح : «وهذا ينبغي أن يكون على حذف حرف الجر، أي : تَخْسِرُوا
 في الميزان ، فلما حذف الجر أفضى إليه الفعل قبله فنصبه ، كقوله تعالى : ﴿وَأَقْعُدُوا
 لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ﴾ ، أي : في كلِّ مرصد .
 (٢) في المحكم والتهديب ضبط بالضم ، ولكن في المصباح والقاموس والنهاية :
 كِمُّ الطَّلَعِ وَكُلُّ نَوْرٍ بالكسر .

{وَأَلْحَبٌ ذُو الْعَصْفِ وَالرِّيْحَانُ} ، الْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ هُوَ الْقَمْحُ
والشعير وما جرى مجراه من الحب الذي له سنبل وأوراق متشعبة
على ساقه ، وهي العصيفة إذا يبست ، ومنه قول علقمة بن عبدة :
تَسْقِي مَذَانِبَ قَدْ مَالَتْ عَصِيفَتَهَا حَدُورُهَا مِنْ أَتِيِّ الْمَاءِ مَطْمُومٌ (١)
قال ابن عباس رضي الله عنهما : العصف : التبن ، وتقول العرب :
خرجنا نتعصف ، أي يستعجلون عصيفة الزرع ، وقرأ ابن عامر ،
وأبو البرهسم : [وَأَلْحَبٌ] - بالنصب عطفاً على [الْأَرْضِ] -
{ذَا الْعَصْفِ وَالرِّيْحَانُ} ، إِلَّا أَنْ أَبَا الْبَرْهَسْمِ خَفَضَ النُّونَ . واختلفوا
في الريحان - فقال ابن عباس ، ومجاهد ، والضحاك : معناه : الرزق ،
ومنه قول الشاعر وهو النمر بن تولى :

سَلَامٌ الْإِلَهَ وَرِيْحَانَهُ وَجَنَّتُهُ وَسَمَاءُ دِرْرٍ (٢)

(١) قال علقمة هذا البيت من قصيدة يبكي فيها فراق الحبيبة ، ويصف دمعته ويشبهه
بما يفيض من الدلو العظيمة حين تسرع بها الناقة ، فالضمير في «تسقي» يعود على الناقة
وقد ذكرها في الآيات السابقة . والمذائب : مدافع الماء إلى الرياض ، والواحد مذئب ،
والعصيفة : ورق الزرع ، ويروى : «زالت عصيفتها» ، والمعنى في «مال» استوى وقارب
أن يجف ، والمعنى في «زال» أنه جفَّ وسقط وتفرق بفعل الريح ، وحدورها : ما انحدر
من هذه المذائب واطمأن في الأرض أي انخفض ، والأتي : السيل القوي ، والمطموم :
المملوء بالماء . والشاهد أن العصيفة هي ورق الزرع الذي يتفتح عن الثمرة ويسقط . وهذا البيت
من شواهد أبي علي في (مجاز القرآن) ، وقد نقل المفسرون كلامه وكذلك نقله صاحب اللسان
في (عصف) .

(٢) استشهد صاحب اللسان بهذا البيت وبيت بعده على أن الريحان هو الرزق ، قال :
والعرب تقول : سبحان الله وريحانه ، قال أهل اللغة : معناه واسترزاقه ، وهو عند سيبويه =

وقال الحسن : هو ريحانكم هذا ، وقال ابن جبير : هو كلُّ ما قام على ساقٍ ، وقال ابن زيد ، وقتادة : الريحانُ هو كل مشوم طيب الريح من النبات ، وفي هذا النوع نعمة عظيمة ، فمنه الأزهار والمندل والعقاقير وغير ذلك ، وقال الفراء : العصف فيما يؤكل ، والريحانُ كلُّ ما لا يؤكل . وقرأ جمهور الناس : ﴿ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ﴾ ، وهذه القراءة في المعنى كالأولى ، وفي الإعراب حسنة الاتساق عطفاً على [فَاكِهَةٌ] ، وقرأ حمزة ، والكسائي ، وابن محيصن : [وَالْحَبُّ] بالرفع ﴿ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ﴾ بخفض [الرَّيْحَانِ] عطفاً على [أَلْعَصْفِ] ، كأنَّ « الْحَبَّ » هُما لَهُ على أن « الْعَصْفَ » منه الورق وكل ما يُعصف باليد والريح فهو رزق البهائم ، و « الريحانُ » منه الحبُّ وهو رزقُ الإنس ، والريحانُ - على هذه القراءة - لا يدخل فيه المشوم إلا بتكلف . و « ريحان » هو من ذوات الواو ، قال أبو علي : إما أن يكون ريحان اسماً وُضع موضع المصدر ، وإما أن يكون مصدراً

= من الأسماء الموضوعة موضع المصادر ، تقول : خرجتُ أبتغي ریحان الله ، قال النَّميرُ ابنُ تَوَلَّب :

سَلَامُ الإِلهِ وَرَيْحَانُهُ وَرَحْمَتُهُ وَسَمَاءُ دِرْرُ

غَمَامٌ يُنَزَّلُ رِزْقَ الْعِبَادِ فَأَحْيَا الْبِلَادَ وَطَابَ الشَّجَرُ

ومعنى قوله : وريحانه : ورزقه . والسَاءُ الدَّرْرُ هي التي تصب المطر كثيراً فيأتي بالخير الكثير .

على وزن فَعْلَان كَاللِّيَان وما جرى مجراه ، أصله رَوْحَان ، أُبدلت
الواو ياءً (١) كما أبدلوا الياءَ واوًا في «أشأوي» ، وإمّا أن يكون مصدرًا
مما شذَّ في المعتل كما شذَّ كَيْنُونَةٌ وَبَيْنُونَةٌ ، فأصله رَيُّوْحَان ، قُلبت
الواوُ ياءً وأُدغمت الياءُ في الياءِ فجاءَ (رَيِّحَان) فخفف ، كما قالوا :
مَيِّتٌ وَمَيِّتٌ ، وَهَيِّنٌ وَهَيِّنٌ .

و «الآلاءُ» : النِّعم ، واحدها إلى مثل مَعَى وَأَلَى مثل نَقَى ، حكى
هذين أبو عبيدة ، وَأَلَى مثل أَمْنٍ ، وَإِلَى مثل حِصْنٍ ، حكى هذين
الزهرأوي ، والضمير في قوله تعالى : [رَبُّكُمَا] للجن والإنس ، وساغ
ذلك ولم يُصْرَحْ لها بذكر على أحد وجهين : إمّا أَنهما قد ذكرا
في قوله تعالى : [لِلْأَنَامِ] على ما تقدم من أن المراد به الثقلان ،
وإمّا على أن أمرهما مفسَّر في قوله تعالى : ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ﴾ و ﴿ خَلَقَ
الْجَانَّ ﴾ فساغ تقديمهما في الضمير اتساعاً . وقال الطبري : يحتمل
أن يقال : هذا من باب ﴿ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ ﴾ (٢) ، و «يا غلام اضربا

(١) وذلك للفرق بينه وبين الرُّوحَانِيِّ ، وهو كلُّ شيءٍ له رُوحٌ .

(٢) من قوله تعالى في الآية (٢٤) من سورة (ق) : ﴿ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ
عَنِيدٍ ﴾ ، قاله سبحانه وتعالى يخاطب في هذه الآية خازن النار مالك ، فَثَنَى وَالخَطَابُ
لواحد ، وهذا كثير في كلام العرب ، ومنه البيت المشهور في مطلع معلقة امرئ القيس :

قِفَا نَبِكِ مِنْ ذِكْرِي حَبِيبٍ وَمَنْسُورٍ بِسِقْطِ اللَّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ

وقوله أيضاً في مطلع قصيدة أخرى :

عنقه» ، وقال منذر بن سعيد : خوطب من يعقل لأن المخاطبة بالقرآن كله للإنس والجان ، ويُروى أن هذه الآية لما قرأها النبي صلى الله عليه وسلم سكت أصحابه رضي الله عنهم ، فقال عليه الصلاة والسلام : (إن جواب الجن خير من سكوتكم ، إني لما قرأتها على الجن قالوا : لا نكذبُ بآلاءِ ربنا) (١).

= خَلِيلِيَّ مُرًّا بِي عَلَيَّ أَمْ جُنْدَبٍ لِنَقْضِي لُبَانَاتِ الْفُؤَادِ الْمُعَذَّبِ

فهو يخاطب واحداً لكن اللفظ جاء للمثنى ، وقال سويد بن كراع :

فَإِنْ تَزْجُرَانِي يَا بْنَ عَفَّانَ أَنْزَجِرُ وَإِنْ تَدَعَانِي أَحْمِرُ عِرْضاً مُمْتَعاً

وهو واضح جداً حيث يخاطب فرداً واحداً بلفظ المثنى ، قالوا : والعلّة في هذا أن أقلّ أعوان الرجل في إبله وماله اثنان ، وأن أقلّ الفرقة ثلاثة ، فجرى كلام الرجل على ما قد أليف من خطابه . أما «يا غلام اضربا عنقه» فهو من كلام الحجاج .

(١) أخرج هذا الحديث الترمذي ، والحاكم في المستدرک ، وزاد السيوطي نسبه إلى ابن المنذر ، وأبو الشيخ في العظمة ، وابن مردويه ، والبيهقي في الدلائل ، وهو من حديث الوليد بن مسلم عن زهير بن محمد بن المنكدر ، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه ، قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على أصحابه فقرأ عليهم سورة الرحمن من أولها إلى آخرها ، فسكتوا ، فقال : مالي أراكم سكوناً ؟ لقد قرأتها على الجن ليلة الجن فكانوا أحسن مردوداً منكم ، كنت كلما أتيت على قوله : ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ قالوا : ولا بشيء من نعمك ربنا نكذب ، فلك الحمد ، وقد صحح الحاكم هذا الحديث كما ذكر السيوطي في الدرر ، كذلك صححه الذهبي ، لكن الترمذي قال : غريب لا نعرفه إلا من حديث الوليد بن مسلم عن زهير بن محمد . وزهير بن محمد هذا قال عنه البخاري : « ما روى عنه أهل الشام فإنه من أكبر ، وما روى عنه أهل البصرة فإنه صحيح » وهذا الحديث مما رواه الوليد بن مسلم وهو من أهل الشام ، ومع هذا فقد أخرج مثله البزار ، وابن جرير ، وابن المنذر ، والدارقطني في الأفراد ، وابن مردويه ، والخطيب في تاريخه بسند صحيح عن ابن عمر رضي الله عنهما .

قوله عز وجل :

﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ آيَاتِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ آيَاتِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ ﴾

قال كثير من المفسرين : «الإنسان» : آدم عليه السلام ، وقال آخرون : أراد اسم الجنس ، وساغ ذلك من حيث أبوهم مخلوق من الصلصال . واختلف الناس في اشتقاق الصلصال ، فقال مكّي - فيما حكى - والنقاش : هو من «صَلَّ اللَّحْمُ وَغَيْرُهُ» إذا أَنْتَنَ ، فهي إشارة إلى الحمأة ، وقال الطبري وجمهور المفسرين : هو من «صَلَّ» إذا صَوَّتَ ، وذلك في الطين لكرمه وجودته ، فهي إشارة إلى ما كان في تربة آدم عليه السلام من الطين الحُرِّ ، وذلك أن الله تبارك وتعالى خلقه من طين طيب وخبيث ومختلف اللون ، فمرة ذكر في خلقه هذا ومرة هذا ، وكل ما في القرآن في ذلك من صفات ترددت على التراب الذي خُلق منه . و الفَخَّارُ : الطين الطيب إذا مسّه الماء فَخَرَ أَي رَبَّأ وَعَظَّم . و «الجان» : اسم جنس كالجنة ، و «المارج» : اللَّهَبُ المضطرب من النار ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : وهو

أَحْسَنُ النَّارِ الْمُخْتَلَطُ مِنَ الْأَلْوَانِ الشَّتَّى ، وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا : (كَيْفَ بَكَ إِذَا كُنْتَ فِي حُثَالَةِ مِنَ النَّاسِ قَدْ مَرَجَتْ عَهودُهُمْ وَأَمَانَاتُهُمْ) (١) .

وكرر قوله تعالى : ﴿ قَبَائِي آيَاتٍ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانِ ﴾ تأكيداً وتنبيهاً للنفوس وتحريكاً لها ، وهذه طريقة من الفصاحة معروفة ، وهي من كتاب الله تعالى في مواضع ، وفي حديث النبي صلى الله عليه وسلم ، وفي كلام العرب . وذهب قوم منهم ابن قتيبة وغيره إلى أن هذا التكرار إنما هو لما اختلفت النعم المذكورة كرر التوقيف مع كل واحدة منها وهذا أحسن ، قال الحسين بن الفضل : التكرار لطرده الغفلة والتأكيد .

وخصَّ تعالى ذكر المشرقين والمغربين بالتشريف في إضافة الربِّ إليهما لِعِظَمِهِمَا فِي المخلوقات ، وأنهما طرفا آية عظيمة وعبرة وهي

(١) أخرجه أبو داود في الملاحم ، وابن ماجه في الفتن ، وأحمد في المسند (٢-١٦٢ ، ٢١٢ ، ٢٢٠) ، ولفظه كما في المسند أن عبد الله بن عمرو قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : (كيف أنت إذا بقيت في حُثَالَةِ مِنَ النَّاسِ ؟ قال : قلت : يا رسول الله كيف ذلك ؟ قال : إذا مَرَجَتْ عَهودُهُمْ وَأَمَانَاتُهُمْ ، وكانوا هكذا - وشبك بين أصابعه يصف ذلك - قال : قلت : ما أصنع عند ذلك يا رسول الله ؟ قال : اتق الله عزَّ وجلَّ ، وخذ ما تعرف ودع ما تُنكر ، وعليك بخاصَّتكَ ، وإيَّاكَ وعوامهم) . ويونس هو راوي الحديث عن الحسن بن عبد الله بن عمرو .

الشمسُ وجريها ، وحكى النقاش أن «المشرقين» هما مشرق الشمس والقمر و «المغربين» كذلك ، على ما في ذلك من العبر ، وكلُّ مُتَّجِه ، ومتى وقع ذكر المشرق والمغرب فهي إشارة إلى الناحيتين بجملتهما ، ومتى وقع ذكر المشرق والمغرب فهي إشارة إلى مشرق كل يوم ومغربه ، ومتى ذكر المشرق والمغربان فهي إشارة إلى نهايتي المشرق والمغرب ؛ لأن ذكر نهايتي الشيء ذكرٌ لجميعة ، وقال مجاهد : هو مشرق الصيف ومغربه ومشرق الشتاء ومغربه .

قوله عز وجل :

﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يُخْرِجُ مِنْهُمَا الطُّلُوتَ وَالْمَرْجَانَ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾ ﴾

(مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ) معناه : أرسلهما إرسالاً غير منحاز بعضهما من بعض ، ومنه : مَرَجَتِ الدَابَّةُ ، ومنه : الأمر المريج ، أي المختلط الذي لم يتحصل منه شيء ، ومنه (مَنْ مَارَجَ مِنْ نَارٍ) . واختلف

الناسُ في البحرين - فقال الحسن ، وقتادة : بحر فارس و بحر الروم ، وقال الحسن أيضاً : بحر القلزم واليمن و بحر الشام ، وقال ابن عباس ، وابن جبیر : بحرٌ في السماء و بحر في الأرض ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً : هو مطر السماء - سمّاهُ بحراً - و بحر الأرض ، والظاهر عندي أن قوله تعالى : ﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ ﴾ يريد بهما نوعي الماء العذب والأجاج ، أي خلطهما في الأرض وأرسلهما متداخلين في وضعهما في الأرض قريب بعضهما من بعض ، والعبارة في هذا التأويل منيرة ، وأنشد منذر بن سعيد :

وَمَمْرُوجَةُ الْأَمْوَاهِ لَا الْعَذْبُ غَالِبٌ عَلَى الْمِلْحِ طِيباً لَا وَلَا الْمِلْحُ يَعَذْبُ (١)
 وأما قوله تعالى : [يَلْتَقِيَانِ] فعلى التأويلين الأولين معناهما : مُعَدَّانِ للالتقاء وحقهما أن يلتقيا لولا البرزخ ، وعلى القول الثالث أنهما يلتقيان كل سنة مرة ، فمن ذهب إلى أنه بحر يجتمع في السماء فهو قول ضعيف ، وإنما يتوجه اللقاء فيه وفي القول الرابع بنزول المطر ، وفي القول الخامس بالأنهار في البحر وبالعيون قرب البحر .

و «الْبَرْزَخُ» : الحاجز في كل شيء ، فهو في بعض هذه الأقوال أجرام الأرض ، قاله قتادة ، وفي بعضها القدرة ، والبرزخُ أيضاً

(١) أي لا يغلب العذبُ على المِلْحِ فتصير الأمواه كلها عذبة ، ولا يغلب المِلْحُ على العذب فتصير الأمواه كلها ملحة .

المُدَّة التي بين الدنيا والآخرة للموتى ، فهو حاجز ، وقال بعض الناس :
 إن ماء الأنهار لا يختلط بالماء المِلْح بل هو بذاته باق فيه ، وهذا
 يحتاج إلى دليل أو حديث صحيح وإلا فالعيان لا يقتضيه ، وذكر
 الثعلبي في (مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ) أَلْغَاؤاً وَأَقْوَالاً باطنة لا يجب أن يلتفت
 إلى شيء منها .

واختلف الناس في قوله تعالى : (لَا يَبْغِيَانِ) - فقال ابن عباس ،
 ومجاهد ، وقتادة : معناه : لا يبغى واحد منهما على الآخر ، وقال
 قتادة أيضاً ، والحسن : لا يبغيان على الناس والعمران ، وهذان
 القولان على أن اللفظ من البغى ، وقال بعض المتأولين : هي من قولك :
 بَغَى إذا طلب ، فمعناه : لا يبغيان حالاً من الأحوال غير حاليهما
 اللتين خُلِقا وسُخِّرَا لهما . وقال ابن عباس ، وقتادة ، والضحاك :
 اللؤلؤ : كِبَارُ الجواهر والمرجان : صغاره ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما
 أيضاً ، ومُرَّةُ الهمداني (١) عكس هذا ، والوصف بالصغر هو الصواب
 في اللؤلؤ ، وقال ابن مسعود رضي الله عنه وغيره : المرجان حجر أحمر ،
 وهذا هو الصواب في المرجان ، واللؤلؤُ بِنَاءٌ غريب لا يُحفظ منه

(١) هو مُرَّةُ بن شَرَّاحِيلِ الهمداني - بسكون الميم بعدها دال غير منقوطة - أبو إسماعيل
 الكوفي ، قال في تقريب التهذيب : « هو الذي يقال له : مُرَّةُ الطَّيِّبِ ، ثقة عابد ، من الثانية ،
 مات سنة ست وسبعين ، وقيل بعد ذلك » .

في كلام العرب أكثر من خمسة : اللؤلؤ ، والجوجو ، والدودو ،
والْيُؤْيُؤُ - وهو طائر - والبؤبؤ ، وهو الأصل (١) .

واختلف الناس في قوله تعالى : [مِنْهُمَا] - فقال أبو الحسن الأخفش
في كتاب (الحجة) : وزعم قوم أنه قد يخرج اللؤلؤ والمرجان من
الملح ومن العذب ، وردّ الناس على هذا القول لأن الحس يخالفه
ولا يخرج ذلك إلا من الملح ، وقد ردّ الناس على الشاعر في قوله :

فَجَاءَ بِهَا مَا شِئْتَ مِنْ لَطْمِيَّةٍ عَلَى وَجْهِهَا مَاءُ الْفِرَاتِ يَمْوِجُ (٢)

(١) اللؤلؤ : الدرّ ، وهو يتكون في الأصداف من رواسب أو جوامد صلبة لماعة
مستديرة في بعض الحيوانات المائية الدنيا من الرخويات ، واحده : لؤلؤة ، وجمعه : لآلي .
والجوجو : مجتمع رؤوس عظام الصدر ، وصدر السفينة ، وجمعه : جاجي .
والدودو : آخر أيام الشهر ، ويقال : ليلة دودو : شديدة الظلمة ، وجمعه : دادي ،
وفي الحديث (ليس عفر الليالي كالدآدي) .

والْيُؤْيُؤُ : طائر من جوارح الطير كالباشق ، وهو طائر صغير قصير الذنب ،
وجمعه : يآيي .

والبؤبؤ : الأصل . يقال : فلان في بؤبؤ المجد ، وقد يكون معناه : وسط الشيء ،
وكذلك من معانيه : إنسان العين . يقال : هو أعز عليّ من بؤبؤ عيني ، أي من إنسانها ،
وهو في الوقت نفسه وسط العين .

(٢) هذا البيت لأبي ذؤيب الهذلي ، وهو من أبيات يصف فيها محبوبته ويشبهها
بالدرة الثمينة التي تعب الغواص في الوصول إليها وسط لجاج الماء ، ثم جاء بها بعد كثير
من التعب والإرهاق ، فالضمير في (فجاء) يعود على الغواص وقد ذكره في الأبيات السابقة ،
وفي (بها) يعود الضمير على الدرة ، واللطيمة : عير تحمل التجارة والعطر ، فإن لم يكن
فيها عطر فليست بلطيمة ، فجعل الشاعر هذه الدرة تحملها عير اللطيمة ، وقوله : (ما شئت =

وقال الجمهور من المتأولين : إنما يخرج ذلك من الأجاج في المواضع التي تقع فيها الأنهار والمياه العذبة ، فلذلك قال تعالى : [مِنْهُمَا] ، وهذا مشهور عند الغواصين ، وقال ابن عباس ، وعكرمة : إنما تتكون هذه الأشياء في البحر بنزول المطر لأن الصدف وغيرها تفتح أجوافها للمطر ، فلذلك قال تعالى : [مِنْهُمَا] ، وقال أبو عبيدة ما معناه : إن خروج هذه الأشياء إنما هو من الملح لكنه تعالى قال : [مِنْهُمَا] تَجَوِّزاً ، كما قال الشاعر :

مُتَقَلِّدًا سَيْفًا وَرُمَحًا (١)

= مِّن لَطَمِيَّةٍ) في موضع الحال ، أي جاء بها في هذه الحالة . والفُرَات : العذبُ من الماء ، ومُجُوجٌ : يضطرب ويتحرك ، جعل الماء العذب يتلاطم فوقها ، قالوا : وقد أخطأ هنا ، فقد ظنَّ أن الدرَّة إذا كانت في الماء العذب فليس لها شبيه ، ولم يعلم أنها لا تكون في الماء العذب ، ويروى الشطر الثاني : (تَدُومُ البِحَارُ فَوْقَهَا وَتَمُوجُ) أي : تسكن فوقها وتحرك ، و (دام) تفيد معنى السكون ، ومنه (لا يَبُولَنَّ أَحَدُكُمْ فِي المَاءِ الدائم) ، وعلى هذا فلا شاهد في البيت ، والرواية الأخيرة هي رواية الديوان .

(١) هذا عجز بيت قاله عبد الله بن الزُّبَيْرِ - كما في حواشي الكامل - والبيت بتمامه كما ذكره الفراء في (معاني القرآن) :

وَلَقَيْتُ زَوْجَكَ فِي الوَغَى مُتَقَلِّدًا سَيْفًا وَرُمَحًا

والرواية في خزانة الأدب - نقلًا عن المبرد في الكامل - وفي اللسان - قلَّد - : (يَا لَيْتَ زَوْجَكَ قَدَ غَدَا) ، وتقلَّد الأمر : احتمله ، وكذلك تقلَّد السيف ، والمعنى في البيت : مُتَقَلِّدًا سَيْفًا وَحَامِلًا رُمَحًا ، قيل : إن الرُمح لا يُتَقَلَّدُ لكنه لما جمع الرُمح مع السيف =

وكما قال الآخر :

عَلَفْتُهَا تَبْنًا وَمَاءً بَارِدًا (١)

فمن حيث هما نوعٌ واحدٌ فنخرج هذه الأشياء إنما هو منهما وإن كانت تختص عند التفصيل المبالغ بأحدهما ، وهذا كما قال تعالى : ﴿ سَبَّعَ

= حَمَلَهُ عَلَى مِثْلٍ لَفْظِهِ لِأَنَّ الْمَعْنَى يَرْجِعُ إِلَى شَيْءٍ وَاحِدٍ ، وَهَذَا هُوَ مَعْنَى كَلَامِ الْمَبْرَدِ ، وَقَدْ جَعَلَ الْبَيْتَ كَقَوْلِ الشَّاعِرِ الْآخَرَ : (شَرَّابُ الْبَابِ وَسَمْنٌ وَأَقِطٌ) ، فَإِنَّ اللَّبْنَ يَشْرَبُ ، وَلَكِنَّ السَّمْنَ وَالْأَقِطَ لَا يَشْرَبَانِ وَإِنَّمَا يُؤْكَلَانِ ، لَكِنَّهُمَا جُمِعَ بَيْنَهُمَا حَمَلِ الْآخِرِينَ عَلَى مِثْلِ لَفْظِ الْأَوَّلِ لِأَنَّ الْمَعْنَى يَرْجِعُ إِلَى شَيْءٍ وَاحِدٍ .

(١) هذا رجزٌ لم يعرف قائله ، وفي بعض حواشي نسخة من الصحاح نسب إلى ذي الرُّمَّةِ ، قال في الخزانة : وفتشت ديوانه فلم أجده فيه ، وقد أورد العلامة الشيرازي ، والفاضل اليمني صدرًا ، وجعلنا الجزء المذكور هنا عجزًا ، فصار كالآتي :

لَمَّا حَطَطْتُ الرَّحْلَ عَنْهَا وَارِدًا عَلَفْتُهَا تَبْنًا وَمَاءً بَارِدًا
وجعله آخرون صدرًا ، وأوردوا له عجزًا فصار كالآتي :

عَلَفْتُهَا تَبْنًا وَمَاءً بَارِدًا حَتَّى شَتَّتْ هَمَالَةً عَيْنَاهَا

والضمير في (عَلَفْتُهَا) يرجع إلى الدابة المعهودة ، والشاهد أنه عطف الماء على التبن ، ولا يقال عن الماء علفٌ ، ولهذا قالوا : التقدير : وسقيتها ماءً ، وقيل : إنه لما جمع الماء مع التبن حملة على مثل لفظه لأن المعنى يرجع إلى شيء واحد ، وهو بهذا كقول الراعي عبيد :

إِذَا مَا الثَّغَالِيَّاتُ بَرَزْنَ يَوْمًا وَرَجَّجْنَ الْحَوَاجِبَ وَالْعَيْوُنَا

إذ أن العيون لا تُرَجَّجُ مثل الحواجب ، ولهذا كان التقدير : وَكَحَلَّزْنَ الْعَيْوُنَا ، أَوْ يُقَالُ : إنه لما جمع العيون مع الحواجب حملها على مثل لفظها لأن المعنى يرجع إلى شيء واحد . وقالوا : إن العرب تجمع الجنسين ثم تخبر عن أحدهما ، وقد ورد هذا في القرآن الكريم ، قال تعالى : ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ ﴾ ، فإن الرسل من الإنس فقط .

سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ، وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا (١) ، وإنما هو في إحداهن وهي الدنيا إلى الأرض ، وقال الرُّمَّانِي : العذب فيهما كاللقاح للملح ، فهو كما يقال : الولد يخرج من الذكر والائُنْثَى . وقرأ نافع ، وأبو عمرو ، وأهل المدينة : [يُخْرِجُ] بضم الياء وفتح الراء [أَلَلُّوُلُؤُ] رفعاً . وقرأ ابن كثير ، وعاصم ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي : [يَخْرِجُ] بفتح الياء وضم الراء على بناء الفعل للفاعل ، وهي قراءة الحسن ، وأبي جعفر . وقرأ أبو عمرو - في رواية حُسين الجعفي عنه - : [يُخْرِجُ] بضم الياء وكسر الراء على إسناده إلى الله تعالى ، أي بتمكينه وقدرته [أَلَلُّوُلُؤُ] نصباً ، ورواها عنه أيضاً بالنون مضمومة وكسر الراء .

و «الْجَوَارِ» جمع جارية وهي السُّفُنُ ، وقرأ الحسن ، والنخعي : [أَلْجَوَارِي] بإثبات الياء ، وقرأ أبو جعفر ، وشيبة بحذفها ، وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، والكسائي : [أَلْمُنْشَاتُ] بفتح الشين ، أي أنشأها الله تعالى أو الناسُ ، وقرأ حمزة ، وأبو بكر - بخلاف عنه - : [أَلْمُنْشَاتُ] بكسر الشين ، أي تُنشئُ هي

(١) من الآيتين (١٥ ، ١٦) من سورة (نوح) .

السَّيْرَ إِقْبَالًا وَإِدْبَارًا ، و «الْأَعْلَامُ» الجِبَالُ وما جرى مجراها من الظُّراب والآكام (١) ، وقال مجاهد : ماله شراع فهو من المنشآت وما لم يرفع له شراع فليس من المنشآت .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

قوله تعالى : [كَالْأَعْلَامِ] هو الذي يقتضي هذا الفرق ، وأما

لفظة «المنشآت» فتعم الكبير والصغير .

والضمير في قوله تعالى : ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ للأرض ، وكنى

تعالى عنها ولم يتقدم لها ذكرٌ لوضوح المعنى ، كما قال تعالى :

﴿حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ (٢) إلى غير ذلك من الشواهد ، والإشارة

بالفناء إلى جميع الموجودات على الأرض من حيوان وغيره ، فغلبت

عبارة من يعقل فلذلك قال : [مَنْ] .

و «الْوَجْهُ» عبارة عن الذات لأن الجارحة منفية في حق الله تعالى ،

وهذا كما تقول : هذا وجه القول والأمر ، أي حقيقته وذاته ، وقرأ

جسهور الناس : ﴿ذُو الْجَلَالِ﴾ على صفة لفظة الوجه ، وقرأ عبد الله

(١) الظُّراب : جمع ظرَب وهو الجبل المنبسط . والآكام : جمع الجمع ، والمفرد :

أكمة وهي النل ، وجمعها أكامٌ وأكَمٌ ، وجمع الأكم إكامٌ ، وجمع الإكام أكَمٌ .
و جمع الأكم آكام .

(٢) من الآية (٣٢) من سورة (ص) .

ابن مسعود ، وأبي رضي الله عنهما : « ذِي الْجَلَالِ » على صفة الربِّ
تبارك وتعالى .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ يَوْمٍ مَرَّةً فِي شَأْنٍ ﴾ ٣١ ﴿ فَبِأَيِّ
آيَاتِ رَبِّكَ تُكَذِّبَانِ ﴾ ٣٢ ﴿ سَنَفْرُغُ لَكَ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ ﴾ ٣٣ ﴿ فَبِأَيِّ آيَاتِ رَبِّكَ
تُكَذِّبَانِ ﴾ ٣٤ ﴿ يَمَعَشِرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنْ أَسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَتَفَدُّوا مِنْ أَقْطَارِ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَاَنْفُدُوا لَا تَتَفَدُّونَ إِلَّا بِسُلْطَنِ ﴾ ٣٥ ﴿ فَبِأَيِّ آيَاتِ
رَبِّكَ تُكَذِّبَانِ ﴾ ٣٦ ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوَاظٌ مِّنْ نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ ﴾ ٣٧ ﴿
فَبِأَيِّ آيَاتِ رَبِّكَ تُكَذِّبَانِ ﴾ ٣٨ ﴿

قوله تعالى : [يَسْأَلُهُ] يحتمل أن يكون في موضع الحال من
« الوجه » والعامل فيه [يَبْقَى] ، أي هو دائم في هذه الحال ، ويحتمل
أن يكون فعلاً مُسْتَأْنَفًا إخباراً مجرداً ، والمعنى : إن كل مخلوق من
الأشياء فهو في قوامه وتمسكه ورزقه إن كان مما يُرزق بحالٍ حاجةٍ
إلى الله تعالى ، فمن كان يسأل بنطق فالأمر فيه بيِّنٌ ، ومن كان من
غير ذلك فحاله يقتضي السؤال فأسند فعل السؤال إليه .

وقوله تعالى : ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ أي يظهر شأن من قدرته التي سبقت في الأزل في ميقاته من الزمن ، من إحياء وإماتة ورفع وخفض وغير ذلك من الأمور التي لا يعلم نهايتها إلا هو تعالى وجل ، و « الشَّأْنُ » اسم جنس للأُمور ، قال الحسين بن الفضل : معنى الآية سوقُ المقادير إلى المواقيت ، وقد ورد في بعض الأخبار أن الله تعالى له في كل يوم في اللوح المحفوظ ثلاثمائة وستون نظرة ، يُعزُّ فيها ويُنذِرُ ، ويُحيي ويُميت ، ويُغني ويُعدم ، إلى غير ذلك من الأشياء ، لا إله إلا هو . وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية فقليل : ما هذا الشَّأْنُ يا رسول الله ؟ قال : (يغفرُ ذنباً ، ويفرجُ كرباً ، ويرفعُ ويضعُ) (١) ، وذكر النقاش أن سبب هذه الآية قول اليهود : إن الله استراح يوم السبت فلا ينفذ فيه شيئاً ، تعالى عن قولهم .

وقوله تعالى : ﴿ سَنَفَرُّغُ لَكُمْ أَيَّهَا الثَّقَلَانِ ﴾ عبارة عن إتيان الوقت الذي قدر فيه وقضى أن ينظر في أمر عباده ، وذلك يوم القيامة ،

(١) أخرجه الحسن بن سفيان في مسنده ، والبزار ، وابن جرير ، والطبراني ، وأبو الشيخ في العظمة ، وابن مردويه ، والبيهقي في شعب الإيمان ، وابن عساكر ، عن أبي الدرداء ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وفي قول الله : ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ ، قال : (من شأنه أن يغفر ذنباً ، ويفرج كرباً ، ويرفع قوماً ويضع آخرين) ، زاد البزار : (هو يجب دعياً) . (الدر المنثور) . وأخرج البزار مثله عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم .

وليس المعنى أَنَّ ثمَّ شغلاً يفرغ منه ، وإنما هي إشارة وعيد ، وقد قال صلى الله عليه وسلم لِأَزَبِ الْعَقَبَةَ : (أما والله لأفرغنَّ لك ما حييت) (١). و «التَّفَرُّغُ» من كل آدمي حقيقة ، وفي قوله تعالى : [سَنَفَرُغُ] جَرَى على استعمال العرب ، ويحتمل أن يكون التَّوَعُّدُ بعذاب في الدنيا ، والأول أبين . وقرأ نافع ، وابن كثير ، وعاصم ، وأبو عمرو ، وابن عامر [سَنَفَرُغُ] بفتح النون وضم الراء (٢) ، وقرأ الأعرج ، وقتادة ذلك بفتح الراء والنون ، ورويت عن عاصم ، ويقال : فَرَّغَ بفتح الراء ، وفَرَّغَ بكسرها ، ويصح منهما جميعاً أن يقال : يَفَرِّغُ بفتح الراء ، وقرأ عيسى بكسر النون وفتح الراء ، قال أبو حاتم : هي لغة سُفْلَى مضر ، وقرأ أبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي بالياء المفتوحة ، وقرأ حمزة ، والكسائي بضم الياء ، وقرأ أبو عمرو

(١) هذا جزء من حديث طويل أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣-٤٦٢) عن كعب بن مالك ، وكان ممن شهد بيعة العقبة وبايع رسول الله صلى الله عليه وسلم بها ، وفي الحديث يقول كعب : (فلما بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صرخ الشيطان من رأس العقبة بأبعد صوت سمعته قط : يَا هَلْ الْجَبَّاجُ - وَالْجَبَّاجُ الْمَنَازِلُ - هل لكم في مُذَمَّمِ الصُّبَاةِ معه قد أجمعوا على حربكم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هذا أَزَبُ الْعَقَبَةِ ، هذا ابن أَزَيْبِ ، اسمع أي عدو الله ، أما والله لأفرغنَّ لك) ، وهو في سيرة ابن إسحق أيضاً . والأزب في اللغة : الكثير الشعر ، وقال ابن الأثير في كتابه (النهاية في غريب الحديث) : « هو شيطان اسمه أَزَبُ الْعَقَبَةِ ، وهو الحيَّة » .

(٢) في الأصول : « بضم النون والراء » ، والتصويب عن كتب القراءة والتفسير .

بفتحها وضم الراء، وقرأ الأعمش - بخلاف - وأبو حيوة : [سَيْفَرُغُ] بضم الياء وفتح الراء وبناء الفعل للمفعول ، وقرأ عيسى بن عمر أيضاً : [سَنَفَرُغُ] بفتح النون وكسر الراء ، وفي مصحف عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه «سَنَفَرُغُ إِلَيْكُمْ» .

و «الثَّقَلَانِ» : الجنُّ والإنس ، يقال لكل ما يعظم أمره : ثقيل ، ومنه ﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ (١) ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم : (إني تاركٌ فيكم الثقلين : كتاب الله وعترتي) (٢) ، ويقال لبيض النعام : ثَقَلٌ ، قال لبيد :

فَتَذَكَّرَا ثَقَلًا (٢).

(١) الآية (٢) من سورة (الزلزلة) .

(٢) أخرج هذا الحديث مسلم في فضائل الصحابة ، والدَّارِمِيُّ في فضائل القرآن ، وأحمد في مسنده (٣-١٤ ، ١٧ ، ٣٦ ، ٥٩) ، ولفظه كما في مسند أحمد ، عن أبي سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إني تارك فيكم الثقلين ، أحدهما أكبر من الآخر ، كتاب الله جبل ممدود من السماء إلى الأرض ، وعِترتي أهل بيتي ، وإني لئن يفرقا حتى يردَّ عليَّ الحوض) ، وفي رواية أخرى ذكرها أيضاً أحمد في مسنده زيادةً في أول الحديث هي قوله صلى الله عليه وسلم : (إني أوشك أن أدعى فأجيب) ، وزيادة في آخره هو قوله : (فانظروا بهم تخلفوني فيهما) .

(٣) هذا أول بيت قاله ثعلبة بن صعير المازني يذكر الظليم والنعامة ، وليس من شعر لبيد ، وقد قال ثعلبة هذا البيت من قصيدة يذكر فيها حبيته عمرة ، وكيف وعدته ثم أخلفت وعدها ، فتركها وسافر على ناقة شَبَّهها بالظليم - وهو ذكر النعام - ثم استطرده يصف الناقة ، والبيت بتمامه كما ذكره صاحب اللسان :

وقال جعفر بن محمد الصادق (١): سُمِّيَ الجن والإنس ثَقَلَيْنِ لِأَنَّهُمَا ثَقِلَا بِالذُّنُوبِ ، وَهَذَا بَارِعٌ يَنْظُرُ إِلَى خَلْقِهِمَا مِنْ طِينٍ وَنَارٍ ، وَقَرَأَ ابْنُ عَامِرٍ : ﴿ أَيُّهُ الثَّقَلَانِ ﴾ بِضَمِّ الْهَاءِ .

واختلف الناس في معنى قوله تعالى : ﴿ إِنْ أَسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَتَفَدُّوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ - فقال الطبري : قال قوم : في الكلام محذوف تقديره : يقال لكم : يا معشر الجن والإنس ، قالوا : وهذه حكاية عن حال يوم القيامة ، «يَوْمَ التَّنَادِّ» على قراءة من قرأ بشدِّ الدال (٢) ، قال الضحاك : وذلك أنه يفرُّ النَّاسُ فِي أَقْطَارِ الْأَرْضِ وَالْجَنُّ كَذَلِكَ لَمَّا يَرُونَ مِنْ هَوْلِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، فَيَجِدُونَ سَبْعَةَ صَفُوفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ قَدْ أَحَاطَتْ بِالْأَرْضِ فَيَرْجِعُونَ مِنْ حَيْثُ جَاءُوا ،

- فَتَذَكَّرًا ثَقَلًا رَمِيدًا بَعْدَمَا أَلْقَتْ ذُكَاءً يَمِينَهَا فِي كَافِرٍ
ورواية البيت كما ذكرها المفضل الضبي في المفضليات : « فَتَذَكَّرَتْ ثَقَلًا ... »
يعني النعامة التي يشبه بها ناقته ، والثقل : المتاع وكلُّ شيء مصون ، وهو يريد هنا بيضها .
والرَّيْدُ : المنضود بعضه فوق بعض ، و«ذُكَاءٌ» - بضم الذال - : الشمس ، والكافر : الليل ؛
لأنه يغطي ويستر بظلمته كل شيء ، وكل ما غطى شيئاً فقد ستره وكفّره ، ومعنى « أَلْقَتْ يَمِينَهَا فِي كَافِرٍ » مالت للمغيب ، أو تهيأت له .

(١) هو جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب الهاشمي ، أبو عبد الله ، المعروف بالصادق ، صدوق فقيه ، إمام ، من السادسة ، مات سنة ثمان وأربعين .
(تقريب التهذيب) .

(٢) وذلك في قوله تعالى في الآية (٣٢) من سورة (غافر) : ﴿ وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴾ .

فحينئذ يقال لهم : ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ﴾ . وقال بعض المفسرين : بل هي مخاطبة في الدنيا ، والمعنى : إن استطعتم الفرار من الموت بأن تنفذوا من أقطار السموات والأرض ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : إن استطعتم بأذهانكم وفكركم أن تنفذوا فتعلموا علم أقطار السموات والأرض ، و « الأقطار » : الجهات ، وقوله تعالى : [فَانفُذُوا] صيغته الأمر ومعناه التعجيز . و « السُّلطان » هو القوة على غرض الإنسان ، ولا يستعمل إلا في الأعظم من الأمر والحجج أبداً من القوي في الأمور ، فلذلك يعبر كثير من المفسرين عن السلطان بأنه الحُجَّة ، وقال قتادة : السلطان هنا الملك ، وليس لهم ملك .

و « الشُّوَاظُ » : لهبُ النار ، قاله ابن عباس رضي الله عنهما وغيره ، وقال أبو عمرو بن العلاء : لا يكون الشواظ إلا من النار وشيء معها .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وكذلك النار كلها لا تُحَسُّ إلا وشيء معها .

وقال مجاهد : الشُّوَاظُ هو اللهب الأخضر المنقطع ، ويؤيد هذا

القول قولُ حسان بن ثابت يهجو أمية بن أبي الصلت :

هَجَوْتُكَ فَاخْتَضَعْتَ حَلِيفَ ذُلٍّ بِقَافِيَةٍ تَأَجَّجُ كَالشُّوَاظِ (١)

وقال الضحاك : هو الدخان الذي يخرج من اللهب وليس بدخان الحطب .

وقرأ الجمهور : [شُواظٌ] بضم الشين ، وقرأ ابن كثير وحده (٢) ،

وشبل ، وعيسى : [شِوَاظٌ] بكسر الشين ، وهما لغتان ، وقال ابن

عباس ، وابن جُبَيْر : النُّحَاسُ : الدُّخَانُ ، ومنه قول الأعشى :

يُضِيءُ كَضَوْءِ سِرَاجِ السَّلِيِّ ط لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ فِيهِ نُحَاسًا (٣)

(١) هذا البيت من قصيدة قالها حسان بن ثابت في الردِّ على هجاء أمية بن خلف له ، وليس أمية بن أبي الصلت ، والذي قال أمية بن أبي الصلت هو الثعلبي في تفسيره ، وكذلك الماوردي ، ولكن ورد في الصحاح ، والنساج ، والتاج ، وكتاب الوقف والابتداء لابن الأنباري وديوان حسان أن الأبيات في الردِّ على أمية بن خلف حين قال يهجو حسان بن ثابت :

أَلَا مَنْ مَبْلَغِ حَسَّانَ عَنِّي مَغْلَغَلَةً تَدِبُ إِلَى عُكَاظِ
أَلَيْسَ أَبُوكَ فِينَا كَانَ قَيْنَا لَدَى الْقَيْنَاتِ فَسَلَاً فِي الْحِفَاظِ
يَمَانِيًّا يَظَلُّ يَشْدُو كِيَرًا وَيَنْفُخُ دَائِبًا لَهَبَ الشُّوَاظِ؟

ورواية البيت في الديوان تختلف كثيراً عما هنا ، فهو هناك :

مُجَلَّلَةٌ تُعَمِّمُكُمْ شَنَارًا مُضْرَمَةً تَأَجَّجُ كَالشُّوَاظِ

والشَّنَارُ : الأمر المشهور بانثنية والقُبْحُ ، ويقال : عارٌ وشنار . وتُعَمِّمُكُمْ : تشملكم جميعاً وتتناول كل فرد منكم ، أما رواية البيت كما ذكرها ابن عطية هنا فهي التي وردت في سيرة ابن هشام مع اختلاف يسير عما هنا ، فقد وردت هكذا :

هَجَوْتُكَ فَاخْتَضَعْتَ لِدُلٍّ نَفْسٍ بِقَافِيَةٍ تَأَجَّجُ كَالشُّوَاظِ

والشاهد في بيت حسان وفي شعر أمية بن خلف استعمال الشواظ بمعنى اللهب .

(٢) أي وحده من بين السبعة المشهورين في القراءة .

(٣) هذا البيت للناطقة الجعدي ، عبد الله بن قيس ، وليس للأعشى ، وهو من قصيدة

مشهورة للجعدي يقول في مطلعها :

والسليط : دهن الشَّيرَج ، وقرأ جمهور القراء : [وَنَحَّاسٌ] بالرفع عطفاً على [شُواظٌ] ، فمن قال إن النحاس هو المعروف - وهو قول مجاهد ، وابن عباس أيضاً - قال : ويرسلُ عليهما نحاسٌ ، أي يُذاب ويُرسَلُ عليهما ، ومن قال هو الدخان قال : يُعذبون بدخان يُرسَلُ عليهما . وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، والنخعي ، وابن أبي إسحق : [وَنَحَّاسٍ] بالخفض عطفاً على [نَارٍ] ، وهذا مستقيم على ما حكيناه عن أبي عمرو بن العلاء ، ومن رأى أن الشواظ يختص بالنار قدر هنا : وشيءٌ من نحاس ، وحكى أبو حاتم عن مجاهد أنه قرأ : [وَنَحَّاسٍ] بكسر النون والجُرِّ ، وعن عبد الرحمن بن أبي بكر أنه قرأ : [وَنَحَّاسٌ] بفتح النون وضم الحاء والسين المشددة على أنه فعل ، كأنه يقول : وَنَقَتُلُ بالعذاب (١) ، وعن ابن جندب

لَبِيتُ أَنَسًا فَأَفَنَيْتُهَا ثُمَّ وَأَفَنَيْتُ بَعْدَ أَنَسٍ أَنَسًا

وهو في الصحاح ، والتاج ، واللسان ، وخزانة الأدب ، والكامل . والسليط عند عامة العرب : الزيت ، وعند أهل اليمن : دهن السمسم وهو الشَّيرَج كما يقول ابن عطية ، والنحاس : الدخان وهو الشاهد هنا . والضمير في «يُضيء» يعود على وجه الفتاة الذي ذكره في البيت السابق وهو :

أَضَاءَتْ لَنَا النَّارُ وَجْهًا أَغْدَرَ مُلْتَبِسًا بِالْفُؤَادِ النَّبَاسَا

(١) قال أبو الفتح : «نَحَّسٌ» أي نَقَتُلُ بالعذاب ، يقال : حسَّ القوم يحسُّهم حسًّا إذا استأصلتهم ، قال الله تعالى : ﴿ إِذْ تَحَسُّوتَهُمْ بِإِذْنِهِ ﴾ ، أي : تقتلونهم قتلا ذريعاً .

أنه قرأ : [وَنَحْسٌ] كما تقول : يومٌ نحسٌ ، وحكى أبو عمرو مثل قراءة مجاهد عن طلحة بن مصرف ، وذلك لغة في نحاس ، وقيل : هو جمع نحس ، ومعنى الآية مستمر في تعجيز الجن والإنس ، أي : أنتما بحال من يرسل عليه هذا فلا تنتصران .

قوله عز وجل :

﴿ فَإِذَا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان ﴿٣٧﴾ فإي الآ ربك﴾
 ﴿ تَكذبان ﴿٣٨﴾ فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان ﴿٣٩﴾ فإي الآ ربك﴾
 ﴿ تَكذبان ﴿٤٠﴾ يعرف المجرمون بسمئهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام ﴿٤١﴾ فإي الآ ربك﴾
 ﴿ تَكذبان ﴿٤٢﴾ هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون ﴿٤٣﴾ يطوفون بينها وبين حميم ﴿٤٤﴾ فإي الآ ربك﴾
 ﴿ تَكذبان ﴿٤٥﴾ ﴾

جواب [إذا] محذوف مقصود به الإبهام ، كأنه تعالى يقول : فإذا انشقت السماء فما أعظم الهول ، وانشقاق السماء انفطارها عند القيامة ، وقال قتادة : السماء اليوم خضراء وهي يوم القيامة حمراء ، فمعنى قوله تعالى : [وَرْدَةٌ] أي : كحمررة الورد ، وهو النوار المعروف ، وهذا قول الزجاج والرماني . وقال ابن عباس ، وأبو صالح ، والضحاك : هي من لون الفرس الورد ، فأنث لكون السماء مؤنثة .

واختلف الناس في قوله تعالى : [كَالدَّهَانِ] - فقال مجاهد ، والضحاك : هو جمع دهن ، قالوا : وذلك أَنَّ السماءَ يعترِبها يوم القيامة ألوانٌ وذوبٌ وتميعٌ من شدة الهول ، وقال بعضهم : شبه لمعانها بلمعان الدهن ، وقال جماعة من المتأولين : الدهان : الجلد الأحمر ، وبه شبهها ، وأنشد منذر بن سعيد :

يَبِغْنَ الدَّهَانَ الحُمْرَ كُلَّ عَشِيَّةٍ بِمَوْسِمِ بَدْرِ أَوْ بِسُوقِ عُكَاظِ (١)

وقوله تعالى : (لَا يُسْأَلُ) نَفْيٌ للسؤال ، وفي القرآن الكريم آيات تقتضي أَنَّ في القيامة سؤالاً وآيات تقتضي نفيه كهذه وغيرها ، فقال بعض الناس : ذلك في مواطن دون مواطن ، وهو قول قتادة وعكرمة ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما - وهو الأظهر في ذلك - : إن السؤال متى أثبت فهو بمعنى التقرير والتوبيخ ، ومتى نفي فهو بمعنى الاستخبار المحض والاستعلام ؛ لأنَّ الله تبارك وتعالى عليم بكل شيء ، وقال الحسن ، ومجاهد : لا تسأل الملائكة عنهم لأنهم يعرفونهم بسيماهم ، والسِّمَا التي يُعرف بها المجرمون هي سواد الوجوه وزرقة العيون في الكفرة ، قاله الحسن ، ويحتمل أَنَّ يكون غير هذا من التشويهاة .

واختلف المتأولون في قوله تعالى : (فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ) - فقال ابن عباس رضي الله عنهما : يؤخذ كل كافر بناصيته وقدمه

(١) قال في اللسان : « الدهان : الجلدُ الأحمر ، وقيل : الأملس » فالبيت يصف من يبغن الجلد الأحمر في الأسواق كل عشية ، وهو شاهد على أَنَّ الدهان هو الجلد الأحمر .

فِيُطَوَى وَيُجْمَعُ كَالْحَطْبِ ، وَيُلْقَى كَذَلِكَ فِي النَّارِ ، وَقَالَ النَّقَاشُ :
رُوي أَنَّ هَذَا الطِّيَّ عَلَى نَاحِيَةِ الصُّلْبِ قَعَساً (١) ، وَقَالَ الضَّحَّاكُ ،
وَقَالَ آخَرُونَ : بَلْ عَلَى نَاحِيَةِ الْوَجْهِ ، قَالُوا : فَهَذَا مَعْنَى (فَيُؤْخَذُ
بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ) ، وَقَالَ قَوْمٌ فِي كِتَابِ الثَّعَلِيِّ : إِنَّمَا يُسْحَبُ
الْكُفْرَةَ سَحْباً ، فبَعْضُهُمْ يُجْرُ بِقَدَمَيْهِ ، وَبَعْضُهُمْ بِنَاصِيَتِهِ ، فَأَخْبِرْ
فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ الْأَخْذَ يَكُونُ بِالنَّوَاصِي وَيَكُونُ بِالْأَقْدَامِ .

وقوله تعالى : (هَذِهِ جَهَنَّمُ) قبلها محذوف تقديره : يُقال لهم
على جهة التوبيخ والتقرير ، وفي مصحف ابن مسعود رضي الله عنه :
«هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ مَبِهَا تُكذِّبَانِ ، تَصَلِّيَانِهَا لَا تَمُوتَانِ فِيهَا
وَلَا تَحْيَيَانِ» . وقرأ جمهور الناس : [يَطُوفُونَ] بفتح الياء وضم
الطاء وسكون الواو ، وقرأ طلحة بن مصرف : [يُطَوَّفُونَ] بضم الياء
وفتح الطاء وشد الواو ، وقرأ أبو عبد الرحمن : [يُطَافُونَ] ، وهي
قراءة علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، والمعنى في هذا كله أنهم
يترددون بين نار جهنم وجمرها وبين حميم ، وهو ما غلي في جهنم
من مائع عذابها ، و «الحميم» : الماء السخن ، وقال قتادة : إن العذاب
الذي هو الحميم يُغلي منذ خلق الله تعالى جهنم ، وَأَنَّى الشَّيْءُ : حَضَرَ ،
وَأَنَّى اللَّحْمِ أَوْ مَا يُطْبَخُ أَوْ يُغْلَى : نَضِجَ وَتَنَاهَى حَرَّهُ وَالْمُرَادُ مِنْهُ ،

(١) القَعَسُ : نَقِيضُ الْحَدَبِ ، وَهُوَ خُرُوجُ الصُّلْبِ وَدُخُولُ الظَّهْرِ ، فَالْمُرَادُ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ
عَلَى هَذِهِ الْهَيْئَةِ إِذْ تَطَوَّى أَجْسَامُهُمْ بَحَيْثُ تَبْرُزُ الصُّلُورُ وَتَلْتَقِي النَّوَاصِي بِالْأَقْدَامِ .

ويحتمل أن يكون من هذا ومن هذا، وكونه من الثاني أبين ، ومنه قوله تعالى : ﴿ غَيْرَ نَاطِرِينَ إِنَّا هُنَا ﴾ (١) ، ومن المعنى الآخر قول الشاعر :

..... أَنَى وَلِكُلِّ حَامِلَةٍ تَمَامٌ (٢)

ويشبه أن يكون الأمر في المعنيين قريباً بعضه من بعض ، والأول أعم من الثاني .

قوله عز وجل :

﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ۖ فِيهَا ۖ الْآءُ رَبِّكَ تُكْذِبَانَ ﴿٤٧﴾
 ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فِيهَا ۖ الْآءُ رَبِّكَ تُكْذِبَانَ ﴿٤٩﴾ فِيهَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فِيهَا ۖ
 الْآءُ رَبِّكَ تُكْذِبَانَ ﴿٥١﴾ فِيهَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فِيهَا ۖ الْآءُ
 رَبِّكَ تُكْذِبَانَ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِعِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَّانِيهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۖ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ
 دَانٍ ﴿٥٤﴾ فِيهَا ۖ الْآءُ رَبِّكَ تُكْذِبَانَ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَصِيرَاتُ الْغُرْفِ لَمْ يَطْمِئِنَّ
 إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴿٥٦﴾ فِيهَا ۖ الْآءُ رَبِّكَ تُكْذِبَانَ ﴿٥٧﴾ ۝

(١) من الآية (٥٣) من سورة (الأحزاب) .

(٢) هذا عجز بيت استشهد به صاحب اللسان في (أنى) ، ولم ينسبه ، قال : « ابن الأنباري : الأتى من بلوغ الشيء منتهاه ، مقصور يكتب بالياء ، وقد أتى يأتي ، وقال : تَمَخَّضَتِ الْمَتُونُ لَهُ بِيَسْوَمٍ أَنَى وَلِكُلِّ حَامِلَةٍ تَمَامٌ أي أدرك وبلغ » . وذكره في التاج ونسبه إلى عمرو بن حسان . وتَمَخَّضَ أصله : تحرك وتهاهى ، والمراد هنا أن المنون أتت له بهذا اليوم الذي كان لا بد أن يأتي ، وقد أدرك وبلغ كما أن كل حامله لا بد أن تتم حملها وتلد .

[مَنْ] في قوله تعالى : ﴿وَلِمَنْ خَافَ﴾ يحتمل أن تقع على جميع المتصفيين بالخوف الزاجر عن معاصي الله تعالى ، ويحتمل أن تقع لواحد منهم ، وبحسب هذا قال بعض الناس في هذه الآية : إن كل خائف له جنتان ، وقال بعضهم : إن جميع الخائفين لهم جنتان ، و «المَقَامُ» هو وقوف العبد بين يدي ربه تعالى ، يفسره ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١) ، وَأَضَافَ المَقَامَ إِلَى الله تعالى من حيث هو بين يديه . قال الثعلبي : «مَقَامُ رَبِّهِ» قيامه على العبد ، بيانه ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ (٢) ، وحكى الزهراوي هذا المعنى عن مجاهد ، وفي هذه الإضافة تنبيه على صعوبة الموقف ، وتحريض على الخوف الذي هو أسرع المطايا إلى الله عزَّ وجلَّ ، وقال قوم : أراد جنة واحدة وثني على نحو قوله تعالى : ﴿الْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلٌّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ (٣) ، وقول الحجاج : يا غلام اضربا عنقه ، وهذا ضعيف ؛ لأن معنى التثنية متَّجه بلا وجه للفرار إلى هذه الشاذة ،

(١) الآية (٦) من سورة (المطففين) .

(٢) من الآية (٣٣) من سورة (الرعد) .

(٣) الآية (٢٤) من سورة (ق) ، والخطاب من الله تعالى لواحد هو مالك خازن النار ، لكن الله تعالى جعله لاثنين ، وقد جرت عادة العرب على ذلك في كثير من أقوالهم وأشعارهم ، وقد سبق التعليق على ذلك عند تفسير قوله تعالى : ﴿فَبَيِّبِ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ من هذه السورة . راجع صفحة ١٨٦ هامش ٢ وما بعدها .

ويؤيد التثنية قوله تعالى : ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾ ، وهي تثنية (ذات) لأن أصل (ذات) ذوات .

و «الأفنان» يحتمل أن يكون جمع فَنَنْ وهو الغُصْن ، وهذا قول مجاهد ، فكأنه تعالى مدحها بظلالها وتكاثر أغصانها ، ويحتمل أن يكون جمع فَنٌّ ، وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما ، فكأنه تعالى مدحها بكثرة أنواع فواكهها ونعيمها (١). و [زَوْجَانِ] معناه : نوعان ، و [مُتَكَيِّمِينَ] حالٌ ، إِمَّا من محذوف تقديره : يتنعمون متكئين وإما من قوله تعالى : ﴿وَلَمَنْ خَافَ﴾ ، و «الأتكأء» : جلسة المتنعم المتمتع ، وقرأ جمهور الناس : [فُرُشٍ] بضم الراء ، وقرأ أبو حيوه : [فُرُشٍ] بسكون الراء ، ورؤي في الحديث أنه قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : هذه البطائن من إستبرق فكيف الظواهر؟

(١) جاء الفن في اللغة بمعنى الغُصْن ، وشواهد كثيرة في اللغة ، ومنها قول الشاعر :

ما هَاجَ شَوْقَكَ مِنْ هَدِيلِ حَمَامَةٍ تَدْعُو عَلَيَّ فَنَنْ الْغُصُونِ حَمَامًا
تَدْعُو أَبَا فَرَحِينَ صَادَفَ ضَارِيًا ذَا مِخْلَبِينَ مِنَ الصُّقُورِ قَطَامًا

وقول النابغة :

بُكَاءَ حَمَامَةٍ تَدْعُو هَدِيلاً مُفَجَّعَةً عَلَيَّ فَنَنْ تَغْنَى

وجاء الفن بمعنى النوع ، وشاهده قول الشاعر :

وَمِنْ كُلِّ أَفْنَانِ اللَّذَاذَةِ وَالصَّبَا لَهَوْتُ بِهِ وَالْعَيْشُ أَخْضَرُ نَاضِرُ

أي : ومن كل أنواع اللذازة .

قال عليه الصلاة والسلام : (هي من نور يتلألأ) (١) ، و «الإستبرق» ما خشن وحسن من الديباج ، و «السُّدُسُ» ما رق منه ، وقد تقدم القول في لفظة الإستبرق ، وقرأ ابن محيصة : ﴿مِنْ أَسْتَبْرَقَ﴾ على أنه فعل والألف وصل (٢) .

و «الجَنَى» ما يُجْتَنَى من الثمار ، ووصفه بالدنو لأنه فيما روي في الحديث يتناوله الرجل على أي حالة كان من قيام أو جلوس أو اضطجاع (٣) لأنه يدنو إلى مشتبهه .

والضمير في قوله تعالى : ﴿فِيهِنَّ﴾ للفرش ، وقيل : للجنات ؛ إذ الجنتان جنات في المعنى .

(١) ذكره القرطبي قائلاً : وفي الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن في الدر المنثور ذكر السيوطي الخبر عن ابن عباس وابن جبير ، قال : أخرجه عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر . عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قيل له : بطائنها من إستبرق فما الظواهر ؟ قال : ذلك مما قال الله : ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ ، وكذلك قال : أخرج أبو نعيم في الحلية عن سعيد بن جبير رضي الله عنه في قوله : ﴿بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ قال : ظواهرها من نور جامد . ونسب ابن كثير هذا إلى سفیان الثوري أو شريك . (راجع تفسير ابن كثير) .

(٢) قال أبو الفتح في المحتسب : «هذه صورة الفعل البتة ، بمنزلة استخرج ، وكأنه سُمِّيَ بالفعل وفيه ضمير الفاعل . فحكى كأنه جملة ، وهذا باب إنما طريقه في الأعلام كتاباً شراً وشاب قرناها ، وليس الإستبرقُ علماً يُسَمَّى بالجملة» .

(٣) أخرج الفريابي ، وسعيد بن منصور ، وابن أبي شيبة ، وهناد بن السري ، وعبد بن حميد ، وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي في البعث ، عن البراء بن عازب في قوله : ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا﴾ . قال : (قريبة) ، و ﴿ذُلَّتْ قَطُوفُهَا تَذَلِيلاً﴾ ، قال : (إن أهل الجنة يأكلون من ثمار الجنة قياماً وعوداً ومضطجعين وعلى أي حال شاءوا) ، وفي لفظ قال : ﴿ذُلَّتْ لَهُمْ فَيَتَنَاوَلُونَ مِنْهَا كَيْفَ شَاءُوا﴾ . (الدر المنثور)

و «قاصراتُ الطرفِ» هن الحور العين قصرنَ ألحاظهن على أزواجهن ، وقرأ أبو عمرو عن الكسائي وحده ، وطلحةُ ، وعيسى ، وأصحابُ علي ، وابنُ مسعود رضي الله عنهما : [يَطْمِئُنَّ] بضم الميم ، وقرأ جمهور القراء : [يَطْمِئُنَّ] بكسر الميم ، والمعنى : لم يفتَضِضُنَّ (١)؛ لأنَّ الطَّمْثُ دم الفرج فيقال لدم الحيض : طَمِثُ ، ويقال لدم الافتضاض : طَمِثُ ، فإذا نُفي الطَّمْثُ فقد نُفي القرب منهن على جهة الوطءِ ، قال الفراءُ : لا يقال «طَمِثَ» إلا إذا افتَضَّ ، وقال غيره : «طَمِثَ» معناه : جامع بكرةً أو غيرها .

واختلف الناس في معنى قوله تعالى : ﴿وَلَا جَانٌّ﴾ - فقال مجاهد : الجن قد تجامع نساء البشر مع أزواجهن إذا لم يذكر الزوجُ اللهُ تعالى ، فنفي في هذه الآية جميع المجامعات ، وقال حمزة بن حبيب : الجنُّ في الجنة لهم قاصرات الطرف من الجن نوعهم ، فنفي في هذه الآية الافتضاض عن البشريَّات والجنِّيَّات ، ويحتمل اللفظ أن يكون مبالغة وتأكيداً كأنه تعالى قال : لم يطمئن شيئاً ، أراد العموم التام لكنه صرح من ذلك بالذي يُعقل منه أن يَطْمِثَ ، وقال أبو عبيدة والطبري : إن من العرب من يقول : ما طَمِثَ هذا البعير

(١) الافتضاضُ هو التَّكاح بالتَّدمية ، (نقله صاحب اللسان عن الفراء) .

حبل قط ، أي ما مسّه ، فإن كان هذا المعنى : ما أدماه حبلٌ فهو يقرب من الأول وإلا فهو معنى آخر غير ما قدمناه ، وقرأ الحسن ، وعمرو ابن عبيد : ﴿وَلَا جَانٌ﴾ بالهمز .

قوله عز وجل :

﴿ كَانَهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ﴾ ٥٨ ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ٥٩
 هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ ﴿ ٦٠ ﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَا تُكَذِّبَانِ ﴿ ٦١ ﴾ وَمِنْ
 دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿ ٦٢ ﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَا تُكَذِّبَانِ ﴿ ٦٣ ﴾ مُدَاهَمَتَانِ ﴿ ٦٤ ﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ
 رَبِّكَا تُكَذِّبَانِ ﴿ ٦٥ ﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّخَتَا ﴿ ٦٦ ﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَا تُكَذِّبَانِ ﴿ ٦٧ ﴾
 فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿ ٦٨ ﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَا تُكَذِّبَانِ ﴿ ٦٩ ﴾

«الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ» من الأشياء التي قد برع حُسْنُهَا ، واستشعرت النفوسُ جلالها ، فوقع التشبيه بها لا في جميع الأوصاف لكن فيما يُشبه ويحسن بهذه المشبهات ، فالياقوت في أمْلَاسِهِ (١) وشفوفه ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم في صفة المرأة من نساء أهل الجنة : (يُرَى مُخٌّ سَاقِهَا مِنْ وَرَاءِ الْعِظْمِ) (٢) ، والمرجان في أمْلَاسِهِ وجمال منظره ،

(١) مصدر (امْتَسَّ) ، وأصل امْتَسَّ هذه : انْمَتَسَّ فأدغم (اللسان) .
 (٢) أخرج ابن أبي حاتم بسنده عن ابن مسعود ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :
 (إن المرأة من نساء أهل الجنة ليُرَى بياض ساقها من وراء سبعين حُمَّةً من حرير حتى يُرَى =

وبهذا النحو من النظر سمّت العربُ النساءَ بهذه الأشياءِ كدرة بنت أبي لهب ، ومرّجانة أم سعيد ، وغير ذلك .

وقوله تعالى : ﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴾ آية وعد وبسط لنفوس جميع المؤمنين لأنها عامة ، قال ابن المنكدر ، وابن زيد ، وجماعة من أهل العلم : هي للبرّ والفاجر ، والمعنى : إن جزاء من أحسن بالطاعة أن يُحسن إليه بالتنعيم ، وحكى النقاش أن النبي صلى الله عليه وسلم فسّر هذه الآية فقال : (هل جزاء التوحيد إلا الجنة) (١) ؟

= (مخها) . وأخرج الإمام أحمد عن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (للرجل من أهل الجنة زوجتان من الحور العين ، على كل واحدة سبعون حلّة ، يرى مخ ساقهما من وراء الثياب) ، قال ابن كثير في تفسيره : « تفرد به الإمام أحمد من هذا الوجه » ، وقد روى مسلم عن محمد بن سيرين قال : إمّا تفاخروا وإمّا تذاكروا ، الرجال أكثر في الجنة أم النساء ؟ فقال أبو هريرة : أو لم يقل أبو القاسم صلى الله عليه وسلم : (إن أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر ، والتي تليها على ضوء كوكب دري في السماء ، لكل امرئ منهم زوجتان اثنتان يرى مخ ساقهما من وراء اللحم ، وما في الجنة أعزب) . وأخرجه الترمذي في القيامة وفي الجنة ، والدارمي في الرقاق . وذكر السيوطي في الدر المنثور زيادة في رواية عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أخرجها أحمد ، وابن حبان ، والحاكم ، والبيهقي في البعث والنشور ، قال : (ينظر إلى وجهها في خدها أصفى من المرأة ، وإن أدنى لؤلؤة عليها انضيء ما بين المشرق والمغرب ، وإنه يكون عليها سبعون ثوباً ينفذها بصره حتى يرى مخ ساقها من وراء ذلك) .

(١) أخرج ابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والبيهقي في شعب الإيمان ، وضعّفه ، عن ابن عمر . وأخرج مثله ابن النجار في تاريخه عن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه ، وكذلك أخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول ، والبعوي في تفسيره ، والدليمي في مسند الفردوس ، وابن النجار في تاريخه عن أنس . (الدر المنثور) .

قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّاتٍ ﴾ ، اختلف الناس في معنى ﴿ مِنْ دُونِهِمَا ﴾ - فقال ابن زيد وغيره : معناه : إن هاتين دون تينك في المنزلة والقدر ، والأوليان جنّتا السابقين والأخريان جنّتا أصحاب اليمين ، قال الرُّمَّانِي : قال ابن عباس رضي الله عنهما : الجنّات الأربع للخائف مقام ربّه تعالى ، وقال الحسن : الأولىان للسابقين والأخريان للتابعين ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : المعنى : من دونهما في القرب من المنعمين ، وهاتان المؤخّرتا الذكر أفضل من الأولىين ، يدل على ذلك أنه وصف عيني هاتين بالنضج والأخريين بالجري فقط ، وجعل هاتين مُدْهَامَتَيْنِ من شدة النعمة والأولىين ذواتا أفنان ، وكل جنة ذات أفنان وإن لم تكن مُدْهَامَةً (١) ، وأكثر الناس على التأويل الأول ، وهذه استدلالات ليست بقواطع ، ورؤي عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أنه قال : جنتان للمقربين من ذهب ، وجنتان لأهل اليمين من فضة هما دون الأولىين .

(١) رجّح الزمخشري هذا القول ، وذكر غيره أن الأول أرجح لأنه ذكر فيه جرّي العينين والنضج دون الجري ، ولقوله : ﴿ فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ ﴾ وفي المتأخرتين قال : ﴿ فِيهِمَا فَاكِهَةٌ ﴾ ، ولأن الاتكاء في الأولىين على ما بطائه من ديباج وهو الفرش وفي المتأخرتين الاتكاء على الرفرف وهو كسر الخباء ، والفرش المُعدّة للاتكاء أفضل ، ولكن هذه مجرد استدلالات لا تقطع بالحقيقة كما قال ابن عطية رحمه الله .

و [مُذْهَامَتَانِ] معناه : قد علا لونها دُهمَةٌ وسوادٌ من النضرة والخضرة ، كذا فسره ابن الزبير رضي الله عنهما على المنبر ، ومنه قوله تعالى : ﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ﴾ (١) ، و «النَّضَاخَةُ» : الفَوَّارَةُ التي يهيج ماؤها ، قال ابن جبیر : المعنى : نضاختان بأنواع الفاكهة ، وهذا ضعيف .

وكرر تعالى «النَّخْلَ وَالرُّمَانَ» لأنهما ليسا من الفاكهة ، وقال يونس بن حبيب وغيره : كررهما - وهما من أفضل الفاكهة - تشريفاً لهما ، كما قال تعالى : ﴿وَمَلَأْنَاهُ كَثِيرًا وَرُسُلًا وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾ (٢) قوله عز وجل :

﴿ فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حَسَنَاتٌ ﴿٧١﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٢﴾ حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْبَلَامِ ﴿٧٣﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٤﴾ لَمْ يَطْمِئِنَّ أَنْفُسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَاءَتْ ﴿٧٥﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٦﴾ مُتَكَبِّرِينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضِرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حَسَانٍ ﴿٧٧﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٨﴾ تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٧٩﴾ ﴾

(١) الآيتان (٤ ، ٥) من سورة (الأعلى) .

(٢) من قوله تعالى في الآية (٩٨) من سورة البقرة : ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ .

[خَيْرَاتٌ] جمع «خَيْرَةٍ» وهي أفضل النساء ، ومنه قول الشاعر :

وَلَقَدْ طَعَنْتُ مَجَامِعَ الرَّبَّلَاتِ رَبَّلَاتٍ هِنْدٍ خَيْرَةَ الْمَلِكَاتِ (١)

وقالت أم سلمة رضي الله عنها : قلت : يا رسول الله أخبرني عن قوله تعالى : {خَيْرَاتٌ حِسَانٌ} ، قال : (خيرات الأخلاق حسان الوجوه) (٢) ، وقرأ بكر بن حبيب السهمي : [خَيْرَاتٌ] بشد الياء المكسورة ، وقرأ أبو عمرو بفتح الياء .

(١) أنشد أبو عبيدة هذا البيت لرجل من بني عديّ تيمّ جاهلي ، وهو في الصحاح والتاج واللسان ، والرَبَّلَاتُ: جمع رَبَّلَةٍ ورَبَلَةٍ - بسكون الباء وفتحها - وهي ما حول الضرع والحياء من باطن الفخذ ، ومجامع الشيء : أصوله ومكان اجتماعها ، يفخر بما فعله مع هند هذه ويصفها بأنها خير الملكات . والشاهد هو وصف المرأة بأنها خَيْرَةٌ ، يقال : فلانةُ الخَيْرَةُ من المرأتين ، أي الأفضل ، ويقال : رجلٌ خَيْرٌ وخَيْرٌ ، وامرأةٌ خَيْرَةٌ وخَيْرَةٌ ، والجمع أخيارٌ وخيارٌ ، قال تعالى : {أُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ} أي الفاضلات من كل شيء .

(٢) هذا جزء من حديث ذكره السيوطي في الدر المنثور وقال : أخرجه ابن جرير ، والطبراني ، وابن مردويه ، عن أمّ سلمة ، قالت : قلت : يا رسول الله أخبرني عن قول الله : {حُورٌ عِينٌ} ، قال : حُورٌ : بيضٌ ، عِينٌ : ضخم العيون ، شُفْر الحوراء بمنزلة جناح النسر - وفي لفظ لابن مردويه - شُفْر الجفون بمنزلة جناح النسر ، قلت : يا رسول الله أخبرني عن قول الله : {كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ} ، قال : رقتهن كرقّة الجلدة التي في داخل البيضة مما يلي القشر ، قلت : يا رسول الله فأخبرني عن قول الله : {كَأَمْثَالِ اللَّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ} ، قال : صفاؤهن كصفاء الدر الذي في الأصداف الذي لم تمسه الأيدي ، قلت : يا رسول الله فأخبرني عن قول الله : {فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ} ، قال : خيرات الأخلاق حسان الوجوه ... الحديث (. و (شُفْر العين) - بالضم - هو ما نبت عليه الشعر .

وقوله تعالى : [مَقْصُورَاتٌ] معناه : محجوباتٌ مصوناتٌ ، وكانت

العرب تمدح النساء بملازمة البيوت ، ومنه قول الشاعر :

وتَغْفُلُ عَنْ إِيَابِنِهِنَّ فَتُعْذِرُ (١)

يصف أن جيرانها يزرنها ولا تزورهن ، ويروى أن بيت الأعشى قد ذم ، وهو قوله :

كَأَنَّ مَشِيَّتَهَا مِنْ بَيْتِ جَارَتِهَا مَرُّ السَّحَابَةِ لَا رَيْثٌ وَلَا عَجَلُ (٢)

ف قيل في ذمه : هذه جواله خراجه ولأجه ، ومن مدح القصير قول كثير :

وَأَنْتِ الَّتِي حَبَبْتِ كُلَّ قَصِيرَةٍ إِلَيَّ وَلَمْ تَشْعُرِي بِذَلِكَ الْقَصَائِرِ

أُرِيدُ قَصِيرَاتِ الْحِجَالِ وَلَمْ أُرِدْ قِصَارَ الْخَطَى ، شر النساء البحاتر (٣)

(١) هذا عجز بيت قاله أبو قيس بن الأسلت الأنصاري ، والبيت بتمامه :

وتَكْسَلُ عَنْ جَارَاتِهَا فَيَزُرُّنَهَا وَتَغْفُلُ عَنْ إِيَابِنِهِنَّ فَتُعْذِرُ

والكسل : التثاقل عن الأمر الذي لا ينبغي أن يتثاقل عنه ، وتغفل : تسهو ، والشاهد أن الشاعر يمدحها بذلك إذ ملازمة البيت تدل على الصيانة .

(٢) قال الأعشى هذا البيت من قصيدته المعروفة التي بدأها بالحديث عن هريرة ، فقال :

« وَدَعَّ هُرَيْرَةَ إِنَّ الرِّكْبَ مُرْتَحِلٌ » ، وقوله يقول :

غَرَاءَ فَرَعَاءَ مَصْقُولٍ عَوَارِضُهُهَا تَمْشِي الْهُوَيْنَى كَمَا يَمْشِي الْوَجِي الْوَحِيلُ

فهو يصفها بأنها بيضاء ، طويلة الشعر ، لامعة الأسنان ، تمشي ببطء كأن مشيتها حين تخرج من بيت جاريتها مرور السحابة لا ببطء فيها ولا سرعة ، فهو مشي هادئ رزين ، ووجه النقد ذكره المؤلف وإن كان فيما قاله مبالغة ، فإن كلمات « جواله ... الخ » جاءت في صيغة مبالغة لا تحتلها ألفاظ البيت ، ومجرد الزيارة لجارتها لا يعطي هذه الأوصاف . والوجي هو الذي أصابه وجع في باطن رجليه .

(٣) هذا الوصف من كثير يؤيد المعنى الذي ذكره ابن عطية وهو مدح القصير بمعنى

الحجب في البيت والمنع من الخروج ، يقال : امرأة قصيرة وقصورة بمعنى مقصورة في =

وقال الحسن : مقصوراتٌ في الخيام : لَسُنَّ بطَوَّافَاتٍ في الطُّرُق .

و «الخِيَامُ» : البيوت من الخشب والثَّمَامُ (١) وسائر الحشيش ، وهي بيوت المرتحلين من العرب ، وخيام الجنة بيوت اللؤلؤ ، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : هي دُرٌّ مَجَوَّفٌ ، ورواه ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وإذا كان المسكن عند العرب من شعر فهو بيتٌ ، ولا يقال له خيمة ، ومن هذا قول جرير :

مَتَى كَانَ الخِيَامُ بذي طلوح سَقِيَتِ الأَغْيَثُ أَيَّتَهَا الخِيَامُ (٢)

= البيت ممنوعة من الخروج ، وفي حديث أسماء الأشهلية : « إِنَّا معشر النساءُ مقصوراتٌ مقصوراتٌ » ، والبيتان في اللسان والتاج ، والرواية فيهما : « عَنَيْتُ قَصِيرَاتِ الحِجَالِ وَلَمْ أُرِدْ ... » ، وفي التهذيب : « قَصُورَاتِ الحِجَالِ » ، وفي رواية الفراء للبيت الأول : « لَعَمْرِي لَقَدْ حَبَّبْتِ كُلَّ قَصُورَةٍ » ، والبيتان أيضاً في « القرطبي » و « غريب القرآن » ، و « البحر المحيط » ، والحجال جمع حَجَلَةٌ وهي بيت يزين بالثياب والأسرة والستور ، والبَحَاتِيرُ جمع بُحْترة - بضم الباء - وهي القصيرة المجتمعمة الخلق .

(١) الثَّمَامُ : عُشْبٌ من الفصيلة النجيلية يرتفع إلى مائة وخمسين ستيماً ، فروعه مزدحمة متجمعة ، والنَّوْرَةُ منه سنبله مدلّاة ، وكانوا يستخدمونه في تغطية البيوت التي يصنعونها من فروع الشجر وأخشابه ، قيل : كانوا يتخذون ثلاثة أعوادٍ أو أربعة من الخشب ثم يضعون عليها الثمام .

(٢) هذا مطلع قصيدة لجرير ، والخيمة : بيت من بيوت الأعراب مستدير بينه الأعراب من عيدان الشجر ، بحيث يقيمون ثلاثة أعوادٍ أو أربعة وينثرون فوقها الثمام ، ولهذا قال جرير بعد هذا البيت :

ومنه قول امرئ القيس :

أَمْرُخُ خِيَامُهُمْ أَمَّ عُسْرُ؟ (١)

فاستفهم : هل هم منجدون أم غائرون ؟ لأن العُسر مما لا ينبت إلا في تهامة والمرخُ مما لا ينبت إلا في نجد .

و «الرَّفْرَفُ» : ما تدلَّى من الأسرة من غالي الثياب والبُسط ، وقال ابن جبير : الرَّفْرَفُ رياضُ الجنة ، والأول أصوبُ وأبين ، وَوَجَّهُ قولِ ابن جبير أنه من : رفَّ النَّبت إذا نَعِمَ وحسُن . وما تدلَّى حول الخباء من الخرقة الشفافة (٢) يُسمَّى رفرفاً ، وكذلك يسميه الناسُ اليوم ، وقال الحسن بن أبي الحسن : الرَّفْرَفُ : المرافق ،

= تَنَكَّرَ من مَعَارِفِهَا وَمَالَتْ دَعَائِمُهَا وَقَدَّ بِلِي الثَّمَامُ وهو نبت تظلل به الخيام . وذو الطلوح : مكان ، يدعو لهذه الخيام إذا كانت في هذا المكان بالري والخير ، قال بعض علماء اللغة : «كأنه لم يكن بذي طلوح خيام قط» ، وجرير يقول عنها خيام لأنها لم تصنع من شعر ، بل أقيمت من خشب وحشيش . (١) هذا صدر بيت قاله امرؤ القيس من قصيدة له يصف فرسه وخروجه إلى الصَّيد ، والبيت بتمامه :

أَمْرُخُ خِيَامُهُمْ أَمَّ عُسْرُ أَمَّ الْقَلْبُ فِي إِثْرِهِمْ مُنْحَدِرُ؟
والمَرخُ : شجر قصير ويكثر في نجد ، والعُسْرُ : شجر طويل ويكثر بالغور ، والشاعر يستفهم كما قال ابن عطية ، والشاهد أن الشاعر تحدث عن الخيمة التي تصنع من أشجار المرخ أو العُسْر ولم تصنع من شعر . (٢) في بعض الأصول : «من الخرقة الهفاة» .

و «العبقري» : بُسَطَ حسان فيها صور وغير ذلك تصنع بعبقر ، وهو موضع يعمل فيه الوشي والديباج ونحوه ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : العبقري : الزرابي ، وقال ابن زيد : هي الطنافس ، وقال مجاهد : هي الديباج الغليظ ، وقرأ زهير الفرقي (١) : [رَفَارِفَ] بالجمع وترك الصرف ، وقرأ أبو طعمة المدني ، وعاصم - في بعض ما روي عنه - : [رَفَارِفِ] بالصرف ، وكذلك قرأ عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه : (رَفَارِفٍ وَعَبَاقِرِيٍّ) بالجمع والصرف ، ورويت عن النبي صلى الله عليه وسلم (٢) ، وغايط الزجاج والرمانى هذه القراءة ، وقرأ أيضاً عثمان بن عفان رضي الله عنه في بعض ما روي عنه : [عَبَاقِرِيٍّ] بفتح القاف والياء ، وهذا على أن اسم الموضع «عَبَاقِر» بفتح القاف ، والصحيح في اسم الموضع «عَبَقَر» ، قال امرؤ القيس :
كَأَنَّ صَلِيلَ الْمَرِّوِّ حِينَ تُشَدُّهُ صَلِيلُ زَيْوْفٍ يُنْتَقَدْنَ بِعَبَقَرَا (٣)

(١) اختلفت الأصول في كتابة هذا الاسم ، فهو في بعضها : زهير الفرقي ، وفي بعضها : زهير العرقي ، وفي بعضها : زهير فقط ، والتصويب عن المحتسب لابن جني ، وتفسير الطبري .
(٢) أخرج ابن الأنباري في المصاحف ، والحاكم وصححه ، عن أبي بكر رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قرأ : (مُتَكِيثِينَ عَلَيَّ رَفَارِفِ خَضِرٍ وَعَبَاقِرِيٍّ حِسَانٍ) :
(٣) هذا البيت من قصيدة امرئ القيس المعروفة التي قالها حين توجه إلى قيصر يستنجد به ، والتي يقول في مطلعها : «سَمَا لَكَ شَوْقٌ بَعْدَ مَا كَانَ أَقْصَرَا» ، وهو في البيت يصف =

قال الخليل والأصمعي : العرب إذا استحسنت شيئاً واستجادته قالت :
عَبْقَرِي .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : (فَلَمْ أَرِ عَبْقَرِيًّا مِنَ النَّاسِ
يَفْرِي فَرِيَةً) (١) ، وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : العَبْقَرِيُّ

= صوت الحصى الذي كان يتطاير تحت أقدام ناقته ، والمَرُوءُ : حجارةٌ بيضٌ براقَةٌ ، أو أصلب
الحجارة تندح بالنار ، والصليلُ : الصوتُ ، وتَشْدُهُ : تُفَرِّقُهُ أو تُنَحِّيهِ عن طريقها ،
ويروى بدلاً منها : تُطِيرُهُ ، والزُّيُوفُ : الدراهم الرديئة ، وقيل : هي الدراهم الصلبة ،
ويُتَمَقَّدُنَ : يُضْرَبُنَ بالأيدي للاختبار ومعرفة الزائف من الأصلي ، وعَبَقَرَ : موضع
باليمن ، وهو الشاهد هنا ، يقول : إن ناقتي في سرعتها تنثر الحجارة بأخفافها وتفرقها ،
فيقع بعضها على بعض فتحدث أصواتاً كأصوات الدراهم الصلبة إذا اختبرها الصَّيرْفُ ، وخصَّ
الزُّيُوفَ لأن صوتها أشد لكثرة ما فيها من النحاس .

هذا والبيت في اللسان ، والرواية فيه : « تَشْدُهُ » ، ومعناها بعيد عن معنى البيت .

(١) أخرجه البخاري ومسلم في فضائل الصحابة ، والترمذي في الرؤيا ، وأحمد في مواضع
كثيرة من مسنده ، عن ابن عمر رضي الله عنهما ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
(بينما أنا على بئر أنزِعُ منها جاءني أبو بكر وعمر ، فأخذ أبو بكر الدَّلَّو فَنَزَعَ ذَنْبُوباً أو
ذَنْبُوبِينَ ، وفي نَزَعِهِ ضعف ، والله يغفر له ، ثم أخذها ابن الخطاب من يد أبي بكر فاستحالت
في يده غرباً ، فَلََمَ أَرِ عَبْقَرِيًّا مِنَ النَّاسِ يَفْرِي فَرِيَةً ، فَنَزَعَ حَتَّى ضَرَبَ النَّاسَ بِعِطْنِ) .
والغَرْبُ : الدَّلَّو العظيمة تُتَّخَذُ من جلد الثور ، ومعنى (يَفْرِي فَرِيَةً) : يجيد عمله ويأتي
فيه بالعجب العُجَاب . و (فَرِيَةً) بفتح الفاء وكسر الراء وشدَّ الياء المفتوحة ، قال ابن الأثير
في كتاب النهاية : « وحكي عن الخليل أنه أنكر التثقيب وغلط قائله » فهو يضبطه بسكون الراء
وفتح الياء ، والعِطْنُ : مَبْرَكُ الإبل حول الماء ، وقد ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم
مثلاً لاتساع الناس في زمن عمر رضي الله عنه ، وما فتح الله عليهم من الأمصار .

سَيِّدُ الْقَوْمِ وَعَيْنُهُمْ ، وَقَالَ زَهِيرٌ :

بِخَيْلٍ عَلَيْهَا جِنَّةٌ عَبْقَرِيَّةٌ جَدِيرُونَ يَوْمًا أَنْ يَنَالُوا فَيَسْتَعْلُوا (١)

ويقال : عَبْقَرٌ مَسْكَنٌ لِلْجِنِّ ، وَقَالَ ذُو الرُّمَّةِ :

حَتَّى كَأَنَّ رِيَاضَ الْقُفِّ أَلْبَسَهَا مِنْ وَشْيِ عَبْقَرٍ تَجْلِيلٌ وَتَنْجِيدٌ (٢)

وَقَرَأَ الْأَعْرَجُ : [خُضْرٌ] بِضِمِّ الضَّادِ .

وَقَرَأَ جَمْهُورُ النَّاسِ : (ذِي الْأَجَلَالِ) عَلَى إِتْبَاعِ «الرَّبِّ» ،

وَقَرَأَ ابْنُ عَامِرٍ وَأَهْلُ الشَّامِ : (ذُو الْأَجَلَالِ) عَلَى إِتْبَاعِ «الاسْمِ» ،

(١) هذا البيت من قصيدة زهير التي يمدح بها سنان بن أبي حارثة المُرِّي . والتي يقول في مطلعها : (صَحَابِيكَ قَلْبٌ فِي الْحِسَانِ طَرُوبٌ) ، وقوله «بِخَيْلٍ» متعلق بقوله في البيت السابق : «طَارُوا إِلَى مُسْتَعْيِثِهِمْ» ، أي أسرعوا بهذه الخيل ، وعبقرية : نسبة إلى عبقر ، وهي أرض كان العرب يظنون أن بها الجن وينسبون إليها كل عبقري ، وجدديرون : خليقون مستحقون ، فَيَسْتَعْلُوا : يُحْفَقُونَ الظَّفَرَ والعُلُوَّ عَلَى العَدُوِّ ، يصفهم بأنهم حين يركبون خيلهم لاتخاذ مستغيث بهم أهل لأن يتصرفوا وينالوا ما يريدون .

(٢) البيت في الديوان ، وفي اللسان ، والتاج ، والقرطبي ، والبحر المحيط ، والقُفُّ : ما ارتفع من الأرض وصلبت حجارتها ، وهو حجارة غاص بعضها في بعض ، لونها أحمر ولا يخالطها من السهولة شيء ، ويكون فيه رياضٌ وقيعانٌ ، فالروضة حينئذ من القُفِّ الذي هي فيه ، ولو ذهبت تحفر فيه غلبتك كثرة حجارتها ، والوشى : النُقْشُ ، وعبقر هنا بمعنى المكان الذي تصنع فيه السجاجيد المنقوشة والديباج المزخرف ، والتَّجْلِيلُ : الكساء والتغطية ، والتَّنجِيدُ : التَّزْيِينُ بِالْفُرُشِ وَالسُّتُورِ .

وكذلك في الأول (١) ، وفي حرف أبي ، وابن مسعود رضي الله عنهما :
 ﴿ذِي الْجَلَالِ﴾ في الموضعين ، وهذا الموضع مما أُريد فيه بالاسم
 مُسَمَّاه (٢) ، والدعاء بهاتين الكلمتين حسنٌ مرجوٌ الإجابة ، وقال
 رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أَلْظُّوا بِيَاذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ) (٣) .

كامل تفسير سورة الرحمن والحمد لله رب العالمين

(١) يعني في قوله تعالى في الآية (٢٧) من هذه السورة : ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو
 الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ .

(٢) فكأن تقدير الكلام : تبارك ربك . ويدلُّ على ذلك إسناد « تبارك » لغير الاسم
 في مواضع أخرى ، كقوله تعالى : ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ ، وقوله :
 ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ ، وقد قيل : إن الله تعالى ختم نعيم الدنيا في هذه السورة
 بقوله : ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ﴾ لأن البقاء مناسبٌ لما ذُكر من فناء العالم ، وختم نعيم الآخرة
 هنا بما اشتق من البركة والنمو .

(٣) أخرجه الترمذي ، وابن مردويه ، عن أنس رضي الله عنه ، وأخرجه ابن مردويه
 عن ابن عمر رضي الله عنهما ، وأخرجه أحمد ، والنسائي ، وابن مردويه ، عن ربيعة بن
 عامر رضي الله عنه . (الدر المنثور) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين
سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين



وهي مكية بإجماع ممن يُعتد بقوله من المفسرين ، وقيل : إن
فيها آيات مدنية أو مما نزل في السفر (١) ، وهذا كله غير ثابت ،
وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (من داوم على قراءة
سورة الواقعة لم يفتقر أبداً) (٢) ، ودعا عثمان ابن مسعود رضي الله

(١) أما المدني فأية واحدة هي قوله تعالى : ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكذَّبُونَ ﴾ ، قال ذلك ابن عباس وقتادة ، وأما الذي نزل في السفر فأربع آيات ، منها آيتان نزلتا في السفر إلى مكة هما قوله تعالى : ﴿ أَفَسِيهَذَا أَجَدَدٌ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ ﴾ ، وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكذَّبُونَ ﴾ ، وآيتان نزلتا في السفر إلى المدينة هما قوله عز وجل : ﴿ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأُولَى ، وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴾ ، قاله الكلبي .

(٢) أخرجه أبو عبيد في فضائله ، وابن الضريس ، والحارث بن أبي أسامة ، وأبو يعلى ، وابن مردويه ، والبيهقي في « شعب الإيمان » ، وذكر أبو عمرو بن عبد البر في « التمهيد » و « التعليق » والثعلبي أيضاً أن عثمان بن عفان رضي الله عنه دخل على ابن مسعود رضي الله عنه يعود في مرضه الذي مات فيه ، فقال : ما تشتهي ؟ قال : ذنوبي ، قال : فما تشتهي ؟ قال : رحمة ربي ، قال : أفلا ندعو لك طبيباً ؟ قال : الطبيب أمرضني ، قال : أفلا نأمر =

عنهما إلى عطائه فأبى أن يأخذ ، فقيل له : خذ للعيال فقال : إنهم يقرءون سورة الواقعة ، وسمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : من قرأها لم يفتقر أبداً (١) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

فيها ذكر القيامة وحظوظ الناس في الآخرة ، وفهم ذلك غنى لا فقر معه ، من فهمه شغل بالاستعداد .

قوله عز وجل :

﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لَوْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ ﴿٣﴾ إِذَا رَجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا ﴿٦﴾ وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿٩﴾ وَالسَّيْقُونَ السَّيْقُونَ ﴿١٠﴾ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ﴾

= لك بعطائك ؟ قال : لا حاجة لي فيه ، حبسته عني في حياتي وتدفعه لي عند مماتي ؟ قال : يكون لبناتك من بعدك ، قال : أتخشى على بناتي الفاقة من بعدي ؟ إني أمرتُهن أن يقرأن سورة الواقعة كل ليلة ، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (من قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم تُصبه فاقة أبداً) .

(١) أنظر هامش رقم (٢) من الصفحة السابقة .

[الْوَأَقَعَةُ] اسمٌ من أسماء القيامة كالصَّاحَّةِ والآزفة والطَّامة ،
قاله ابن عباس رضي الله عنهما ، وهذه كلها أسماءٌ تقتضي تعظيمها
وتشنيع أمرها ، وقال الضحاك : الواقعة : الصيحة ، وهي النفخة
في الصور ، وقال بعض المفسرين : الواقعة صخرة بيت المقدس تقع
عند القيامة ، فهذه كلها معانٍ لأجل القيامة .

و [كَاذِبَةٌ] يحتمل أن يكون مصدراً كالعاقبة والعافية وخائنة
الأعين ، فالمعنى : ليس لها تكذيب ولا ردٌّ ولا مثنوية (١) ، وهذا قول
قتادة والحسن ، ويحتمل أن يكون صفة لمقدَّر ، كأنه تعالى قال :
ليس لوقعتها حال كاذبة ، ويحتمل الكلام - على هذا - معنيين : أحدهما
كاذبةٌ أي مكذوبة فيما أخبر به عنها ، وسماها كاذبة لهذا ، كما
تقول : قصة كاذبة ، أي مكذوب فيها ، والثاني حالٌ كاذبة ،
أي لا يمضي وقوعها ، كما تقول : فلان إذا حمل لم يكذب .

وقوله تعالى : ﴿ خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ ﴾ رفع على خبر ابتداء ، أي هي
خافضة رافعة ، وقرأ الحسن ، وعيسى الثقفي ، وأبو حيوة : ﴿ خَافِضَةٌ
رَافِعَةٌ ﴾ بالنصب على الحال بعد الحال التي هي ﴿ لَيْسَ لَوَقَعَتِهَا

(١) أي لا تُثَنَّى ولا تُرْجَع .

كَاذِبَةٌ) ، ولك أن تُتابع الأحوال كما لك أن تُتابع أخبار المبتدأ ،
والقراءة الأولى أشهر وأبرع معنى ، وذلك أن موقع الحال من الكلام
موقع ما لو لم يُذكر لاستغني عنه ، وموقع الجمل التي يجزم الخبر بها
موقع ما يُتَّهَمُ به (١) .

واختلف الناس في معنى هذا الخفض والرفع في هذه الآية -
فقال قتادة ، وعثمان بن عبد الله بن سراقه : القيامة تخفض أقواماً
إلى النار ، وترفع أقواماً إلى الجنة ، وقال ابن عباس ، وعكرمة ،
والضحاك : الصيحة تخفض صوتها لتسمع الأدنى ، وترفعه لتسمع
الأقصى ، وقال جمهور من المتأولين : القيامة تنفطر بها السماء والأرض
والجبال ، وانهدام هذه البنية يرفع طائفة من الأجرام ويخفض أخرى ،
فكأنها عبارة عن شدة الهول والاضطراب .

والعامل في قوله تعالى : (إِذَا رُجَّتِ) [وَقَعَتْ] ، لأن هذه بدلٌ
من [إِذَا] الأولى ، وقد قالوا : إِنَّ [وَقَعَتْ] هو العامل في الأولى ،
وذلك لأن معنى الشرط فيهما قوي ، فهي كَمَنْ وَمَا في الشرط

(١) قال أبو حيان في « البحر » بعد أن ذكر هذا الكلام نقلاً عن ابن عطية : « وهذا الذي

قاله سبقه إليه أبو الفضل الرازي » .

يعمل فيها ما بعدها من الأفعال ، وقد قيل : إِنَّ [إِذَا] مضافة إلى [وَقَعَتْ] فلا يصح أن تعمل فيها ، وإنما العامل فيها فعل مقدر .

ومعنى [رُجَّتْ] : زُلزلت وحُرِّكت بعنف ، قاله ابن عباس رضي الله عنهما ، ومنه : ارتجَّ السهم في الغرض ، إذا اضطرب بعد وقوعه ، والرجة في الناس الأمر المحرَّك . واختلف اللغويون في معنى [بُسَّتْ] - فقال ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة : معناه : فُتَّتْ كما تُبَسُّ البسيصةُ وهي السويق ، ويقال : بَسَّتْ الدقيق إذا ثريته بالماء وبقي متفتتاً ، وأنشد الطبري في هذا :

لَا تَخْبِرَا خَبْرًا وَبُسًا بَسًّا (١)

(١) هذا الرَّجَز من شواهد أبي عبيدة في «مجاز القرآن» ، وهو في «المخصص» و«الطبري» و«القرطبي» و«الصحاح» و«اللسان» و«التاج» ، واستشهد به أيضاً القراء في «معاني القرآن» ، وقد اختلفت الروايات في البيت الثاني فهو في الطبري ومعاني القرآن : (مَلْسًا بِيذَوْدِ الْحَلَسِيِّ مَلْسًا) ، وفي اللسان : (وَلَا تَطِيلَا بِمُنَاخِ حَبْسًا) ، وفي المخصص : (مَلْسًا بِيذَوْدِ الْحَدَسِيِّ مَلْسًا) ، وهكذا تعددت واختلفت روايته ، ويقولون : إن الرَّجَز قاله لصٌّ من غطفان وأراد أن يخبز ، فخاف أن يُعجل عن الخبز فأكله عجباً وقال : (لَا تَخْبِرَا خَبْرًا وَبُسًا بَسًّا) ، ويظهر أن المعنى الثاني الذي ذكره ابن عطية للخبز والبس هو الأقرب ، ويؤيد ذلك أن «المَلْس» ضربٌ من السير الرقيق ، والذَّوْدُ : الثلاثة إلى العشرة من الإبل ، فكان ما سرقه اللسان كان إبلاً ، وأن الحَلَسِيَّ هو صاحبها ، وهو يقول لهما =

وقال : هذا قول لص^{*} أعجله الخوف عن العجين فقال هذا لصاحبيه ،
وقال بعض اللغويين : [بُسَّتْ] معناه : سِيرَتْ ، قالوا : والخَبْزُ :
السَّيْرُ الشديد وضرب الأرض بالأيدي ، والبسُّ : السَّيْرُ الرفيق ،
وأنشدوا البيت :

لَا تَخْبِزَا خَبْزًا وَبُسَّا بَسًّا وَجَنَّبَاهَا نَهْشًا وَعَبَسَا

ذكر هذا أبو عثمان اللغوي في كتاب «الأفعال» .

و «الهباء» : ما يتطاير في الهواء من الأجزاء الدقيقة ولا يكاد
يُرى إلا في الشمس إذا دخلت من كوة ، قاله ابن عباس ومجاهد ،
وقال قتادة : الهباء ما يتطاير من يبس النبات (١) ، وقال علي بن
أبي طالب رضي الله عنه : الهباء ما يتطاير من حوافر الخيل والدواب .
وقال ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً : الهباء ما يتطاير من شرر
النار فإذا طُفي لم يوجد شيء . و «الْمُنْبَثُّ» - بالثاء المثناة - : الشائع
في جميع الهواء ، وقرأ النَّخَعِيُّ : [مُنْبَثًّا] بالثاء بنقطتين ، أي متقطعاً ،
ذكر ذلك الثعلبي ، والقول الأول في الهباء أحسن الأقوال .

= لا تسيرا بالإبل المسروقة سَيْرًا شديداً سريعاً، بل سيرا بها في رفق ولين ، وقد زاد في المخصص
بعد هذين البيتين بيتين آخرين ، وذكرهما أيضاً أبو زيد في «النوادر» ، وهما :

مِنْ غَدَوَةٍ حَتَّى كَأَنَّ الشَّمْسَا بِالْأَفُقِ الْغَرْبِيِّ تَطَلَّتْ وَرَسَا

ومعنى «تَطَلَّتْ وَرَسَا» أنها مالت للغروب وأصابها صُفْرته .

(١) في بعض النسخ : « ما يتطاير من لبس الثياب » .

والخطاب في قوله تعالى : [وَكُنْتُمْ] لجميع العالم ؛ لأن الموصوفين من أصحاب المشأمة ليسوا في أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، و «الأزواجُ» : الأنواع والضروب ، قال قتادة : هذه منازل الناس يوم القيامة .

وقوله تعالى : (فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ) ابتداءً و [مَا] ابتداءً ثانٍ ، و (أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ) خبر [مَا] ، والجملة خبر الابتداء الأول ، وفي الكلام معنى التعظيم ، كما تقول : «زيدٌ ما زيدٌ» ، ونظير هذا في القرآن كثير ، و «الميمنةُ» أظهر ما في اشتقاقها أنها من ناحية اليمين ، وقيل : من اليُمن ، وكذلك «المشأمةُ» إما أن تكون من اليد الشُّؤمي ، وإما أن تكون من الشُّؤم ، وقد فسرت هذه الآية بهذين المعنيين ؛ إذ أصحاب الميمنة الميامينُ على أنفسهم ، قاله الحسن والربيع ، ويشبه أن اليُمن والشُّؤم إنما اشتقا من اليمين والشمسال ، وذلك على طريقتهم في السانح والبارح (١) ، وكذلك اليمَن والشَّامُ اشتقا من اليمنى والشُّؤمى (٢) .

(١) السانح : الطائر أو الظبي إذا مرَّ من ميسرك إلى ميامنك فولأك ميامنه ، والعرب يتيمنون به ، والبارح : الطائر أو الظبي إذا مرَّ من يمين الرائي إلى يساره ، والعرب تتشأم به .

(٢) في اللسان : « أشأم وشاعم إذا أتى الشأم ، ويامن القومُ وأيمنوا إذا أتوا اليمن » ، وفيه أيضاً : « والشَّامُ بلاد تذكر وتؤنث : وسُميت بها لأنها عن مشأمة القبلة » .

وقوله تعالى : [وَالسَّابِقُونَ] ابتداءً ، و [السَّابِقُونَ] الثاني قال بعض النحويين : هو نعت للأول ، ومذهب سيبويه أنه خبر الابتداء ، وهذا كما تقول : الناسُ الناسُ ، وأنت أنت ، وهذا على معنى التفخيم للأمر وتعظيمه ، والمعنى هو أن تقول : السَّابِقُونَ إلى الإيمان السَّابِقُونَ إلى الجنة والرحمة ، أولئك ... ، ويتَّجه هذا المعنى على الابتداء والخبر .

وقوله تعالى : ﴿أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ ابتداءً وخبر ، وهو في موضع الخبر على قول من قال : «السَّابِقُونَ» الثاني صفة ، و [الْمُقَرَّبُونَ] معناه : من الله تعالى في جنة عدن ، قال جماعة من أهل العلم : وهذه الآية متضمنة أن العالم يوم القيامة على ثلاثة أصناف : مؤمنون هم على يمين العرش وهنالك الجنة ، وكافرون وهم على شمال العرش وهنالك النار(١) ، والقول في يمين العرش وشماله نحو من الذي مرَّ في سورة الكهف في اليمين والشمال(٢) ، وقد قيل في أصحاب الميمنة واليمين : إنهم مَنْ أَخَذَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ، وفي أصحاب المشأمة والشمال : إنهم

(١) والصنف الثالث هم السابقون ، ذكر أصحاب الميمنة متعجباً منهم في سعادتهم ، وأصحاب المشأمة متعجباً منهم في شقاوتهم ، ثم ذكر السابقين مثبتاً حالهم ، فأخبر أنهم نهاية في العظمة والسعادة .

(٢) في قوله تعالى : ﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقَرَّبُ إِلَيْهِمْ ذَاتَ الشَّمَالِ﴾ .

مَنْ أَخَذَهُ بِشِمَالِهِ ، فَعَلَى هَذَا لَيْسَتْ نِسْبَةُ الْيَمِينِ وَالشَّمَالِ إِلَى الْعَرْشِ ،
 وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : أَصْحَابُ الْيَمِينِ أَطْفَالُ الْمُؤْمِنِينَ ،
 وَقِيلَ : الْمُرَادُ مَيْمَنَةُ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَمَشَامَتُهُ الْمَذْكُورَتَانِ فِي حَدِيثِ
 الْإِسْرَاءِ فِي الْأَسْوَدَةِ (١) .

و «السَّابِقُونَ» مَعْنَاهُ : قَدْ سَبَقَتْ لَهُمُ السَّعَادَةُ وَكَانَتْ أَعْمَالُهُمْ
 فِي الدُّنْيَا سَبْقًا إِلَى أَعْمَالِ الْبِرِّ وَإِلَى تَرْكِ الْمَعَاصِي ، فَهَذَا عَمُومٌ فِي جَمِيعِ
 النَّاسِ ، وَخَصَّصَ الْمَفْسُورُونَ مِنْ هَذَا أَشْيَاءَ ، فَقَالَ عَثْمَانُ بْنُ أَبِي
 سُوْدَةَ (٢) : هُمُ السَّابِقُونَ إِلَى الْمَسَاجِدِ ، وَقَالَ ابْنُ سَيْرِينَ : هُمُ الَّذِينَ
 صَلُّوا لِلْقَبْلَتَيْنِ ، وَقَالَ كَعْبٌ : هُمُ أَهْلُ الْقُرْآنِ ، وَقِيلَ : هُمُ غَيْرُ
 هَذَا مِمَّا هُوَ جُزْءٌ مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ ، وَرُوِيَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
 وَسَلَّمَ سَأَلَ عَنِ السَّابِقِينَ فَقَالَ : (هُمُ الَّذِينَ إِذَا أُعْطُوا الْحَقَّ قَبَلُوهُ ،
 وَإِذَا سُئِلُوا بِذَلْوِهِ وَحَكَمُوا لِلنَّاسِ بِحُكْمِهِمْ لِأَنْفُسِهِمْ) (٣) ، وَقَرَأَ طَلْحَةُ

(١) جَاءَ فِي حَدِيثِ الْإِسْرَاءِ كَمَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ (ج ١ ص ٣٩٥) : (فَلَمَّا عَلَوْنَا السَّمَاءَ
 الدُّنْيَا فَإِذَا رَجُلٌ عَنِ يَمِينِهِ أَسْوَدَةٌ ، وَعَنْ يَسَارِهِ أَسْوَدَةٌ ، قَالَ : فَإِذَا نَظَرَ قِبَلَ يَمِينِهِ ضَحِكَ ،
 وَإِذَا نَظَرَ قِبَلَ شِمَالِهِ بَكَى) ، وَالرَّجُلُ هُوَ آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَالْأَسْوَدَةُ الَّتِي عَلَى يَمِينِهِ هِيَ أَهْلُ
 الْجَنَّةِ مِنْ أَوْلَادِهِ ، وَالْأَسْوَدَةُ الَّتِي عَلَى شِمَالِهِ هِيَ أَهْلُ النَّارِ مِنْهُمْ .

(٢) هُوَ عَثْمَانُ بْنُ أَبِي سُوْدَةَ الْمَقْدِسِيُّ ، ثِقَةٌ ، مِنَ الثَّلَاثَةِ .

(٣) ذَكَرَهُ الْمَهْدُودِيُّ ، وَأَخْرَجَهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ، عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ
 عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : (أَتَدْرُونَ مِنَ السَّابِقِينَ إِلَى ظِلِّ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؟) قَالُوا : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ،
 قَالَ : الَّذِينَ إِذَا أُعْطُوا الْحَقَّ قَبَلُوهُ ، وَإِذَا سُئِلُوا بِذَلْوِهِ وَحَكَمُوا لِلنَّاسِ كَحُكْمِهِمْ لِأَنْفُسِهِمْ) .

ابن مصرف : ﴿ فِي جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴾ على الأفراد ، و [الْمُقْرَبُونَ] عبارة عن أعلى منازل البشر في الآخرة ، على سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ متكئين ، وقيل لعامر بن عبد قيس (١) في يوم حلبة : من سبق ؟ فقال : المقربون .

قوله عز وجل :

﴿ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأُولَىٰ ۗ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾
 مُتَّكِعِينَ عَلَيْهَا مُتَّقِلِبِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ
 وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَكَهْفُهُمْ
 يُتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمٍ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَلِ اللَّوْلِيِّ
 الْمَكْنُوبِ ﴿٢٣﴾ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا
 تَأْتِيهِمْ ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴿٢٦﴾ ۞

«الثلة» : الجماعة والفرقة ، وهي تقع للقليل والكثير ، واللفظ

في هذا الموضع يعطي أن الجملة من الأولين أكثر من الجملة من الآخرين وهي التي عبر عنها بالقليل ، واختلف المتأولون في معنى ذلك - فقال

(١) هو عامر بن عبد الله بن قيس ، أبو بردة بن أبي موسى الأشعري ، وقيل : اسمه الحارث ، قال عنه في (تقريب التهذيب) : ثقة من الثالثة ، مات سنة أربع ومائة وقد جاوز الثمانين .

قوم - حكى قولهم مكى - : المراد بذلك الأنبياء عليهم السلام لأنهم كانوا في صدر الدنيا أكثر عدداً ، وقال الحسن وغيره : المراد السابقون من الأمم والسابقون من هذه الأمة ، وذلك إما أن يقرن أصحاب الأنبياء عليهم السلام بجموعهم إلى أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، فأولئك أكثر عدداً لا محالة ، وإما أن يقرن أصحاب الأنبياء عليهم السلام ممن سبق في أثناء الأمم السالفة إلى السابقين من جميع هذه الأمة ، فأولئك أكثر ، وروي أن الصحابة رضي الله تعالى عنهم حزنوا لقلّة سابقي هذه الأمة على هذا التأويل ، فنزلت ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ فرضوا (١) ، وروي عن عائشة رضي الله عنها أنها تأوّلت أن الفريقين في أمة كل نبي هي في الصدر ثلثة وفي آخر الأمة قليل ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم فيما روي

(١) أخرجه أحمد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، عن أبي هريرة ، وفي آخره : (فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة ، ثلث أهل الجنة ، بل أنتم نصف أهل الجنة أو شطر أهل الجنة وتقاسمونها الشطر الثاني) ، وأخرج ابن مردويه ، وابن عساكر ، عن جابر بن عبد الله قال : لما نزلت ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ ذكر فيها ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ ، قال عمر : يا رسول الله : ثلثة من الأولين وثلثة من الآخرين ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا عمر تعال فاستمع ما قد أنزل الله : ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ ، ألا وإن من آدم إلى ثلثة وأمّتي ثلثة ، ولن نستكمل ثلثتنا حتى نستعين بالسودان من رعاة الإبل ممن يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأخرجه ابن أبي حاتم من وجه آخر عن عروة ابن رويم مرسل . ورواه الحافظ ابن عساكر عن جابر .

عنه : (الفرقتان في أمي ، فسابق أول الأئمة ثلثة ، وسابق سائرهما إلى يوم القيامة قليل) (١) .

وقرأ الجمهور : [سُرر] بضم الراء ، وقرأ أبو السَّمال : [سُرر] بفتح الراء ، و «المَوْضُونَة» : المنسوجة بتركيب بعض أجزائها على بعض كحلق الدرع ، فإن الدرع موضونة ، ومنه قول الأعشى :

وَمَنْ نَسَجَ دَاوُدَ مَوْضُونَةً تَسِيرُ مَعَ الْحَيِّ عَيْرًا فَعَيْرًا (٢)

وكذلك سقيفة الخوص ونحوه موضونة ، ومنه وضين الناقة وهو حزامها لأنه موضون ، فهو كقتيل وجريح ، ومنه قوله :

إِلَيْكَ تَعَدُّو قَلِقًا وَضِينُهَا مُعْتَرِضًا فِي بَطْنِهَا جَنِينُهَا

مُخَالَفًا دِينَ النَّصَارَى دِينُهَا (٣)

(١) رواه سفيان عن أبان عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم بلفظ (الثَلْتَانِ جَمِيعًا مِنْ أُمَّتِي) .

(٢) البيت لأعشى بن قيس بن ثعلبة من قصيدة يمدح بها هوزة بن علي الحنفي ، واستشهد به أبو عبيدة في مجاز القرآن ، يقول الأعشى في بيت سابق على هذا : إنه أعد للحرب عدتها ، ثم يستطرد في هذا البيت فيقول : وأعددت لها درعاً موضونة ، وهي التي نُسجت نسجاً مضاعفاً تحمّل فوق الجمال عيراً من ورائها عيراً . وداود عليه السلام هو الذي علمه الله تعالى صناعة الدروع .

(٣) الأبيات في التاج واللسان ، والوضين : بطن عريض منسوج من سيور أو شعر ، وسمت العرب وضين الناقة كذلك لأنه منسوج ، والوضين بمعنى الموضون ، وقد أنشد أبو عبيدة هذه الأبيات شاهداً على أن الوضين بمعنى الموضون ، والكلام في الأبيات عن الناقة التي =

قال ابن عباس رضي الله عنهما : هذه السُّرر الموضونة هي مَرْمُولَةٌ بالذهب (١) ، وقال عكرمة : هي مشبكة بالدرِّ والياقوت ، و [مُتَكِّينَ] و [مُتَقَابِلِينَ] حالان ، وفيهما ضمير مرفوع ، وفي مصحف عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه : «مُتَكِّينَ عَلَيْهَا نَاعِمِينَ» .

و «أَوْلَادَانُ» : صغارُ الخدم ، عبارة عن أنهم صغار الأسنان ، ووصفهم تعالى بالخُلْد وإن كان جميع ما في الجنة كذلك إشارة إلى أنهم في حال الولدان مخلدون لا تكبر لهم سِنٌ ، وقال مجاهد : لا يموتون ، وقال الفراء : [مُخَلَّدُونَ] معناه : مُقَرَّطُونَ بالخَلَدَات ، وهي ضرب من الأقراط ، والأول أصوب لأنَّ العرب تقول للذي كبر ولم يشب : إنه مخَلَّد .

و «الأَكْوَابُ» : ما كان من أواني الشرب لا أذن له ولا خرطوم . قال ابن عباس رضي الله عنهما : هي جرارٌ من فضة ، وقال أبو صالح :

= تعدو نحو الممدوح طمعاً في خيره ، ومعنى أن وضيئها قَلِقٌ أنها هزلت واتسع الوضين عليها فصار قَلِقاً ، قال صاحب اللسان عن البيت الأخير : أراد دينه هو لأن الناقة لا دين لها ، وهذه الأبيات يروى أن ابن عمر أنشدها لما اندفع من جَمْعٍ ، ووردت في حديثه ، وأخرج الطبراني في المعجم عن سالم عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أفاض من عرفات وهو يقول :

إِلَيْكَ تَعْدُو قَلِقاً وَضِيئُهَا

(١) أي : مُزَيَّنَةٌ بالذهب ، يقال : رَمَلَ السَّرِيرَ بمعنى : زَيَّنَهُ بالذهب .

مستديرة أفواهها ، وقال قتادة والضحاك : ليست لها عُرَى ، و « الإبريقُ » :
 ما له خرطوم ، قال مجاهد : وأُذن ، وهو من أواني الخمر عند العرب ،
 ومنه قول عدي بن زيد :

وَتَدَاعَوْا إِلَى الصَّبُوحِ فَقَامَتْ قَيْنَةٌ فِي يَمِينِهَا إِبْرِيْقُ (١)
 و « الكأسُ » : الآنية المُعدَّة للشرب بها بشرطة أن يكون فيها خمر
 ونبيذ ، أو بسبيل ذلك ، ومتى كان فارغاً فهو مُنتسب إلى جنسه
 زجاجاً كان أو غيره ، ولا يقال لآنية فيها ماءٌ أو لبن : كأسٌ .

وقوله تعالى : ﴿ مِنْ مَعِينٍ ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما :
 معناه : من خمر سائلة ، فوزنها مفعول ، أصلها معيون ، وهذا تأويل
 قتادة ، وقوله تعالى : ﴿ لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا ﴾ ذهب أكثر المفسرين
 إلى أن المعنى : لا يلحق رؤوسهم الصداع الذي يلحق من خمر الدنيا ،
 وقال قوم : معناه : لا يتفرقون عنها ، بمعنى : لا تُقطع عنهم لذتهم

(١) البيت لعدي بن زيد العبادي ، وهو في اللسان والتاج ، والرواية فيهما : (وَدَاعَا
 بِالصَّبُوحِ يَوْمًا فَجَاءَتْ ...) ، والصَّبُوح : شرابُ الصباح وهو خلاف الغَبُوق الذي هو
 شراب المساء . والقَيْنَةُ : الجارية ، وغَلَبَ على المغنَّية ، والإبريق : الإناء الذي له خرطوم ،
 وهو فارسيٌّ معرب ، وشاهده هذا البيت ، وهناك أبيات كثيرة استعملت هذا اللفظ
 بالمعنى المذكور .

بسبب من الأسباب كما يفرق أهل خمر الدنيا بأنواع من التفريق ،
وهذا كما قال : (يتصدعُ السحاب عن المدينة) ... الحديث (١) .
وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يُنْزِفُونَ ﴾ قال مجاهد ، وقتادة ، وابن جبير ،
والضحاك : معناه : لا تذهب عقولهم سُكْرًا ، والنزيف : السكران ،
ومنه قول الشاعر :

شُرِبَ النَّزِيفِ بِيَرْدِ مَاءِ الْحَشْرِجِ (٢)

(١) هذا جزء من حديث أخرجه البخاري في المناقب ، وأبو داود في الاستسقاء ، وأحمد في مسنده (٣-٢٦١) ، عن أنس بن مالك رضي الله عنه ، والحديث كما جاء في مسند أحمد أن رجلاً نادى رسول الله صلى الله عليه وسلم في يوم الجمعة وهو يحط الناس بالمدينة ، فقال : يا رسول الله ! قحط المطر ، وأمحلت الأرض ، وقحط الناس ، فاستسقى لنا ربك ، فنظر النبي صلى الله عليه وسلم إلى السماء وما نرى كثير سحاب ، فاستسقى ، فنشأ السحاب بعضه إلى بعض ، ثم مطروا حتى سالت مشاعب المدينة واضطردت طرفها أنهاراً ، فما زالت كذلك إلى يوم الجمعة المقبلة ما تطلع ، ثم قام ذلك الرجل أو غيره ونبي الله صلى الله عليه وسلم يحط فقال : يا نبي الله ، ادعُ الله أن يحبسها عنا ، فضحك النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال : اللهم حوالينا ولا علينا ، فدعا ربّه ، فجعل السحاب يتصدعُ عن المدينة يميناً وشمالاً يُمطر ما حولها ولا يُمطر فيها شيئاً .

(٢) هذا عجز بيت لعمر بن أبي ربيعة ، وهو في الديوان ، وفي اللسان والتاج ، وقال ابن برّي : « البيت بحميل بن معمر وليس لعمر بن أبي ربيعة » ، ولكنه غير موجود في ديوانه ، والبيت مع بيتين قبله كما في اللسان ، وديوان ابن أبي ربيعة :

قَالَتْ: وَعَيْشُ أَبِي وَحُرْمَةُ إِخْوَتِي لِأَنْبِيَهِنَّ الْحَيَّ إِنَّ لَمْ تَخْرُجْ
فَخَرَجْتُ خَوْفَ يَمِينِهَا فَتَبَسَّمَتْ فَعَلِمْتُ أَنَّ يَمِينَهَا لَمْ تَخْرُجْ
فَلَكَّمْتُ فَاهَا آخِذًا بِقُرُونِهَا شُرِبَ النَّزِيفِ بِيَرْدِ مَاءِ الْحَشْرِجِ =

وقرأ ابن أبي إسحق : ﴿وَلَا يَنْزِفُونَ﴾ بكسر الزاي وفتح الياء ،
من : «نَزَفَ البِثْرَ» إذا استقى ماءها ، فهي بمعنى : تمّ خمرهم ونفذت (١) ،
هكذا قال أبو الفتح . وحكاها أبو حاتم عن ابن أبي إسحق ، والجحدري ،
والأعمش ، وطلحة ، وابن مسعود ، وأبي عبد الرحمن ، وعيسى
بضم الياء وكسر الزاي ، قال : ومعناها : لا ينفى شرابهم ، والعرب
تقول : «أَنْزَفَ الرجلُ عِبْرَتَهُ» . وتقول أيضاً : «أَنْزَفَ» إذا سكر ،
ومنه قول الأبيّرد :

لَعَمْرِي لَئِنْ أَنْزَفْتُمْ أَوْ صَحَوْتُمْ لَيْسَ النَّدَامَى كُنْتُمْ آلَ أَبْجَرَ (٢)
وعظفت «الفاكهة» على «الكأس والأباريق» .

= والقرون : صفائر شعرها ، والتزيف : السكران ، أو الذي جفّ ريقه من العطش ، أو المحموم
الذي جفّ ريقه . والحشرج : الماء الذي يجري على الحصى صافياً ، أو كوز صغير يشرب
منه . أو النقرة في الجبل يجتمع فيها الماء فيصفو للشرب .

(١) جملة تحتاج إلى توضيح ، والذي قاله أبو حاتم بعد أن استشهد بكثير من الشعر :
«فكأنه سبحانه قال : «لا يُصَدِّعُونَ عَنْهَا وَلَا يَنْزِفُونَ عَقُولَهُمْ كَمَا يُنْزَفُ ماءُ البِثْرِ» .
(٢) أبجر : هو أبجر بن جابر العجليّ ، وكان نصرانياً ، والبيت في الصحاح واللسان
والتاج ، وبعده يقول الأبيّرد :

شَرِبْتُمْ وَمَدَرْتُمْ وَكَانَ أَبُوكُمْ
كَذَاكُمْ إِذَا مَا يَشْرَبُ الكَأْسَ مَسْدَرًا
والشاهد أن أنزف بمعنى سكر بدليل مقابلتها بقوله : صَحَا ، يقول : سواء سكرتم أو لم
تسكروا فأنتم بئس الندامي يا آل أبجر .

قوله تعالى : ﴿ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ ، رُوي أَنَّ العبد يرى الطائر يطير فيشتهيه فينزل له كما اشتهاه ، وربما أَكَل منه ألواناً بحسب تصرف شهوته إلى كثير مما رُوي في هذا المعنى .

وقرأ حمزة ، والكسائي ، والمفضل عن عاصم : ﴿ وَحُورٍ عَيْنٍ ﴾ بالخفض ، وهي قراءة الحسن ، وأبي عبد الرحمن ، والأعمش ، وابن القعقاع ، وعمرو بن عبيد . وقرأ أبي بن كعب ، وابن مسعود : ﴿ وَحُوراً عِيناً ﴾ بالنصب ، وقرأ الباقر من السبعة : ﴿ وَحُورٌ عَيْنٌ ﴾ بالرفع ، كل هذه القراءات محمولة الإعراب على المعنى لا على اللفظ ، فالخَفْضُ كَانَ المعنى : قيل : تنعمون بهذا كله وبحورٍ عَيْنٍ ، وَكَانَ المعنى في قراءة النصب : وتُعْطُونَ هذا كله وَحُوراً عِيناً ، وَكَانَ المعنى في الرفع : لهم هذا كله وَحُورٌ عَيْنٌ ، ويجوز أَنْ يعطف [وَحُورٌ] على الضمير المستقر في [مُتَكَيِّفِينَ] ، قال أبو علي : ولم يؤكد لكون طول الكلام بدلاً من التوكيد ، ويجوز أَنْ يُعْطَفَ على « الولدان » وإن كان طواف الحور يقلق ، ويجوز أَنْ يعطف على الضمير المقدر مع قوله تعالى : ﴿ عَلَى سُرُرٍ ﴾ . وفي هذا كله نظر ، وقد تقدم معنى « حور عين » ، وقرأ إبراهيم النَّخَعِيُّ : « وَحَيْرٌ عَيْنٌ » .

وخصَّ (سبحانه) المكنون من اللؤلؤ لأنه أصفى لوناً وأبعد عن الغير ، وسألت أم سلمة رضي الله عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم

عن هذا التشبيه فقال : (صفاؤهن كصفاء الدرّ في الأصداف الذي لا تمسه الأيدي) (١) ، و ﴿ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أي أن هذه الرتب والنعم هي بحسب أعمالهم ؛ لأنه رُوي أن المنازل والقسم في الجنة هي مقسمة على قدر الأعمال ، ونفس دخول الجنة هو برحمة الله تبارك وتعالى وفضله لا بعمل عامل ، فأما هذا الفضل وأن دخولها ليس بعمل عامل ففيه حديث صحيح ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لا يدخل الجنة أحد بعمله) ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : (ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بفضل منه ورحمة) (٢) .

و «اللغو» : سقط القول من فحش وغيره ، و «التأثيم» مصدر بمعنى : لا يؤثم أحدٌ هناك غيره ولا نفسه بقول كأن يسمع ويتألم

(١) راجع الهامش رقم (٢) ص (٢١٨) عند تفسير قوله تعالى في سورة الرحمن : ﴿ فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ ﴾ .
 (٢) أخرجه البخاري في الرقاق والمرضى ، ومسلم في المنافقين ، وابن ماجه في الزهد ، والدارمي في الرقاق ، وأحمد في مواضع كثيرة من مسنده ، ففي البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لَنْ يُنْجِيَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ) ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : (ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته ، سدّدوا وقاربوا واغدوا وروحوا وشيء من الدلجة والقصد القصد تبلغوا) ، وفي البخاري أيضاً عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (سدّدوا وقاربوا واعلموا أن لن يدخل أحدكم عمله الجنة ، وأن أحب الأعمال أدومها إلى الله وإن قل) .

بسماعه . و [قِيلاً] مستثنى ، والاستثناء متصل ، وقال قوم : هو منقطع ، و [سَلَاماً] نعت لِلْقَيْلِ ، كأنه تعالى قال : إِلَّا قِيلاً سالماً من هذه العيوب وغيرها ، وقال أبو إسحق الزجاج أيضاً : [سَلَاماً] مصدر وناصبه [قِيلاً] ، كأنه تعالى ذكر أنهم يقول بعضهم لبعض : سلاماً سلاماً ، وقال بعض النحاة : [سَلَاماً] منتصب بفعل مضمّر تقديره : اسلموا سلاماً .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَأَصْحَبُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَبُ الْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظَلِيٍّ تَمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفِكَهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّامَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرْشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّا أَنشَأْنَهُنَّ إِنْسَاءً ﴿٣٥﴾ فَعَلَّنَهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ الْأُولِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾

«السِّدْرُ» شجرٌ معروف (١) ، وهو الذي يقال له : شجر أم غيلان ، وهو من العضاة له شوك ، وفي الجنة شجر على خلقته له ثمر كقلال

(١) هو شجر النَّبْتِ ، والشجرة الواحدة تُسمى : سِدْرَةٌ .

هَجْرٌ ، طيب الطعم والريح ، ووصفه تعالى بأنه مخضود ، أي مقطوع الشوك لا أذى فيه ، وقال أمية بن أبي الصلت :

إِنَّ الْحَدَائِقَ فِي الْجَنَانِ ظَلِيلَةٌ فِيهَا الْكَوَاعِبُ سِدْرُهَا مَخْضُودٌ (١)

وعبر بعض المفسرين عن [مخضود] بأنه الموقر حملاً ، وقال بعضهم : هو قطع الشوك ، وهو الصواب ، أما إن وقره هو كرمه ، ورؤي عن الضحاك أن بعض الصحابة أعجبهم سدرٌ وَجٌّ (٢) فقالوا : ليت لنا في الآخرة مثل هذا ، فنزلت الآية ، ولأهل تحرير النظر هنا إشارة في أن هذا الخضد بإزاء أعمالهم التي سلموا فيها ؛ إذ أهل اليمين توابون لهم سلام ، وليسوا بسابقين .

و «الطَّلْحُ» كذلك من العضاء شجرٌ عظيمٌ كثير الشوك ، وشبهه في الجنة على صفات كثيرة مباينة لحال الدنيا ، و [مَنْضُودٍ] معناه : مركب ثمره بعضه على بعض من أرضه إلى أعلاه . وقرأ علي بن أبي

(١) يستشهد بالبيت على أن «مخضود» بمعنى : مقطوع الشوك ، والبيت في القرطبي

وفي الدر المنثور .

(٢) وَجٌّ : قيل : وادٍ بالطائف ، وقيل : موضع بالبادية ، وقيل : هو الطائف .

(راجع اللسان) .

طالب ، وجعفر بن محمد رضي الله عنهما ، وغيرهما : ﴿ وَطَلَعٍ مَنْصُودٍ ﴾ ، فقيل لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه : إنما هو [وَطَلَحٍ] فقال : وما لِلطَّلَحِ وَالجَنَّةِ ؟ فقيل له : أنصلحها في المصحف ؟ فقال : إن المصحف اليوم لا يُهاج ولا يُغير ، وقال علي بن أبي طالب ، وابن عباس رضي الله عنهم : « الطَّلَحُ » : الموز ، وقاله مجاهد وعطاء ، وقال الحسن : ليس بالموز ولكنه شجر ظلّه بارد طيب .

و « الظِّلُّ الْمَمْدُودُ » معناه : الذي لا تنسخه شمسٌ ، ويُفسَّر ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم : (إن في الجنة شجرة يسير الراكب الجواد في ظلّها مائة سنة لا يقطعها ، واقرءوا إن شئتم ﴿ وَظِلٌّ مَمْدُودٍ ﴾) . (١) إلى غير هذا من الأحاديث في هذا المعنى ، وقال مجاهد : هذا الظل هو من طَلَحها وسدرها .

(١) أخرجه البخاري في « بدء الخلق » وفي تفسير سورة « الواقعة » ، وفي « الرقاق » ، وأخرجه مسلم والترمذي في « الجنة » ، وابن ماجه في « الزهد » ، والدارمي في « الرقاق » ، وأحمد في أكثر من موضع من مسنده ، ففي البخاري عن أبي الزناد ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، يبلغ به النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : (إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلّها مائة عام لا يقطعها ، واقرءوا إن شئتم ﴿ وَظِلٌّ مَمْدُودٍ ﴾) ، وأخرج مثله عن سهل بن سعد ، وفي رواية عن أبي سعيد (إن في الجنة لشجرة يسير الراكب الجواد المُضْتَمِّر السريع في ظلّها مائة عام ما يقطعها) .

وقوله تعالى : ﴿لَا مَقْطُوعَةَ﴾ أي : بزوال الإبان (١) كحال فاكهة الدنيا ، ﴿وَلَا مَمْنُوعَةَ﴾ ببعد التناول ، ولا بشوك يؤدي في شجراتها ، ولا بوجه من الوجوه التي تمتنع بها فاكهة الدنيا .

وقرأ جمهور الناس : [وَفُرُشٍ] بضم الراء ، وقرأ أبو حيوة : [وَفُرُشٍ] بسكونها ، والفرش : الأسرة ، وروي من طريق أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن في ارتفاع السرير منها مسيرة خمسمائة سنة ، وهذا والله أعلم لا يثبت ، وإن قُدِّرَ فمتأولُ خارج عن ظاهره ، وقال أبو عبيدة وغيره : أراد بالفرش النساء ، و [مَرْفُوعَةَ] معناه في الأقدار والمنازل ، ومن هذا المعنى قول الشاعر :

ظَلَلْتُ مُفْتَرِشَ الْهَلْبَاءِ تَشْتُمِي عِنْدَ الرَّسُولِ فَلَمْ تَصْدُقْ وَلَمْ تُصِبِ (٢)

ومنه قول الآخر في تعديده على صهره : «وَأَفْرُشْتُكَ كَرِيمِي» (٣) .

(١) الإبان : الأوان . قال الشاعر : «وَلِحَصْدِ الزَّرْعِ إِبَانٌ» ، أي : وقت مُحَدَّدٌ وأوان .
 (٢) يستشهد ابن عطية بهذا البيت على أن المرأة تسمى فراشاً ، وصحيح أن العرب تسمى المرأة فراشاً ولباساً وإزاراً ، لكن هذا لا يتفق مع معنى البيت ، إذ كيف يتفق افتراش المخاطب لامرأة هَلْبَاءٍ وهو يشتم الشاعر عند الرسول ؟ وكلمة الهلباء تطلق على المرأة الكثيرة الشعر ، وعلى الناقة أو الدابة ، وعلى مقعد الإنسان ، وكل من الأمرين الأخيرين يمكن فهم البيت على أساسه فهما أقرب من فهمه على الأمر الأول .
 (٣) هذا واضح الدلالة على أن المرأة تُسَمَّى فراشاً ، فهو يقول لصهره : لقد جعلتُ كَرِيمِي فراشاً لك ، وهي نعمة تستحق الذكر .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً ﴾ ، قال قتادة : الضمير عائدة على « الحور العين » المذكورات قبل ، وهذا فيه بُعْدٌ لَأَنَّ تِلْكَ قِصَّةٌ قَدْ انْقَضَتْ جُمْلَةٌ ، وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ مَعْمَرٌ : قَدْ ذَكَرْهُنَّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَفَرِّشَ مَرْفُوعَةً ﴾ فَلِذَلِكَ رَدَّ الضَّمِيرَ وَإِنْ لَمْ يَتَقَدَّمْ ذِكْرٌ لِدَلَالَةِ الْمَعْنَى عَلَى الْمَقْصِدِ ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴾ (١) وَنَحْوِهِ ، وَ [أَنْشَأْنَاهُنَّ] مَعْنَاهُ : خَلَقْنَاهُنَّ شَيْئاً بَعْدَ شَيْءٍ ، وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ : (عَجَائِزُ كُنَّ فِي الدُّنْيَا عُمُشاً رُمُصاً) (٢) ، وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لِعَجُوزٍ : (إِنَّ الْجَنَّةَ لَا يَدْخُلُهَا عَجُوزٌ) ، فَحَزَنْتُ فَقَالَ : (إِنَّكَ إِذَا دَخَلْتَ الْجَنَّةَ أَنْشَأَتْ خَلْقاً آخَرَ) (٣) .

(١) من الآية (٣٢) من سورة (ص) .

(٢) رواه الترمذي ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وقال الترمذي : غريب ، وزاد السيوطي في الدرِّ نسبة إلى عبد بن حميد ، والبيهقي في البعث ، والفريابي ، وهناد ، وابن المنذر ، وابن مردويه ، عن أنس رضي الله عنه . والشُّمُطُ : جمع شُمَّطَاءَ وهي التي اختلطت سواد شعرها بيباض - وقد ورد وصفهن بذلك في بعض الروايات - والعُمُشُ : جمع عُمُشَاءَ وهي التي ضعف بصرها مع سيلان دمع العين في أكثر الأوقات ، والرَّمَصُ : وسخ أبيض يتجمع في موق العين ، ويقال : رَمِصَ فلان فهو أرْمِصٌ ، وهي رمضاء .

(٣) أخرجه عبد بن حميد ، والترمذي في الشمائل ، وابن المنذر ، والبيهقي في البعث ، عن الحسن ، وأخرجه البيهقي في الشعب عن عائشة رضي الله عنها ، كذلك أخرجه الطبراني في الأوسط عن عائشة رضي الله تعالى عنها . (الدر المنثور) .

قوله تعالى : ﴿ فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً ﴾ ، قيل : معناه : دائمات البكارة ، متى عاود الواطئٌ وجدها بكرأ . و « العُروبُ » جمع عروب وهي المتحبيبةُ إلى زوجها بإظهار محبته ، قاله ابن عباس ، والحسن ، وعبر عنهن ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً بالعواشق ، ومنه قول لبيد :

وفي الحدوجِ عروبٌ غيرُ فاحشةٍ رِيًّا الروادِفِ يَعشى دُونها البَصْرُ (١)
وقال ابن زيد : العروبُ : الحسنَةُ الكلام ، وقد تجيءُ العروبُ صفةً ذمًّا على غير هذا المعنى ، وهي الفاسدة الأخلاق كأنها عربت (٢) ،
ومنه قول الشاعر :

وَمَا بَدَلٌ مِنْ أُمَّ عُمَانَ سَلْفَعُ مِنْ السُّودِ وَرَهَاءِ الْعِنَانِ عَرِيبُ (٣)

(١) قاله لبيد بن ربيعة العامري من قصيدة له يتغنى فيها بالحياة الصحراوية ، ويفتخر بمآثره ، والحدوج : جمع حدج وهو مركب للنساء كالهودج يوضع على ظهور الإبل ، ويروى البيت : « وفي الخدور » ، والعروب : المرأة التي تتحسب إلى زوجها ، وهو موضع الاستشهاد هنا ، وريًّا الروادِفِ : ممتلئة العجيزة ، ويعشى : يكللُ ويضعف البصر من شدة الضوء .

(٢) التعريب : الفحش وما قبُح من الكلام ، ومنه حديث عطاء : أنه كره الإعراب للمحرم ، وهو الإفحاش في القول .

(٣) البيت في التاج واللسان ، وقد استشهد به على أن المرأة العروب هي « العاصية لزوجها ، الخائنة بفرجها ، الفاسدة بنفسها » ، قال صاحب اللسان حكاية عن ابن سيده : « وأنشد ثعلب هذا البيت ولم يُفسره . قال : وعندني أن « عروب » في هذا البيت : الضحَاكَةُ ، وهم يعيبون النساء بالضحك الكثير ، ورواية البيت فيهما تختلف عما هنا ، فهي هناك :

وقرأ ابن كثير ، وابن عامر ، والكسائي : [عُرْباً] بضم الراء ،
 وقرأ حمزة ، والحسن : [عُرْباً] بسكونها ، وهي لغة بني تميم ،
 واختلف عن نافع ، وأبي عمرو ، وعاصم .

وقوله تعالى : [أَتْرَاباً] معناه : في الشكل والقَدْحِ حتى يقول الرائي :
 هم أترابٌ ، والتَّربُّ هو الذي مَسَّ التُّرابَ مع تَرْبِهِ في وقت واحد ،
 وقال قتادة : [أَتْرَاباً] بمعنى : سناً واحدة ، ويروى أن أهل الجنة
 هم على قدر ابن أربعة عشر عاماً في الشباب والنُّصرة ، وقيل : على
 أمثال أبناء ثلاث وثلاثين سنة ، مُرداً بيضاً مكحلين .

واختلف الناس في قوله تعالى : ﴿ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾
 - فقال الحسن بن أبي الحسن وغيره : الأولون : سالفُ الأمم ،
 منهم جماعةٌ عظيمة هم أصحاب اليمين ، والآخرون : هذه الأمة ،
 منهم جماعة عظيمة أهل يمين .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

بل جميعهم إلا من كان من السابقين .

= فَمَا خَلَفَ مِنْ أُمَّ عِمْرَانَ سَلْفَعُ مِنْ السُّودِ وَرَهَاءِ الْعَيْنَانِ عَسْرُوبُ
 وَالسَّلْفَعُ : السليطة الجريئة . وقيل : هي قليلة اللحم السريعة المشي ، وفي الحديث (شُرْهَنَ
 السَّلْفَعَةَ) أي البدئيةُ الفحاشةُ القليلة الحياء ، والورهاء : الخرفاء الحمقاء في كل عمل .

وقال قوم من المتأولين : هاتان الفرقتان في أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، وروى ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (الثَلَتَانِ مِنْ أُمَّتِي) (١) ، فعلى هذا التابعون بإحسان ومن جرى مجراهم ثلثة أولى ، وسائر الأئمة ثلثة أخرى في آخر الزمان .

قوله عز وجل :

﴿ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِي سُمُورٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلِّ
مِنْ يَحْمُورٍ ﴿٤٣﴾ لَأَبَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾
وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا
أَؤْنَا لَمَّبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوْءَابَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾
لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ﴾

إعراب قوله تعالى : ﴿ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴾
قد تقدّم في نظيره (٢) ، وفي الكلام هنا معنى الإنحاء عليهم وتعظيم
مصائبهم .

(١) سبق تخريجه عند تفسير الآيتين (١٣ : ١٤) من هذه السورة ، ص (٢٣٦) .
(٢) وذلك عند تفسير قوله تعالى : ﴿ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴾ ،
ص (٢٣٢) من هذا الجزء .

و «السَّمُومُ» : أشدُّ ما يكون عند الحرِّ اليابس الذي لا بلل معه .
و «الحَمِيمُ» : الأسود ، وهو بناءٌ مبالغة ، واختلف الناس في
هذا الشيء الأسود الذي يُظَلُّ أهل النار ، ما هو ؟ فقال ابن عباس ،
ومجاهد ، وأبو مالك ، وابن زيد : هو الدخان ، وهذا قول الجمهور ،
وقال ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً : هو سرادق النار المحيط بأهلها ،
فإنه يرتفع من كل ناحية حتى يُظَلُّهم . وحكى النقاش أن «اليَحْمُومُ»
اسمٌ من أسماء جهنم ، وقاله ابن كيسان ، وقال ابن أبي بريدة ،
وابن زيد أيضاً في كتاب الثعلبي : هو جبلٌ في النار أسودٌ يَفْزَعُ أهلُ
النار إلى ذراه فيجدونه أشدَّ شيءٍ وأمره .

قوله تعالى : ﴿وَلَا كَرِيمٍ﴾ ، قال الطبري وغيره : معناه : ليس
له صفة مدح في الظلال ، وهذا كما تقول : ثوب كريم ونسب كريم ،
تعني بذلك أن له صفات مدح (١) ، ويحتمل أن يصفه بعدم الكرم
على معنى ألا كرامة لهم ، وذلك أن المرء في الدنيا قد يصبر على سوء
الموضع لقريئة إكرام يناله فيه من أحد ، فجمع هذا الظلُّ في النار
أنه سيئُ الصفة وهم فيه مُهانون .

(١) عبارة الطبري أوضح من هذا ، فقد قال : « ليس بكريم لأنه يؤلم كل من استظلَّ
به ، والعربُ تُتَّبِعُ كلَّ منفي عنه صفة حمْدٍ نَقِيَّ الكرم عنه ، فتقول : ما هذا الطعام
بطيب ولا كريم ، وما هذا اللحم بسمين ولا كريم ، وما هذه الدار بنظيفة ولا كريمة » .

و «المُتَرَفُّ» : المنعم في سرف وتخوض ، و [يُصِرُّونَ] معناه : يعتقدون اعتقاداً لا يَنوونُ عنه إقلاعاً ، قال ابن زيد : لا يتوبون ولا يستغفرون ، و «الحِنْتُ» : الإثم ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : (من مات له ثلاثة من الولد لم يبلغوا الحنثَ ...) الحديث (١) ، أراد عليه الصلاة والسلام : لم يبلغوا الحُلْمَ فتتعلق بهم الآثام ، وقال الخطابي : الحنثُ في كلام العرب العِدْلُ الثقيل ، يشبه الإثم به . واختلف المفسرون في المراد بهذا الإثم - فقال قتادة ، والضحاك ، وابن زيد : هو الشرك ، وهذا هو الظاهر ، وقال قوم - فيما ذكر مكي - : هو الحنث في قَسَمهم الذي يتضمنه قوله تعالى : ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ الآية (٢) في التكذيب بالبعث ، وهذا أيضاً يتضمن

(١) أخرجه البخاري في العلم والجنائز ، ومسلم في البِرِّ ، والترمذي ، وابن ماجه ، والنسائي في الجنائز ، وأحمد في مواضع كثيرة من مسنده ، ولفظه فيه : عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ما من مسلمين يموت لهما ثلاثة من الولد لم يبلغوا الحنثَ إلا كانوا لهما حصناً حصيناً من النار) ، فقيل : يا رسول الله ، فإن كانا اثنين ؟ قال : (وإن كانا اثنين) ، فقال أبو ذرٍّ رضي الله عنه : يا رسول الله ، لم أقدم إلا اثنين ، قال : (وإن كانا اثنين) ، قال : فقال أُبيُّ بن كعب أبو المنذر سيّد القراء رضي الله عنه : لم أقدم إلا واحداً ، قال : فقيل له : وإن كان واحداً ؟ فقال : (إنما ذلك عند الصدمة الأولى) .

(٢) من الآية (٣٨) من سورة (النحل) .

الكفر ، فالقول به على عمومه أولى ، وقال الشعبي : الحِنْثُ العَظِيمُ :
اليَمِينُ الغَمُوسُ (١) .

وقد تقدم ذكر اختلاف القراء في قوله تعالى : [أَيْدَا] و [أَيْنَا] ،
ويختص من ذلك بهذا الموضع أن ابن عامر يخالف فيه أصله فيقرأ :
[أَيْدَا] [أَيْنَا] بتخفيف الهمزتين فيهما على الاستفهام ، ورواه أبو
بكر عن عاصم في قوله تعالى : ﴿أَيْنَا لَمَبْعُوثُونَ﴾ . والعامل في قوله
تعالى : [أَيْدَا] فعل مضمر يدل عليه قوله تعالى : [لَمَبْعُوثُونَ] ،
تقديره : أَنْبَعْتُ أَوْ أَنْحَشَرْتُ؟ ولا يعمل فيه ما بعده لأنه مضاف إليه ،
وقرأ عيسى الثقفي : [مُتْنَا] بضم الميم ، وقرأ جمهور الناس :
[مِتْنَا] بكسرها ، وهذا على لغة من يقول : مِتُّ أَموت على وزن فَعَلَ
بكسر العين يفْعَلُ بضمها ، ولم يُحَكَّ منها عن العرب إلا هذه اللفظة
وأخرى هي فَضِلْ يَفْضُلُ . وقرأ بعض القراء : ﴿أَوْ آبَاؤُنَا﴾ بسكون
الواو من [أَوْ] ، ومعنى الآية استبعاد أن يبعثوا هم وآباؤهم على حد
واحد من الاستبعاد ، وقرأ الجمهور : ﴿أَوْ آبَاؤُنَا﴾ بتحريك الواو
على أنها واو العطف دخل عليها ألف الاستفهام ، ومعناها شدة الاستبعاد

(١) اليمين الغموس : الكاذبة ، تغمس صاحبها في الإثم ، وفي الحديث (اليمين الغموسُ
تذر الديار بلاقع) .

في الآباء ، كأنهم استبعدوا أن يُبعثوا ثم أتوا بذكر من البعث فيهم أبعد ، وهذا بين لأهل العلم بلسان العرب .

ثم أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يعلمهم بأن العالم محشور مبعوث ليوم معلوم مؤقت . و [مِيقَات] مِفعال من الوقت ، كميعاد من الوعد .

قوله عز وجل :

﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَأَكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زُقُومٍ ﴿٥٢﴾ فَالْعُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَرِبُونَ شُرْبَ الْهَلِيمِ ﴿٥٥﴾ هَذَا نُزِئَهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴿٥٦﴾ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ أَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰ أَنْ تُبَدَّلَ أُمَّتُكُمْ وَنُشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ ﴾ بالمخاطبة لكفار قريش ومن كان في حالهم ، و [مِنْ] في قوله تعالى : ﴿ مِنْ شَجَرٍ ﴾ يحتمل أن تكون للتبعية ، ويحتمل أن تكون لابتداء الغاية ، و [مِنْ] في قوله تعالى : ﴿ مِنْ ﴾

زَقُومٍ) لبيان الجنس ، والضمير في [مِنْهَا] عائد على الشجر ،
و [مِنْ] للتبعيض أو لابتداء الغاية ، والضمير في [عَلَيْهِ] عائد على
المأكول أو على الأكل ، وفي قراءة ابن مسعود رضي الله عنه : «لَا كِلُونَ
مِنْ شَجَرَةٍ» على الأفراد .

و [أَلْهِيمِ] قال ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، والضحاك :
هو جمع «أَهْيَمِ» وهو الجمل الذي أصابه الهَيْامُ - بضم الهاء -
وهو داءٌ معطش يشرب منه الجمل حتى يموت أو يسقم سقماً شديداً ،
والأُنْثَى هيماءٌ ، وقال بعضهم : هو جمع هيماءَ كعَيْنَاءَ وَعَيْنٍ وَبَيْضَاءَ
وَبَيْضٍ ، وقال قوم آخرون : هو جمع هايم وهائمة ، وهو أيضاً من
هذا المعنى لأن الجمل إذا أصابه ذلك هام على وجهه وذهب ، وقال
ابن عباس ، وسفيان الثوري : الهَيْمُ هنا الرمال التي لا تُرَوَى من الماء ،
وذلك أن الهَيْامَ - بفتح الهاء - هو الرمل اللدق الغمر المتراكم ، وقال
ثعلب : الهَيْامُ - بضم الهاء - الرَّمْلُ الذي لا يتماسك . وقرأ ابن
كثير ، وابن عامر ، وأبو عمرو ، والكسائي : (شَرِبَ أَلْهِيمِ)
بفتح الشين ، وهي قراءة الأعرج ، وابن المسيب ، وشعيب بن الحبحاب ،
ومالك بن دينار ، وابن جريج ، ولا خلاف أنه مصدر ، وقرأ مجاهد :
(شَرِبَ أَلْهِيمِ) بكسر الشين ، ولا خلاف أنه اسم ، وقرأ أهل

المدينة وباقي السبعة : ﴿شُرِبَ أَلْهِيمِ﴾ بضم الشين ، واختلف فيه - فقال قوم : هو مصدر ، وقال آخرون : هو اسم لما يُشرب .

و «النُّزْلُ» : أول ما يأكل الضيف ، وقرأ أبو عمرو - في رواية ابن عياش - : [نُزْلُهُمْ] بسكون الزاي ، وقرأ الباقون ، واليزيدي عن أبي عمرو بضم الزاي ، وهما بمعنى كاشَّغَلَ والشَّغَلَ .
و «الدين» : الجـزاء .

ثم أخبر تعالى أنه الخالق ، وحضَّ على التصديق على وجه التقريع ، ثم ساق تعالى الحجة الموحية للتصديق ، كأن معترضاً من الكفار قال : ولم أصدق ؟ فقل له : أفرايت كذا وكذا ؟ الآيات ، وليس يوجد مفطورٌ يخفى عليه أن المني الذي يخرج منه ليس فيه عمل ولا إرادة ولا قدرة ، و [أم] في قوله تعالى : ﴿أَمْ نَحْنُ الْأَخْلَقُونَ﴾ ليست المعادلة عند سيبويه ؛ لأن الفعل قد تكرر ، وإنما المعادلة عنده : أقام زيد أم عمرو ؟ وهذه التي في هذه الآية معادلة عند قوم من النحاة .
وأما إذا تغاير الفعلان فليست بمعادلة إجماعاً ، وقرأ الجمهور : [تُمنون] بضم التاء ، وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما ، وأبو السَّمال : [تَمُنُونَ] بفتح التاء ، ويقال : «أمني الرجل ومني» بمعنى واحد .

وقرأ جمهور القراء : ﴿ نَحْنُ قَدَرْنَا ﴾ بشد الدال ، وقرأ ابن كثير وحده : ﴿ نَحْنُ قَدَرْنَا ﴾ بتخفيف الدال ، والمعنى فيهما يحتمل أن يكون بمعنى : قضينا وأثبتنا ، ويحتمل أن يكون بمعنى : سوينا وعدلنا التَّقْدِمُ والتَّأخُّرُ ، أي جعلنا الموت رُتْباً ، ليس يموت العالم دفعة واحدة بل بترتيب لا يعدوه أحد ، وقال الطبري : معنى الآية : قدرنا بينكم الموت على أن نبدل أمثالكم ، أي تموت طائفة ونبدلها بطائفة ، وهكذا قرناً بعد قرن ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾ أي على تبديلكم إن أردناه ، وأن ننشئكم بأوصاف لا يصلها علمكم ولا تحيط بها فكركم ، قال الحسن : من كونهم قردة وخنازير .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

تأول الحسن هذا لأن الآية تنحو إلى الوعيد ، وجاءت لفظة السبق هنا على نحو قوله صلى الله عليه وسلم : (فَإِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَلَّا تُغْلِبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَصَلَاةٍ قَبْلَ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا لَا تَفُوتُنْكُمْ) (١) .

(١) أخرجه البخاري في المواقيت وفي تفسير سورة (ق) وفي التوحيد ، وأبو داود في السنّة ، والترمذي في الجنة ، وابن ماجه في المقدمة ، وأحمد في مسنده (٤-٣٦٠ ، ٣٦٢ ، =

وقرأ جمهور الناس : [النشأة] بسكون الشين ، وقرأ قتادة ،
وأبو الأشهب (١) ، وأبو عمرو - بخلاف - : [النشأة] بفتحها
وبالمد ، وقال أكثر المفسرين : أشار إلى خلق آدم عليه السلام ،
ووقف عليه لأنك لا تجد أحداً ينكر أنه من ولد آدم عليه السلام ،
وأنه من طين ، وقال بعضهم : أراد تعالى بالنشأة الأولى نشأة
إنسان إنسان في طفولته ، فيعلم المرء نشأته كيف كانت بما يرى من
نشأة غيره .

ثم حَضَّضَ تعالى على التذكُّر والنظر المؤدي إلى الإيمان ، وقرأ
الجمهور : ﴿ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ مشددة الذال ، وقرأ طلحة : ﴿ فَلَوْلَا
تَذَكَّرُونَ ﴾ بسكون الذال وضم الكاف ، وهذه الآية نصٌّ في استعمال
القياس والحضُّ عليه .

= (٣٦٥) ، ولفظه كما جاء في مسند أحمد : قال : سمعت قيس بن أبي حازم يحدث عن جرير ،
قال : كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة البدر ، فقال : إنكم سترون ربكم عزَّ وجلَّ
كما ترون القمر لا تضامون في رؤيته ، فإن استطعتم ألا تغلبوا على هاتين الصلاتين قبل طلوع
الشمس وقبل الغروب ، ثم تلا هذه الآية : ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ
وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴾ ، قال شعبة : لا أدري قال (فإن استطعتم) أو لم يقل .

(١) هو جعفر بن حيَّان السعدي ، أبو الأشهب العطاردي ، البصري ، مشهور بكنيته ،
ثقة : من السادسة ، مات سنة خمس وستين وله خمس وتسعون سنة . (تقريب التهذيب) .

قوله عز وجل :

﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴿٧٣﴾ ءَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ ۖ أَمْ نَحْنُ الَّذِينَ نَزَّرْنَا لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطًا مَّا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٧٤﴾ إِنَّا لَمَغْرُمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٧٦﴾ أَفَرَأَيْتُمْ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٧٧﴾ ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴿٧٨﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أَجَاجًا فَلَوْلَا نَشْكُرُونَ ﴿٧٩﴾ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴿٨٠﴾ ءَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ ﴿٨١﴾ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقِيمِينَ ﴿٨٢﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٨٣﴾ ﴾

وقف تعالى الكفار على أمر الزرع الذي هو قوام العيش ، وبين لكل مفطور أن الحراث الذي يثير الأرض ويفرق الحب ليس يفعل في نبات الزرع شيئاً ، وقد يُسمى الإنسان زارعاً ، ومنه قوله تعالى : ﴿ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ ﴾ (١) ، لكن معنى هذه الآية : أنتم تزرعونه زرعاً يتم أم نحن ؟ وروى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (لا تقولن زرعتم ، ولكن قل : حرثت) ، ثم تلا أبو هريرة رضي الله عنه هذه الآية (٢) .

(١) من الآية (٢٩) من سورة (الفتح) .

(٢) أخرجه البزار ، وابن جرير ، وابن مردويه ، وأبو نعيم ، والبيهقي في «شعب الإيمان»

وضعه . (الدر المنثور) .

و «الْحُطَامُ» : أَيَابِسِ الْمُتَفَتِّتِ مِنَ النَّبَاتِ الصَّائِرِ إِلَى ذَهَابٍ ،
 وبه شبه حطام الدنيا ، وقيل : المعنى : تَبْنًا لَا قَمَحَ فِيهِ ، و [تَفَكَّهُونَ]
 قال ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة : معناه : تعجبون ، وقال عكرمة :
 تلاومون ، وقال الحسن : معناه : تندمون ، وقال ابن زيد : تتفججئون ،
 وهذا كله تفسير لا يخصُّ اللفظة ، والذي يخصُّ اللفظة هو : تطرحون
 الفكاهة عن أنفسكم ، وهي المَسْرَّةُ وَالْجَزْلُ ، ورجلٌ فَكِهٌ إِذَا كَانَ
 منبسط النفس غير مكترث بشيءٍ ، و «تَفَكَّهُ» من أَخَوَاتِ «تَحَرَّجَ»
 و «تَحَوَّبَ» . وقرأ الجمهور : [فَطَلَلْتُمْ] بفتح الظاء ، وروي سفيان
 الثوريُّ في قراءة عبد الله كسَرَ الظَّاءِ ، قال أبو حاتم : طُرحت عليها
 حركة اللام المحذوفة ، وذلك رديٌّ في القياس ، وهي قراءة أبي
 حَيَّوَةَ ، وروى أحمد بن موسى : [فَطَلَلْتُمْ] بلامين الأولى مفتوحة
 عن الجحدري ، ورويت عن ابن مسعود رضي الله عنه بكسر اللام الأولى .
 وقوله تعالى : ﴿ إِنَّا لَمُعْرَمُونَ ﴾ قبله حذف تقديره : «يقولون» ،
 وقرأ الأعمش ، وعاصم الجحدري : ﴿ أَئِنَّا لَمُعْرَمُونَ ﴾ بهمزتين
 على الاستفهام ، والمعنى يحتمل أن يكون : إنا المذبذبون من الغرام ،
 وهو أشد العذاب ، ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾ (١) ،

(١) من الآية (٦٥) من سورة (الفرقان) .

ومنه قول الأعشى :

إِنْ يُعَذَّبُ يَكُنْ غَرَامًا وَإِنْ يُعَدُّ : ط جَزِيْلًا فَإِنَّهُ لَا يُبَالِي (١)
ويحتمل أن يكون المعنى : إنا لمحمّلون الغرام ، أي غرمننا في النفقة
وذهب زرعنا ، تقول : «غَرِمَ الرجلُ وأَغْرَمْتُهُ فهو مُغْرَمٌ» ، وتقدم
تفسير «المحروم» وأنه المحدود (٢) المُحَارَف (٣) .

و «المُزْنُ» : السحابُ بلا خلاف ، ومنه قول الشاعر :

وَنَحْنُ كَمَا الْمُزْنِ مَا فِي نِصَابِنَا كَهَامٌ وَلَا فِينَا يُعَدُّ بِخَيْلٍ (٤)
و «الأُجَاجُ» أشدُّ المياه ملوحة ، وهو ماءُ البحر الأخضر . و [تُورُونَ]

(١) البيت من قصيدة طويلة يمدح فيها الأعشى إياس بن قبيصة الطائي . وهو في الديوان ،
وفي اللسان والتاج ، والرواية فيها كلها : (إِنْ يُعَاقِبُ) بدلا من (إِنْ يُعَذَّبُ) . والغرامُ :
اللازم من العذاب ، والشرُّ الدائم ، والوَلُوعُ بالشئِ ، والجَزِيلُ : الكثير العظيم ، يمدحه
بِحُبِّ العقوبة والتعذيب إذا فعلهما ، وبالكرم الشديد .

(٢) المحدود : القليل الحظ ، الممنوع من الخير .

(٣) المحارَف : المحروم يتطلَّبُ فلا يُرْزَقُ . ولا يصيب خيراً من أي وجه توجه له .

(٤) هذا البيت للسَّمَوَّال ، وهو من قصيدته المشهورة التي قالها في الافتخار والاعتزاز

بالنسب ، والتي يقول في مطلعها :

إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَدْنَسْ مِنْ اللَّؤْمِ عِرْضُهُ فَكُلُّ رِدَاءٍ يَرْتَسِدِيهِ جَمِيْلٌ
والمُزْنُ : السحابُ الأبيض ، واحده : مُزْنَةٌ ، والنِّصَابُ : الأَصْلُ ، والكَهَامُ : الضَّعِيفُ
المُسِينُ ، وهما استعارة من «النصاب» بمعنى : المُدْيَةِ ، ومن الكهَام بمعنى : غير القاطع .

معناه : تقتدحون من الأزند ، تقول : أوريت النار من الزناد ، وورى الزنادُ نفسه ، والزناد قد يكون من حجرين ومن حجر وحديدة ومن شجر لاسيما في بلاد العرب ، فإن أزندهم من شجر ولاسيما في الشجر الرخو كالمرخ والعفرار والكلخ وما أشبهه ، ولعادة العرب في أن زنادهم من شجر قال تعالى : ﴿أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا﴾ ، وقال بعض أهل النظر : أراد بالشجرة نفس النار ، كأنه تعالى يقول : نوعها أو جنسها ، فاستعار الشجرة لذلك ، وهو قول فيه تكلف . وقرأ الجمهور : [أَنْتُمْ] بالمد ، وروي عن أبي عمرو ، وعيسى : [أَنْتُمْ] بغير مد ، وضعفها أبو حاتم .

و [تَذَكِّرَةَ] معناه : تُذَكِّرُ نار جهنم ، قاله مجاهد وقتادة ، و «المتاع» ما يُنتَفَعُ به ، و «المُقْوِينَ» في هذه الآية : الكائنون في الأرض القواء ، وهي الفيافي ، وعبر الناس في تفسير «المُقْوِينَ» بأشياء ضعيفة ، كقول ابن زيد : الخائفون ونحوه ، ولا يقوم منها إلا ما ذكرناه ، ومن قال معناه : المسافرون فهو نحو ما قلناه ، وهي عبارة ابن عباس رضي الله عنهما ، تقول : «أصبح الرجل» دخل في الصباح ، و «أَصْحَرَ» دخل في الصحراء ، و «أَقْوَى» دخل في الأرض القواء ، ومنه «أَقْوَت الدارُ ، وأَقْوَى الطَّلُلُ» أي صار قواءً ،

ومنه قول النابغة :

أَقْوَتْ وَطَالَ عَلَيْهَا سَالِفُ الْأَبَدِ (١)

وقول الآخر :

أَقْوَى وَأَقْفَرَ بَعْدَ أُمِّ الْهَيْثِمِ (٢)

والفقير والغني إذا أقويا سواء في الحاجة إلى النار ، ولا شيء يغني عنها في البرد ، ومن قال : « إن أقوى من الأضداد من حيث يقال أقوى الرجل إذا قويت دابته » فقد أخطأ ، وذلك فعل آخر كأترب إذا أشرى .

(١) هذا عجز بيت قاله النابغة الذبياني في مطلع قصيدة يمدح بها النعمان بن المنذر . ويعتذر إليه مما بلغه عنه من أنه يحب المتجردة زوج النعمان ، والبيت بتمامه :

يا دارَ مِيَّةَ بِالْعَلِيَاءِ فَالسَّنْدِ أَقْوَتْ وَطَالَ عَلَيْهَا سَالِفُ الْأَبَدِ

والعَلِيَاءُ - بفتح العين وبالمدة - : رأسُ الجبل . والسَّنْدُ : ما علا عن سمنح الجبل ، وعطف السَّنْدُ بالفاء هنا يفيد أن دار مِيَّةَ كانت بالعلياء لكنها متصلة بالسَّنْدِ . وَأَقْوَتْ : أقفرت وصارت خاوية خربة ، وهو موضع الاستشهاد هنا . والأبد : الدهر ، والسالف : الماضي . يقول : طال عليها ما مضى من الدهر فصارت خراباً خاوية .

(٢) البيت من معلقة عنزة « هل غَادَرَ الشُّعْرَاءُ مِنِّ مُتَرَدِّمٌ . وهو بتمامه :

حِيَّتَ مِنْ طَلَلٍ تَقَادَمَ عَهْدُهُ أَقْوَى وَأَقْفَرَ بَعْدَ أُمِّ الْهَيْثِمِ

وَالطَّلَلُ : ما بقي شاخصاً من آثار الديار ، والجمع أطلالٌ وطلُولٌ . والإقواء والإقفار : الخلاء ، وقد جمع بينهما لضرب من التأكيد ، وأُمُّ الْهَيْثِمِ : كنية عبلة ، يحيه من بين الأطلال . أي يخصه بالتحية من بين الأطلال . ثم يقول : لقد قدم عهده بأهله ، وقد خلا من السكان بعد رحيل حبيته عنه .

ثم أمر تبارك وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بتنزيه ربه عز وجل وتنزيه أسمائه العلى عما يقوله الكفرة الذين حُجوا في هذه الآيات .

قوله عز وجل :

﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّو تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾

اختلف الناس في [لَا] من قوله تعالى : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴾ - فقال بعض النحويين : هي زائدة ، والمعنى : فأقسم ، وزيادتها في بعض المواضع معروف (١) ، كقوله تعالى : ﴿ لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ ﴾ (٢) ، وغير ذلك ، وقال سعيد بن جبير وبعض النحويين :

(١) أي : أمرٌ معروف .

(٢) من الآية (٢٩) من سورة (الحديد) .

هي نافية ، كأنه تعالى يقول : فلا صححة لما يقوله الكفار ، ثم ابتداءً تبارك وتعالى فقال : «أُقَسِّمُ» (١) ، وقال بعض المتأولين : هي مؤكدة تعطي في القَسَمِ مبالغة ، وهي كاستفتاح كلام يشبهه في القَسَمِ لا في شائع الكلام ، ومنه قول الشاعر :

* فَلَا وَآبِي لَا أَخُونَهَا * (٢)

المعنى : «فَوآبِي» ، ولهذا نظائر ، وقرأ الحسن والثقفى : ﴿فَلَا تُقْسِمُ﴾ بغير ألف ، قال أبو الفتح : التقدير : فَلَانَا أُقْسِمُ . (٣)

وقرأ الجمهور من القراء : [بِمَوَاقِعِ] على الجمع ، وقرأ عمر ابن الخطاب ، وابن مسعود ، وابن عباس - رضي الله تعالى عنهم - وأهل الكوفة ، وحمزة ، والكسائي : [بِمَوْقِعِ] على الأفراد ،

(١) معنى هذا أن النفي محذوف ، وهذا المنفي هو اسم (لا) وخبرها ، ولهذا قال أبو حيان في البحر : إن هذا لا يجوز بسبب حذف الاسم والخبر . وهذا أمرٌ لا يجوز إلا إذا دلَّ عليهما من الكلام دليل ، كأن يقع الكلام جواباً لسؤال ، وهو ما لم يحدث هنا .

(٢) في مكان النقط (....) كلمة غير واضحة ، والشاهد ذكره ابن عطية ، وإذا قدرنا (لا) أداة استفتاح مثل (ألا) كان في هذا تنبيه على فضيلة القرآن ليتدبروه ، ذكر هذا القرطبي وغيره .

(٣) قال أبو الفتح : «لأن هذا فعل حالٍ - أي حاضر - ولو أريد الفعل المستقبل لزم فيه النون فقيل : «لأُقْسِمَنَّ» .

وهو مرادُّ به الجمع ، ونظير هذا كثير ، ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْكَرَ
الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ أَحْمِيرٍ ﴾ (١) ، جَمَعَ من حيث لكل حمار صوت
مختص ، وأفرد من حيث الأصوات كلها صوت .

واختلف الناس في « النجوم » هنا - فقال ابن عباس ، وعكرمة ،
ومجاهد ، وغيرهم : هي نجوم القرآن التي نزلت على محمد صلى الله
عليه وسلم ، وذلك أنه رُوي أن القرآن نزل من عند الله عزَّ وجلَّ
في ليلة القدر إلى السماء الدنيا - وقيل : إلى البيت المعمور - جملة
واحدة ، ثم نزل بعد ذلك على محمد صلى الله عليه وسلم نجوماً مقطعة
في مدَّة من عشرين سنة ، ويؤيد هذا القول عودُ الضمير على القرآن
في قوله سبحانه : ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴾ ، وذلك أنَّ ذكره لم يتقدم
إلَّا على هذا التأويل ، ومن لا يتأول هذا التأويل يقول : إن الضمير
يعود على القرآن وإن لم يتقدم له ذكر لشهرة الأمر ووضوح المعنى ،
كقوله تعالى : ﴿ حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴾ (٢) ، و ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا
فَانٍ ﴾ (٣) ، وغير ذلك . وقال جمهور كثير من المفسرين : النجوم

(١) من الآية (١٩) من سورة لقمان .

(٢) من الآية (٣٢) من سورة ص .

(٣) من الآية (٢٦) من سورة الرحمن .

هنا الكواكبُ المعروفة ، واختُلف في مواقعها - فقال مجاهد وأبو عبيدة : هي مواقعها عند غروبها وطلوعها ، وقال قتادة : مواقعها هي مواضعها من السماء ، وقيل : مواقعها عند الانقضاء إثر العفاريت ، وقال الحسن : مواقعها عند انكدار النجوم .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ ﴾ تأكيدٌ للأمر وتنبيه من المقسم به ، وليس هذا باعتراض بين الكلامين ، بل هذا معنى قصد التَّهْم به ، وإنما الاعتراض قوله تعالى : ﴿ لَوْ تَعْلَمُونَ ﴾ ، وقد قال قوم : إن قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ ﴾ اعتراض ، وإنَّ ﴿ لَوْ تَعْلَمُونَ ﴾ اعتراضٌ في اعتراض ، والتحرير هو الذي ذكرناه ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ ﴾ هو الذي وقع القَسَم عليه ، ووصفه بالكرم على معنى إثبات صفات المدح له ودفع صفات الحطيطة عنه .

واختلف المتأولون في قوله تعالى : ﴿ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ﴾ بعد اتفاقهم على أن « الْمَكْنُون » : المصون - فقال ابن عباس ، ومجاهد : أراد الكتاب الذي في السماء ، وقال عكرمة : أراد التوراة والإنجيل ، كأنه تعالى قال : إنه لكتابٌ كريمٌ ذكر كرمه وشرفه في كتاب مكنون ، فمعنى الآية - على هذا - الاستشهاد بالكتب المنزلة ، وهذا كقوله

عز وجل : ﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴾ (١) ،
وقال بعض المتأولين : أراد مصاحف المسلمين ، وكانت يوم نزلت
الآية لم تكن ، فهي - على هذا - إخبار بغيب ، وكذلك هو كتاب
مصون إلى يوم القيامة ، ويؤيد هذا لفظة « المَسَّ » فإنها تشير إلى
المصاحف ، وهي مستعارة من مسّ الملائكة .

واختلف الناس في معنى قوله تعالى : ﴿ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾
وفي حكمه - فقال بعض من قال إن الكتاب المكنون هو الذي في السماء ،
قال : الْمُطَهَّرُونَ هنا : الملائكة ، قال قتادة : فأما عندكم فيمسّه المشرك
النجس والمنافق ، قال الطبري : الْمُطَهَّرُونَ : الملائكة والأنبياء عليهم
السلام ومن لا ذنب له ، وليس في الآية - على هذا القول - حكم
مسّ المصحف لسائر بني آدم ، ومن قال بأنها مصاحف المسلمين
قال : إن قوله تعالى ﴿ لَا يَمَسُّهُ ﴾ إخبار مضمّن النهي ، وضمة السين
- على هذا - إعرابٌ ، وقال بعض هذه الفرقة : الكلام نهى ، وضمة
السين ضمة بناء ، قال جميعهم : فلا يمسّ المصحف من بني آدم
إلا الطاهر من الكفر والجنابة والحدث الأصغر ، قال مالك : لا يحمله
غير طاهر بعلاقته ولا على وسادة ، وفي كتاب رسول الله صلى الله

(١) من الآية (٣٦) من سورة (التوبة) .

عليه وسلم لعمر بن حزم : (ولا يمسُّ القرآن إلا طاهر) (١) ، وقد رخص أبو حنيفة وقوم أن يمسَّ الجنب والحائض على حائل ، غلاف ونحوه ، ورخص بعض العلماء في مسّه بالحدث الأصغر وفي قراءته عن ظهر قلب ، منهم ابن عباس وعامر الشعبي ، لاسيما للمعلم والصبيان ، وقد رخص بعضهم للجنب في قراءته ، وهذا الترخيص كله إنما هو على القول الذي ذكرناه من أن «المطهرين» هم الملائكة ، أو على مراعاة لفظة المسّ ، فقد قال سلمان رضي الله عنه : لا أمسُّ المصحف ولكن أقرأ القرآن . وقرأ جمهور الناس : [الْمُطَهَّرُونَ] بفتح الطاء والهاء المشددة ، وقرأ نافع ، وأبو عمرو - بخلاف عنهما - : [الْمُطَهَّرُونَ] بسكون الطاء وفتح الهاء خفيفة ، وهي قراءة عيسى الثقفي ، وقرأ سلمان الفارسي : [الْمَطَهَّرُونَ] بفتح الطاء خفيفة وكسر الهاء وشدها ، على معنى الذين يُطَهَّرُونَ أنفسهم ، ورويت عنه بشد الطاء والهاء ، وقرأ الحسن ، وعبد الله بن عون ، وسلمان الفارسي - بخلاف عنه - : [الْمُطَهَّرُونَ] بمعنى : الْمُتَطَهَّرِينَ ، والقول بأن (لَا يَمَسُّهُ) نهى قول

(١) أخرجه عبد الرزاق . وابن أبي داود ، وابن المنذر ، عن عبد الله بن أبي بكر ، عن أبيه ، قال : في كتاب النبي صلى الله عليه وسلم لعمر بن حزم : (ولا تمسُّ القرآن إلا على طهور) . (الدر المنثور) .

فيه ضعف ، وذلك أنه إذا كان خبراً فهو في موضع الصفة ، وقوله تعالى بعد ذلك : [تَنْزِيلٌ] صفة أيضاً ، فإذا جعلناه نهياً جاء معنى أجنبياً مُعْتَرِضاً بين الصفات ، وذلك لا يحسن في رصف الكلام فتدبره ، وفي حرف ابن مسعود رضي الله عنه : « مَا يَمْسُهُ » ، وهذا يُقَوِّي ما رجَّحته من الخبر الذي معناه : حَقُّهُ وَقَدْرُهُ أَلَّا يَمْسَهُ إِلَّا طَاهِرٌ .

وقوله تعالى : ﴿ أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُذْهِبُونَ ﴾ مخاطبة للكفار ، و « الحديث » المشار إليه هو القرآن المتضمن البعث ، وأن الله تعالى هو خالق الكل ، وأن ابن آدم مصرف بقدره وقضائه ، وغير ذلك ، و [مُذْهِبُونَ] معناه : يُبَلِّغُونَ بَعْضَكُمْ بَعْضاً وَيَتَّبِعُهُ فِي الْكُفْرِ ، مأخوذ من الدهن للينه وأملأسه ، وقال أبو قيس بن الأسلت :

الْحَزْمُ وَالْقُوَّةُ خَيْرٌ مِنْ أَلِ إِذْهَانٍ وَالْفَهْمَةُ وَالْهَاعُ (١)

(١) الحزمُ : ضبطُ الرأي وإتقانه ، والإذهانُ والمداهنةُ : المُصَانَعَةُ واللِّينُ ، ويقومان على الغش والنفاق وإظهار خلاف ما في الضمير ، والكذبُ فيه كل ذلك ، وهذا هو موضع الاستشهاد هنا ، والفَهْمَةُ : العِيَّةُ والعجزُ عن الإبانة ، وقيل : معناها السقطة ، قال أبو عبيدة ابن الجراح لعمر بن الخطاب رضي الله عنهما حين قال له يوم السقيفة : ابسط يدك أبايعك : فقال أبو عبيدة : ما رأيت منك فهمةً في الإسلام قبلها ، أتبايعني وفيكم الصديق ثاني اثنين ؟ والهاعُ : سوءُ الحرص مع الضعف ، والبيت في اللسان - هيع - ، وفي (جمهرة أشعار العرب) ، والرواية فيهما :

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : هي المهاددة فيما لا يحلُّ ، والمداراة هي المهاددة فيما يحلُّ ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : [مُذْهِبُونَ] : مكذبون .

قوله تعالى : ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكذِّبُونَ ﴾ . أجمع المفسرون على أن الآية توبيخ للقائلين في المطر الذي نزله الله تعالى رزقاً للعباد : هذا بنوء كذا وكذا ، وهذا بنوء الأسد ، وهذا بنوء الجوزاء ، وغير ذلك ، والمعنى : وتجعلون شكر رزقكم ، كما تقول لرجل : جعلت يا فلان إحساني إليك أن سببتني ، فالعنى : جعلت شكر إحساني ، وحكى الهيثم بن عدي أن من لغة أزد شنوءة : ما رزق فلان ؟ بمعنى : ما شكره ؟ وكان علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقرأها : « وَتَجْعَلُونَ شُكْرَكُمْ أَنْتُمْ تُكذِّبُونَ » ، وكذلك قرأ ابن عباس رضي الله عنهما ، ورويت عن النبي صلى الله عليه وسلم (١) إلا أن ابن عباس رضي الله

= الكَيْسُ والقُوَّةُ خيرٌ مِنَ الْإِسْتِغْنَاءِ وَالْفَهْمَةِ وَالنَّهْاعِ

وعلى هذا فلا شاهد فيه . والبيت في الأصمعية (٧٥) ، والرواية فيهما : (خير من الإدهان والفكّة) - بالكاف - ومعناها : الضعف . وهو أيضاً في (البيان والتبيين) وفي (الحيوان) . وفي (السمط) .

(١) أخرج ابن مردويه عن أبي عبد الرحمن السّامي رضي الله عنه قال : قرأ علي رضي الله عنه (الواقعات) في الفجر فقال : « وَتَجْعَلُونَ شُكْرَكُمْ أَنْتُمْ تُكذِّبُونَ » ، =

عنهما ضم التاء وفتح الكاف ، وعلي رضي الله عنه فتح التاء وسكن الكاف وخفف الذال ، ومن هذا المعنى قول الشاعر :

وكان شكرُ القومِ عند المننِ كي الصَّحِيحاتِ وفَقْءِ الأَعْيُنِ (١)

وقد أخبر الله تعالى أنه أنزل من السماء ماءً مباركاً فأنشأ به جنات وحبّ الحصيد ، والنخل باسقات لها طلع نضيد ، رزقاً للعباد ، فهذا معنى قوله تعالى : ﴿ أَنْتُمْ تُكذِّبُونَ ﴾ ، أي بهذا الخبر . وقرأ عاصم في رواية المفضل عنه : [تَكْذِبُونَ] بفتح التاء وسكون الكاف وتخفيف الذال كقراءة علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وكذبهم في مقالهم بين لأنهم يقولون : هذا بنوء كذا ، وذلك كذب منهم وتخرُّص . وذكر الطبري أن النبي صلى الله عليه وسلم سمع رجلاً يقول : مُطَرْنَا ببعض عشانين الأسد ، فقال له : (كذبتَ بلُ هو رزق الله) (٢) ، والمنهي عنه المكروه هو أن يعتقد أن اللطالع من النجوم تأثيراً في المطر ،

= فلما انصرف قال : إني قد عرفت أنه سيقول قائل : لِمَ قرأها هكذا ؟ إني سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرؤها كذلك ، كانوا إذا مُطِرُوا قالوا : مُطِرْنَا بنوء كذا وكذا ، فأنزل الله : « وتجعلون شرككم أنكم إذا مطرتم تكذبون » .

(١) لم أجد هذا الرجز إلا في البحر المحيط ، والرواية فيه (مكانُ) بدلا من (وكان) ، يصفهم بنكران الحميل ومقابلة الحسنة بالنسيئة .

(٢) أخرجه ابن جرير الطبري عن إسماعيل بن أمية .

وأما مراعاة بعض الطوابع على مقتضى العادة فقد قال عمر للعباس رضي الله عنهما وهما في الاستسقاء : يا عباس ، يا عم النبي صلى الله عليه وسلم : كم بقي من نوء الثريا ؟ فقال العباس رضي الله عنه : العلماء يقولون إنها تعترض الأفق بعد سقوطها سبعا ، قال ابن المسيب : فما مضت سبع حتى مطروا (١) .

وقوله تعالى : ﴿ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ ﴾ توقيف على موضع عجز يقتضي النظر فيه أن الله تبارك وتعالى مالك كل شيء ، والضمير في ﴿ بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ ﴾ لنفس الإنسان ، والمعنى يقتضيها وإن لم يتقدم لها ذكر ، و « الحلقوم » مجرى الطعام ، وهذه الحال هي نزاع المرء للموت . وقوله تعالى : ﴿ أَنْتُمْ ﴾ إشارة إلى جميع البشر ، وهذا من الاقتضاب ، كقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ (٢) . وقرأ عيسى بن عمر : [حِينِئذِ] بكسر النون ، و [تَنْظُرُونَ] معناه : إلى المنازع في الموت . وقوله تعالى : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ ﴾ يحتمل أن يريد ملائكته ورسله ، ويحتمل أن يريد : بقدرتنا وغلبتنا ، فعلى الاحتمال

(١) أخرجه ابن جرير الطبري ، عن سفیان ، عن محمد بن إسحق ، عن محمد بن إبراهيم ، عن أبي هريرة ، والذي ذكر هذا الحديث لسعيد بن المسيب هو محمد بن إبراهيم فقال ابن المسيب : ونحن قد سمعنا من أبي هريرة ، وقد أخبرني من شهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ... إلخ ما ذكره المؤلف .
(٢) من الآية (٢٩) من سورة (النساء) .

الأول يجيء قوله تعالى : ﴿وَلَكِنْ لَا تَبْصِرُونَ﴾ من النظر بالعين ، وعلى التأويل الثاني يجيء من النظر بالقلب ، وقال عامر بن عبد قيس : ما نظرتُ إلى شيءٍ إلا رأيتُ الله تعالى أقرب إليه مني .

ثم عاد التوقيف والتقرير ثانية بلفظ التخصيص (١) ، و «المدين» : المملوك ، هذا أصح ما يقال في معنى اللفظة هنا ، ومن عبّر عنها بالمجازي أو المحاسب فذلك هنا قلق ، والمملوك يقلب كيف شاء المالك ، ومن هذا الملك قول الأخطل :

رَبَّتْ قَرَبِي فِي حِجْرِهَا ابْنَ مَدِينَةٍ تَرَاهُ عَلَى مِسْحَاتِهِ يَتَرَكَ كُلُّ (٢)
أراد : ابن أمة مملوكة ، وهو عبد يخدم الكرم ، وقد قيل في معنى هذا

(١) في بعض النسخ : « بلفظ التحقيق » ، والصواب ما أثبتناه ، راجع الهامش رقم (١) من الصفحة رقم (٢٧٦) .

(٢) البيت من قصيدة قالها أبو مالك غياث بن غوث الأخطل ، وهي في وصف خمر بيسان من قرى فلسطين . وهي أول قصيدة في الديوان ، والبيت في اللسان والتاج ، والرواية فيهما : (رَبَّتْ وَرَبَا فِي كَرَمِيهَا) ، والمِسْحَاةُ : الفأسُ ، ومعنى يتركُّ : يضغط عليها برجله أو يتورك عليها بها لتنزل في الأرض . والشاهد أن قوله : (ابن مدينة) يمكن أن يفهم على أنه أراد : ابن أمة مملوكة ، وذلك أنه يقال للأمة : مدينة ، أي مملوكة ، كما يقال للعبد : مدين ، أي مملوك ، ويمكن أن يفهم (ابن مدينة) على أنه من أهل الحضر الذين يسكنون المدن ، وعلى هذا فلا شاهد فيه ، وفي اللسان : « يقال للرجل الفطن العالم بالأمر : ابن بجدتها ، وابن مدينتها ، وابن بلدتها » .

البيت : أراد أكاراً حَضْرِيًّا لَأَنَّ الأعراب في البادية لا يعرفون الفلاحة
وعمل الكرم ، فنسبه إلى المدينة لما كان من أهلها ، فمغنى الآية :
فلولا ترجعون النفس البالغة إلى الحلقوم إن كنتم غير مملوكين
ولا مقهورين ، ودينُ المَلِكِ حُكْمُهُ وَسُلْطَانُهُ ، وقد نحا إلى هذا المعنى
الفراء ، وذكره مُستوعباً النقاش . وقوله تعالى : [تَرْجِعُونَهَا] سَدَّتْ
مَسَدَّ الأَجُوبَةِ والبيانات التي تقتضيها التخصيصات (١) ، و [إِذَا]
من قوله تعالى : ﴿ فَلَوْلَا إِذَا ﴾ و [إِنْ] المتكررة ، وحمل بعض القول
بعضاً إيجازاً واقتضاباً .

قوله عز وجل :

﴿ فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقْرَبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّا
إِنْ كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّا إِنْ كَانَ
مِنَ الْمُكَذِبِينَ الضَّالِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةٌ جَهِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَذَا
لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾ ﴾

(١) يريد بالتخصيصات أن الله تعالى خصَّص عجزهم عن ارجاع الروح إلى الجسد
وجعله أولاً مُقَيِّدًا بوقت بلوغ الحلقوم ، كما جعله ثانياً مُعَلِّقًا على انتفاء مربوبيتهم ، فهم
لا يقدرُونَ على ارجاعها لأن مربوبيتهم موجودة فهم مقهورون ولا قدرة لهم . والمراد بقوله :
« سَدَّتْ مَسَدَّ الأَجُوبَةِ » أن [تَرْجِعُونَهَا] سَدَّتْ مَسَدَّ جَوَابِ [لَوْلَا] الأولى ، و [لَوْلَا]
الثانية في الآيات الكريمة .

ذكر الله تعالى في هذه الآية حال الأزواج الثلاثة المذكورة في أول
السورة ، وحال كل امرئ منهم ، فأما المرء من السابقين المقربين
فسيلقى عند موته رَوْحاً وريحاناً ، و «الرَّوْحُ» : الرحمةُ والسَّعةُ والفرج
والفرح ، ومنه : روح الله ، و «الرَّيْحَانُ» : الطَّيب ، وهو دليل النعيم ،
وقال مجاهد : الريحان : الرِّزْقُ ، وقال أبو العالية ، وقتادة ، والحسن :
الرَّيْحَانُ هو الشجر المعروف في الدنيا ، يَلْقَى الْمُقَرَّبَ رِيحَاناً من الجنة ،
وقرأ ابن عباس ، والحسن ، وجماعة كثيرة : [فَرُوحٌ] بضم الرَّاء ،
وقال الحسن : معناه : روحه تخرج في ريحانة ، وقال الضحاك :
الريحانُ : الاستراحة .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

الريحان ما تنبسط إليه النفوس ، وقال الخليل : هو طرف كل
بَقْلَةٍ طيبة فيها أوائل النُّور ، وقد قال عليه الصلاة والسلام في الحسن
والحسين رضي الله تعالى عنهما : (هما ريحانتي من الدنيا) (١) ،

(١) أخرجه البخاري في (فضائل الصحابة) و (الأدب) ، والترمذي في المناقب ، ولفظه
في البخاري عن ابن أبي نعيم : سمعتُ عبد الله بن عمر ، وسأله عن المُحَرَّم ، قال شُعبة :
أحْسِبُهُ يَقْتُلُ الذِّبَابَ ، فقال : أهل العراق يسألون عن الذباب وقد قتلوا ابن ابنة رسول الله
صلى الله عليه وسلم ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم : (هُمَا رِيحَانَتَايَ مِنَ الدُّنْيَا) .

وقال النمر بن تَوَلَّب :

سَلَامٌ إِلَيْهِ وَرِيحَانُهُ وَرَحْمَتُهُ وَسَمَاءٌ دِرْرٌ (١)

وقالت عائشة رضي الله عنها : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ : [فَرُوحٌ] بضم الراء .

وقوله تعالى : ﴿ فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴾ عبارة تقتضي جملة مدح ، وصفة تَخْلُصٍ وحصول في عال من المراتب ، والمعنى : ليس في أمرهم إِلَّا السَّلَامُ والنجاة من العذاب ، وهذا كما تقول في مدح رجل : أَمَا فلان فذاهيك به ، أو بِحَسْبِكَ أَمْرُهُ ، فهذا يقتضي جملة غير مُفَصَّلَةٍ من مدحه ، وقد اضطربت عبارات المتأولين في قوله تعالى : ﴿ فَسَلَامٌ لَّكَ ﴾ - فقال قوم : المعنى : فيقال له : « مُسَلِّمٌ لك أنك من أصحاب اليمين » ، وقال الطبري : المعنى : فسلاام لك أنت من أصحاب اليمين ، وقيل : المعنى : فسلاامٌ لك يا محمد ، أي : لا ترى فيهم إِلَّا السَّلَامَةَ من العذاب ، فهذه الكاف في [لَكَ]

(١) سبق التعليق عليه في أول سورة الرحمن . عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ﴾ . ص (١٨٤) هامش رقم (٢) من هذا الجزء .

إِذَا أَنْ تَكُونُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَهُوَ الْأَظْهَرُ - ثُمَّ لِكُلِّ مُعْتَبِرٍ فِيهَا مِنْ أُمَّتِهِ ، وَإِذَا أَنْ تَكُونُ لِمَنْ يَخَاطَبُهُ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ، وَغَيْرُ هَذَا مِمَّا قِيلَ فِيهِ تَكْلُفٌ .

و « الْمُكَذِّبُونَ الضَّالُّونَ » هُمُ الْكُفَّارُ أَصْحَابُ الشَّمَالِ وَالْمَشَاطِمَةِ ، وَ « النَّزْلُ » أَوَّلُ شَيْءٍ يُقَدَّمُ لِلضَّيْفِ ، وَ « التَّصْلِيَةُ » أَنْ تَبَاشِرَ بِهِمُ النَّارَ ، وَ « الْجَحِيمَ » مَعْظَمُ النَّارِ وَحَيْثُ تَرَكَمَهَا .

وَلَمَّا كَمَلَ تَقْسِيمُ أَحْوَالِهِمْ وَانْقَضَى الْخَبْرُ بِذَلِكَ أَكَّدَ تَعَالَى الْإِنْخِبَارَ بِأَنَّ قَالَ لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَخَاطَبَةً تَدْخُلُ مَعَهُ أُمَّتُهُ فِيهَا : إِنَّ هَذَا الَّذِي أَخْبَرْتِكَ بِهِ لَهْوٌ حَقٌّ الْيَقِينِ ، وَإِضَافَةُ الْحَقِّ إِلَى الْيَقِينِ عِبَارَةٌ فِيهَا مَبَالِغَةٌ لِأَنَّهَا بِمَعْنَى وَاحِدٍ ، فَذَهَبَ بَعْضُ النَّاسِ إِلَى أَنَّهُ مِنْ بَابِ « دَارِ الْآخِرَةِ » وَ « مَسْجِدِ الْجَامِعِ » ، وَذَهَبَتْ فِرْقَةٌ مِنَ الْحُدَّاقِ إِلَى أَنَّهُ كَمَا تَقُولُ فِي أَمْرٍ تَوَكَّدَهُ : هَذَا يَقِينُ الْيَقِينِ ، أَوْ صَوَابُ الصَّوَابِ ، بِمَعْنَى أَنَّهُ نَهَايَةُ الصَّوَابِ ، وَهَذَا أَحْسَنُ مَا قِيلَ فِيهِ ، وَذَلِكَ لِأَنَّ « دَارَ الْآخِرَةِ » وَمَا أَشْبَهَهَا يَحْتَمَلُ أَنْ تَقْدَّرَ شَيْئاً أَضْفَتِ الدَّارَ إِلَيْهِ وَوَصَفْتَهُ بِالْآخِرَةِ ثُمَّ حَذَفْتَهُ وَأَقَمْتَ الصِّفَةَ مَقَامَهُ ، كَأَنَّكَ قُلْتَ : « دَارُ الرَّجْعَةِ الْآخِرَةِ » ، أَوْ دَارُ النِّشَاةِ الْآخِرَةِ » ، أَوْ « الْحَلْقَةُ

الآخرة» ، وهنا لا يتَّجه هذا ، وإنما هي عبارة مبالغة وتأكيد معناها أن هذا الخبر هو نفس اليقين وحقيقته (١) .

وقوله تعالى : ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ عبارة تقتضي الأمر بالإعراض عن أقوال الكفرة وسائر أمور الدنيا المختصة بها ، والإقبال على أمور الآخرة ، وعبادة الله تعالى والدعاء إليه ، وروى عقبه بن عامر (٢) أنه لما نزل ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ قال النبي صلى الله عليه وسلم : (اجعلوها في ركوعكم) ، فلما نزلت ﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ قال : (اجعلوها في سجودكم) (٣) ، ويحتمل أن يكون المعنى : سبِّح الله تعالى بذكر أسمائه العُلَى ، و «الاسم» هنا بمعنى الجنس ، أي : بأسماء ربك ، و «العظيم» صفة للرب تعالى ، وقد يحتمل أن يكون «الاسم» هنا واحداً مقصوداً ، ويكون «العظيم» صفة له .

(١) قال قتادة : «إن الله تعالى ليس بتارك أحداً من الناس حتى يقفه على اليقين من هذا القرآن ، فأما المؤمن فأيقن في الدنيا فنفعه ذلك يوم القيامة ، وأما الكافر فأيقن يوم القيامة حين لا ينفعه اليقين» .

(٢) هو عقبه بن عامر الجهني ، صحابي مشهور ، اختلف في كنيته على سبعة أقوال . أشهرها أبو حماد ، ولي أمر مصر لمعاوية ثلاث سنين ، وكان فقيهاً فاضلاً ، مات في قرب الستين . (تقريب التهذيب) .

(٣) أخرجه سعيد بن منصور . وأحمد ، وأبو داود ، وابن ماجه ، وابن حبان ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي في سننه ، عن عقبه بن عامر الجهني رضي الله عنه .

فكأنه أمره أن يسبحه باسمه الأعظم وإن كان لم ينص عليه ، ويؤيد هذا ويشير إليه اتصال سورة الحديد وأولها فيه التسبيحُ وجملَةٌ من أسماء الله تعالى ، وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما : « اسم الله الأعظم موجود في ست آيات من أول سورة الحديد » ، فتأمل هذا فإنه من دقيق النظر ، والله تعالى في كتابه العزيز غوامض لا تكاد الأذهان تدركها .



كامل تفسير سورة الواقعة والحمد لله رب العالمين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين

سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين



وهي مدنية ، قال النقاش وغيره : بإجماع من المفسرين ، وقال غيره : هي مكية ، ولا خلاف أن فيها قرآناً مدنياً لكن يشبه صدرها أن يكون مكياً ، والله تعالى أعلم ، وقد ذكرنا قول ابن عباس رضي الله عنهما أن اسم الله عز وجل الأعظم هو في ست آيات من أول سورة الحديد ، ورؤي أن الدعاء بعد قراءتها مستجاب (١) .

(١) أخرج أحمد ، والترمذي وحسنه ، والنسائي ، وابن مردويه ، والبيهقي في « الشعب » عن العرياض بن سارية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقرأ المسححات قبل أن يرقد وقال : إن فيهن آية أفضل من ألف آية ، ولكن في إسناده بقرينة بن الوليد وفيه مقال معروف ، وقد أخرجه النسائي عن خالد بن معدان . ولم يذكر العرياض بن سارية ، فهو حديث مرسل ، =

قوله عز وجل :

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُ
مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ الْأَوَّلُ
وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا
يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا
تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾﴾

قال أكثر المفسرين : التسبيح هنا هو التنزيه المعروف في قولهم :
«سبحان الله» ، وهذا عندهم إخبارٌ بصيغة الماضي مُضمَّنه الدوامُ
وأن التسبيح مَّا ذكر دائم مستمر ، واختلفوا ، هل هذا التسبيح
حقيقة أو مجاز على معنى أن أثر الصنعة فيها يُنبئه الرائي على التسبيح؟
قال الزجاج وغيره : والقول بالحقيقة أحسن ، وقد تقدم القول فيه

= وأخرجه ابن الضريس عن يحيى بن أبي كثير ، وقد قال ابن كثير في تفسيره : « والآية المشار
إليها - والله أعلم - هي قوله : ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ الآية . وكان
يحيى بن أبي كثير يقول : فراها الآية التي في آخر سورة الحشر .

غير مرة ، وهذا كله في الجمادات ، وأما ما يمكن التسبيح منه فقول واحد أن تسبيحهم حقيقة ، وقال قوم من المفسرين : التسبيح في هذه السورة الصلاة ، وهذا قول متكلف ، فأما فيمن يمكن منه ذلك فسائغ ، وعلى أن سجود ظلال الكفار هي صلاتهم ، وأما في الجمادات فيقلق ، وذلك أن خضوعها وخشوع هيئتها قد يُسمى في اللغة سجوداً تجوزاً واستعارة ، كما قال الشاعر :

تَرَى الْأَكْمَمَ فِيهِ سُجْدًا لِلْحَوَافِرِ (١)

ويبعد أن تُسمى تلك صلاة إلا على تجوز .

وقوله تعالى : ﴿ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ عام في جميع المخلوقات ، وقال بعض النحاة : التقدير : ما في السموات وما في الأرض ، ف [مَا] نكرة موصوفة ، فلما تكرر موصوفها حذفها وأقام الصفة مقامها ،

(١) هذا عجز بيت سبق الاستشهاد به أكثر من مرة ، وأولها عند تفسير قوله تعالى في سورة البقرة : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ ﴾ ، والبيت في اللسان والتاج والطبري والقرطبي ، وهو بتمامه :

يَجْمَعُ تَضِيلُ الْبُلْتُقُ فِي حَجْرَاتِهِ تَرَى الْأَكْمَمَ فِيهِ سُجْدًا لِلْحَوَافِرِ

والبلُّق : جمع أبلق وهو الفرس إذا كان فيه بياض وسواد ، والحجرات : الجوانب ، والأكم : التلال .

وهو العزيز بقدرته ، وسلطانه ، الحكيم باطفه وتدبيره وحكمته ،
وَمَلِكِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ هو سلطانها الحقيقي الدائم ؛ لأن ملك البشر
مجازٌ فان ، وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ، أي على كل
شيءٍ مقدور .

قوله تعالى : ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ ﴾ . الأول : الذي ليس لوجوده
بداية مُفْتَتِحَةٌ ، والآخر : الذي ليس له نهاية منقضية . وقال أبو بكر
الوراق : هو الأول بالأزلية والآخر بالأبدية ، وهو الأول بالوجود ؛
إذ كُلُّ موجود فبعده وبه ، والآخر إذا نظر العقل في الموجودات حتى يكون
إليه منتهاها ، قال عز وجل : ﴿ وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى ﴾ (١) .
و [الظَّاهِرُ] معناه : بالأدلة ونظر العقول في صنعته ، و [الْبَاطِنُ]
باطفه وغوامض حكمته وباهر صفتة التي لا تصل إلى معرفتها - على
ما هي عليه - الأوهام ، ويحتمل أن يريد تعالى بقوله : ﴿ وَالظَّاهِرُ
وَالْبَاطِنُ ﴾ الذي بهر ومَلَكَ فيما ظهر للعقول وفيما خفي عنها ،
فليس في الظاهر غيره حسب قيام الأدلة ، وليس في باطن الأمر وفيما
خفي على النظرة مَّا عَسَى أَنْ يُتَّوَهَّمُ غَيْرُهُ . وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ
شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ عام في الأشياءِ عموماً تاماً .

(١) الآية (٤٢) من سورة (النجم) .

فإن وقد تقدم القول في خلق السموات والأرض ، وأكثر الناس على أن بداية الخلق في يوم الأحد ، ووقع في مسلم أن البداية في يوم السبت ، وقال بعض المفسرين : الأيام الستة من أيام القيامة ، وقال الجمهور : من أيام الدنيا ، وهو الأصوب ، و «الاستواء على العرش» هو بالغلبة والقهر المستمرين بالقدر ، وليس ما في قهر العباد من المحاولة والتعب ، وقد تقدم القول في مسألة الاستواء مستوعباً في طه وغيرها . و ﴿ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ ﴾ هو المطر والأموات وغير ذلك ، و ﴿ مَا يَخْرُجُ مِنْهَا ﴾ هو النبات والمعادن وغير ذلك ، و ﴿ مَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ الملائكة والرحمة والعذاب وغير ذلك ، و ﴿ مَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴾ هو الأعمال صالحها وسيئها والملائكة وغير ذلك .

وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ ﴾ معناه : بقدرته وعلمه وإحاطته وهدايته ، أجمعت الأمة على هذا التأويل فيها ، وأنها مخرجة عن معنى لفظها المعهود ، ودخل في الإجماع من يقول بأن هذا أمر المشتبه كله ، ينبغي أن يمر ويؤمن به ولا يُفسر ، وقد أجمعوا على تأويل هذه لبيان وجوب إخراجها عن ظاهرها ، قال سفيان الثوري : المعنى : علمه معكم ، وتأويلهم هذه حجة عليهم في غيرها

قوله عز وجل :

﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ ﴿٦٦﴾ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ
فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٦٧﴾ ءَامِنُوا بِاللَّهِ
وَرَسُولِهِ ءَ وَانْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ ءَامِنُوا مِنْكُمْ وَانْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ
كَبِيرٌ ﴿٦٨﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ
مِيثَاقَكُمْ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٩﴾ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ
لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٧٠﴾ ﴿

قوله تعالى : ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ خبر يعم جميع الموجودات ،
و [أَلْأُمُورُ] هنا ليست جمع المصدر ، بل هي جميع الموجودات لأن
الأمر والشيء والموجود أسماء شائعة في جميع الموجودات أعراضها
وجواهرها ، وقرأ الجمهور : [تُرْجَعُ] بضم التاء ، وقرأ الأعرج ،
وابن أبي إسحق : [تُرْجِعُ] بفتح التاء .

وقوله تعالى : ﴿يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ﴾ الآية تنبيه على العبرة
فيما يتجاذبه الليل والنهار من الطُّول والقِصْر ، وذلك متشعب مختلف
حسب اختلاف الأقطار والأزمان الأربعة ، وذلك بحر من بحار الفكرة

لمن تأمله ، و [يُولِجُ] معناه : يُدْخِلُ . و «ذَاتُ الصُّدُورِ» : ما فيها من الأسرار والمعتقدات وذلك أغمض ما يكون ، وهذا كما قالوا : «الذئب مغبوطٌ بِذِي بطنه» (١) ، وكما قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : «إنما هو ذو بطن بنت خارجة» .

وقوله تعالى : ﴿آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ الآية . أَمْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ بِالثَّبُوتِ عَلَى الْإِيمَانِ وَالنَّفَقَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَيُرْوَى أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي غَزْوَةِ الْعُسْرَةِ . وَهِيَ غَزْوَةُ تَبُوكَ ، قَالَ الضَّحَّاكُ ، وَقَالَ : الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا﴾ إِلَى عَثْمَانَ بْنِ عَفَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وَحَكَمَهَا بَاقٍ يَنْدُبُ إِلَى هَذِهِ الْأَفْعَالِ بَقِيَةِ الدَّهْرِ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ تَزْهِيدٌ وَتَنْبِيهٌُ عَلَى أَنَّ الْأَمْوَالَ إِنَّمَا تَصِيرُ إِلَى الْإِنْسَانِ مِنْ غَيْرِهِ وَيَتْرَكُهَا لِغَيْرِهِ ، وَلَيْسَ لَهُ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا مَا تَضَمَّنَهُ قَوْلُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (يَقُولُ

(١) وَيُرْوَى : الذئب يُغْبَطُ بِغَيْرِ بَطْنِهِ ، وَ مَا فِي بَطْنِهِ . قَالَ أَبُو عبيد : وَ ذَلِكَ أَنَّهُ لَيْسَ يُظَنُّ بِهِ الْجُوعُ أَبَدًا ، إِنَّمَا يُظَنُّ بِهِ الْبِطْنَةُ لِأَنَّهُ يَعْدُو عَلَى النَّاسِ وَالْمَاشِيَةِ ، قَالَ الشَّاعِرُ :
وَمَنْ يَسْكُنُ الْبَحْرَيْنِ يَعْظُمُ طَحَالُهُ وَيُغْبَطُ مَا فِي بَطْنِهِ وَهُوَ جَائِعٌ
وَقَالَ غَيْرُهُ : إِنَّمَا قِيلَ فِيهِ ذَلِكَ لِأَنَّهُ عَظِيمُ الْجَفْرَةِ أَبَدًا ، لَا يَبِينُ عَلَيْهِ الضَّمُورُ وَإِنْ أَجْهَدَهُ الْجُوعُ ،
قَالَ الشَّاعِرُ :

لَكَالذَّئْبِ مَغْبُوطُ الْحَشَا وَهُوَ جَائِعٌ

ابن آدم : مالي مالي ، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفانيت ،
أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأمضيت (١) ، ويروى أن رجلاً
مرّ بأعرابي له إبلٌ فقال له : يا أعرابي ، لمن هذه الإبل ؟ فقال :
هي لله تعالى عندي ، فهذا موافق مصيب إن كان ممن صحب قوله عمله .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ الآية توطئةٌ لدعائهم
وإيجابٌ لأنهم أهل هذه الرتبة الرفيعة ، فإذا تقرر ذلك فلا مانع
من الإيمان ، وهذا كما تريد أن تندب رجلاً إلى عطاء فتقول له :
أنت يا فلان من قوم أجوادٍ فينبغي أن تُكْرَم ، وهذا مُطْرَد في جميع
الأُمور ، إذا أردتَ من أحدٍ فعلاً خلّقتَه بخلقِ أهل ذلك الفعل
وجعلتَ له رتبتهم ، فإذا تقرر في هؤلاء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم
يدعوهم ، وأنهم ممّن أخذ الله ميثاقهم ، فكيف يمتنعون من الإيمان ؟

(١) أخرجه البخاري في الطلاق ، ومسلم في الزهد ، وأبو داود في الطلاق ، والترمذي
في الزهد وتفسير سورة التكاثر ، والنسائي في الوصايا ، وأحمد في مسنده (٢-٣٦٨ ، ٤١٢ ،
٤-٢٤ ، ٢٦) ، ولفظه كما في مسلم : عن مطرف ، عن أبيه قال : أتيت النبي صلى الله عليه
وسلم وهو يقرأ : ﴿ أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ ﴾ ، قال : يقول ابن آدم : مالي مالي ، قال : وهل
لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفانيت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأمضيت) ،
ومعنى « فأمضيت » : نفذت ما أردت التصديق به . وفي رواية عن أبي هريرة ذكرها أحمد
في مسنده زيادة قوله : (ما سوى ذلك فهو ذاهب وتاركه للناس) .

وقرأ جمهور القراء : ﴿ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ ﴾ على بناء الفعل للفاعل ،
 وقرأ أبو عمرو : ﴿ وَقَدْ أَخَذَ ﴾ على بناء الفعل للمفعول ، والآخذُ
 على كلِّ قول هو الله تعالى ، وهذا الآخذ كان حين الإخراج من ظهر
 آدم عليه السلام على ما مضى في غير هذه السورة (١) ، والمخاطبة ببناء
 الفعل للمفعول أشدَّ غِلْظاً على المخاطب ، ونحوه قول الله تعالى :
 ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ﴾ (٢) ، وكما تقول لِأمرئٍ : افعَل ما قيل لك ،
 فهو أبلغ من قولك : افعَل ما قلتُ لك .

وقوله تعالى : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ ، قال الطبري : المعنى : إن
 كنتم مؤمنين في حالٍ من الأحوال فالآن ، وهذا معنى ليس في لفظ
 الآية وفيه إضمار كثير ، وإنما المعنى عندي أن قول الله تعالى :
 ﴿ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾
 يقتضي أن يُقدَّر بآثره : فأنتم في رتب شريفة وأقدار رفيعة إن كنتم
 مؤمنين ، أي إذا دتم على ما بدأتم به .

وقرأ بعض السبعة : [يُنَزَّلُ] مثقلة ، وقرأ بعضهم : [يُنزلُ]
 مخففة ، وقرأها الحسن وعيسى بالوجهين ، وقرأ الأعمش : [أَنْزَلَ] ،

(١) عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ﴾ ،
 الآية (١٧٢) من سورة (الأعراف) . (ج ٦ ص ١٣٤) .
 (٢) من الآية (١١٢) من سورة (هود) .

والعبد في قوله تعالى : ﴿عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾ محمد صلى الله عليه وسلم ،
و «الآيات» آيات القرآن ، و «الظلمات» : الكفر ، و «النور» :
الإيمان ، وما في الآية وعدٌ وتأنيسٌ مؤكد .

قوله عز وجل :

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي
مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا
مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكَلَّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾ مَنْ ذَا
الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ وَهُوَ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٢﴾﴾

المعنى : وما لكم أَلَّا تنفقوا في سبيل الله وأنتم تموتون وتتركون
أموالكم ؟ فتاب مناب هذا القول قوله تعالى : ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ﴾ وفيه زيادة تذكير بالله عز وجل وعبرة ، وعنه يلزم القول
الذي قدرناه .

قوله تعالى : ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ﴾
الآية ، روي أنها نزلت بسبب أن جماعة من الصحابة رضي الله عنهم
أنفقت نفقات كثيرة حتى قال الناس : هؤلاء أعظم أجراً من كل

من أنفق قديماً ، فنزلت الآية مبينةً أن النفقة قبل الفتح أعظم أجراً ، وهذا التأويل على أن الآية نزلت بعد الفتح ، وقد قيل : إنها نزلت قبل الفتح تحريضاً على الإنفاق ، والأول أشهر ، وحكى الثعلبي أنها نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، وفي نفقاته (١) ، وفي معناه قول النبي صلى الله عليه وسلم لخالد بن الوليد رضي الله عنه : (اتركوا لي أصحابي ، فلو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه) (٢) .

(١) ذكر ذلك الواحدي في كتابه «أسباب النزول» عن محمد بن غزوان عن الكلبي ، ولكن الكلبي متهم بالكذب ، كذلك رواه الواحدي بسنده عن ابن عمر رضي الله عنهما ، وفي سنده ضعف ، وذكره ابن كثير في تفسيره ثم قال : «هذا الحديث ضعيف الإسناد من هذا الوجه والله أعلم» . وفضل أبي بكر رضي الله عنه وإنفاقه في سبيل الله أمران معروفان ، ولا يقلل من ذلك ضعف هذا الحديث ، ففي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم كثير يؤكد فضله وسبقه .

(٢) أخرجه الإمام أحمد عن أنس قال : كان بين خالد بن الوليد وبين عبد الرحمن ابن عوف كلام ، فقال خالد لعبد الرحمن : تستطيلون علينا بأيام سبقتمونا بها . فبلغنا أن ذلك قيل للنبي صلى الله عليه وسلم فقال : (دعوا لي أصحابي ، فوالذي نفسي بيده لو أنفقتم مثل أحد ، أو مثل الجبال ذهباً ما بلغتم أعمالهم) ، قال ابن كثير بعد أن ذكر هذا الحديث : «ومعلوم أن إسلام خالد بن الوليد المواجه بهذا الخطاب كان بين صلح الحديبية وفتح مكة ، وكانت هذه المشاجرة بينهما في بني جذيمة الذين بعث إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد بعد الفتح ، فجعلوا يقولون : صبأنا ، صبأنا ، فلم يُحسنوا أن يقولوا : أسلمنا ، فأمر خالد بقتلهم وقتل من أسر منهم ، فخالفه عبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن عمر وغيرهما ، =

واختلف الناس في الفتح المشار إليه في هذه الآية - فقال أبو سعيد الخدري ، والشعبي : هو فتح الحديدية ، وقد تقدم في سورة الفتح تقدير كونه فتحاً ، ورفع أبو سعيد رضي الله عنه إلى النبي صلى الله عليه وسلم أن أفضل ما بين الهجرتين فتح الحديدية (١) . وقال قتادة ، ومجاهد ، وزيد بن أسلم : هو فتح مكة الذي أزال الهجرة ، وهذا

= فاختصم خالد وعبد الرحمن بسبب ذلك ، والذي في الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : (لا تسبوا أصحابي ، فوالذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مداً أحدهم ولا نصيفه) .

(١) أخرجه ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، وأبو نعيم في الدلائل من طريق زيد بن أسلم ، عن عطاء بن يسار ، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، قال : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الحديدية ، حتى إذا كان بعسفان قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يوشك أن يأتي قوم تحقرون أعمالكم مع أعمالهم ، قلنا : من هم يا رسول الله ؟ أقريش ؟ قال : لا ، ولكنهم أهل اليمن ، هم أرق أفئدة وألين قلوباً ، فقلنا : أهم خير منّا يا رسول الله ؟ قال : لو كان لأحدكم جبل من ذهب فأنفقه ما أدرك مداً أحداً ولا نصيفه ، ألا إن هذا فصل ما بيننا وبين الناس ، ﴿ لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ﴾ الآية . قال ابن كثير بعد أن أورد هذا الحديث : وهذا الحديث غريب بهذا السياق ، والذي في الصحيحين من رواية جماعة عن عطاء بن يسار ، عن أبي سعيد ذكر الخوارج : (تحقرون صلاتكم مع صلاتهم ، وصيامكم مع صيامهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية...) الحديث ، ولكن روى ابن جرير هذا الحديث من وجه آخر ، وساق الحديث من هذا الوجه ثم قال : فهذا السياق ليس فيه ذكر الحديدية ، فإن كان ذلك - أي الرواية الأولى - محفوظاً كما تقدم فيحتمل أنه أنزل قبل الفتح إخباراً عما بعده .

هو المشهور الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لا هجرة بعد الفتح ولكن جهادٌ ونيةٌ) (١) ، وقال له رجل بعد فتح مكة : أبايعك على الهجرة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن الهجرة قد ذهبت بما فيها ، وإن الهجرة لشأنها شديد ، ولكن أبايعك على الجهاد) (٢) ، وحكم الجهاد باقٍ إلى غابر الدهر ، فمن أنفق في وقت حاجة السبيل أعظم أجراً ممن أنفق مع استغناء السبيل ، وأكثر المفسرين على أن قوله تعالى : [يَسْتَوِي] مسند إلى [مَنْ] وترك ذكر المعادل الذي لم يستو معه لأن قوله تعالى : ﴿ مِنْ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ ﴾ قد فسره وبيّنه ، ويحتمل أن يكون فاعل [يَسْتَوِي] محذوفاً تقديره : لا يستوي منكم الإنفاق ، ويؤيد ذلك أن ذكره قد تقدم في قوله

(١) أخرجه البخاري في الصيد والجهاد ومناقب الأنصار والمغازي ، ومسلم في الإمارة ، والترمذي في السير ، والنسائي في البيعة ، وابن ماجه في الكفارات ، والدارمي في السير ، وأحمد في أكثر من موضع من مسنده ، ولفظه كما جاء في البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لا هجرة بعد الفتح ولكن جهادٌ ونيةٌ ، وإذا استنفرتم فأنفروا) .

(٢) أخرجه البخاري في المغازي عن مجاشع قال : أتيت النبي صلى الله عليه وسلم بأخي بعد الفتح ، فقلت : يا رسول الله ، جئتك بأخي لتبأيعه على الهجرة ، قال : ذهب أهل الهجرة بما فيها ، فقلت : على أي شيء تبأيعه ؟ قال : أبايعه على الإسلام والإيمان والجهاد ، فلتبأيعه أبا معبداً بعددٍ - وكان أكبرهما - فسألته . فقال : صدق مجاشع .

تعالى : ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا ﴾ ، ويكون قوله تعالى : ﴿ مَنْ أَنْفَقَ ﴾ ابتداءً وخبره الجملة الآتية بعد (١) .

وقرأ جمهور السبعة : ﴿ وَكُلًّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحُسْنَى ﴾ ، وهي الوجه لأن [وَعَدَّ] ليس يعوقه عائق عن أن ينصب الفعل المقدم ، وقرأ ابن عامر : ﴿ وَكُلُّ وَعَدَّ اللَّهُ الْحُسْنَى ﴾ ، فأما سيبويه رحمه الله تعالى فقدر الفعل خبراً لابتداءً ، وفيه ضمير عائدٌ ، وحذفه عنده قبيح لا يجري إلا في الشعر ونحوه ، ومنه قول الشاعر :

قَدْ أَصْبَحْتُ أُمُّ الْخِيَارِ تَدْعِي عَلِيَّ ذَنْبًا كُلُّهُ لَمْ أَصْنَعِ (٢)

(١) وهي قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا ﴾ . وقد ذكر أبو حيان هذا الرأي ووصفه بالبعد ، وقال : « وهذا فيه تفكيك للكلام ، وخروج عن الظاهر لغير موجب » .

(٢) هذا الرجز قاله أبو النجم العجلي . و « أمُّ الخيار » هي زوجته ، و « الذنب » الذي ادعته عليه وهو لم يصنعه هو الشيب والصلع والشيخوخة ، يقول : إنها تلومني على شيبتي وشيخوختي وهو ذنب لم أرتكبه أنا ، والشعر في خزانة الأدب للبغدادى ، وفي كتاب سيبويه ، وفي شرح شواهد المغني ، وأمالي ابن السجري ومغني اللبيب ، وقد أكثر النحويون والبيانون الكلام في هذا البيت ، واختلفوا فيه اختلافاً كبيراً بين نصب (كله) ورفعها ، وابن عطية ينقل عن سيبويه أن في الفعل (أصنع) ضمير يعود على المبتدأ وهو (كل) ، وأن التقدير : « لم أصنعه » ، والحذف عنده قبيح ولا يقبل إلا في الشعر ، ولكن غير سيبويه يجوز ذلك كالغراء والكسائي وابن مالك ، والبيانون يقولون : إن رفع « كل » أفضل لأنه يقتضي أنه لم يصنع شيئاً من هذا الذي ادعته عليه من ذنوب ، فالنفي ينصب على كل ذنب من الذنوب . وأما النصب فيقتضي =

قال : ولكن حملوا الخبر على الصفات كقول جرير :

..... وَمَا شَيْءٌ حَمَيْتَ بِمُسْتَبَاحٍ (١)

وعلى الصّلات كقوله تعالى : ﴿أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ (٢) ، وذهب غير سيبويه إلى أن [وَعَدَ] في موضع الصفة ، كأنه قال : أولئك وكُلُّ وعد الله الحسنی ، وصاحبُ هذا المذهب جعل في هذا التّعسف في المعنى فراراً من حذف الضمير من خبر الابتداء . و [أَلْحُسْنَى] : الجنة ، قاله مجاهد ، وقتادة ، والوعدُ يتضمن ما قبل الجنة من

= أنه لم يصنع الذنوب مجتمعة ، وهذا لا ينفي أنه قد صنع بعضها ، وبعض العلماء ينتقض ذلك : راجع خزانة الأدب ، والمحتسب ، والتسهيل وغيرها . ومثل هذا البيت قوله صلى الله عليه وسلم - حين قال له ذو اليمين : أَقْصُرْتُ الصَّلَاةَ أَمْ نَسِيتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ - : «كُلُّ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ» ، أي : لم تقصر الصلاة ولم أنس .

(١) هذا عجز بيت قاله جرير يخاطب عبد الملك بن مروان ، والبيت بتمامه :

أَبَحَّتْ حِمَى تِهَامَةَ بَعْدَ تَجَسُّدٍ وَمَا شَيْءٌ حَمَيْتَ بِمُسْتَبَاحٍ

يقول له : ملكت العرب وأبحت حماها بعد إبانها عليك ، وما حميته لا يستطيع أحد أن يستبيحه لقوة سلطانك ، وتهامة : ما هبط ونزل من بلاد العرب ، ونجد : ما علا وارتفع منها ، يعني ملكت جميع البلاد العربية ، والبيت شاهد لجواز حذف الهاء من الفعل إذا وقعت جملته نعتاً ؛ لأن النعت مع المنعوت كالصلة مع الموصول ، وحذفها في الصلة حسن فصارها النعت في ذلك ، وتقدير الكلام : «وما شيءٌ حميته بمستباح» ، والبيت في الديوان ، وفي الكتاب لسبويه ، وأما ابن الشجري ، ومغني اللبيب .

(٢) من الآية (٩٤) من سورة (الإسراء) .

نصر وغنيمة . وقوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ قولٌ فيه وعدٌ ووعد .

قوله تعالى : ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ الآية . قال بعض النحويين : [مَنْ] ابتداءً ، و [ذَا] خبره ، و [الَّذِي] صفة ، وقال آخرون منهم : [مَنْ] ابتداءً ، و [ذَا] زائدةٌ مع [الَّذِي] ، و [الَّذِي] خبر الابتداء ، وقال الحسن : نزلت هذه الآية في التطوع في جميع أمر الدين ، و «الْقَرْضُ» و «السَّلْفُ» ونحوه : أن يعطي الإنسان شيئاً وينتظر جزاءه ، و «التضعيف» من الله تعالى هو في الحسنات ، يضاعف الله تعالى لمن يشاء من عشرة إلى سبعمائة ، وقد ورد أن التضعيف يزيد على سبعمائة ، وقد مرَّ ذكر ذلك في سورة البقرة بوجهه من التأويل (١). وقرأ أبو عمرو ، ونافع ، وحمزة ، والكسائي : [فِيضَاعِفُهُ] بالرفع على العطف أو على القطع والاستئناف ، وقرأ عاصم ، وابن عامر : [فِيضَاعِفُهُ] بالنصب بالفاء في جواب الاستفهام ، وذلك قلقٌ ، قال أبو علي : لأن السؤال لم يقع عن القرض ، وإنما وقع السؤال عن فاعل القرض ، وإنما تنصب الفاء فعلاً مردوداً على فعل مستفهم عنه ، لكن هذه الفرقة حملت ذلك على المعنى ، كأن قوله تعالى :

(١) راجع الجزء الثاني صفحة (٤٢٧) .

(مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ) بمنزلة أن لو قال : أيقرضُ اللهَ أحدُ فيضاعفه ،
 وقرأ ابن كثير : [فِيضَعْفُهُ] مشددة العين مضمومة الفاء ، وكذلك
 قرأ ابن عامر ، إلا أنه فتح الفاء . و «الأجرُ الكريم» : الذي يقترنُ
 به رضى وإقبال ، وهذا معنى الدعاء : «يا كريم العفو» ، أي أن
 مع عفوهِ رضى ومغنماً ، وعفو البشر ليس كذلك .

قوله عز وجل :

﴿ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ
 بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ
 ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ
 نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ
 فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى
 وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ
 وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿١٤﴾ ﴾

العامل في [يَوْمَ] قوله تعالى : ﴿وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ ، و «الرؤية»
 في هذه الآية رؤية عين ، و «النور» ، قال الضحاك بن مزاحم :
 هي استعارة ، عبارة عن الهدى والحق الذي هم عليه وهدايتهم الناس

إلى الحق وصدقهم في الأفعال والأقوال ، وقيل : تتبّعهم الرشاد واعتقادهم به واقتصاصهم آثاره وعلاماته وأنواره ، وقيل : هي استعارة ، عبارة عن الهدى والرضوان الذي هم فيه ، وقال الجمهور : بل هو نور حقيقة ، ورؤي في هذا عن ابن عباس وغيره آثار مضمنها أن كل مؤمن مظهر للإيمان يُعطى يوم القيامة نوراً ، فيُطْفئ نور كل منافق ويبقى نور المؤمنين ، حتى إن منهم من نوره يضيء كما بين مكة وصنعاء ، رفعه قتادة إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، ومنهم من نوره كالنخلة السَّحُوق (١) ، ومنهم من نوره يضيء ما يقرب من قدميه ، قاله ابن مسعود رضي الله عنه ، ومنهم من يهيم نوره بالانطفاء مرةً ويَبِينُ مرّةً ، على قدر المنازل في الطاعة والمعصية ، وخص تعالى «بين الأيدي» لأنه موضع حاجة الإنسان إلى النور .

واختلف الناس في قوله تعالى : [وَبِأَيْمَانِهِمْ] - فقال بعض المتأولين : المعنى : وعن أيمانهم ، فكأنه تعالى خصَّ جهة اليمين تشريفاً ، وناب ذلك مناب أن يقول : وفي جميع جهاتهم ، وقال آخرون منهم : المعنى : وبأيمانهم كتبهم بالرحمة ، وقال جمهور المفسرين : المعنى : يسعَى نورهم بين أيديهم ، يريد تعالى الضوء المنبسط من أهل النور ،

(١) السَّحُوق : الطويلة ، يقال في وصف النخلة والمرأة .

وبإيمانهم أصله والشيء الذي هو مُتَقَدِّ فيه ، فمُضْمَنٌ هذا القول أنهم يحملون الأنوار ، وكونهم غير حاملين [لها] (١) أكرم ، ألا ترى أن فضيلة عبّاد بن بشر ، وأسيّد بن حُضَيْر (٢) رضي الله عنهما إنما كانت بنور لا يحملانه ؟ هذا في الدنيا فكيف في الآخرة ؟ ومن هذه الآية انتزع حمل المُعْتَق للشمعة . وقرأ الناس : [وَبِإِيمَانِهِمْ] جمع يمين ، وقرأ سهل بن سعد ، وأبو حيوة : [وَبِإِيمَانِهِمْ] بكسر الألف ، وهو معطوف على قوله تعالى : ﴿ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾ ، كأنه تعالى قال : كافياً بين أيديهم وكائناً بسبب إيمانهم .

وقوله تعالى : [بُشْرَاكُمْ] معناه : يقال لهم : بُشْرَاكُمْ جنات ، أي دخول جنات ، فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه ، وقوله

(١) ما بين العلامتين [...] زيادة لتوضيح المعنى .

(٢) أما « عبّاد » فهو : عبّاد بن بشر بن وقّش - بفتح الواو وبالقف وبالشين المعجمة - الأنصاري ، من قدماء الصحابة ، أسلم قبل الهجرة ، وشهد بدرأ ، وأبلى يوم اليمامة أحسن البلاء فاستشهد بها . كان النبي صلى الله عليه وسلم يبعثه إلى القبائل يُصدّقها - أي يجمع الصدقات - وجعله على مقاسم حنين ، واستعمله على حرسه في تبوك .

وأما « أسيّد » فهو : أسيّد بن الحُضَيْر بن سِمَاك بن عَتِيك الأوسي ، صحابي ، كان شريفاً في الجاهلية والإسلام ، يعدُّ من عقلاء العرب وذوي الرأي فيهم ، وكان يسمّى الكامل ، جرح في أحد سبع جراحات ، وثبت مع النبي صلى الله عليه وسلم ، وشهد الخندق والمشاهد كلها ، وفي الحديث : (نعم الرجل أسيّد بن الحُضَيْر) ، توفي بالمدينة ، وله ثمانية عشر حديثاً .

تبارك وتعالى : ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ إلى آخر الآية مخاطبة لمحمد صلى الله عليه وسلم ، وقرأ ابن مسعود رضي الله عنه : « ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ » بدون « هو » .

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ ﴾ ، قال بعض النحاة : [يَوْمَ] بدلٌ من الأول ، وقال آخرون منهم : العاملُ فيه مضمَرٌ تقديره : اذكر ، ويظهر لي أن العامل فيه قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ ، ويجيء معنى الفوز أفخم ، كأنه تعالى يقول : إن المؤمنين يفوزون بالرحمة يوم يعتري المنافقين كذا وكذا ، لأن ظهور المرء يوم نحول عدوه ومضاده أبداع وأفخم ، وقولُ المنافقين هذه المقالة المحكية هو عند انطفاء أنوارهم كما ذكرنا قبل ، وقولهم : « انظُرُونَا » معناه : انتظرونا ، ومنه قول الحطيئة :

وَقَدْ نَظَرْتُكُمْ إِيْنَاءَ عَاشِيَةٍ لِلْخَمْسِ طَالَ بِهَا حَبْسِي وَتَبْسَاسِي (١)

(١) هذا البيت من قصيدة قالها الحطيئة يهجو الزبرقان بن بدر لأنه لم يكرم جواره ، ويمدح بغض بن عامر الذي أعطاه وأكرم جواره ، والبيت في الديوان ، واللسان ، والتاج ، ومعنى « نظرتكم » : انتظرتكم ، وهو موضع الاستشهاد هنا ، وإيناء : انتظار ، والعاشية هي الإبل التي ترعى ليلاً وتعتشى بعد أن شربت ، والخمس بكسر الخاء : نوع من إظماء الإبل إذ يتركونها أربعة أيام بدون أن تشرب ثم يقدمون لها الماء في اليوم الخامس فتشرب حتى تشبع ، والتبّسّاس : نوع من مداعبة الإبل بالمسح على ضرع الناقة ، وبالصوت الذي يقال فيه : بس بس =

وقرأ حمزة وحده (١) ، وابن وثاب ، وطلحة ، والأعمش : [أَنْظَرُونَا]
 بقطع الألف وكسر الظاء على وزن أَكْرِم ، ومنه قول عمرو بن كلثوم :

أَبَا هِنْدٍ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْنَا وَأَنْظِرْنَا نُخَبِّرَكَ الْيَقِينَا (٢)

ومعناه : أَخْرُونَا ، ومنه النَّظْرَةُ إِلَى مَيْسَرَةٍ ، وقول النبي صلى الله عليه
 وسلم : (مَنْ أَنْظَرَ مُنْسِرًا) الحديث (٣) ، ومعنى قولهم « أَخْرُونَا » :

= حتى تدرّ لبنها ، فالشاعر يقول : إنه فعل مثل ذلك مع الزبرقان وقومه ، وانتظر طويلاً كالإبل
 التي تنتظر اليوم الخامس ، ولكنه لم ينل من عطائهم شيئاً . ورواية البيت في اللسان :

وَلَقَدْ نَظَرْتُكُمْ إِيْنَاءَ صَادِرَةٍ لِلْخِمْسِ طَالَ بِهَا حَوْزِي وَتَنَسَّاسِي

والصادرة : الإبل التي عادت بعد أن شربت في اليوم الخامس . والحوز : السّوق قليلاً قليلاً ،
 والتناساس : السوق السريع . وفي رواية أخرى : « ولقد نظرتكم أعشَاءً » ، ومعناها أيضاً :
 انتظرتكم انتظار هذه الإبل .

(١) يعني : وَحْدَهُ من بين السبعة المشهورين بالقراءة .

(٢) هذا البيت من معلقة عمرو بن كلثوم ، وأبو هند : عَمْرُو بْنُ الْمُنْذِرِ ، وهو في البيت
 منصوب على النداء ، والفاء في « فَلَا تَعْجَلْ » تصل ما بعدها بما قبلها ، وَأَنْظِرْنَا معناه :
 انتظرنا ، أو معناه : أَخْرْنَا - وهو موضع الاستشهاد هنا - . وَنُخَبِّرُكَ : جواب شرط مقدر ،
 أي : أَنْ تَنْتَظِرْنَا أو أَنْ تُؤَخِّرْنَا نُخَبِّرُكَ الْيَقِينِ . وقد استشهد الفراء بالبيت في « معاني القرآن » .

(٣) أخرجه البخاري ، والترمذي ، والدارمي في البيوع ، ومسلم في الزهد ، وابن ماجه
 في الصدقات ، وأحمد في مسنده (١-٣٢٧ ، ٢-٣٥٩ ، ٥-٣٥١) ، ولفظه كما في مسند
 أحمد ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المسجد
 وهو يقول بيده هكذا - فأوماً أبو عبد الرحمن بيده إلى الأرض - : (مَنْ أَنْسَرَ مُعْسِرًا
 أو وضع له وقاه الله من فيح جهنم ، ألا إن عمل الجنة حَزَنٌ بربوة - ثلاثاً - ألا إن عمل النار
 سهل بسهوة ، والسعيد مَنْ وَفَى الذَّيْنَ ، وما من جرعة أحب إليّ من جرعة غيظ يكظمها
 عبداً ، ما كظمها عبداً لله إلا ملأ الله جوفه إيماناً) .

أَخْرُوا مَشِيكُم لَنَا حَتَّى نَلْحَقَ فَنَقْتَبِسَ مِنْ نُورِكُمْ ، و « اِقْتَبَسَ الرَّجُلُ وَاسْتَقْبَسَ » : أَخَذَ مِنْ نُورِ غَيْرِهِ قَبْسًا .

وقوله تعالى : ﴿ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ ﴾ يحتمل أن يكون من قول المؤمنين ، ويحتمل أن يكون من قول الملائكة ، وقوله تعالى : [وَرَاءَكُمْ] حكى المهدي وغيره من المفسرين أنه لا موضع له من الإعراب ، وأنه كما لو قال : ارجعوا ارجعوا ، وأنه على نحو قول أبي الأسود الدؤلي : « ورائك أوسع لك » ، ولست أعرف مانعاً يمنع أن يكون العامل فيه [ارجعوا] ، والقول لهم : ﴿ فَالْتَمِسُوا نُورًا ﴾ هو على معنى التوبيخ لهم ، أي أنكم لا تجدونه ، ثم أعلم عز وجل أنه يضرب بينهم في هذه الحال بسور حاجز ، فيسعى المنافقون في ظلمة ، ويأخذهم العذاب من الله تعالى ، وحكي عن ابن زيد أن هذا السور هو الأعراف المذكور في سورة الأعراف ، وقد حكاه المهدي ، وقيل : هو حاجز آخر غير ذلك ، وقال عبد الله بن عمرو ، وكعب الأحماس ، وعُبادة ابن الصامت ، وابن عباس : هو الجدار الشرقي في مسجد بيت المقدس ، وقال زياد بن أبي سودة : قام عبادة بن الصامت على السور الشرقي من بيت المقدس فبكى وقال : من ها هنا أخبرنا النبي صلى الله عليه وسلم أنه رأى جهنم .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وفيه باب يسمى باب الرحمة ، سمّاه في تفسير هذه الآية عبادة وكعب ، وفي الشرق من الجدار المذكور وادٍ يقال له : وادي جهنم ، سمّاه في تفسير هذه الآية عبد الله بن عمرو ، وابن عباس رضي الله عنهم ، وهذا القول في السور بعيد ، والله تعالى أعلم . وقال قتادة ، وابن زيد : الرحمة الجنة ، والعذاب جهنم ، والسور في اللغة الحجاب الذي للمدن (١) وهو مذكر ، والسور أيضاً جمع سورة وهي القطعة من البناء فيضاف بعضها إلى بعض حتى يتم الجدار ، فهذا اسم جمع يسوغ تذكيره وتأنيثه ، وهذا الجمع هو الذي أراد جرير في قوله :

لَمَّا أَتَى خَبَرَ الزُّبَيْرِ تَوَاضَعَتْ
سُورُ الْمَدِينَةِ وَالْجِبَالُ الْخُشَّعُ (٢)

وذلك أن المدينة لم يكن لها قط حجى ، وأيضاً فإن وصفه أن جميع ما في المدينة من بناءٍ تواضع أبْلغُ ، ومَنْ رَأَى أَنَّهُ قَصْدُ السُّورِ الَّذِي

(١) في بعض النسخ : « والسور في اللغة الحجى الذي للمدن » ، والحجى هو النستر أو الحاجز ، شبهً بالعقل الذي يحفظ الإنسان من الهلاك .

(٢) البيت من قصيدة قالها جرير يهجو بها الفرزدق وغيره من الشعراء ، وخبّر ابن الزبير : قتله ، وقد استشهد به ابن عطية على أن « السور » اسم جمع يجوز تذكيره وتأنيثه ، وقد أنثه جرير ، وقال صاحب اللسان : « أنث السور لأنه بعض المدينة ، فكأنه قال : تواضعت المدينة » ، والألف واللام في « الخشع » زائده لأن « خشع » خبرٌ .

هو الحِجَى قال : إن ذلك إذا تواضع فغيره من المباني أخرى بالتواضع ، فإذا كان السور في البيت يحتمل الوجهين فليس هو في قوة مر الرياح ، وصدر القناة ، وغير ذلك مما هو مذكّر محض استفاد التأنيث مما أضيف إليه .

قوله تعالى : ﴿بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ﴾ ، أي جهة المؤمنين ، [وَوَظَاهِرُهُ] أي جهة المنافقين ، والظاهر هنا البادي ، ومنه قول الكتاب : «من ظاهر مدينة كذا» .

وقوله تعالى : [يُنَادُونَهُمْ] معناه : ينادي المنافقون المؤمنين : ألم نكن معكم في الدنيا؟ فيرد المؤمنون عليهم : بل كنتم معنا ولكنكم عرضتم أنفسكم للفتنة وحُب العاجل والقتال عليه ، قال مجاهد : فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِالنِّفَاقِ ، و [تَرَبَّصْتُمْ] معناه هنا : بإيمانكم ، فأبطلتكم به حتى مُتُّم ، وقال قتادة : معناه : تَرَبَّصْتُمْ بِنَا وَبِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الدوائر ، وشككتكم في أمر الله تعالى ، و «الارتيابُ» : التَّشَكُّكُ ، و «الأمانى التي غرتهم» هي قولهم : سيهلك محمد هذا العام ، ستهزمه قريش ، ستأخذ الأحزاب ، إلى غير ذلك من أمانيتهم ، وطول الأمل غرارٌ لكل أحد ، و «أمر الله الذي جاء» هو الفتح وظهور الإسلام ، وقيل : هو موت المنافقين وموافاتهم على هذه الحالة الموجبة

للعذاب. و «الغُرُورُ» : الشيطان بإجماع من المتأولين ، وقرأ سماكُ ابن حرب بضم الغين ، وأبو حيوة ، وينبغي لكل مؤمن أن يعتبر هذه الآية في نفسه وتسويفه في توبته .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَىٰكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَىٰكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ * أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَعَسَاوْنَ ﴿١٦﴾ أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْحِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ ﴾ استمرارٌ في مخاطبة المنافقين ، قاله قتادة وغيره ، وروي في معنى قوله تعالى : ﴿ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ حديث . وهو : أن الله تعالى يُقرِّر الكافر فيقول له : (أرأيتك لو كان لك أضعاف الدنيا أكنت تفتدي بجميع ذلك من عذاب النار ؟ فيقول : نعم يا رب ، فيقول الله تعالى : قد سألتك ما هو أيسر من ذلك وأنت في صلب أبيك آدم ، لا تشرك بي ،

فَأَبَيْتُ إِلَّا الشُّرْكَ (١) ، وقرأ جمهور القراء والناس : [يُؤْخَذُ] بالياء من تحت ، وقرأ أبو جعفر القارئ : [تُؤْخَذُ] بالتاء من فوق ، وهي قراءة ابن عامر في رواية هشام عنه . وهي قراءة الحسن ، وابن أبي إسحق ، والأعرج .

قوله تعالى : (هِيَ مَوْلَاكُمْ) ، قال المفسرون : معناه : هي أولى بكم ، وهذا تفسير بالمعنى ، وإنما هي استعارة لأنها من حيث تضمُّهُمْ وتبأشرهم هي تَوَالِيهِمْ وتكون لهم مكان المولى ، وهذا نحو قول الشاعر :

تَحِيَّةٌ بَيْنَهُمْ ضَرْبٌ وَجِيعٌ (٢)

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء والرفاق ، ومسلم في المنافقين ، وأحمد في مسنده (٣-١٢٩) ، ولنظفه فيه : عن أبي عمران الجوني قال : سمعت أنس بن مالك يحدث عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : (يقول الله عزَّ وجلَّ لأهْلُونَ أهل النار عذاباً : لو أن لك ما في الأرض من شيء كنت تفتدي به ؟ فيقول : نعم ، فيقول : قد أردت منك ما هو أهون من هذا وأنت في صُئْبِ آدَمَ ، ألاَّ تشرك بي فأبيت إلاَّ أن تُشْرِكَ بي) .

(٢) هذا عجز بيت مشهور عن النحويين واللغويين ، وقد قاله عمرو بن معديكرب ، ويشكك صاحب الخزانة في ذلك ، والبيت بتمامه :

وَخَيْلٍ قَدْ دَلَفَتْ لَهَا بِخَيْسِلٍ تَحِيَّةٌ بَيْنَهُمْ ضَرْبٌ وَجِيعٌ

وهو في خزانة الأدب ، والكتاب لسبويه ، والخصائص ، والعمدة ، والتصريح ، والمرزوقي ، =

وقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ ﴾ الآية ابتداءً معنى مستأنف ، وروي أنه كثر الضحك والمزاح في بعض تلك المدة في قوم من شبان المسلمين فنزلت هذه الآية ، وقال ابن مسعود رضي الله عنه : ملَّ الصحابة ملة فنزلت الآية . ومعنى ﴿ أَلَمْ يَأْنِ ﴾ أَلَمْ يَحِنْ ، يقال : آن الشيء يُأْنِي إذا حان ، ومنه قول الشاعر :

تَمَخَّضَتِ الْمُنُونُ لَهُ بِيَوْمٍ أَنَّى وَلِكُلِّ حَامِلَةٍ تَمَامُ (١)

وقرأ الحسن بن أبي الحسن : ﴿ أَلَمَّا يَأْنِ ﴾ وروي عنه أنه قرأ : ﴿ أَلَمْ يَحِنْ ﴾ ، وهذه الآية على معنى الحَضُّ والتقرير ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : عوتب المؤمنون بهذه الآية بعد ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن ، وسمع الفضل بن موسى قارئاً يقرأ هذه الآية والفضل يحاول معصية فكانت الآية سبب توبته ،

= وابن يعيش ، ونوادير أبي زيد ، والخليل : الفرسان ، ودَكَفَت : زحفت ، وجيع : مُوجِع ، يقول : إذا تلاقوا في الحرب جعلوا الضرب الموجه بينهم بدلا من تحية بعضهم لبعض ، والشاهد فيه جعل الضرب تحية على سبيل الاستعارة .

(١) هذا البيت في اللسان غير منسوب ، وفي التاج منسوباً إلى عمرو بن حسان بن ثابت ، وتمخَّضَ : تحرك وتهيأ ، والمنون : المنية ، وأنَّى : حان ، يقول : إن المنون أتت له بهذا اليوم الذي لا بد أن يأتي ، وقد أدرك وبلغ كما أن كل حامله لا بد أن يتم حملها .

وحكى الثعلبي عن ابن المبارك أنه في صباح حرك العود ليضربه فإذا به قد نطق بهذه الآية فتاب ابن المبارك وكسر العود وجاءه التوفيق (١) .

و «الخشوعُ» : الإخباتُ والتَّطامن ، وهي هيئة تظهر في الجوارح متى كانت في القلب ، فلذلك خصَّ تعالى القلب بالذكر ، وروى شداد ابن أوس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (أول ما يرفع من الناس الخشوعُ) (٢) ، وقوله تعالى : ﴿لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ أي : لأجل ذكر الله ووحيه الذي بين أظهرهم ، ويحتمل أن يكون المعنى : لأجل تذكير الله تعالى إياهم وأمره فيهم ، وقرأ عاصم في رواية حفص : ﴿وَمَا نَزَلَ﴾ مُخَفَّفَ الزاي ، وقرأ الباقر ، وأبو بكر عن عاصم : ﴿وَمَا نَزَلَ﴾ بتشديد الزاي ، على معنى : نَزَلَ اللهُ من الحق ، وقرأ أبو عمرو - في رواية عياش - وهي قراءة الجحدري ، وابن القعقاع : ﴿وَمَا نُزِّلَ﴾

(١) ابن المبارك : هو عبد الله بن المبارك المروزي ، من بني حنظلة ، وحكاية الثعلبي بهذه الصيغة غير منطقية ولا صحيحة ، ولهذا جاءت في بعض النسخ بصيغة أخرى هي : «حرك العود ليضربه فسمع قارئاً ينطق بهذه الآية...» الخ .

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير عن شداد بن أوس ، وقد رمز له الإمام السيوطي في الجامع الصغير بأنه حديث حسن ، وزاد في الدر المنثور نسبه إلى ابن المنذر ، وعبد بن حميد . وعبد الرزاق .

بكسر الزاي وشدها . وقرأ نافع . وأبو عمرو ، والأعرج ، وأبو جعفر :
 ﴿وَلَا يَكُونُوا﴾ بالياء على ذكر الغائب ، وقرأ حمزة - فيما روى عنه
 سليمان - ﴿وَلَا تَكُونُوا﴾ على مخاطبة الحضور . والإشارة في قوله
 تبارك وتعالى : ﴿كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ إلى بني إسرائيل المعاصرين
 لموسى صلى الله عليه وسلم ، ولذلك قال : ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ ، وإنما شبه
 أهل عصر نبيٍّ بأهل عصر نبيٍّ آخر . و «الأمْدُ» قيل : معناه انتظار
 الفتح ، وقيل : انتظار القيامة ، وقيل : أمد الحياة ، و [قَسَتْ]
 معناه : صلبت وقلَّ خيرها وانفعالها للطاعات وسكنت إلى معاصي
 الله تعالى ففعلوا من العصيان والمخالفة ما هو مأثور عنهم .

وقوله تعالى : ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ الآية
 مخاطبة لهؤلاء المؤمنين الذين ندبوا إلى الخشوع ، وهذا ضربٌ مثل
 واستدعاءً إلى الخير برفق وتقريب بليغ ، أي : لا يبعد عنكم أيها
 التاركون للخشوع رجوعكم إليه وتلبُّسكم به ، فإن الله يُحْيِي الْأَرْضَ
 بعد موتها ، وكذلك يفعل بالقلوب ، يردُّها إلى الخشوع بعد بُعْدِهَا
 عنه ، وترجع هي إليه إذا وقعت الإنابة والتكسب من العبد بعد
 نفورها منه كما يحيي الأرض بعد أن كانت ميتةً غرباء ، وباقى
 الآية بين .

قوله عز وجل:

﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يَضَعَفُ لَهُمْ
وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ
عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ
الْجَحِيمِ ﴿١٩﴾﴾

قرأ جمهور القراء: ﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ﴾ بتشديد الصاد المفتوحة ،
على معنى المتصدقين ، وكذا هي في مصحف أبي بن كعب رضي الله عنه :
«إِنَّ الْمُتَصَدِّقِينَ» بالتاء ، وهو يؤيد هذه القراءة ، وأيضاً فيجزيه
قوله تعالى : ﴿وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ ملائماً في الكلام للصدقة ،
وقرأ ابن كثير ، وأبو بكر عن عاصم : ﴿إِنَّ الْمُصَدِّقِينَ﴾ بتخفيف
الصاد ، على معنى الذين صدقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما
بَلَّغَ عن الله تعالى ، وآمنوا به ، ويؤيد هذه القراءة أنها أكثر تناوُلًا
للأمة لأن كثيراً ممن لا يتصدق تعمه اللفظة في التصديق ، ثم إن
تقييدها بقوله تعالى : ﴿وَأَقْرَضُوا اللَّهَ﴾ يرد مقصد القراءتين بعضه
من بعض .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ معطوف على المعنى ؛
لأن معنى قوله سبحانه : ﴿ إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَدِّقَاتِ ﴾ : إن الذين
تَصَدَّقُوا ، ولا يصح هنا عطف لفظي ، قاله أبو علي في الحجة ،
وقد تقدم معنى « القرض » ومعنى « المضاعفة » التي وعد الله تعالى
بها هذه الأمة ، وتقدم معنى وصف الأجر بالكرم ، كل ذلك في
هذه السورة .

ويؤيد عندي قراءة من قرأ : ﴿ إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ ﴾ بشد الصاد أن
الله تعالى حض في هذه السورة على الإنفاق في سبيل الله ، ثم ذكر
في هذه أهل الصدقة ووعدهم ، ثم ذكر أهل الإيمان والتصديق في
قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ﴾ ، وعلى قراءة من قرأ :
﴿ إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ ﴾ بتخفيف الصاد فذكر المؤمنين مكرر في اللفظ ،
وكون الأصناف مفردة بأحكامها من الوعد أبين ، والإيمان بمحمد
صلى الله عليه وسلم يقتضي الإيمان بجميع الرسل عليهم السلام ، فلذلك
قال تعالى : [وَرُسُلِهِ] .

و « الصَّدِّيقُونَ » بناء مبالغة من الصدق ، أو من التصديق على
ما ذكر الزجاج : « وفِعِيل لا يكون - فيما أحفظه - إلا من فعل ثلاثي .

وقد أشار بعض الناس إلى أنه يجيء من غير الثلاثي ، وقال : « مَسِكُ » من « أَمَسَكَ » ، وأقول إنه يقال : مَسَكَ الرجلُ ، وقد حُكِيَ : مَسَكَ الشيءَ ، وفيه نظر .

قوله تعالى : ﴿ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ ، اختلف الناس في تأويل ذلك - فقال ابن مسعود ، ومجاهد ، وجماعة : [وَالشُّهَدَاءُ] معطوف على قوله تعالى : [الصَّادِقُونَ] والكلام متصل ، ثم اختلفت هذه الفرقة في معنى هذا الاتصال - فقال بعضها : وصف الله تعالى المؤمنين بأنهم صِدِّيقُونَ وشُهَدَاءُ ، فكلُّ مؤمن شهيدٌ ، قاله مجاهد ، وروى البراء بن عازب رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (مُؤْمِنُوا أُمَّتِي شُهَدَاءُ) ، وتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية (١) ، وإنما خصَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر الشهداء السبعة تشريفاً ، ولأنهم في أعلى رتب الشهادة ، ألا ترى أن المقتول في سبيل الله مخصوص أيضاً من السبعة بتشريف ينفرد به ، وقال بعضها : وصف الله تعالى المؤمنين بأنهم صِدِّيقُونَ وشُهَدَاءُ لكن من معنى الشاهد لا من معنى الشهيد ، وذلك نحو قوله تعالى : ﴿ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ (٢) ، فكأنه

(١) أخرجه ابن جرير الطبري عن البراء بن عازب .

(٢) من الآية (٧٨) من سورة الحج .

تبارك وتعالى قال في هذه الآية : هم أهل الصدق والشهادة على الأمم عند ربهم ، وقال ابن عباس ، ومسروق ، والضحاك : الكلام تام في قوله تعالى : ﴿أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ ، وقوله تعالى : [وَالشُّهَدَاءُ] ابتداءً مستأنف ، ثم اختلفت هذه الفرقة في معنى الاستئناف - فقال بعضها : معنى الآية : والشهداء فإنهم صديقون حاضرون عند ربهم ، وعنى بـ «الشهداء» الأنبياء عليهم السلام ، فكان الأنبياء عليهم السلام يشهدون للمؤمنين بأنهم صديقون ، وهذا يفسره قوله تعالى : ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ (١) ، وقال بعضها : قوله تعالى : [وَالشُّهَدَاءُ] ابتداءً يريد به الشهداء في سبيل الله ، واستأنف الخبر عنهم بأنهم عند ربهم لهم أجرهم ونورهم ، فكانه تعالى جعلهم صنفاً مذكوراً وحده ، وفي الحديث : (إن أهل الجنة العليا يراهم من دونهم كما ترون الكوكب الدرّي ، وإن أبا بكر وعمر منهما وأنعماء) (٢) .

(١) من الآية (٤١) من سورة (النساء) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده ، والترمذي في سننه ، وابن حبان في صحيحه ، عن أبي سعيد ، وأخرجه الطبراني في الكبير عن جابر بن سمرة ، وابن عساكر عن أبي هريرة وعن أبي عمرو . ورمز له الإمام السيوطي في الجامع الصغير بأنه حديث صحيح .

وقوله تعالى : ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ خبر عن الشهداء فقط على الأخير من الأقوال ، وهو خبر عن المؤمنين المذكورين في أول الآية على الأقوال الثلاثة الأولى ، وقوله تعالى : [وَنُورُهُمْ] قال جمهور المفسرين هو حقيقة حسب ما روي مما تقدم ذكره في هذه السورة ، وقال مجاهد وغيره : هو مجازي عبارة عن الهدى والكرامة والبشرى التي حصلوا فيها .

ولما فرغ ذكر المؤمنين وأهل الكرامة عقب تعالى بذكر الكفرة المكذبين ليبين الفرق ، فذكرهم تعالى بأنهم أصحاب الجحيم وسكّانه .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطًّا وَمَا فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَمَتٌّ لِّلرُّورِ ﴿٢٠﴾﴾

هذه آية وعظ وتبيين لأمر الدنيا وضعة منزلتها ، و [أَنَّمَا]

سادة مسدَّ المفعولين للمعلم لأنها لا تدخل على اثنين ، وهي - وإن كفت

عن العمل - فالجملة بعدها نافية . و « الحياة الدنيا » في هذه الآية عبارة عن الأشغال والتصرفات والفكر التي هي مختصة بالحياة الدنيا ، وأما ما كان من ذلك في طاعة الله تعالى وسبيله ، وما كان من الضرورات التي تقيم الأود وتعين على الطاعات ، فلا مدخل له في هذه الآية ، وتأمل حالة الملوك بعد فقرهم يبين لك أن جميع ترفهم لعبٌ ولهو . و « الزينة » التحسين الذي هو خارج من ذات الشيء ، و « التفاخر » هو بالأنساب والأموال وغيرها ، و « التكاثر » هو الرغبة في الدنيا وعددها لتكون العزة للكثير على المذهب الجاهلي (١).

ثم ضرب تعالى مثلاً للدنيا ، فالكاف في قوله تعالى : [كَمَثَلِ] في موضع رفع صفة لما تقدم ، وصورة هذا المثل أن الإنسان ينشأ في حجر مملكة فما دون ذلك ، فيشب ويقوى ويكسب المال والولد ويغشاه الناس ، ثم يأخذ بعد ذلك في انحطاط فيشيخ ويضعف ويسقم وتصيبه النوائب في ماله وذريته ويموت ويضمحل أمره ، وتصير أمواله لغيره وتتغير رسومه ، فأمره مثل مطر أصاب أرضاً فنبت عن ذلك الغيث نبات مُعجب أنيق ، ثم هاج ، أي يبسَ واصفر ثم تحطم ثم تفرق بالرياح واضمحل .

(١) الكثير هو الكثير ، قال الأعشى :

وَأَسْتُ بِالْأَكْثَرِ مِنْهُمْ حَصِيٌّ وَإِنَّمَا الْعِزَّةُ لِلْكَائِرِ

واختلف المتأولون في لفظة [الْكُفَّار] هنا - فقال بعض أهل التأويل : هو من الكفر بالله تعالى ، وذلك أنهم أشد تعظيماً للدنيا ، وأشد إعجاباً بمحاسنها ، وقال آخرون منهم : هو من « كَفَرَ الْحَبَّ » أي ستره في الأرض ، وهم الزُّراع ، وخصَّهم بالذكر لأنهم أهل البصر بالنبات والفلاحة فلا يعجبهم إلاَّ المعجب حقيقة الذي لا عيب فيه ، و« هَاجَ الزَّرْعُ » معناه : يَبَسَ وَاضْفَرَ ، و« حُطَّامٌ » بناءً مبالغة ، يقال : حطيم وحُطَّامٌ بمعنى محطوم أو محتطم ، كعجيب وعُجَابٌ بمعنى معجب أو مُتَعَجَّبٌ منه .

ثم قال تعالى : ﴿ وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ ، كأنه تعالى قال : والحقيقة ما هنا ... ثم ذكر العذاب أولاً تَهَمُّماً به من حيث الحذر في الإنسان ينبغي أن يكون أولاً ، فإذا تحذَّر من المخاوف مدَّ حينئذ أمله ، فذكر الله تعالى ما يحذَّرُ قبل ما يطمع فيه وهو المغفرة والرضوان ، وروي عن عاصم ضمَّ الراء من [وَرُضْوَانٌ] .

و «مَتَاعُ الْغُرُورِ» معناه : الشيء الذي لا يُعَظَّمُ الاستمتاع به إلاَّ مُعْتَرِئاً ، وقال عكرمة وغيره : متاع الغرور : القوارير^(١) ، لأن الفساد والآفات تسرع إليها ، فالدنيا كذلك أو هي أشد .

(١) لأنها معرضة للكسر .

قوله عز وجل :

﴿ سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ
 أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ، ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ
 الْعَظِيمِ ﴿٢١﴾ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ
 مِّن قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا
 تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ﴾

لما ذكر تعالى المغفرة التي في الآخرة ندب في هذه الآية إلى المسارعة إليها والمسابقة ، وهذه الآية حجة عند جميع العلماء في الندب إلى الطاعات ، وقد استدل بها بعضهم على أن أول أوقات الصلوات أفضل لأنها تقتضي المسارعة والمسابقة ، وذكر بعضهم في تفسير هذه الآية أشياء هي على جهة المثال ، فقال قوم من العلماء ، منهم ابن مسعود رضي الله عنه : ﴿ سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ معناه : كونوا في أول صف في القتال ، وقال آخرون - منهم أنس بن مالك رضي الله عنه - : اشهدوا تكبيرة الإحرام مع الإمام ، وقال آخرون - منهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه - : معناه : كن أول داخل في المسجد وآخر خارج منه ، وهذا كله على جهة المثال .

وذكر تعالى العَرَضُ من الجنة إذ المعهود أنه أقل من الطول ،
وقال قوم من أهل المعاني : عبّر عن المساحة بالعَرَضُ ، ولم يقصد
أن طولها أكثر ولا أقل ، وقد ورد في الحديث أن سقف الجنة العرش ،
وورد في الحديث أن السموات السبع في الكرسي كالدرهم في الفلاة ،
وأن الكرسي في العرش كالدرهم في الفلاة (١) .

وقوله تعالى : [أَعِدَّتْ] ظاهره أنها مخلوقة الآن مُعَدَّةً ، ونصّ
عليه الحسن في كتاب النقاش .

وقوله تعالى : (مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ) ، قال ابن زيد : المعنى :
ما حدث من حادث خيرٍ أو شرٍّ ، فهذا على معنى لفظ «أصاب» لا على
عُرْفِ المصيبة فإن عُرْفَهَا في الشرِّ ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما
ما معناه : إنه أراد عُرْفَ المصيبة ، وخصها بالذكر لأنها أهم على
البشر ، وهي بعض من الحوادث ، فدلّ على أن جميع الحوادث

(١) رواه ابن جرير في تفسيره ، عن ابن زيد ، عن أبيه ، وأخرجه ابن مردويه
عن أبي ذرٍّ ، وأخرجه الآجُرِّي ، وأبو حاتم البستي في صحيح مسنده ، والبيهقي وذكر أنه
صحيح ، ولفظه كما ذكره ابن مردويه أن أبا ذرٍّ سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الكرسي ،
فقال صلى الله عليه وسلم : (والذي نفسي بيده ما السموات السبع والأرضون السبع عند الكرسي
إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة ، وأن فضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على تلك الحلقة) .

خيرها وشرها كذلك ، وقوله تعالى : ﴿ فِي الْأَرْضِ ﴾ يعني بالقحوط والزلازل وغير ذلك ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ ﴾ يريد : بالموت والأمراض وغير ذلك ، وقوله تعالى : ﴿ إِلَّا فِي كِتَابٍ ﴾ معناه : إلا والمصيبة في كتاب ، و [نَبْرَاهَا] : نخلقها ، يقال : برأ الله الخلق ، أي خلقهم ، والضمير عائد على المصيبة ، وقيل : على الأرض ، وقيل : على الأنفس ، قاله ابن عباس ، وقتادة ، وجماعة ، وذكر المهدي جواز عود الضمير على جميع ما ذكر ، وهي كلها معان صحاح لأن الكتاب السابق أزل قبل هذه كلها . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ يريد تحصيل الأشياء كلها في كتاب

وقوله تعالى : ﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ ﴾ معناه : فعل الله تعالى هذا كله وأعلمكم به ليكون سبب تسليمكم وقلة اكتراثكم بأمر الدنيا ، فلا تحزنوا على ما فاتكم ولا تفرحوا الفرح المبطر بما آتاكم فيها ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : ليس أحد لا يحزن ويفرح ، ولكن من أصابته مصيبة فجعلها صبراً ومن أصاب خيراً فجعله شكراً . وقرأ أبو عمرو وحده : [آتاكم] على وزن فعل ماض ، وهذا ملائم لقوله تعالى : [فاتكم] ، وقرأ الباقر من السبعة : [آتاكم] على وزن «أعطاكم» بمعنى : آتاكم الله تعالى : وهي قراءة الحسن ، والأعرج

وأهل مكة ، وقرأ ابن مسعود رضي الله عنه : «أوتيتُم» ، وهي تؤيد قراءة الجمهور .

وقوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ يدل على أن الفرح المنهي عنه إنما هو ما أدى إلى الاختيال والفخر ، وأما الفرح بنعم الله تعالى المقترن بالشكر والتواضع فأمر لا يستطيع أحد دفعه عن نفسه ، ولا حرج فيه .

قوله عز وجل :

﴿ الَّذِينَ يَبْطُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُغْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ (٢٤) لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٦﴾

اختلف النحاة في إعراب [الَّذِينَ] ، فقال بعضهم : هو في موضع رفع على الابتداء والخبر عنهم محذوف معناه الوعيد والذم ، وحذفه

على جهة الإبهام نحو حذف الجواب في قوله تعالى : ﴿ وَكَوَّأَنَّ قُرْآنًا سُرِّتَ بِهِ الْجِبَالُ ﴾ الآية (١) ، وقال بعضهم : هو رفع على خبر الابتداء ، تقديره : هم الذين يبخلون ، وقال بعضهم : هو في موضع نصب بإضمار « أعني » أو نحوه ، وقال بعضهم : هو في موضع نصب صفة لـ [كُلٌّ] لَأَنَّ [كُلٌّ] وإن كان نكرة فهو تخصيص لنوع ما ، يسوغ لذلك وصفه بالمعرفة ، وهذا هو مذهب الأخصس . و [يَبْخُلُونَ] معناه : بأموالهم وأفعالهم الحسنة من إيمانهم وغير ذلك .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ ﴾ يحتمل أن يصفهم بحقيقة الأمر بالسنتهم ، ويحتمل أن يريد أنهم يُقتدى بهم في البخل فهم لذلك كأنهم يأمرون ، وقرأ الحسن : [بِالْبُخْلِ] بفتح الخاء والباء ، وقرأ جمهور القراء وأهل العراق : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ بإثبات [هُوَ] ، وكذلك في إمامهم ، وقرأ نافع ، وابن عامر : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ بترك [هُوَ] وهي قراءة أهل المدينة ، وكذلك في إمامهم ، وهذا لم يثبت قراءة إلا وقد قرئ على النبي

(١) من الآية (٣١) من سورة (الرعد) .

صلى الله عليه وسلم ، قال أبو علي : فهو في القراءة التي ثبت فيها
يَحْسُنُ أَنْ يَكُونَ فَصْلًا وَلَا يَحْسُنُ أَنْ يَكُونَ ابْتِدَاءً ؛ لِأَنَّ حَذْفَ الْابْتِدَاءِ
غَيْرُ سَائِغٍ .

و «الكتاب» اسم جنس لجميع الكتب المنزلة ، و «الميزان» :
العدل في تأويل أكثر المتأولين ، وقال ابن زيد وغيره من المتأولين :
أراد الموازين المتصرفة بين الناس ، وهذا خير (١) من القول الأول ،
وقوله تعالى : ﴿لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ يقوي القول الأول .

قوله تعالى : ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾ ، عبر تعالى عن خلقه واتخاذ
بالإنزال ، كما قال تعالى في الثمانية الأزواج من الأنعام (٢) ، وأيضاً
فإن الأمر بِكَوْنِ الْأَشْيَاءِ لما كان يُلقَى من السماء جعل الكل نزولاً منها ،
وقال جمهور كثير من المفسرين : الحديد هنا أراد به جنسه من المعادن
وغيرها ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : نزل آدم عليه السلام من
الجنة ومعه السندان والكلبتان والميعة (٣) . وقال حذاق من المفسرين :

(١) في بعض النسخ « وهذا جزء من القول الأول » .

(٢) في قوله تعالى في الآية (٦) في سورة الزمر : ﴿وَأَنْزَلْ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ

ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ .

(٣) السندان : قطعة من الحديد يطرق الحداد عليها ما يريد تشكيله من الحديد ، والكلبتان :

أداة يأخذ بها الحداد الحديد من النار (كماشة) ، والميعة : المطرقة .

أراد به السلاح ، ويترتب معنى الآية : فإن الله تعالى أخبر أنه أرسل رسلاً ، وأنزل كتباً وعدلاً مشروعاً ، وسلاحاً ، يحارب بها من عاند ولم يَهْتَدِ بِهَدْيِ اللَّهِ ، فلم يبق عُذْرٌ ، وفي الآية - على هذا التأويل - حضٌّ على القتال وترغيب فيه ، وقوله تعالى : ﴿ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ ﴾ يقوي هذا التأويل ، ومعنى قوله تعالى : ﴿ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ ﴾ أي : لِيَعْلَمَهُ موجوداً ، فَالتَّغْيِيرُ ليس في عِلْمِ اللَّهِ تعالى ، بل في هذا الحَدَثِ الذي خرج من العدم إلى الوجود ، وقوله تعالى : [بِالْغَيْبِ] معناه : ما سمع من الأوصاف الغائبة عنه فأمن بها لقيام دلالة عليها ، ثم وصف تبارك وتعالى نفسه بالقوة والعزة ليبين أنه لا حاجة به إلى النُّصرة لكنها نافعة من عَظَمَ بها نفسه من الناس .

ثم ذكر تعالى رسالة نوح وإبراهيم عليهما الصلاة والسلام تشرifاً لهما بالذكر ، ولأنهما من أول الرسل عليهم السلام ، ثم ذكر تعالى نعمه على ذريتهما ، وقوله تعالى : [وَالْكِتَابَ] يعني الكتب الأربعة فإنها جميعاً في ذرية إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، وذكر تعالى أنهم مع ذلك منهم من فسقَ وعَدَدَ ، فكذلك - بل أخرى - جميع الناس ولذلك يشرع السلاح للقتال .

قوله عز وجل :

﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَرِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ
وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهَابَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ
إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ
وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَءَامِنُوا بِرُسُلِهِ
يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ
رَحِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾

[قَفَّيْنَا] معناه : جئنا بهم بعد الأولين ، وهو مأخوذ من القفا ،
أي جاء بالثاني في قفا الأول ، فيجيء الأول بين يدي الثاني ،
ومنه القوافي التي تأتي في أواخر أبيات الشعر ، ثم ذكر تعالى عيسى
عليه السلام تشریفاً وتخصيصاً ، وقرأ الحسن : [الأنجيل] بفتح
الهمزة ، قال أبو الفتح : هذا مثال لا نظير له ، و (رَأْفَةً وَرَحْمَةً
وَرَهَابَانِيَّةً) مفعولات [جَعَلْنَا] ، والجعل في هذه الآية بمعنى : الخلق ،
وقوله تعالى : [أَبْتَدَعُوهَا] صفة لـ [رَهَابَانِيَّةً] ، وخصصها بأنها ابتدعت
لأن الرأفة والرحمة في القلب لا كسب للإنسان فيهما ، وأما الرهبانية

فهي أفعال بَدَنَ مع شيءٍ في القلب ، ففيها موضع للتَّكْسِبِ ، قال قتادة : الرَّأْفَةُ وَالرَّحْمَةُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى ، وَالرَّهْبَانِيَّةُ هُمْ ابْتَدَعُوهَا ، وَالْمُرَادُ بِالرَّأْفَةِ وَالرَّحْمَةِ حُبُّ بَعْضِهِمْ فِي بَعْضٍ وَتَوَادُّهُمْ ، وَالْمُرَادُ بِالرَّهْبَانِيَّةِ رَفْضُ النِّسَاءِ وَاتِّخَاذُ الصَّوَامِعِ ، وَالْمُعْتَزِلَةُ تَعْرَبُ [رَهْبَانِيَّةً] أَنَّهَا نَصَبٌ بِإِضْمَارِ فِعْلٍ يَفْسُرُهُ [أَبْتَدَعُوهَا] ، وَلَيْسَتْ بِمَعْطُوفَةٍ عَلَى الرَّأْفَةِ وَالرَّحْمَةِ ، وَيَذْهَبُونَ فِي ذَلِكَ إِلَى أَنَّ الْإِنْسَانَ يَخْلُقُ أَفْعَالَهُ ، فَيَعْرَبُونَ الْآيَةَ عَلَى هَذَا (١) ، وَكَذَلِكَ أَعْرَبَهَا أَبُو عَلِيٍّ .

وَرُوي فِي ابْتِدَاعِهِمُ الرَّهْبَانِيَّةَ أَنَّهُمْ افْتَرَقُوا ثَلَاثَ فِرَقٍ : ففِرْقَةُ قَاتَلَتِ الْمُلُوكَ عَلَى الدِّينِ فَغَلَبَتْ وَقُتِلَتْ ، وَفِرْقَةُ قَعَدَتْ فِي الْمَدِينِ يَدْعُونَ إِلَى الدِّينِ وَيُبَيِّنُونَهُ ، وَلَمْ تُقَاتِلْ ، فَأَخَذَتِهَا الْمُلُوكُ فَنَشَرْتَهَا بِالْمَنَاشِيرِ ، وَقُتِلُوا ، وَفِرْقَةُ خَرَجَتْ إِلَى الضِّيَافِي وَبَنَتِ الصَّوَامِعَ وَالذِّيَارَاتِ ، وَطَلَبَتْ أَنْ تَسَلَّمَ قَبْلَ أَنْ تَعْتَزَلَ فَتَرَكْتَ وَذَلِكَ ، وَتَسَمَّوْا بِالرَّهْبَانِ (٢) ،

(١) فِي بَعْضِ النُّسخِ : «فَيَكْتَدِبُونَ» ، وَفِي بَعْضِهَا «فَيَعْدَبُونَ» بَدَلًا مِنْ «فَيَعْرَبُونَ» الْآيَةَ عَلَى هَذَا ، وَلَعَلَّ فِي هَذَا الْكَلَامِ مَا يَنْفِي تَهْمَةَ الْإِعْتِرَالِ عَنِ ابْنِ عَطِيَّةٍ ، وَهِيَ تَهْمَةُ أَلْصِقِهَا بِهِ بَعْضُهُمْ وَأَشْرْنَا إِلَيْهَا مَرَارًا فِي هَذَا التَّفْسِيرِ ، وَبِخَاصَّةٍ فِي الْمَقْدَمَةِ .

(٢) أَخْرَجَهُ عَبْدُ بَنِ حَمِيدٍ ، وَالْحَكِيمُ التَّرْمِذِيُّ فِي نَوَادِرِ الْأَصُولِ ، وَأَبُو يَعْلَى ، وَابْنُ جَرِيرٍ ، وَابْنُ الْمُنْذَرِ ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ ، وَالطَّبْرَانِيُّ وَالْحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ ، وَابْنُ مَرْدُويَةَ ، وَالْبَيْهَقِيُّ فِي شَعْبِ الْإِيمَانِ ، وَابْنُ عَسَاكِرَ ، مِنْ طَرَفٍ ، عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ ، وَذَكَرَهُ الْإِمَامُ السِّيُوطِيُّ فِي الدَّرِّ الْمَشُورِ وَفِي أَوَّلِهِ زِيَادَةٌ عَلَى مَا هُنَا .

واسمهم مأخوذ من الرهب وهو الخوف ، وهذا هو ابتداعهم ، ولم يعرض الله تعالى ذلك عليهم لكنهم فعلوا ذلك ابتغاء رضوان الله ، هذا تأويل أبي أمامة وجماعة ، وقال مجاهد : المعنى : كتبناها عليهم ابتغاء رضوان الله ، ف « كَتَبَ » - على هذا - بمعنى : قضى ، ويحتمل اللفظ أن يكون المعنى : ما كتبناها عليهم إلا في عموم المندوبات ؛ لأن ابتغاء رضوان الله تعالى بالتقرب والنوافل مكتوب على كل أمة ، فلاستثناء - على هذا الاحتمال - متصل .

واختلف الناس في الضمير الذي في قوله تعالى : ﴿ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾ ، من المراد به ؟ فقيل : إن الذين ابتدعوا الرهبانية لأنفسهم لم يدوموا على ذلك ولا وفوه حقه ، بل غيروا وبدلوا ، قاله ابن زيد وغيره ، والكلام سائغ وإن كان فيهم من رعى ، أي : لم يرعوها بأجمعهم ، وفي هذا التأويل لزوم الإتمام لكل من بدأ بتنفل وتطوع ، وأنه يلزمه أن يراعاه حق رعايه ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره : الضمير للملوك الذين حاربوهم وأجلوهم ، وقال الضحاک وغيره : الضمير للأخلاف الذين جاءوا بعد المبتدعين لها ، وبقي الآية بين ، وقرأ ابن مسعود رضي الله عنه : « كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ لَكِنْ ابْتَدَعُوهَا » .

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ ﴾ ،
 اختلف الناس ، من المخاطب بهذا ؟ فقالت فرقة من المتأولين :
 خوطب بها أهل الكتاب ، فالمعنى : يا أيها الذين آمنوا بعيسى اتقوا
 الله وآمنوا بمحمد ، ويؤيد هذا المعنى الحديث الصحيح عن النبي
 صلى الله عليه وسلم : (ثلاثة يؤتيهم الله أجرهم مرتين ، رجل من
 أهل الكتاب آمن بنبيّه وآمن بي) الحديث (١) ، وقال آخرون :
 المخاطبة للمؤمنين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، قيل لهم :
 يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله ، أي اثبتوا على ذلك ودوموا
 عليه ، وهذا هو معنى الأمر أبداً لمن هو متلبس بما يؤمر به .

وقوله تعالى : ﴿ يُؤْتِكُمْ كِفَايَيْنِ ﴾ أي نصيبين بالإضافة إلى
 ما كان الأُمة قبل يعطونه ، قال أبو موسى الأشعري رضي الله عنه :
 « كَفَايَيْنِ » : ضعفين بلسان الحبشة ، وروى أن عمر بن الخطاب

(١) هذا الحديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده ، والبخاري ومسلم في صحيحيهما ،
 والنسائي ، وابن ماجه ، وهو عن أبي موسى ، وقد ذكره السيوطي في « الجامع الصغير »
 ورمز له بالصحة ، ولنظفه كما جاء فيه : (ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين ، رجل من أهل الكتاب
 آمن بنبيّه وأدرك النبي صلى الله عليه وسلم فأمن به واتبعه وصدقّه ، فله أجران ، وعبد مملوك
 أدّى حق الله تعالى وحق سيّده ، فله أجران . ورجل كانت له أمة فغناها فأحسن غناها ،
 ثم أديها فأحسن تأديبها ، وعلمها فأحسن تعليمها ، ثم أعتقها وتزوجها ، فله أجران) .

رضي الله تعالى عنه قال لبعض الأخبار : كم كان التضعيف للحسنات فيكم ؟ فقال : ثلاثمائة وخمسون ، فقال عمر رضي الله عنه : الحمد لله الذي ضاعف لنا إلى سبعمائة ، ويؤيد هذا المعنى الحديث الصحيح الذي يقتضي أن اليهود عملت إلى نصف النهار على قيراط ، والنصارى من الظهر إلى العصر على قيراط ، وهذه الأئمة من العصر إلى الليل على قيراطين ، فلما احتجت اليهود والنصارى عن ذلك وقالوا : نحن أكثر عملاً وأقل أجراً ، قال تعالى : هل نقصتكم من أجركم شيئاً ؟ قالوا : لا ، قال : فإنه فضلي أوتيته من أشياء (١) . و « الكفيل » : الحظ والنصيب . و « النور » هنا إما أن يكون وعداً بالنور الذي يسعى بين الأيدي يوم القيامة ، وإما أن يكون استعارة للهدى الذي يمشى به في طاعة الله تعالى .

(١) أخرجه البخاري في المواقيت ، وأحمد في مسنده (٢-١٢٩) ، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (ألا إنما بقاؤكم فيما سلف قبلكم من الأمم كما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس ، أوتي أهل التوراة التوراة ، فعملوا حتى إذا انتصف النهار ثم عجزوا ، فأعطوا قيراطاً قيراطاً ، ثم أوتي أهل الإنجيل الإنجيل ، فعملوا إلى صلاة العصر ثم عجزوا ، فأعطوا قيراطاً قيراطاً ، ثم أوتينا القرآن فعملنا إلى غروب الشمس فأعطينا قيراطين قيراطين ، فقال أهل الكتابين : أي ربنا ، لِمَ أعطيت هؤلاء قيراطين قيراطين وأعطيتنا قيراطاً قيراطاً ونحن كنا أكثر عملاً منهم ؟ قال الله تعالى : هل ظلمتكم من أجوركم من شيء ؟ قالوا : لا ، قال : فهو فضلي أوتيته من أشياء) .

قوله عز وجل :

﴿لَيْسَ يَعْلَمَ أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ
بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾

رُوي أنه لما نزل هذا الوعد للمؤمنين حسد أهل الكتاب على ذلك ،
وكانت اليهود تعظم دينها وأنفسها ، وتزعم أنها أحباء الله وأهل
رضوانه ، فنزلت هذه الآية معلمة أن الله تعالى فعل ذلك وأعلم به
ليعلم أهل الكتاب أنهم ليسوا كما يزعمون ، و «لَا» في قوله تعالى :
[لَيْسَ] زائدة ، كما هي في قوله تعالى : ﴿وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْبَةٍ أَهْلِكُنَاهَا
أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ (١) على بعض التأويلات ، وقرأ ابن عباس ،
والجحدري : [لِيَعْلَمَ] ، وروى إبراهيم التيمي عن ابن عباس رضي الله
عنهما : «كَيْ يَعْلَمَ» ، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما : «لِكَيْلَا
يَعْلَمَ» ، وروي عن حِطَّانِ الرقاشي (٢) أنه قرأ : «لَأَنَّ يَعْلَمَ» ، وقرأ
ابن مسعود ، وابن جبير ، وعكرمة : «لِكَيْ يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ» ،

(١) من الآية (٩٥) من سورة (الأنبياء) .

(٢) حِطَّانُ بن عبد الله الرقاشي البصري ، ثقة ، من الثانية ، مات في ولاية بشر على
العراق ، بعد السبعين ، (تقريب التهذيب) .

وقرأ الحسن - فيما روى ابن مجاهد - : «لَيْلًا يَعْلَمُ» بفتح اللام الأتولى وسكون الياء ، فأما فتح اللام فلغة في لام الجر مشهورة ، وأصل هذه القراءة : «لَأَنَّ لَأَ» ، استغنى عن الهمزة بلام الجر فحذفت فجاء «لَنَّ لَأَ» ، فأدغمت النون في اللام للتشابه فجاء «لَلَأَ» ، فاجتمعت أمثلة فقلبت اللام الواحدة ياءً (١). وقرأ الحسن - فيما روى مطرف - : «لَيْلًا» بكسر اللام الأتولى وسكون الياء ، وتعليلها كالتى تقدمت .

وقوله تعالى : ﴿أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ﴾ معناه أنهم لا يملكون فضل الله تبارك وتعالى ، ولا يدخل تحت قدرتهم ، وقرأ ابن مسعود رضي الله عنه : «أَلَّا يَقْدِرُوا» بغير نون ، وباقي الآية بين .

كامل تفسير سورة الحديد والحمد لله رب العالمين

(١) راجع «المحتسب» لأبي الفتح ابن جنى ففيه توضيح لذلك وتدليل بالأمثلة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين ،
سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين



وهي مدنية بإجماع ، إلا أن النقاش حكى أن قوله تعالى :
(مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ) الآية مكي^(١) ، وروى أبي بن كعب
رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (من قرأ سورة
المجادلة كُتِبَ من حزب الله) (٢).

قوله عز وجل :

﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ
تَحَاوُرَ كَمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ۝ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ
أُمَّهَاتُهُمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ
وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ ۝ ﴾

(١) وقال ذلك الكلبي ، وحكى القرطبي أنها مدنية في قول الجميع ، إلا رواية عن عطاء
أن العشر الأول منها مدني ، وباقيها مكي .
(٢) لم أفق عليه .

(سَمِعَ اللَّهُ) عبارة عن إدراك المسموعات على ما هي عليه بأكمل وجوه ذلك دون جارحة ولا تكييف ولا تحديد ، تعالى الله عن ذلك ، وقرأ الجمهور : (قَدْ سَمِعَ) بالبيان ، وقرأ ابن مُحَيِّصِن : (قَدْ سَمِعَ) بالإدغام ، وفي قراءة ابن مسعود رضي الله عنه : «قَدْ يَسْمَعُ اللَّهُ» ، وفيها : «والله قد يَسْمَعُ تحاوركمَا» .

واختلف الناس في اسم التي تجادل - فقال قتادة : هي خُوَيْلَة بنت ثعلبة ، وقيل عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال : هي بنتُ حكيم ، وقال بعض الرواة ، وأبو العالية : هي خُوَيْلَة بنت دليج ، وقال المهدي : وقيل : خولة بنت دليج ، وقالت عائشة رضي الله عنها : هي جميلة ، وقال ابن إسحاق : هي خولة بنت الصامت ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما فيها : خَوْلَة بنتُ خُوَيْلِد ، وقال محمد ابن كعب القرظي ، ومنذر بن سعيد : هي خولة بنت ثعلبة .

قال ابن سلام : [تُجَادِلُ] : تقاتل في القول ، وأصلُ «الجَدَلُ» : الفتل .

وأكثر الرواة على أن الزوج في هذه الآية أوسُ بن الصامت الأنصاري (١) ، أخو عبادة بن الصامت ، وحكى النقاش - وهو في

(١) هو أوس بن الصامت بن قيس ، الخزرجي ، الأنصاري ، أخو عبادة بن الصامت ، ذكروه فيمن شهد بدرًا ، قال ابن حبان : مات في أيام عثمان وله خمس وثمانون سنة . =

المصنفات - حديثاً عن سلمة بن صخر البياضي (١) أنه ظاهر من امرأته
 إن واقعها مدة شهر رمضان ، فواقعها ليلة ، فسأل قومه أن يسألوا
 رسول الله صلى الله عليه وسلم فأبوا وهابوا ذلك ، وعظّموا عليه جريرته ،
 فذهب هو إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه فسأله واسترشد ،
 فنزلت الآية وقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أتعتق رقبة ؟
 فقال : والله ما أملك غير رقبتي ، فقال : أتصوم شهرين متتابعين ؟
 فقال : يا رسول الله وهل أتيتُ إلا في الصوم ؟ فقال : أتطعم ستين
 مسكيناً ؟ فقال : لا أجد ، فأعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم
 صدقات قومه فكفر بها ، فرجع سلمة إلى قومه فقال : إني وجدت
 عندكم الشدة والغلظة ، ووجدت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم
 الرخصة والرفق ، وقد أعطاني صدقاتكم (٢) .

= وقيل: مات سنة أربع وثلاثين بالرملة ، وهو ابن اثنتين وسبعين سنة . (الإصابة) . وقد
 ذكرت أكثر المصادر والروايات أنه هو الذي ظاهر من زوجته .

(١) هو سلمة بن صخر بن سليمان بن الصمة - بكسر الصاد وشد الميم كما في المغني -
 الأنصاري ، الخزرجي ، ويقال : سلمان ، ويقال له : البياضي ، صحابي ، قال البغوي :
 لا أعلم له حديثاً مسنداً إلا حديث الظهار . (الإصابة) .

(٢) أخرجه عبد الرزاق في المصنف من طريق أبي سلمة بن عبد الرحمن ، وذكر البغوي
 أن الذين رَوَوْا عنه حديث الظهار هم : سعيد بن المسيّب ، وسليمان بن يسار ، وأبو سلمة ،
 وسماك بن عبد الرحمن ، ومحمد بن عبد الرحمن . (راجع الإصابة والدر المنثور) .

وأما ما رواه الجمهور في شأن أوس بن الصامت فاختصاره أن أوساً ظهر من امرأته خولة بنت خويلد ، وكان الظهار في الجاهلية يوجب عندهم فُرْقَةً مُؤَبَّدَةً ، قاله أبو قلابة وغيره ، فلما فعل ذلك جاءت زوجته رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت : يا رسول الله ، إن أوساً أكل شبابي ، ونثرتُ له بطني ، فلما كبرتُ ومات أهلي ظاهرَ مني ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أراك إلا حُرمت عليه ، فقالت : يا رسول الله لا تفعل ؛ فإنني وحيدة ليس لي أهل سواه ، فراجعها رسول الله صلى الله عليه وسلم بمثل مقالته ، فراجعتهُ ، فهذا هو مجادلتهُ ، وكانت في خلال جدالها تقول : اللهم إليك أشكو حالي وانفرادي وفقري إليه ، وروي أنها كانت تقول : اللهم إن لي منه صغاراً ، إن ضممتهم إليه ضاعوا ، وإن ضممتهم إليّ جاعوا ، فهذا هو اشتكاؤها إلى الله ، فنزل الوحي - عند جدالها - على رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذه الآية ، وكانت عائشة رضي الله عنها حاضرة لهذه القصة كلها ، فكانت تقول : سبحان مَنْ وَسِعَ سَمْعَهُ الأصوات ، لقد كنت حاضرة لهذه القصة كلها ، وكان بعض كلام خولة يخفى علي ، وسمع الله تعالى جدالها ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم في أوس وقال له : أتعتق رقبة ؟ فقال : والله ما أملكها ، فقال :

أَنصُوم شهرين متتابعين؟ فقال : والله ما أقدر أن أصبر إلا على
 أكالات ثلاث في اليوم ، ومتى لم أفعل ذلك غشي بصري ، فقال له :
 أَتَظَعْم؟ فقال : لا أَجد إلا أن يُعِينَنِي رسول الله بمعونة وصلاة - يريد
 الدعاء - ، فأعانه رسول الله صلى الله عليه وسلم بخمسة عشر صاعاً ،
 ودعاً له ، وقيل : بثلاثين صاعاً ، فكفّر بالإطعام وأمسك أهله .

وفي مصحف عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : «تُحاورُكَ في زوجها» ،
 والمحاورة : مراجعة القول ومعاطاته ، وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو
 عمرو : [يَظْهَرُونَ] بالتشديد ، وقرأ أبي بن كعب - بخلاف عنه - :
 [يَتَظْهَرُونَ] ، وقرأ ابن عامر ، وحمزة ، والكسائي : [يَظَاهَرُونَ] ،
 وقرأ أبي بن كعب أيضاً : [يَتَظَاهَرُونَ] ، وقرأ عاصم ، وأبو جعفر ،
 والحسن ، وقتادة : [يُظَاهِرُونَ] بضم الياء من قولك «فَاعَلَ» ، وهذه
 مستعملة جداً ، وقولهم : «الظَّهَارُ» دليلٌ عليها ، والمراد بهذا كله
 قول الرجل لامرأته : أنت علي كَظْهَرِ أُمِّي ، يريد : في التحريم ،
 كأنها إشارة إلى الركوب إذ عُرِفَ في ظهور الحيوان ، وكان أهل
 الجاهلية يقولون ذلك ، فردَّ الله تعالى بهذه الآية على فعلهم ، وأخبر
 بالحقيقة من أن الأُمُّ هي الوالدة ، وأما الزوجة فلا يكون حكمها
 حكم الأُمِّ . وقرأ جمهور الناس : [أُمَّهَاتُهُمْ] بنصب الأُمَّهَاتِ ،

وقرأ عاصم - في رواية المفضل عنه - : [أُمَّهَاتُهُمْ] بالرفع ، وهذا على اللغتين في [مَا] ، لغة أهل الحجاز ولغة تميم ، وقرأ ابن مسعود رضي الله عنه : «مَا هُنَّ بِأُمَّهَاتِهِمْ» بزيادة باء الجر ، وجعل الله تعالى القول بالظهار منكراً وزوراً ، فهو مُحَرَّمٌ لكنه إذا وقع لزم ، هكذا قال فيه أهل العلم ، لكن تحريمه تحريم المكروهات جداً ، وقد رجى الله بعده بأنه عَفُوٌّ غَفُورٌ مع الكفارة .

قوله عز وجل :

﴿ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسًا ذَلِكَ تُوعَظُونَ بِهِ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٤﴾ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسًا ۗ فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَاِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۗ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾

اختلف الناس في معنى قوله تعالى : ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا﴾ - فقال قوم : المعنى : والذين يظاهرون من نسائهم في الجاهلية ، كأنه تعالى قال : والذين كان الظهار عادتهم ثم يعودون إلى ذلك في الإسلام ،

وقاله القتيبي ، وقال أهل الظاهر : المعنى : والذين يظاهرون ثم يظاهرون ثانية ، فلا تلزم عندهم كفارة إلا بأن يعيد الرجل التظاهر ، قال منذر بن سعيد : حينئذ هو عائد إلى القول الذي هو منكر وزور ، وهذا قول ضعيف وإن كان القشيري قد حكاه عن بكير بن عبد الله بن الأشج (١) ، وقال بعض الناس : في هذه الآية تقديم وتأخير ، وتقديرها : « فتحري رقة لما قالوا » ، وهذا أيضاً قولٌ يُفسد نظم الآية ، وحكي عن الأخصس لكنه غير قوي ، وقال قتادة ، وطاوس ، ومالك ، والزهري ، وجماعة كبيرة من أهل العلم معنى : ﴿ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا ﴾ أي بالوطء ، المعنى : ثم يعودون لما قالوا إنهم لا يعودون إليه ، فإذا ظاهر الرجل ثم وطئ فحينئذ تلزمه الكفارة في ذمته وإن طلق أو ماتت امرأته ، وقال الشافعي ، وأبو حنيفة ، ومالك أيضاً ، وفريق من أهل العلم : [يَعُودُونَ] معناه : بالعزم على إمساك الزوجة ووطئها والتزام التكفير لذلك ، فمتى وقع من المظاهر هذا العزم فقد لزمته الكفارة ذمته ، طلق أو ماتت امرأته ، وهذان القولان في مذهب

(١) اختلفت الأصول في كتابة اسمه ، فبعضهم كتبه « بكر » ، وبعضهم كتبه « بشر » ، والصواب أن ابن الأشج اسمه بكير ، قال عنه في « تهذيب التهذيب » : « من أعلم أهل عصره بالحديث » ، وقال عنه في « تقريب التهذيب » : « أبو عبد الله ، أو أبو يوسف ، مولى بني مخزوم ، المدني ، نزيل مصر ، ثقة ، من الطبقة الخامسة ، مات سنة عشرين » .

مالك ، وهما حَسَنان ، لُزمت الكفارة فيهما بشرطين : ظَهَارٌ وَعَوْدٌ واختلف في «العَوْد» ، ما هو ؟ فقال الشافعي : العَوْدُ الموجب للكفارة أن يمسك عن طلاقها بَعْدَ الظَّهَارِ ، وَبِمُضِيِّ - بعد الظَّهَارِ - ما يمكنه أن يُطَلَّقَ فيه فلا يُطَلَّقَ .

و «الرَّقَبَةُ» في الظَّهَارِ لا تكون عند مالك إِلَّا مؤمنة ، ردَّ هذا المُطَلَّقُ إلى المُقَيَّدِ الذي في كفارة القتل الخطأ .

واختلف الناس في قوله تعالى : ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسًا﴾ - فقال الحسن ، والثوري ، وجماعة : من قَبْلِ الوطءِ ، وجعلت الميسيس ها هنا : الوطءُ ، فأباحت للمظاهرِ التقبيل والمضاجعة والاستمتاع بأعلى المرأة كالحيض ، وقال الجمهور من أهل العلم : ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسًا﴾ عامٌّ في نوعي الميسيس : الوطءِ والمباشرة ، فلا يجوز لِمُظَاهِرِ أَنْ يَطَأَ وَلَا يَقْبَلَ وَلَا يلمس بيده ولا يفعل شيئاً من هذا النوع إِلَّا بعد الكفارة ، وهذا قول مالك رحمه الله ، وقوله تعالى : [ذَلِكُمْ] إشارة إلى «التَّحْرِيرِ» ، أَي فَعَلَ ذَلِكَ عِزَّةً لَكُمْ لتنتهوا عن الظَّهَارِ .

و «المُتَتَابِعُ» في الشهرين صيامهما ، ولا يفرق بين أيامهما ، وجائز أن يصومهما الرجل بالعدد فيصوم ستين يوماً تبعاً ، وجائز أن يصومهما بالأهلة ، يبدأ مع الهلال ويفطر مع الهلال ، فإن جاء

أحد شهره ناقصاً فذلك يجزئُ عنه ، وجائز أن يبدأ صومه في وسط شهرين ببعض الشهر الأول فيصوم إلى الهلال ، ثم يصوم شهراً بالحلال ، ثم يتم الشهر الأول بالعدد ، ولا أحفظ خلافاً من أهل العلم أن الصائم في الظَّهَارِ إن أفسد المتتابع باختياره أنه يبدأ صومهما ، واختلف الناس إذا أفسده لعذر غالب كالمرض والنسيان ونحوه - فقال أصحاب الرأي ، والشافعي في أحد قوليه ، والنَّخعي ، وابن جبير ، والحكم بن عُيينة ، والثوري : يبتدئُ ، وقال مالك ، والشافعي ، وغيره : يَبْنِي ، وأجمعوا على الحائض أنها تبني في صومها المتتابع .

وإطعامُ المساكين في الظَّهَارِ هو بالمُدِّ الهاشمي عند مالك ، وهو مُدٌّ وثلاث بِمُدِّ النبي صلى الله عليه وسلم ، وقيل : مُدَّان غير ثلث ، وروى ابن وهب أنه يطعم مُدَّين بِمُدِّ النبي صلى الله عليه وسلم ، وفي العلماء من يرى إطعام الظَّهَارِ مُدَّاً بِمُدِّ النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا يُجْزئُ في إطعام الظَّهَارِ إِلَّا إِكْمَالُ عدد المساكين ، ولا يُجْزئُ أن يُطعم ثلاثين مرَّتين ولا ما أشبهه ، والطعام هو غالب قوت البلد . وقال مالك ، وعطاء ، وغيره : إطعام المساكين أيضاً هو قبل التَّمَّاسِ حَمَلًا على العتق والصوم ، وقال أبو حنيفة ، وجمهور من أهل العلم : لم يَنْصُ اللهُ تعالى على الشرط هنا فنحن لا نلزمه ،

وللمظاهر إذا كان من أهل الإطعام أن يطاءً قبل الكفارة ويستمتع .
 وقوله تعالى : ﴿ ذَلِكُمْ لِيُتُومِنُوا ﴾ إشارة إلى الرخصة والتسهيل في
 النقل من التحرير إلى الصوم والإطعام ، ثم شدد تعالى بقوله :
 ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ﴾ ، أي : فالتزموها وقفوا عندها ، ثم توعد الكافرين
 بهذا الحديث والحكم الشرعي .

قوله عز وجل :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقَدْ
 أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا
 فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾ أَلَمْ تَرَ
 أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يُكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا
 هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ
 أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يَنْبِئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ ﴾

هذه الآية نزلت في المنافقين وقوم من اليهود كانوا في المدينة
 يتمرسون (١) برسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويتربصون (٢) بهم

(١) تمرس به : احتك به .

(٢) تربص به : انتظر أن يحل به شرٌّ أو خير . وهم هنا ينتظرون الشر .

الدوائر، ويديرون عليهم (١)، ويتمنون فيهم المكروه ، ويتناجون بذلك ، فنزلت هذه الآياتُ إلى آخر أمر النجوى فيهم .

و «المُحَادَّةُ» : أن يعطي الإنسان صاحبه حدَّ قوله أو سلاحه وسائر أفعاله ، وقال قوم : هي أن يكون الإنسان في حدِّ وصاحبه في حدِّ مخالف . و «كُبت الرجلُ» إذا بقي حزنان يبصر ما يكره ولا يقدر على دفعه ، وقال قوم - منهم أبو عبيدة - : أصْلُهُ : كُبِدُوا ، أي أصابهم داءٌ في أكبادهم ، فأُبدلت الدال تاءً ، وهذا غير قوي . و «الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ» هم منافقوا الأمم الماضية الذين حادوا الرسل عليهم الصلاة والسلام قديماً ، وقوله تعالى : ﴿وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ يريد : في هذا القرآن ، فليس هؤلاء المنافقون بأعذر من المتقدمين .

وقوله تعالى : ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾ ، العامل في [يَوْمَ] [مُهَيَّنٌ] ، ويحتمل أن يكون فعلاً مضمراً تقديره : اذكر ، وقوله تعالى : [وَنَسُوهُ] نسيانٌ على بابه ؛ لأن الكافر لا يحفظ تفاصيل أعماله ، ولما أخبر تعالى أنه على كل شيءٍ شهيدٌ وَقَفَ محمداً صلى الله عليه وسلم توقيفاً تشاركه فيه أمته .

(١) أداره عن الأمر وعليه ودأوره : لا وَصَهٌ ، يقال : أدرتُ فلاناً على الأمر إذا حاولت إلامه إياه ، وأدرته عن الأمر إذا طلبت منه تركه .

وقوله تعالى : ﴿ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ ﴾ ، يحتمل [نَجْوَى] أن يكون مصدراً مضافاً إلى [ثَلَاثَةٍ] ، كأنه تعالى قال : مِنْ سِرَّارِ ثَلَاثَةٍ ، ويحتمل [نَجْوَى] أن يكون المراد به جمعاً من الناس سُمِّيَ بالمصدر ، كما قال تعالى في آية أخرى : ﴿ إِذْ هُمْ نَجْوَى ﴾ (١) ، أي أُلُوا نجوى ، فيكون قوله تعالى : [ثَلَاثَةٍ] - على هذا - بدلاً من [نَجْوَى] أو صفة ، وفي هذا نظر ، وقوله تعالى : ﴿ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ ﴾ أي بعلمه وإحاطته ومقدرته ، وقرأ جمهور الناس : ﴿ مَا يَكُونُ ﴾ ، وقرأ أبو جعفر القارئ ، وأبو حيوة : ﴿ مَا تَكُونُ ﴾ بالثاء منقوطة من فوق ، وفي مصحف ابن مسعود رضي الله عنه : « وَلَا أَرْبَعَةٌ إِلَّا اللَّهُ خَامِسُهُمْ » ، وكذلك : « إِلَّا اللَّهُ رَابِعُهُمْ » و « إِلَّا اللَّهُ سَادِسُهُمْ » ، وقرأ جمهور القراء : ﴿ وَلَا أَكْثَرُ ﴾ عطفاً على اللفظ المنخفض ، وقرأ الحسن ، والأعمش ، وابن أبي إسحق : ﴿ وَلَا أَكْثَرُ ﴾ بالرفع عطفاً على الموضع ؛ لأن التقدير : ما يكون نجوى ، ومن جعل النجوى مصدراً محضاً قدر قبل [أَدْنَى] فعلاً تقديره : ولا يكون أدنى ، وقرأ الخليل بن أحمد : ﴿ وَلَا أَكْبَرُ ﴾ بالباء بوحدة من تحت ، وباقي الآية بين .

(١) من الآية (٤٧) من سورة (الإسراء) .

قوله عز وجل :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَجَّوْنَ
بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ
وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصَلُّونَهَا
فَيْئَسَ الْمُصِيرُ ﴿٨﴾ ﴾

❖ هذه الآية نزلت في قوم من اليهود نهاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عن التناجي بحضرة المؤمنين وإظهار ما يُستراب به من ذلك فلم ينتهوا فنزلت هذه الآية ، قاله مجاهد وقتادة ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : نزلت في اليهود والمنافقين ، وقرأ جمهور القراء : [وَيَتَنَجَّوْنَ] على وزن « يَتَفَاعَلُونَ » ، وقرأ حمزة ، والأعمش ، وطلحة ، وابن وثاب : [وَيَتَنَجُّوْنَ] (١) على وزن « يفتعلون » ، وهما بمعنى واحد أبداً كَيَقْتَتِلُونَ وَيَتَقَاتِلُونَ ، وفي مصحف عبد الله بن مسعود : « وَعِضْيَانَ الرَّسُولِ » .

(١) مضارع « انتجى » ، جاء في اللسان « انتجى القوم وتناجسوا : تَسَارَوْا » .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ ﴾ الآية ، يريد بذلك ما كانت اليهود تفعله من قولهم في التحية : السَّامُ عليك يا محمد ، وذلك أنه رُوي أن اليهود كانت تأتي فتقول : السَّامُ عليك يا محمد - والسَّامُ : الموت ، وإيَّاه كانوا يريدون - فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : وعليكم ، فسمعتهم عائشة رضي الله تعالى عنها يوماً فقالت : بل عليكم السَّامُ واللعنة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مهلاً يا عائشة ، إن الله يكره الفُحْش والتَّفَحُّش ، قالت : أما سمعتَ ما قالوا ؟ قال : أما سمعتَ ما قُلْتُ لهم ؟ إنني قُلْتُ : وعليكم (١) .

ثمَّ كشف الله تعالى خُبث طويَّتْهم والحُجَّةَ التي إليها يستريحون ، وذلك أنهم كانوا يقولون : نحن الآن نلقى محمداً بهذه الأُمُور التي تَسُوُّهُ ولا يُصِيبنا سوءٌ ، ولا يُعاقبنا الله تعالى بذلك ، ولو كان نبياً لهلكنا بهذه الأقوال ، وجعلوا أن أمرهم مؤخر إلى عذاب جهنم ، فأخبر الله تعالى بذلك ، وأنها كافيتهم ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : هذه الآية كلها في منافقين ، ويُشبه أن يكون في المنافقين من تخلَّق بتخلُّق اليهود .

(١) أخرجه عبد الرزاق ، وسعيد بن منصور ، وعبد بن حميد ، والبخاري ، ومسلم ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والبيهقي في الشعب ، عن عائشة رضي الله عنها . (الدر المنثور) .

قوله عز وجل :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَجَّيْتُمْ فَلَا تَنَجَّوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ
الرَّسُولِ وَتَنَجَّوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٠١﴾ إِنَّمَا
التَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ
اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾

وصى الله تعالى المؤمنين في هذه الآية بالألا يكون منهم تناج في مكروه ، وذلك عام في جميع الناس إلى يوم القيامة ، وخص تبارك وتعالى «الإثم» بالذكر لعمومه ، و «العدوان» لعظمته في نفسه ؛ إذا هي ظلماتُ العباد ، وكذلك «معصية الرسول» ذكرها طعناً على المنافقين إذ كان تناجيهم في ذلك .

وقرأ جمهور الناس : ﴿فَلَا تَنَجَّوْا﴾ على وزن «تتفاعلوا» ،
وقرأ ابن محيصن : ﴿فَلَا تَنَاجَوْا﴾ بحذف التاء الواحدة ، وقرأ بعض
القراء : ﴿فَلَا تَنَاجَوْا﴾ بتشديد التاء لأنها أُدغمت في التاء ، وقرأ
الأعمش وأهل الكوفة : ﴿فَلَا تَنَتَّجُوا﴾ على وزن «تفتعلوا» . والناس
على ضم العين من [الْعُدْوَانِ] ، وقرأها أبو حيوه بكسر العين حيث

وقع . وقرأ الضحاك وغيره : ﴿ وَمَعْصِيَاتِ الرَّسُلِ ﴾ على الجمع فيهما (١) .
ثم أمر تعالى بالتناجي في البرِّ والتقوى ، وذكر بالحشر الذي
معه الحساب ودخول إحدى الدارين .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا النَّجْوَى ﴾ ، ليست [إِنَّمَا] للحصر ولكنها
لتأكيد الخبر ، واختلف الناس في النجوى التي هي من الشيطان
التي أخبر عنها في هذه الآية - فقال جماعة من المفسرين : أراد :
إنما النجوى في الإثم والعدوان ومعصية الرسول من الشيطان ، وقال
قتادة وغيره : الإشارة إلى نجوى المنافقين واليهود ، وقال عبد الله
ابن زيد بن أسلم : الإشارة إلى نجوى قوم من المسلمين كانوا يقصدون
مناجاة رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس لهم حاجة ولا ضرورة إلى
ذلك ، وإنما كانوا يريدون التنجح بذلك ، وكان المسلمون يظنون
أن تلك النجوى في إخبارٍ بعدوٍ قاصِدٍ ونحوه ، وهذا القولان يُعَضِّدُهُمَا
ما يأتي من ألفاظ الآية ، ولا يُعَضِّدُ القول الأول . وقال عطية العوفي (٢)
في هذه الآية : نزلت في المناجاة التي يراها المؤمن فتسوؤه ، وفيما يراه

(١) في بعض النسخ : ﴿ وَمَعْصِيَاتِ الرَّسُولِ ﴾ على الجمع فيها .

(٢) هو عطية بن سعد بن جنادة - بضم الجيم وبعدها نون خفيفة - العوفي ، الجَدِّيُّ ،
الكوفي ، أبو الحسن ، صدوقٌ يخطئ كثيراً ، كان شيعياً ، من الطبقة الثالثة ، مات سنة إحدى
عشرة . (تقريب التهذيب) .

النائم فكأنه نجوى ينجى بها ، وهذا قول أجنبي من المعنى الذي قبله والذي بعده .

وقرأ نافع وأهل المدينة : [لِيُحْزِنَ] بضم الياء وكسر الزاي ، والفعل منسوب إلى الشيطان ، وقرأ أبو عمرو ، والحسن ، وعاصم ، وغيرهم : [لِيَحْزِنَ] بفتح الياء وضم الزاي ، تقول : «حَزَنْتُ قَلْبَ الرَّجُلِ» إذا جعلت فيه حُزناً ، فهو كقولك : «كَحَلْتُ العَيْنَ» ، وهو ضرب من التعدي كَأَنَّ المفعول ظرف ، وقد ذكر سيبويه رحمه الله تعالى هذا المعنى من تَعَدَّى الأفعال ، وقرأ بعض الناس : [لِيَحْزِنَ] بفتح الياء والزاي ، و [أَلَذِينَ] على هذه القراءة رفعٌ بإسناد الفعل إليهم ، يقال : حَزِنَ الرجل بكسر الزاي .

ثم أخبر تعالى أن الشيطان والتناجي الذي هو منه ليس بضارُّ أحداً إلا أن يكون ضرراً بإذن الله ، أي بأمره وقدره ، ثم أمر تعالى بتوكل المؤمنين عليه تبارك وتعالى ، وهذا كله يُقَوِّي أن التناجي الذي من الشيطان إنما هو الذي وقع للمؤمنين منه خوف ، وللخوف اللاحق للقلوب في هذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لا يتناجى اثنان دون واحد) (١) .

(١) أخرجه البخاري ، ومسلم ، وابن مردويه ، عن ابن مسعود رضي الله عنه ، ولفظه كما جاء في الدر المنثور : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الثالث فإن ذلك يُحْزِنُه) .

قوله عز وجل :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَأَفْسَحُوا يَفْسَحِ
 اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ آنزروا فأنزروا يرفع الله الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُتُوا
 الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَجَّيْتُمُ
 الرَّسُولَ فَقَدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةٌ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرٌ فَإِن لَّمْ
 تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾

قرأ جمهور الناس : [تَفَسَّحُوا] ، وقرأ الحسن ، وداود بن أبي
 هند (١) ، [تَفَاسَّحُوا] ، وقرأ جمهور القراء : (فِي الْمَجَالِسِ) ، وقرأ
 عاصم وحده ، وقتادة ، وعيسى : (فِي الْمَجَالِسِ) .

واختلف الناس في سبب الآية والمقصود بها - فقال ابن عباس ،
 والحسن ، ومجاهد : نزلت في مقاعد الحرب والقتال ، وقال زيد بن
 أسلم ، وقتادة : نزلت بسبب تضايق الناس في مجلس النبي صلى الله
 عليه وسلم ، وذلك أنهم كانوا يتنافسون في القرب منه وسماع كلامه

(١) هو داود بن أبي هند ، التشيري ، مولاهم ، أبو بكر أو أبو محمد ، البصري ،
 ثقة متقن ، من الطبقة الخامسة ، مات سنة أربعين ، وقيل قبلها . (تقريب التهذيب) .

والنظر إليه ، فيأتي الرجل الذي له الحق والسنُّ والقدم في الإسلام فلا يجد مكاناً ، فنزلت الآية بسبب ذلك ، وقال مقاتل : أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم قوماً ليجلس أشياخ من أهل بدر ونحو ذلك ، فنزلت الآية ، وروى أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (لا يقيم أحدٌ من مجلسه ثم يجلس فيه الرجل ، ولكن تفسحوا يفسح الله لكم) (١) ، وقال بعض الناس : إنما الآية مخصوصة في مجلس النبي صلى الله عليه وسلم وليس في سائر المجالس ، ويدل على ذلك قراءة من قرأ : (في الْمَجْلِسِ) ، ومن قرأ : (في الْمَجَالِسِ) فذلك مرادٌ أيضاً لأن لكل أحد مجلساً في بيت النبي صلى الله عليه وسلم وموضعه ، فجمع لذلك ، وقال الجدهور من أهل العلم : السبب مجلس النبي صلى الله عليه وسلم والحكم مُطْرَدٌ في سائر المجالس التي هي للطاعات ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : (أحبكم إلى الله أليينكم مناكب في الصلاة ورُكْباً في المجالس) (٢) ، وهذا قول مالك رحمه الله تعالى ، وقال : ما أرى الحكم إلا يطردُ في مجالس العلم

(١) أخرجه البخاري في الاستئذان والجمعة ، ومسلم في السلام ، وأبو داود والترمذي في الأدب ، والدارمي في الاستئذان ، وأحمد في المسند (٢-١٧ ، ٤٥ ، ٣٣٨) ، ولفظه كما في مسند أحمد (لا يُقيم الرجلُ الرجلَ من مجلسه فيجلس فيه ، ولكن تفسحوا وتوسعوا) .
(٢) لم أقف عليه .

ونحوها غابر الدهر ، ويؤيد هذا القول قراءة من قرأ : ﴿ فِي الْمَجَالِسِ ﴾ ،
ومن قرأ : ﴿ فِي الْمَجَالِسِ ﴾ فذلك - على هذا التأويل - اسم جنس ،
فالسنة المندوب إليها هي التَّفَسُّحُ ، والقيامُ منهىٌ عنه ، وحديث
النبي صلى الله عليه وسلم حديث نهى أن يقوم الرجلُ فيجلسُ الآخرُ
في مكانه ، فأما القيامُ إجلالاً فجائز بالحديث ، وهو قوله صلى الله
عليه وسلم حين أقبل سعد بن معاذٍ رضي الله تعالى عنه : (قوموا إلى
سيدكم) (١) ، وواجب على المعظم ألا يُحب ذلك ويأخذ الناس به ،
لقوله عليه الصلاة والسلام : (من أحبَّ أن يتمثل له الرجال قياماً
فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ) (٢) ، وقوله تعالى : ﴿ يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ ﴾
معناه : في رحمته وجنته .

(١) أخرجه البخاري في العتق والاستئذان ، وأبو داود في الأدب ، وأحمد في مسنده
(٣-٢٢ ، ٦-١٤٢) ، ولفظه فيه : عن أبي أمامة بن سهل قال : سمعت أبا سعيد الخدري
قال : نزل أهل قريظة على حكم سعد بن معاذ ، قال : فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم
إلى سعد فأتاه على حمار ، قال : فلما دنا قريباً من المسجد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
قوموا إلى سيدكم ، أو خيركم ، ثم قال : إن هؤلاء نزلوا على حكمك ، قال : تُقتل مقاتلتهم
وتُسبي ذراريهم ، قال : فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لقد قضيت بحكم الله ، وربما قال :
قضيت بحكم الملك .

(٢) أخرجه الإمام أحمد ، وأبو داود ، والترمذي ، عن معاوية ، ورمز له الإمام
السيوطي بأنه حديث حسن .

وقوله تعالى : ﴿وَإِذَا قِيلَ **أَنْشُرُوا** فَأَنْشُرُوا﴾ معناه : إذا قيل لكم ارتفعوا وقوموا فافعلوا ذلك ، ومنه **نشوز** العظام ، أي نباتها ، والنشز من الأرض : المرتفع ، واختلف الناس في هذا النشوز الذي أمروا بامتثاله ، ما هو ؟ فقال الحسن ، والضحاك ، وقتادة : معناه : إذا دُعوا إلى قتال أو طاعة أو صلاة ونحوه ، وقال آخرون : إذا دعوا إلى القيام عن النبي صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه عليه الصلاة والسلام أحياناً كان يُحب الانفراد في أمر الإسلام ، فربما جلس قوم وأراد كل أحد أن يكون آخر الناس عهداً بالنبي صلى الله عليه وسلم ، فنزلت الآية آمرة بالقيام عنه متى فهم ذلك بقول أو فعل ، وقال آخرون : معناه : انشزوا في المجلس بمعنى **التَّفَسُّحُ** ؛ لأن الذي يريد التوسع يرتفع إلى فوق في الهواء ، فإذا فعل ذلك جملة اتسع الموضع ، فيجيء [**أَنْشُرُوا**] في غرض واحد مع قوله تعالى : [**تَفَسَّحُوا**] ، وقرأ نافع ، وابن عامر ، وحفص عن عاصم : [**أَنْشُرُوا**] برفع الشين ، وهي قراءة أبي جعفر ، وشيبة ، والأعرج . وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي : [**أَنْشُرُوا**] بكسر الشين فيها ، وهي قراءة الحسن ، والأعمش ، وطلحة ، يقال : **نَشَرَ يَنْشُرُ كَحَشَرَ يَحْشُرُ وَيَحْشِرُ وَعَكَفَ يَعْكِفُ وَيَعْكِفُ** ، وقوله تعالى : ﴿ **يَرْفَعُ اللَّهُ** ﴾ جواب الأمر .

واختلف الناس في ترتيب قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ - فقال جماعة من المتأولين : المعنى : يرفع الله المؤمنين العلماء منكم درجات ، فلذلك أمر بالتفسيح من أجلهم ، ويجيء - على هذا - قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ بمنزلة قولك : جاءني العاقل والكريم والشجاع ، وأنت تريد رجلاً واحداً . وقال آخرون : المعنى : يرفع الله المؤمنين والعلماء ، الصنفين جميعاً درجات ، لكننا نعلم تفاضلهم في الدرجات من مواضع أخر ، ولذلك جاء الأمر بالتفسيح عاماً للعلماء وغيرهم . وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وغيره : المعنى : «يرفع الله الذين آمنوا منكم» ، وتم القول ، ثم ابتداءً بتخصيص العلماء بالدرجات ، ونصبهم بإضمار فعل ، فالمؤمنون رفع على هذا التأويل ، وللعلماء درجات ، وعلى هذا التأويل قال مطرف ابن عبد الله بن الشخير : «فضل العلم أحب إلي من فضل العبادة ، وخير دينكم الورع» ، ثم توعدّ تعالى وحذر بقوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ .

قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ﴾ الآية ، روي عن ابن عباس ، وقتادة في سببها أن قوماً من شباب المسلمين كثرت مناجاتهم للنبي صلى الله عليه وسلم في غير حاجة إلا لتظهر منزلتهم ،

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم سمحاً لا يردُّ أحداً ، فنزلت هذه الآية مشددة عليهم في أمر المناجاة . وقال مقاتل : نزلت في الأغنياء لأنهم غلبوا الفقراء على مناجاة رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى مجلسه . وقال جماعة من الرواة : لم يُعمل بهذه الآية بل نُسخت قبل العمل ، لكن استقر حكمها بالعزم عليه ، كأمر إبراهيم عليه السلام في ذبح ابنه عليه السلام ، وصحَّ عن علي رضي الله عنه أنه قال : ما عمل بها أحدٌ غيري ، وأنا كنتُ سبب الرخصة والتخفيف عن المسلمين ، وذلك لأنني أردت مناجاة النبي صلى الله عليه وسلم في أمر ضروري ، فصرفت ديناراً بعشرة دراهم ، ثم ناجيته عشر مرّاتٍ ، أقدم في كل مرّة درهماً ، وروي عنه أنه تصدّق في كل مرّة بدينار ، قال علي رضي الله عنه : ثم فهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن هذه العبادة قد شقّت على الناس ، فقال لي : يا عليُّ ، كم ترى أن يكون حدُّ هذه الصدقة ، أتراد ديناراً ؟ قلت : لا ، قال : فنصف دينار ؟ قلت : لا ، قال : فكم ؟ قلت : حبة من شعير ، قال : إنك لزهيد ، فأنزل الله تعالى الرخصة للواجدين ، وأمّا من لا يجد فالرخصة له ثابتة بقوله سبحانه : ﴿ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (١) ،

(١) أخرجه ابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، والترمذي وحسنه ، وأبو يعلى ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن مردويه ، والنحاس ، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، =

وقال مقاتل : بقي هذا الحكم عشرة أيام ، وقال قتادة : بقي ساعة من نهار ، وقرأ الجمهور من الناس : [صَدَقَةٌ] بالإنفراد ، وقرأ بعض القراء : [صَدَقَاتٍ] بالجمع .

قوله عز وجل :

﴿ أَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَانِكُمْ صَدَقْتُمْ فَاذْكُرُوا تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾ * أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾ ﴾

«الإشفاق» : الفزع من العجز عن الشيء المتصدق به أو من ذهاب المال في الصدقة ، وله وجود كثيرة يقال فيها الإشفاق ، لكنه في هذا الموضع كما ذكرت . و ﴿ تَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾ معناه : رجع بكم .

= وأخرج مثله سعيد بن منصور ، وابن راهويه ، وابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والحاكم وصححه ، عن علي رضي الله عنه .

وقوله تعالى : ﴿فَأَقِمْوَا الصَّلَاةَ﴾ الآية ، معناه : دوموا على هذه الأعمال التي هي قواعد شرعكم ، ومن قال إن هذه الصدقة منسوخة بآية الزكاة فقوله ضعيف لا يحصل كيفية النسخ ، وما ذكر في نحو هذا عن ابن عباس رضي الله عنهما لا يصح عنه ، والله تعالى أعلم .

قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا﴾ . نزلت في قوم من المنافقين تولوا قوماً من اليهود وهم المغضوب عليهم ، وقال الطبري : ﴿مَا هُمْ﴾ يريد المنافقين ، و [مِنْكُمْ] يريد به المؤمنين ، و [مِنْهُمْ] يريد به اليهود .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا التأويل يجري مع قوله تعالى : ﴿مُذَبِّذِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾ (١) ، ومع قوله عليه الصلاة والسلام : (مثل المنافق مثل الشاة العائرة بين الغنمين) (٢) ، لأنه مع المؤمنين بقوله ومع الكافرين بقلبه ، لكن هذه الآية تحتل تأويلاً آخر وهو أن

(١) من الآية (١٤٣) من سورة (النساء) .

(٢) أخرجه أحمد ، ومسلم ، والنسائي ، عن ابن عمر رضي الله عنهما ، وذكره الإمام السيوطي في الجامع الصغير ورمز له بالصحة ، وفيه زيادة على ما هنا (تُعبّر إلى هذه مرة وإلى هذه مرة لا تدري أيهما تتبع) . ومعنى العائرة : المترددة .

يكون قوله تعالى : ﴿ مَا هُمْ ﴾ يريد به اليهود ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَا مِنْهُمْ ﴾ يريد به المنافقين ، فيجىء فعل المنافقين - على هذا التأويل - أخس لأنهم تولّوا قوماً مغضوباً عليهم ليسوا من أنفسهم فيلزمهم ذمهم ولا من القوم المحقّين فتكون الموالة صواباً . وقوله تعالى : ﴿ وَيَحْلِفُونَ ﴾ يعني المنافقين ؛ لأنهم كانوا إذا وقفوا على ما يأتون به من بغض النبي صلى الله عليه وسلم وشتمه وموالة عدوّه حلفوا أنهم لا يفعلون ذلك واستسهلوا الحنث ، ورؤي من هذا نوازل كثيرة اختصرتها إيجازاً ، وإذا تتبعت في المصنفات وجدت كقول ابن أبي : « لئن رجعنا إلى المدينة » وحلفه على أنه لم يفعل ، وغير ذلك .

و «العذاب الشديد» هو عذاب الآخرة ، وقرأ جمهور الناس : [أيمانهم] جمع يمين ، وقرأ الحسن : [إيمانهم] أي ما يظهرونه من الإيمان .

و « الجنة » : ما يتستّر به ويتقى المحذور ، ومنه « المجن » وهو الترس ، وقوله تعالى : ﴿ فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ يحتمل أن يكون الفعل غير متعدّ ، كما تقول : صدّ زيد ، أي : صدّوا هم أنفسهم عن سبيل الله وعن الإيمان برسوله ، ويحتمل أن يكون الفعل متعدياً . أي : صدّوا غيرهم من الناس عن الإيمان ممن اقتدى بهم وجرى

في مضمارهم ، ويحتمل أن يكون المعنى : فصدوا المسلمين عن قتلهم ،
وتلك سبيل الله فيهم لكن ما أظهروه من الإيمان صدوا به المسلمين
عن ذلك ، و «المُهين» : المُذِلُّ ، من الهوان .

قوله عز وجل :

﴿ لَنْ تُغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ
النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ
لَكَ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ ۗ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٨﴾ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ
الشَّيْطَانُ فَأَنسَهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ ۗ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ ۗ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ
هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادِّثُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾
كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ۗ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ ﴾

رُوي أن المنافقين فخرُوا بكثرة أموالهم وأولادهم وأظهروا السرور
بذلك فنزلت الآية معلمة أن ذلك لا غناء له عنهم ولا مدفع بسببه ،
والعامل في قوله تعالى : [يَوْمَ] [أَصْحَابُ] على تقدير فعل .

وأخبر الله تعالى عنهم في هذه الآية أنهم ستكون لهم أيمان يوم
القيامة وبين يدي الله تعالى يُخَيَّلُ إليهم بجهلهم أنها تنفعهم وتقبل

منهم ، وهذا هو حسابهم أنهم على شيء ، أي على فعل أي شيء نافع لهم ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما - في كتاب الثعلبي - : قال عليه الصلاة والسلام : (ينادي منادي يوم القيامة : أين خصماء الله ؟ فتأتني القدرية مسودةً وجوههم مزرقة أعينهم ، فيقولون : ما عبدنا شمساً ولا قمراً ، ولا اتخذنا من دونك إلهاً) ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : صدقوا والله ولكن أتاهم الإشراك من حيث لا يعلمون ، ثم تلا هذه الآية .

وقوله تعالى : { اَسْتَحَوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ } معناه : تملكهم من كل جهة وغلب على نفوسهم ، وهذا الفعل مما استعمل على الأصل ، فإن قياس التعليل يقتضي أن يقال : استَحَاذَ ، وحكى الفراء في كتاب «اللغات» أن عمر رضي الله عنه قرأ : [اَسْتَحَاذَ] .

و [يُحَادُونَ] معناه : يعطون الحد من الأفعال والأقوال ، وقال بعض أهل العلم بالمعاني : معناه : يكونون في حد غير الحد الذي شرع الله تبارك وتعالى ، ثم قضى الله تعالى على مُحَادِهِ بالذلل ، وأخبر بأنه كتب فيما أمضى من قضائه وقدره في الأزل أنه يغلب هو ورساله كل من حادَّ الله والرسل . وقرأ نافع ، وابن عامر : [وُرْسُلِي] بفتح الياء ، وقرأ الباقر بسكونها ، وقال الحسن : ما أمر الله تعالى قطُّ رسولا

بالمقتال إلا وأغلبه وظفره بقوته وعزته ، لا ربَّ سواه ، وقال غيره :
ومن لم يؤمر بقتال فهو غالبٌ بالحجة .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ
وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي
قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ
هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

نفت هذه الآية أن يوجد من يؤمن بالله تعالى حق الإيمان ويلتزم
شعبه على الكمال يُوادُّ كافراً أو منافقاً ، ومعنى «يُوادُّ» يكون بينهما
من اللطف بحيث يودُّ كل واحد منهما صاحبه ، وعلى هذا التأويل
قال بعض الصحابة رضي الله عنهم : اللهم لا تجعل لمشرك قبلي يداً
فتكون سبباً للمودة ، فإنك تقول : وتلا هذه الآية . وتحتمل الآية
أن يُراد بها : لا يوجد من يؤمن بالله والبعث يُوادُّ من حادَّ الله من حيث
هو محادٌّ ، لأنه حينئذ يودُّ المحادَّة ، وذلك يوجب ألا يكون مؤمناً .

ويُروى أن هذه الآية نزلت في شأن حاطب بن أبي بلتعة ومخاطبته أهل مكة ، وظاهر هذه الآيات أنها متصلة المعنى ، وأن هذه في معنى الذم للمنافقين الموالين لليهود ، وإذا قلنا إنها في أمر حاطب جاء ذلك أجنبياً في أمر المنافقين وإن كان شبيهاً به ، و «الإخوان» هنا إخوة النسب بدليل اقترانه بالآباء ، وعُرف «الإخوان» أنه في الأوداء ، كما أن عُرف «الإخوة» أنه في النسب ، وقد يكون مستعملاً في إخاء الود .

و (كُتِبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانُ) معناه : أثبتته وخلقه بالإيجاد ، وذهب أبو علي الفارسي وغيره من المعتزلة إلى أن المعنى : جعل في قلوبهم علامات تعرف الملائكة بها أنهم مؤمنون ، وذلك لأنهم يرون أن العبد يخلق إيمانه ، وقد صرح النقَّاشُ بهذا المذهب ، وما أراه قاله إلا غير مُحَصَّل لما قال ، وأما أبو علي الفارسي فَعَن بَصْرٍ بِهِ (١) .
 وقرأ جمهور القراء : [كُتِبَ] على بناء الفعل للفاعل ، و[الْإِيمَانُ] بالنصب ، وقرأ أبو حنيفة ، وعاصم - في رواية المفضل عنه - : [كُتِبَ] على بناء الفعل للمفعول ، و[الْإِيمَانُ] بالرفع .

وقوله تعالى : [أُولَئِكَ] إشارة إلى المؤمنين الذين تقتضيهم معنى الآية ؛ لأن المعنى : لكنك تجدهم لا يُؤادون من حادَّ الله ، وقوله تعالى :

(١) قارن هذا بما نسبه بعضهم إلى المؤلف من ميله إلى الاعتزال ، وراجع مقدمة هذا التفسير .

(بِرُوحٍ مِنْهُ) معناه : بِهِدْيٍ وَلُطْفٍ وَنُورٍ وَتَوْفِيقٍ إِلَهِي يَنْقَدِحُ مِنَ الْقُرْآنِ وَمِنْ كَلَامِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَقِيلَ : الْمَعْنَى : بِالْقُرْآنِ ، لِأَنَّهُ رُوحٌ ، وَقِيلَ : الْمَعْنَى : بِجَبْرِيلَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ .

و «الْحِزْبُ» : الْفَرِيقُ الَّذِي يَجْمَعُهُ مَذْهَبٌ وَاحِدٌ ، وَ «الْمُفْلِحُ» : الْفَائِزُ بِبُغْيَتِهِ ، وَبَاقِي الْآيَةِ بَيْنٌ .

كامل تفسير سورة المجادلة والحمد لله رب العالمين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين ،

سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين



هذه السورة مدنيّة باتفاق من أهل العلم ، وهي سورة بني النضير ؛ وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان قد عاهد بني النضير على سلمٍ وهم يرون أنه لا تُردُّ له رايةٌ ، فلما جرت هزيمة أحد ارتابوا وداخلوا قريشاً وغدروا ، فلما رجع النبي صلى الله عليه وسلم من أحد تبين له معتقد بني النضير وغدرهم بعهدده وموالاتهم للكفار ، فجمع إليهم وحاصرهم وعاهدهم على أن يُجليهم عن أرضهم ، فارتحلوا إلى بلاد مختلفة : خيبر والشام وغير ذلك من البلاد ، ثم كان أمر بني قريظة مرجعه صلى الله عليه وسلم من الأحزاب .

قوله عز وجل :

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ هُوَ
الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ
أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ
يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا
يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٢﴾﴾

قد تقدم القول في تسبيح الجمادات التي يتناولها عموم «ما في
السموات وما في الأرض»، وأن أهل العلم اختلفوا في ذلك، فقال قوم:
ذلك على الحقيقة، وقال آخرون: ذلك مجاز، أي أن آثار الصنعة
فيها والإيجاد لها كالتسبيح وداعية إلى التسبيح ممن له أن يسبح،
وقال مكي: [سَبَّحَ] معناه: صَلَّى وسجد، فهذا كله بمعنى الخضوع
والطوع، و ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ صفتان مناسبتان لما يأتي بعد من
قصة العدو الذين أخرجهم من ديارهم.

و ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ هم بنو النضير، وكانت
قبيلة عظيمة من بني إسرائيل موازية في القدر والمنزلة لبني قريظة،

وكان يقال للقبيلتين : الكاهنان لأنهما من ولد الكاهن بن هرون ، وكانت أرضهم وحصونهم قريبةً من المدينة ، ولهم نخل وأموال عظيمة ، فلما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحد خرج إلى بني النضير فحاصروهم وأجلاهم على أن يحملوا من أموالهم ما أقدته الإبل حاشى الحلقة - وهي جميع السلاح - ، فخرجوا إلى بلاد مختلفة ، فذلك قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ﴾ اختلف الناس في معنى ذلك بعد اتفاقهم على أن «الْحَشْر» هو الجمع والتوجيه إلى ناحية ما - فقال الحسن بن أبي الحسن ، وغيره : أراد تعالى حشر القيامة ، أي هذا أوله ، والقيام من القبور آخره ، وروى الحسن أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لهم : (امضوا ، هذا أول الحشر وأنا على الأثر) (١) . وقال عكرمة ، والزهرابي ، وغيرهما : المعنى : لأول موضع الحشر وهو الشام ؛ وذلك أن أكثر بني النضير جاءت إلى الشام ، وقد روي أن حشر القيامة هو إلى الشام ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم قال

(١) أخرجه عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، عن الحسن .

لبنى النضير : (اخرجوا) ، قالوا : إلى أين يا محمد ؟ قال : (إلى أرض المحشر) (١) ، وقال قوم - في كتاب المهدي - المراد المحشر في الدنيا الذي هو الجلاء والإخراج ، فهذا الذي فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ببني النضير أوله ، والذي فعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه بأهل خيبر آخره ، وأخبرت الآية بمغيب ، وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم بجلاء أهل خيبر ، ويحتمل أن يكون آخر المحشر في قول النبي صلى الله عليه وسلم في مرضه : (لَا يَبْقَيْنَ دِينَانَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ) ، فإن ذلك يتضمن إجلاء بقاياهم ، قال الخليل - فيما حكى الزجاج - : سميت جزيرة لأنه أحاط بها بحر الحبشة وبحر فارس ودجلة والفرات . وفي هذه الإحاطة نظر .

وقوله تعالى : ﴿ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا ﴾ معناه : لِمَنْعَتِهِمْ وكثرة عددهم ، فلم تكن آمالكم وظنونكم تنتهي إلى أنهم يخرجون ويدعون أموالهم لكم ، وبحسب ذلك من المنعة والعدة والتحصن ظنوا أنهم لن يُقَدَّرَ عليهم ، وقوله تعالى : ﴿ مَنْ أَلَّهِ ﴾ يريد : من جُند الله وحزب الله .

(١) أخرجه البزار ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والبيهقي في « البعث » ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ، قال : من شك أن المحشر بالشام فليقرأ هذه الآية ﴿ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ﴾ : قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ : اخرجوا ، قالوا : إلى أين ؟ قال : إلى أرض المحشر .

وقوله تعالى : ﴿ فَآتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ﴾ عبارة عن إظهار الله تعالى المسلمين عليهم وإلقائهم في حيز الهزم والذل . وقرأ الجمهور : [الرُّعْبَ] بسكون العين ، وقرأ أبو جعفر ، وشيبة : [الرُّعْبَ] بضم العين .

واختلف المتأولون في معنى قوله تعالى : ﴿ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ - فقال الضحاك ، والزجاج ، وغيرهما : كلما هدم المسلمون من تحصينهم في القتال هدموا هم من البيوت وجبروا الحِصْنَ دأباً ، فهذا معنى تخريبهم ، وقال الزهري وغيره : كانوا لما أبيع لهم ما تستقل به الإبل لا يدعون خشبةً حسنةً ولا نجافاً (١) ولا ساريةً إلا قلعوها وخربوا البيوت عنه . وقوله تعالى : ﴿ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ من حيث فعلهم بكفرهم داعية إلى تخريب المؤمنين بيوتهم ، فكأنهم قد خربوها بأيدي المؤمنين ، وقال جماعة من المفسرين : إنهم لما أزمعوا الجلاء شحوا على ترك البيوت سليمة للمؤمنين فهدموا وخربوا بمعنى الإفساد على من يأتي ، وقال قتادة : خرب المؤمنون من خارج ليدخلوا وخربوا هم من داخل ، وقرأ جمهور القراء : [يُخْرِبُونَ]

(١) النجاف : اسكفةُ الباب ، أو هو الذي يستقبل الباب من أعلى الأسكفة ، ويقال

له : الدَّوَّارَةُ ، والأسكفةُ هي العتبة .

بسكون الخاء وتخفيف الراء ، وقرأ أبو عمرو وحده ، والحسن -
 بخلاف عنه - وقتادة ، وعيسى : [يُخْرَبُونَ] بفتح الخاء وشد الراء ،
 فقال فريق من العلماء اللغويين : القراءتان بمعنى واحد ، وقال أبو
 عمرو بن العلاء : «خرب» معناه : هدم وأفسد ، و «أخرب» معناه :
 ترك الموضع خراباً وذهب عنه .

ثم نبه تبارك وتعالى المؤمنين وغيرهم ممن له أن ينظر على نصرة
 رسوله صلى الله عليه وسلم وصنعه له فيمن حاده وناواه بقوله :
 ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ﴾ ، أي العقول والأفهام .

قوله عز وجل :

﴿ وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبُهمْ فِي الدُّنْيَا وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ
 عَذَابُ النَّارِ ﴾ (٤) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، وَمَنْ يُشَاقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ
 الْعِقَابِ ﴿٥﴾ مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَبَنَةٍ أَوْ نَزَعْتُمْهَا فَأَجْمَعَهُ عَلَيَّ أَصُولَهَا فَيَإِذَنْ لِلَّهِ
 وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ ﴿٦﴾ وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ
 خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رَسُولَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧﴾

أخبر تعالى في هذه الآية أنه كتب على بني إسرائيل جلاء ،
 وكانت بنو النضير ممن حل بالحجاز عند موت موسى عليه الصلاة

والسلام بيسير ؛ لأنهم كانوا من الجيش الذي رجع ، وقد عصوا في أن لم يقتلوا الغلام ابن ملك العماليق لجماله وعقله ، وقد كان موسى عليه السلام قال لهم : لا تستحيوا أحداً ، فلما رجع ذلك الجيش إلى بني إسرائيل بالشام وجدوا موسى عليه السلام ميتاً ، وقال لهم بنو إسرائيل : أنتم عصاة ، والله لا دخلتم علينا بلادنا ، فقال أهل ذلك الجيش عند ذلك : ليس لنا أحب من البلاد التي غلبنا أهلها ، فانصرفوا إلى الحجاز فكانوا فيه ، فلم يجر عليهم الجلاء الذي أجراه بختنصر على أهل الشام ، وقد كان الله تعالى كتب على بني إسرائيل جلاءً فنالهم هذا الجلاء على يدي محمد صلى الله عليه وسلم ، ولولا ذلك لعذبهم الله تعالى في الدنيا بالسيف والقتل كأهل بدر وغيرهم ، ويقال : جَلَّ الرجلُ ، وأَجلاه غيره ، وقد يقال : أَجلى الرجل نفسه ، بمعنى : جلا .

و «المُشَاقَّةُ» : كون الإنسان في شق ومخالفه في شق .

وقوله تعالى : ﴿ مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْنَةٍ ﴾ سببها أن بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وضعوا أيديهم في نخل بني النضير يقطعون ويحرقون ، فقال بنو النضير : ما هذا الإفساد يا محمد وأنت تنهى عن الفساد ؟ فكف عن ذلك بعض الصحابة ، وذلك في صدر الحرب

معهم ، فنزلت الآية مُعْلِمَةً أَنَّ جميع ما جرى من قطع أو إمساك
فبإذن الله تعالى ، وردت الآية على قول بني النضير إِنَّ محمداً ينهى
عن الفساد وها هو ذا يُفْسِد ، فَأَعْلَمَ اللهُ تعالى أَنَّ ذلك بإذنه وليجزى
الفاستقين من بني النضير .

واختلف الناس في «اللينة» - فقال الحسن ، ومجاهد ، وأبو
زيد ، وعمرو بن ميمون : اللينة : النخلة ، اسمان بمعنى واحد ،
وجمعا لينٌ وليانٌ ، وقال الشاعر :

وَسَالِفَةٌ كَسَحُوقِ اللَّيِّنَا نِ أَضْرَمَ فِيهَا الْغَوِيُّ السُّعْرُ (١)

وقال آخر :

طِرَاقُ الْخَوَافِي وَاقِعٌ فَوْقَ لَيْنَةٍ نَدَى لَيْلِهِ فِي رِيَشِهِ يَتَرَقَّرِقُ (٢)

(١) هذا البيت لامرئ القيس ، وهو من قصيدة له يصف فيها فرسه وخروجه للصيد ،
وفيها يقول مشبهاً فرسه بالجرادة في خِفَّتِهَا وسرعتها : (وأركبُ في الروع خيفانة ..) ،
والبيت في اللسان (سحق) غير منسوب ، وقد استشهد به القرطبي ، وأبو حيان في البحر المحيط ،
والسالفَةُ : أعلى العنق ، أو هي ناحيته من مُعَلِّقِ القُرْطِ إلى الحاقنة ، وسَحُوقِ اللَّيِّنَانِ
هي النخلة الطويلة الجرداء التي لا كَرَبَ لَهَا ، والكَرَبُ هو الأصل العريض للسَّعَفِ إذا
يَبَسَ . والغويُّ : الغاوي المُفْسِد ، والسُّعْرُ : شدة الوقود ، يشبه عُنُقَ فرسه بالنخلة الطويلة
الجرداء ، ويصفها بأنها شقراء اللون ، فلذلك ذكر الوقود ، والشاهد هنا أنه ذكر اللَّيَّانِ ،
وهو جمع اللينة .

(٢) البيت لِذِي الرُّمَّةِ ، وهو في اللسان (ربيع) ، والرواية فيه : (واقِعٌ فَوْقَ
رَيْعَةٍ) ، وعلى هذه الرواية لا يُسْتَشْهَدُ به هنا ، ولهذا استشهد به الطبري عند تفسير قوله تعالى =

وقال ابن عباس رضي الله عنهما وجماعة من اللغويين : اللينة من النخل ما لم تكن عجوة ، وقال سفيان بن سعيد الثوري : اللينة : الكريمة من النخل ، وقال أبو عبيدة - فيما روي عنه - وسفيان : اللينة : ما تمرها لونٌ ، وهو نوعٌ من التمر يقال له : اللون ، قال سفيان : هو شديد الصفرة يشفُّ عن نواه فيرى من خارج ، وأصلها «لونة» فأبدلت لموافقة الكسرة ، وقال أبو عبيدة أيضاً : اللين : ألوان النخل المختلطة التي ليس فيها عجوة ولا نوى . وقرأ ابن مسعود والأعمش : «أَوْ تَرَكَتُمُوهَا قَوْمًا عَلَىٰ أُصُولِهَا» (١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ ﴾ الآية ... إعلامٌ أنَّ ما أخذ من بني النضير ومن فدك فهو خاصٌ للنبي صلى الله عليه وسلم ،

= في سورة الشعراء : ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيحٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴾ ، وقد استشهد به صاحب النسان أيضاً في (طرق) ، يقال : طائرٌ طِرَاقُ الرِّيشِ : إذا ركب بعضه بعضاً ، والخوافي : ما تحت القوادم في الطائر من الريش ، والقوادم : أربع ريشات طويلة في أول جناح الطائر ، ومفردها : قادمة ، والشاعر هنا يصف بازياً بأن شَعَرَ خوافيه كثيفٌ بعضه فوق بعض ، ويقول : إنه نزل فوق نخلة عالية ، وأن الندى يلمع فوق ريشه ، ويعني بهذا أنه قضى ليله فوق هذه النخلة العالية ، والشاهد ذكر اللينة هنا وهي النخلة الطويلة الجرداء .

(١) في القرطبي أن هذه هي قراءة الأعمش ، أما قراءة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه فهي : « ما قطعتم من لينةٍ ولا تركنتم قوماً علىٰ أصولِها » . أما في البحر فذكر أنها قراءة عبد الله والأعمش وزيد بن علي .

وليس على حكم الغنيمة التي يُوجف عليها ويُقاتل فيها ، بل على حكم خمس الغنائم ، وذلك أن بني النضير لم يوجف عليها ولا قوتلت كبير قتال ، فأخذ منها رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه قوت عياله ، وقسم سائرهما في المهاجرين ولم يُعط الأنصار منها شيئاً ، غير أن أبا دُجانة سِمَاكُ بنُ خَرَشَةَ وسَهْلَ بنُ حُنَيْفٍ (١) شكيا فاقاة عظيمة فأعطاهما ، هذا قول جماعة من العلماء ، وفي ذلك قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : كانت أموال بني النضير مما أفاء الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم مما لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينفق منها على أهله نفقة سنة ، وما بقي منها جعله في السلاح والكراع عُدَّة في سبيل الله تعالى ، قال بعض العلماء : وكذلك كل ما فُتِح على الأئمة مما لم يوجف عليه

(١) أما سِمَاكُ بنُ خَرَشَةَ الخزرجي الأنصاري فهو المعروف بأبي دُجانة ، صحابي ، كان شجاعاً ، شهد بدرًا وثبت في أحد ، وأصيب بجراحات كثيرة ، واستشهد في اليمامة ، وكانت له مشية فيها خيلاء ، رآه النبي صلى الله عليه وسلم في معركة فقال : هذه مشية يبغضها الله إلا في هذا المكان ، وأما سَهْلُ بنُ حُنَيْفٍ فهو سَهْلُ بنُ حُنَيْفٍ بن وهب الأنصاري ، أبو سعد ، صحابي من السابقين ، شهد بدرًا وثبت يوم أحد ، وأخى النبي صلى الله عليه وسلم بينه وبين علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، شهد مع علي صفين ، وتوفي بالكوفة ، وله (٤٠) حديثاً شريفاً .

فهو لهم خاصة ، والوجيف دون التقريب (١) ، يقال : وجف الفرس وأوجفه الراكب ، والإيجاف : سرعة السير والاجتهاد فيه .

قوله عز وجل :

﴿ مَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ
وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ
وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَأْتُواهُ وَأَتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ
الْعِقَابِ ﴿٧﴾ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ
يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ
الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ ﴾

أهل القرى المذكورون في هذه الآية هم أهل الصفراء والينبوع ووادي القرى وما هنالك من قرى العرب التي تُسمى قرى عربية ، وحكمها مخالف لبني النضير ، ولم يحبس رسول الله صلى الله عليه وسلم من هذه لنفسه شيئاً ، بل أمضاها لغيره ؛ وذلك أنها في ذلك

(١) التقريب : نوع من عدو الفرس عدواً بدون إسراع ، والوجيف : عدو أقل من

التقريب ولكن فيه تحريك وإتاعب للدابة .

الوقت فتحت ، واختلف الناس في صفة فتحها - فقيل : غزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبعث بعثاً إلى كل مكان فأطاع وأعطاه أهله فكان مما لم يوجف عليه ، وكان حكمه حكم الغنائم ، وليس في الآية نسخ على هذا التأويل ، وأعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم جميع ذلك للمهاجرين ولم يعط الأنصار شيئاً . وقال قتادة ، ويزيد بن رومان : كانت هذه القرى قد أوجف عليها ولكن كان هذا حكم ما لم يوجف عليه ، ثم نسخ الله تعالى هذا الحكم بآية الأنفال فجعل فيها الخمس لهذه الأصناف وبقيت الأربعة الأقسام للمقاتلة ، وآية هذه السورة لم يكن فيها شيء للمقاتلة ، وهذا القول يضعف لأن آية الأنفال نزلت إثر بدر قبل بني النضير وقبل أمر هذه القرى بسنة ونيف ، و « القربى » في هذه الآية قرابة النبي صلى الله عليه وسلم ، منعوا الصدقة فعوضوا من الفيء .

وقوله تعالى : (كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ) مخاطبة

للأنصار لأنه لم يكن للمهاجرين في ذلك الوقت غنى ، وقرأ جمهور

الناس : [يَكُونُ] بالياء ، وقرأ ابن مسعود ، وأبو جعفر ، وهشام

عن ابن عامر بالتاء ، وهي « كان » التامة ، وقرأ جمهور الناس :

[دُولَةً] بضم الدال ونصب الهاء ، وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي :

[دَوْلَةٌ] بفتح الدال ونصب الهاء ، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع ، وهشام عن ابن عامر : [دَوْلَةٌ] بضم الدال والهاء ، وقال عيسى بن عمر : هما بمعنى واحد ، وقال الكسائي وحُذاق النظرة : الفتح في المُلْك - بضم الميم - لأنها الفعلة في الدهر ، والضم في المِلْك - بكسر الميم - والمعنى أنها كالعواري ، فيتداول الأغنياء ذلك المال بتصرفاتهم ويبقى المساكين بلا شيء ، ولا حظ في شيء من هذه الأموال ليتيم غني ولا لابن سبيل حاضر المال ، وقد مضى القول في الغنائم في سورة الأنفال .

وروي أن قوماً من الأنصار تكلموا في هذه القرى المُفْتَتِحَة وقالوا : لنا منها سهمنا ، فنزل قوله تعالى : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ ﴾ الآية ... مؤدباً في ذلك وزاجراً ، ثم اطرَد بعد معنى الآية في أوامر النبي صلى الله عليه وسلم ونواهيهِ ، حتى قال قوم : إن الخمر محرمة في كتاب الله تعالى بهذه الآية ، وانتزع منها ابن مسعود رضي الله عنه لعنة الواشمة والمستوشمة... الحديث(١) ، ورأى مُحَرَّمًا في ثيابه المخيطة

(١) حديث الواشمة والمستوشمة أخرجه البخاري ، ومسلم ، وأبو داود ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجه ، والدارمي ، وأحمد في مسنده ، عن علقمة ، عن ابن مسعود رضي الله عنه ، قال : (لعن الله الواشِمَاتِ والمستوشِمَاتِ والمتفَلِّجَاتِ للحسن المُغَيَّرَاتِ خلق الله) . فبلغ ذلك امرأة من بني أسد يقال لها : أم يعقوب ، فجاءت فقالت : إنه بلغني =

فقال له : اطرح هذا عنك ، فقال له الرجل : أتقرأ عليّ بذلك آية من كتاب الله تعالى ؟ فقال ابن مسعود رضي الله عنه : نعم ، وتلا هذه الآية .

وقوله تعالى : ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ ﴾ بيان لقوله تعالى : ﴿ وَأَمْسَاكِينَ وَأَبْنِ السَّبِيلِ ﴾ ، فكبرر لام الجر كما كانت الأولى مجرورة باللام ليبين أن البدل إنما هو منها ، ثم وصفهم تعالى بالصفة التي تقتضي فقرهم وتوجب الإشفاق عليهم ، وهي إخراجهم من ديارهم وأموالهم ، وجميع المهاجرين إما أخرجهم الكفار وإما أحوال الكفار وظهورهم وفرض الهجرة في ذلك الوقت ، ووصفهم بالفقر وإن كان لهم بعض أموال وهي حال الفقراء في اللغة ، وقد مضى بيان هذا في سورة الكهف .
وقوله تعالى : ﴿ يَبْتَغُونَ ﴾ في موضع الحال ، والفضل والرضوان يراد بهما الآخرة والجنة ، ونَصْرُ الله هو نصر شرعه ونبيه صلى الله عليه وسلم .

= أنك لعنت كيت وكيت ! فقال : ومالي لا ألعن من لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في كتاب الله ؟ فقالت : لقد قرأت ما بين اللوحين فما وجدت فيه ما تقول : فقال : لئن كنت قرأته لقد وجدته ، أما قرأت : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ ؟ قالت : بلى ، قال : فإنه قد نبى عنه ، قالت : فيني أرى أهلك يفعلونه ، قال : فاذهي فانظري ، فذهبت فنظرت فلم تر من حاجتها شيئاً ، فقال : لو كانت كذلك ما جامعتها . واللفظ للبخاري ، والوشم : غرز الإبرة في البدن وذرّ السيلج عليه حتى يزرق أثره أو يخضر . والتنمّص : نتف شعر الوجه بالخيوط . والتفليج : أن تفرّق المرأة بين أسنانها طلباً للزينة .

و «الصادقون» في هذه الآية يجمع صدق اللسان وصدق الأفعال لأن أفعالهم في أمر هجرتهم إنما كانت وفق أقوالهم .

قوله عز وجل :

﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٠١﴾ ﴾

(الَّذِينَ تَبَوَّءُوا) هم الأنصار ، والضمير في [قَبْلِهِمْ] للمهاجرين ، و «الدار» هي المدينة ، والمعنى : تَبَوَّءُوا الدَّارَ مع الإيمان معاً ، وبهذا الاقتران يصح معنى قوله تعالى : ﴿ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ ، فتأمله . والإيمان لَا يُتَبَوَّأُ لَأنه ليس مكاناً ، ولكن هذا من بليغ الكلام ، ويتخرج على وجوه كلها جميل حسن (١) .

(١) قيل : إنه نصب بفعل آخر غير «تبوأ» ، والتقدير : والذين تَبَوَّءُوا الدَّارَ واعتقدوا الإيمان ، فهو كقوله تعالى : ﴿ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ﴾ ، ويكون من باب : « علفتها تبناً وماءً بارداً » ، أي : وسقيتها ماءً ، ذكر ذلك أبو عليٍّ والزمخشري ، وقيل : هو من باب حذف المضاف ، والتقدير : تَبَوَّءُوا الدَّارَ ومواضع الإيمان ، وقيل : هو على طريق المثل ، كما تقول : تَبَوَّأَ من بني فلان الصميم .

وأثنى الله تعالى في هذه الآية على الأنصار بأنهم يحبون المهاجرين رضي الله عن جميعهم ، وبأنهم يؤثرون على أنفسهم ، وبأنهم قد وقوا شح أنفسهم ؛ لأن مقتضى قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُوقِ شِحْنَهُ نَفْسَهُ فَاُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ أن هؤلاء الممدوحين قد وقوا الشح .

و « الْحَاجَةُ » : الحسد في هذا الموضع ، قاله الحسن ، ويعمُّ بعدُ جميع الوجوه التي هي بخلاف ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم في إعطاء المهاجرين أموال بني النضير والقرى . و [أوتوا] معناه : أعطوا ، والضمير المرفوع بأن لم يُسمَّ فاعله هو للمهاجرين .

وقوله تعالى : ﴿ وَيُؤْتِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ ﴾ الآية ... صفة للأنصار ، وقد روي - من غير ما طريق - أنها نزلت بسبب رجل من الأنصار - قال أبو المتوكل : هو ثابت بن قيس ، وقال أبو هريرة رضي الله عنه في كتاب مكِّي : كنية هذا الرجل أبو طلحة ، وخط المهدوي في ذكر هذا الرجل - ندب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ضيافة مهاجري ، فانتدب الأنصاري ولم يكن له مال فذهب بالضييف وقال لامرأته : هذا ضيف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالت : والله ما عندي إلا قوت الصبية ، فقال لها : نومي صبيانك ، وأطفئي السراج . وقدمي ما عندك للضيف ، ونوهمه أنا نأكل ، ففعل ذلك ، فلما غدا

على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (عجب الله من فعلك البارحة) ،
ونزلت الآية في ذلك (١) .

والإيثارُ على النفس أَكْرَمُ خُلُقٍ ، وقال حذيفة العدوي : طابت
يوم اليرموك ابن عمُّ لي في الجرحى ومعى شيءٌ من ماءٍ ، فوجدته ،
فقلت : أسقيك ؟ فأشار أن نعم ، فإذا رجل يصيح : آهٍ ، فأشار
ابن عمِّي أن انطلق إليه ، فإذا هو هشام بن العاص ، فقلت : أتشربُ ؟
فإذا آخر يقول : آهٍ ، فأشار هشام أن انطلق إليه ، فجئته فإذا به
قد فاضت نفسه ، فرجعت إلى هشام فإذا هو قد مات ، فرجعتُ
إلى ابن عمي فإذا هو قد مات ، فعجبت من إيثارهم رحمهم الله تعالى ،
وقال أبو يزيد البسطامي : قَدِمَ علينا شاب من بَلْخِ فقال لي : ما حدُّ
الزُّهدِ عندكم ؟ فقلت : إذا فقدنا صَبَرْنَا ، وإذا وجدنا شَكَرْنَا ،
قال : هذه حالة الكلاب عندنا ببلخ ، قلت : فما الزهد عندكم ؟
قال : إذا فقدنا شَكَرْنَا ، وإذا وجدنا آثَرْنَا .

(١) أخرجه ابن أبي شيبة ، والبخاري ، ومسلم ، والترمذي ، والنسائي ، وابن جرير ،
وابن المنذر ، والحاكم ، وابن مردويه ، والبيهقي في الأسماء والصفات ، عن أبي هريرة
رضي الله عنه ، قال : أتى رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، أصابني
الجهد ، فأرسل إلى نسائه فلم يجد عندهن شيئاً ، فقال : ألا رجلٌ يضيف هذا ليلتلةٍ رحمه
الله تعالى ؟ فقال رجل من الأنصار - وفي رواية : فقال أبو طلحة الأنصاري : أنا يا رسول الله ،
فذهب به إلى أهله ، الحديث كما ذكره ابن عطية .

وروي أن سبب هذه الآية أن النبي صلى الله عليه وسلم لما قسم هذه القرى في المهاجرين قال للأَنْصار : (إِنْ شِئْتُمْ قَسَمْتُ لِّلْمُهَاجِرِينَ مِنْ أَمْوَالِكُمْ وَدِيَارِكُمْ وَشَارِكْتُمُوهُمْ فِي هَذِهِ الْغَنِيمَةِ ، وَإِنْ شِئْتُمْ أَمْسَكْتُمْ أَمْوَالِكُمْ وَتَرَكْتُمْ لِهَؤُلاءِ هَذِهِ) ، فقالوا : بل نقسم لهم من أموالنا ونترك لهم هذه الغنيمة ، فنزلت هذه الآية (١) .

و«الْخَصَاصَةُ» : الفاقة والحاجة ، وهو مأخوذ من خصاص البيت ، وهو ما يبقى بين عيدانه من الفروج والفتوح ، فكأن حال الفقير هي كذلك يتخللها النقص والاحتياج ، و«شَحُّ النَّفْسِ» هو كثرة طَمَعِهَا وضبطها على المال والرغبة فيه وامتداد الأمل ، هذا جماع شح النفس ، وهو داعية كل خلق سوء ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من أدى الزكاة المفروضة ، وقرى الضيف ، وأعطى في النائبة ، فقد برئ من الشح) (٢) .

(١) ذكره الزمخشري في تفسيره دون سند ، وذكره القرطبي قائلا : وقال ابن عباس رضي الله عنهما : قال النبي صلى الله عليه وسلم ، وذكر ابن إسحق في السيرة طرفاً منه جاء فيه أن النبي صلى الله عليه وسلم قسم أموال بني النضير على المهاجرين الأولين إلا أنه أعطى سهلاً بن حنيف وأبا دُجانة سيماك بن خراشة ، وهذا يتفق مع ما ذكره الزمخشري ، لكن الزمخشري ذكر أيضاً أنه أعطى معهما الحرث بن الصمة .

(٢) أخرجه عبد بن حميد ، عن مجمع بن يحيى بن جارية ، قال : حدثني عمي خالد بن يزيد بن جارية رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (برئ من الشح من أدّى الزكاة ، وقرى الضيف ، وأدّى في النائبة) . (الدر المنثور) ، وزاد في الجامع الصغير نسبه إلى أبي يعلى في مسنده ، والطبراني في الكبير . ثم رمز له الإمام السيوطي بأنه حديث حسن .

واختلف الناس بعد هذا الذي قلناه - فذهب الجمهور والعارفون بالكلام إلى هذا ، وعلى هذا التأويل كان عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه يطوف وهو يقول : اللَّهُمَّ قِنِي شُحَّ نَفْسِي ، لا يزيد على ذلك ، فقيل له في ذلك فقال : إِذَا وَفَّيْتَهُ لَمْ أَفْعَلْ سَوْئًا .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

شُحُّ النَّفْسِ فَقْرٌ لَا يُذْهِبُهُ غِنَى الْمَالِ بَلْ يَزِيدُهُ وَيَنْصِبُ بِهِ .

وقال ابن زيد ، وابن جبير ، وجماعة : من لم يأخذ شيئاً نهاه الله تعالى عنه ولم يمنع الزكاة المفروضة فقد برئ من شُحِّ النفس ، وقال ابن مسعود رضي الله عنه : شُحُّ النَّفْسِ هُوَ أَكْلُ مَالِ الْغَيْرِ بِالْبَاطِلِ ، وَأَمَّا مَنْعُ الْإِنْسَانِ مَالَهُ فَهُوَ بُخْلٌ ، وَهُوَ قَبِيحٌ وَلَكِنَّهُ لَيْسَ بِالشُّحِّ ، وَقَرَأَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ رَضِي اللَّهِ عَنْهُمَا : [شِحَّ] بِكسر الشين . و [يُوقَ] وَزَنَهُ «يُفْعَلُ» ، مِنْ وَقَى يَقِي ، مِثَالُ : وَزَنَ يَزِنُ ، وَقَرَأَ أَبُو حَيوة : [يُوقَ] بِفَتْحِ الْوَاوِ وَشَدِّ الْقَافِ ، وَ [الْمُفْلِحُونَ] : الْفَائِزُونَ بِبَغْيَتِهِمْ .

واختلف الناس في تأويل قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ - فقال الفراء : أراد الفرقة الثالثة من الصحابة ، وهي التي آمنت أو كبرت في آخر مُدَّةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وقال جمهور العلماء :

أراد من يجيء من التابعين وغيرهم إلى يوم القيامة ، فوصف الله تبارك وتعالى القول الذي ينبغي أن يلتزمه كل من لم يكن من الصدر الأول . وإعراب [الَّذِينَ] رفع عطفاً على [هُمْ] أو على [وَالَّذِينَ] أو رفع بالابتداء . وقوله تعالى : [يَقُولُونَ] حالٌ فيها الفائدة ، والمراد : والذين جاءوا قائلين كذا ، أو يكون [يَقُولُونَ] صفة .

ولهذه الآية قال مالك وغيره : إنه من كان له في أحد من الصحابة قول سوءٍ أو بغض (١) فلا حظَّ له في الغنيمة أدباً له ، وجاء بعض العارفين إلى علي بن الحسين رضي الله عنهما فسبوا أبا بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم ، فقال لهم : أمِنَ المهاجرين الأولين أنتم ؟ قالوا : لا ، قال : : أفَمِنَ الَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ أَنْتُمْ ؟ قالوا : لا ، قال : فقد تبرأتكم من هذين الفريقين ، وأنا أشهد أنكم لستم من الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ الآية ... فقوموا ، فَعَلَّ اللهُ تَعَالَى بِكُمْ وَفَعَلَ ، وقال الحسن : أدركت ثلاثمائة من الصحابة منهم سبعون بدرياً كلهم يحدثني أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه) (٢) ، فالجماعة ألا تسبوا الصحابة ، ولا تماروا

(١) في بعض النسخ : « أو نقص » .

(٢) هذا جزءٌ من حديث طويل أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤-١٣٠) ، وأبو داود ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجه ، عن الحرث الأشعري ، وفي آخره كما جاء في مسند أحمد : =

في دين الله تعالى ، ولا تُكفروا أحداً من أهل التوحيد بذنوب .
 و « أَلِغْلُ » : الحِقْدُ والاعتقاد الرديءُ ، وقرأ الأعمش : « في قُلُوبِنَا
 غِمْرًا » ، والغِمْرُ : الحِقْدُ : وقد تقدم الاختلاف في قراءة : [رَوُوف] .
 قوله عز وجل :

﴿ * أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ
 الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ
 لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ
 قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلِّنَنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنْتُمْ أَشَدُّ
 رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ ﴾

= (وأنا أمركم بخمس ، الله أمرني بهن ، بالجماعة ، والسمع ، والطاعة ، والهجرة ، والجهاد
 في سبيل الله ، فإنه من خرج من الجماعة قيدَ شبرٍ فقد خلع رِبْقَةَ الإسلام من عنقه إلا أن
 يرجع ، ومن دعا بدعوى الجاهلية فهو من جُثًا جهنم — قالوا : يا رسول الله ، وإن صام
 وصلى ؟ قال : وإن صام وصلّى وزعم أنه مسلم — فادعوا المسلمين بأسمائهم بما سماهم الله
 عز وجلّ المسلمين المؤمنين عباد الله عز وجلّ) . والرِبْقَةُ في الأصل : عُرْوَةٌ في حبل تجعل
 في عنق البهيمة أو يدها تُمسكها ، فاستعارها للإسلام يعني ما يَشُدُّ به المسلم نفسه من حدود
 الإسلام وأحكامه ، وأمّا قوله صلى الله عليه وسلم : (فهو من جُثًا جهنم) فقد قال ابن الأثير
 في كتاب النهاية : « الجُثًا : جمع جُثْوَةٍ بالضم ، وهو الشيء المجموع » فكان المعنى : من
 جماعة جهنم ، وتروى الكلمة جُثِيًّا ، وتروى : جُثِيٌّ ، وقال أبو عبيدة : قد يكون المعنى :
 إنه من يجثو على الركب في جهنم . ورويت اللفظة في مسند أحمد (جُثَاء) بالهمزة .

هذه الآية نزلت في عبد الله بن أبي بن سلول ، ورفاعة بن التابوت ،
وقوم من منافقي الأنصار كانوا بعثوا إلى بني النضير وقالوا لهم :
اثبتوا في معاقلكم فإننا معكم كيفما تقابلت حالكم ، وإنما أرادوا بذلك
أن تقوى نفوسهم عسى أن يثبتوا حتى لا يقدر محمد عليه الصلاة
والسلام عليهم فيتم لهم مرادهم ، وكانوا كذبة فيما قالوا من ذلك ،
ولذلك لم يخرجوا حين أخرج بنو النضير بل قعدوا في ديارهم ،
وقوله تعالى عز وجل : ﴿ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ ﴾ معناه : ولئن حاولوا نصرهم
فإنهم ينهزمون ثم لا ينصر الله تعالى أحداً منهم .

وجاءت الأفعال غير مجزومة في قوله تعالى : ﴿ لَا يَخْرُجُونَ ﴾
و ﴿ لَا يَنْصُرُونَهُمْ ﴾ لأنها راجعة على حكم أنفسهم لا على حكم الشرط ،
وفي هذا نظر (١) .

ثم خاطب تعالى أمة محمد صلى الله عليه وسلم مُخبراً أن اليهود
والمنافقين أشد خوفاً من المؤمنين منهم من الله تعالى لأنهم لا يتوقعون

(١) علق أبو حيان في البحر على ذلك فقال : « وأيُّ نظر في هذا وقد جاء على القاعدة
المتفق عليها من أنه إذا تقدم القسم على الشرط كان الجواب للقسم وحذف جواب الشرط ،
وكان فعله بصيغة المضارع أو مجزوماً بلم ، وله شرط وهو ألا يتقدمه طالب خبر ، واللام
في [لَئِنْ] مؤذنة يقسم محذوف قبله فالجواب له » .

عاجل الشر من المؤمنين ولا يؤمنون بأجل العذاب من الله تعالى ، وذلك
لقلّة فهمهم للأُمور وتوفيقهم للحق .

قوله عزّ وجلّ :

﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قَرْيٍ مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ
شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ الَّذِينَ
مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاتُ أُولٍ وَإِلَاءٍ أَمْرِهِمْ لَمْ يَعْلَمِ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ
قَالَ لِلْإِنْسَانِ أَكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ
الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَاقِبَتُهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ
الظَّالِمِينَ ﴿١٧﴾﴾

الضمير في قوله تعالى: ﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ لبني النضير وجميع
اليهود ، هذا قول جماعة من المفسرين ، ويحتمل أن يريد بذلك
اليهود والمنافقين ؛ لأن دخول المنافقين في قوله تعالى : ﴿بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ
شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾ متمكن بين ، ومعنى الآية :
لا يقاتلونكم في جيشٍ بفحصٍ (١) ، و «الْقَرْيُ» : المدن ، قال الفراء :

(١) يريد : بأرض منبسطة مكشوفة ، وفي اللسان ذكر أن فحص الأُرْدُن : ما انبسط
منه وكشف من نواحيه .

هذا جمع شاذٌ ، قال الزجاج : ما في القرآن فليس بشاذ ، وهو مثل :
ضَيْعَةٌ وَضَيْعٌ .

وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وكثير من المكيين : [جِدَارٍ]
على معنى الجنس ، وقرأ كثير من المكيين ، وهارون عن ابن كثير :
[جُدْرٍ] بفتح الجيم وسكون الدال ، ومعناه : أصل بنيان كالسور
ونحوه ، وقرأ الباكون من القراء [جُدْرٍ] بضم الجيم والدال ، وهو
جمع جِدَارٍ ، وقرأ أبو رجاء ، وأبو حيوة : [جُدْرٍ] بضم الجيم
وسكون الدال ، وهو تخفيف في جمع جِدَارٍ ، ويحتمل أن يكون
من جدر النخيل ، أي من وراء نخلم إذ هي مما يُتَّقَى به عند
المصافحة (١) .

وقوله تعالى : ﴿بِأَسْهُمٍ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾ أي في غائلتهم وإحْنِهِمْ (٢) ،
وفي قراءة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : «تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ
أَشْتٌ» ، وهذه حال الجماعات المتخاذلة ، وهي المغلوبة أبداً في كل
ما تحاول ، واللفظة مأخوذة من الشتات وهو التفرق ونحوه .

(١) في بعض النسخ : «عند المصافحة» ، والمصافحة هي الضرب .

(٢) الغائلة : الحقد الباطن والشر ، والإحْن : الحقائق والأضغان ، ومفردها إحْنَةٌ ،

يقال : إنَّ الإحْنَ تَجْرُ المِحْنَ .

وقوله تعالى : ﴿ كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ معناه : مثلهم كمثل الذين من قبلهم ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : هم بنو قَيْنُقَاع ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم أجلاهم عن المدينة قبل بني النَّضِير ، وكانوا مثلاً لَهُمْ ، وقال قتادة ومجاهد : الذين من قبلهم أهل بدر الكفار ؛ فإنهم قبلهم ومثل لهم في أن غلبوا وقهروا ، وقال بعض المتأولين : الضمير في قوله تعالى : ﴿ كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ للمنافقين ، وهم منافقوا الأمم المتقدمة ؛ وذلك أنهم غلبوا ونالتهم الذلَّة على وجه الدهر ، فهم مثل لهؤلاء ، ولكن قوله تعالى : [قريباً] إما أن يكون في زمن موسى عليه السلام وإلا فالتأويل المذكور يضعف ، إلا أن يجعل [قريباً] ظرفاً للذوق ، فيكون التقدير : ذاقوا وبال أمرهم قريباً من عصيانهم وبعثثانه ، ولا يكون المعنى أن المثل قريب في الزمن من الممثل له ، وعلى كل تأويل فـ [قريباً] ظرف أو نعت لظرف . و «الوبال» : الشدة والمكروه وعاقبة السوء ، و «العذاب الأليم» هو في الآخرة .

وقوله تعالى : ﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ ﴾ معناه : مثل هاتين الفرقتين من المنافقين وبني النَّضِير كمثل الشيطان والإنسان ، فالمنافقون مثلهم الشيطان ، وبنو النَّضِير مثلهم الإنسان ، وذهب مجاهد وجمهور من المتأولين إلى أن الشيطان والإنسان في هذه الآية اسماً جنس ؛ لأن العرف أن يعمل هذا الشياطين بناس كما يغوي الشيطان الإنسان ثم

يفرُّ عنه بعد أن يُورِّطه ، كذلك أغوى المنافقون بني النضير وحرَّضوهم على الثبوت ووعدوهم النصر ، فلما غدر بنو النضير وكشفوا عن وجوههم تركهم المنافقون في أسوأ حال ، وذهب قوم من رواة القصص أن هذا في شيطان مخصوص مع عابد من العباد مخصوص ، وذكر الزجاج أن اسمه برصيصة ، قالوا : إنه استودع امرأة ، وقيل : سيقَّتْ إليه ليشفيها بدعائه من الجنون ، فسوَّل له الشيطان الوقوع عليها فحملت فخشي الفضيحة ، فسوَّل له قتلها ودفنها ففعل ، ثم شهره ، فلما استخرجت المرأة وحمل العابد شرَّ حمل ، وهو قد قال : إنها ماتت فقمتُ عليها ودفنتها ، فلما وجدت مقتولة علموا كذبه ، فتعرَّض له الشيطان وقال له : اكفر واسجد لي وأنا أنجيك ففعل ، وتركه عند ذلك وقال : إنني بريءٌ منك ، وهذا كله حديث ضعيف ، والتأويل الأول هو وجه الكلام ، وقول الشيطان «إنني أخاف الله» رياءٌ وسُمة ، وليست على ذلك عقيدته ، ولا يعرف الله تعالى حق معرفته ، ولا يحجزه خوفه عن سوءٍ يوقع فيه ابن آدم من أول إلى آخر .

قوله تعالى : ﴿فَكَانَ عَاقِبَتُهُمَا﴾ الآية ، يحتمل الضمير أن يعود على المخصوصين المذكورين ، ويحتمل أن يعود على اسمي الجنسين ، أي : هذا هو عاقبة كل شيطان وإنسان يكون أمرهما هكذا ، وقرأ الحسن ، وعمرو بن عبيد : [عَاقِبَتُهُمَا] بالرفع ، وقرأ الجمهور :

[عَاقِبَتُهُمَا] بالنصب ، وموضع [أَنَّ] يخالف إعراب «العاقبة» في القراءتين ، وقرأ ابن مسعود ، والأعمش : [خَالِطَيْنِ] بالرفع على أنه خبر [أَنَّ] والظرف ملغى ، ويلحق هذه القراءة من الاعتراض إلغاء الظرف مرتين ، قاله الفراء ، وذلك جائز عند سيبويه على التأكيد .

قوله عز وجل :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ ؕ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ ؕ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۚ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبَهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

هذه آية وعظ وتذكير وتقريب للآخرة ، وتحذير ممن لا تخفى عليه خافية ، وقرأ جمهور الناس : [وَلْتَنْظُرْ] بسكون اللام وجزم الراء على أصل لام الأمر ، وقرأ يحيى بن الحارث ، وأبو حيوة ، وفرقة كذلك بلام الأمر إلا أنها كسرت على أصل لام الأمر ، وقرأ الحسن بن أبي الحسن - فيما روي عنه - : [وَلْتَنْظُرْ] بنصب الراء

على لام « كي » ، كأنه تعالى قال : وأمرنا بالتقوى لتنظر ، أو كأنه تعالى قال : اتقوا الله وليكن تقواكم لتنظر .

وقوله تعالى : [لِغَدٍ] يريد يوم القيامة ، قال قتادة : قرب الله ٦ تعالى القيامة حتى جعلها غداً ، وذلك لأنها آتية لا محالة ، وكلُّ آتٍ قريب ، ويحتمل أن يريد تعالى بقوله : [لِغَدٍ] ليوم الموت لأنه لكل إنسان كغده ، ومعنى الآية : ما قدمت من الأعمال ، فإذا نظرها الإنسان تزيّد من الصّالحات وكفّ عن السيّئات ، وقال مجاهد : وابن زيد : الأمس الدنيا وغدُّ الآخرة .

وقرأ الجمهور : ﴿وَلَا تَكُونُوا﴾ بالتاء من فوق على مخاطبة جميع الذين آمنوا ، وقرأ أبو حيوة : ﴿وَلَا يَكُونُوا﴾ بالياء من تحت كناية عن «نفس» التي هي اسم الجنس ، و«الذين نسوا الله» هم الكفّار ، والمعنى : تركوا الله تعالى وغفلوا عنه حتى كانوا كالنّاسين ، وعبرَ تعالى عمّا خصّهم به من الضّلالة بـ ﴿أَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ ، سمى عقوبتهم باسم ذنبهم بوجهٍ ما ، وهذا أيضاً هو الجزاء بالذنب على الذنب ، فكسبوا هم نسيان جهة الله تعالى فعاقبهم الله تعالى بأن جعلهم ينسون أنفسهم ، قال سفيان : المعنى : حظّ أنفسهم ، ويعطي لفظ هذه الآية أن من عرف نفسه ولم ينسها عرف ربه سبحانه ، وقد قال علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه : اعرف نفسك تعرف ربك ، وروي عنه أنه قال أيضاً : من لم يعرف نفسه لم يعرف ربه ، وقرأ

ابن مسعود رضي الله عنه : «وَلَا أَصْحَابُ الْجَنَّةِ بِزِيَادَةِ «لَا» .
 وقوله تعالى : ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ﴾ الآية ... موعظة للإنسان ،
 واذم لأخلاقه في غفلته وإعراضه عن داعية الله تعالى ، وذلك أن القرآن
 نزل عليهم وفهموه وأعرضوا عنه ، وهو لو نزل على جبل وفهم الجبل
 منه ما فهم الإنسان لخشع واستكان وتصدّع من خشية الله تبارك وتعالى ،
 وإذا كان الجبل على عظمه وقوته يفعل هذا فما عسى أن يحتاج
 ابن آدم ليفعل ، لكنه يُعرض ويصدّ على حقارته وضعفه ، وضرب
 الله تبارك وتعالى هذا المثل ليتفكر فيه العاقل ويخشع ويلين قلبه .
 وقرأ طلحة بن مصرف : [مُصَدَّعًا] على إدغام التاء في الصاد .

قوله عز وجل :

﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾
 هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمِنُ الْعَزِيزُ
 الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ
 لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ
 الْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾

لَمَّا قَالَ تَعَالَى : ﴿مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ جاء بالأوصاف التي توجب
 لمخاوقاته هذه الخشية ، و «الْغَيْبُ» : ما غاب عن المخلوقين :

و «الشَّهَادَةُ» : ما شهدوه ، وقال حرب المكي : الغيب الآخرة ، والشهادة الدنيا ، وقرأ جمهور الناس : [أَلْقُدُّوسُ] بضم القاف ، وهو فعلٌ من تَقَدَّسَ إِذَا تَطَهَّرَ ، وحظيرة القدس الجنة لأنها طاهرة ، ومنه : رُوحُ الْقُدْسِ ، والأَرْضُ الْمُقَدَّسَةُ ، وبيت المقدس ، ورُوي عن أبي ذرٍّ رضي الله عنه أنه قرأ : [أَلْقُدُّوسُ] بفتح القاف ، وهي لغة . و «السَّلَامُ» معناه : الذي سُلِمَ من جورهِ ، وهذا اسم على حذف مضاف ، أي ذو السلام ، لأن الإيمان به وتوحيده وأفعاله هي لمن آمن سلامٌ كلها . و «المُؤْمِنُ» اسم فاعل من «آمَنَ» بمعنى «أَمَّنَ» ، وقال أحمد ابن يحيى ثعلب : معناه : الْمُصَدِّقُ الْمُؤْمِنِينَ في أنهم آمنوا ، قال النحاس : أو في شهادتهم على الناس في القيامة ، وقال ناسٌ من المتأولين : معناه : الْمُصَدِّقُ نَفْسِهِ في أقواله الأزلية ، لا إله غيره ، و «المُهَيِّمُ» معناه : الأمين والحفيظ ، قاله ابن عباس رضي الله عنهما ، وقال مؤرِّج : المهيمن : الشاهد بلغة قريش ، وهذا بناءٌ لم يجيء منه في الصفات إِلَّا مُهَيِّمِنٌ وَمُسَيِّطِرٌ وَمُبَيِّقِرٌ وَمُبَيِّطِرٌ ، وجاء منه في الأسماء «مُحَيِّمِرٌ» وهو اسم وادٍ و «مُدَيِّبِرٌ» . و «الْجَبَّارُ» هو الذي لا يدانيه شيءٌ ولا يلحق رتبته ، ومنه «نخلةٌ جبارةٌ» إذا لم تلحق ، وأنشد الزهراوي :

أَطَافَتْ بِهِ جِيْلَانٌ عِنْدَ قَطَافِهِ وَرَدَّتْ إِلَيْهِ الْمَاءَ حَتَّى تَجَبَّرَ (١)

و [الْمُتَكَبِّرُ] معناه : الذي له التكبر حقاً .

ثم نزهه تعالى نفسه عن إشراك الكفار به الأصنام التي ليس لها شيء من هذه الصفات ، و [الْبَارِيُّ] بمعنى : الخالق ، بَرَأَ اللهُ تَعَالَى الْخَلْقَ ، أي أوجدهم ، و [الْمُصَوِّرُ] هو الذي يوجد الصور ، وقرأ عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه : [الْمُصَوِّرَ] ، على إعمال [الْبَارِيُّ] فيه ، وهي حسنة ، يُراد بها الحُسْنُ في الصور ، وقال قوم عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه : إنه قرأ : [الْمُصَوِّرَ] بفتح الواو وكسر الراء ، على قولهم : « الْحَسَنُ الْوَجْهَ » .

(١) هذا البيت لامرئ القيس ، وهو من قصيدته الي قالها حين توجه إلى قيصر مستنجداً به على بني أسد ، وهو في الديوان ، واللسان ، والتاج — مادة جيل — والشاعر يصف هنا وفي الأبيات التي قبل هذا نخيلاً ارتفع وعلا ، وكثرت فروعه ، وتدلَّت القنوان منه بالبسر الأحمر وجيلان — بكسر الجيم — قوم كان كسرى يرسلهم عمالاً إلى البحرين . — وقد تضبط (جيلان) بفتح الجيم — يقول : طافت بهذا النخل جيلان عند قطافه ، وجمعت حوله الماء حتى ارتفع في السماء عالياً . والشاهد على هذا في قوله : « تَجَبَّرَا » ، ولكن الرواية في الديوان وفي التاج « حتى تحيَّرا » بالخاء والياء ، وقد اختلفت الروايات في البيت ، فروي :

أُتِيحَ لَهُ جِيْلَانٌ عِنْدَ جَدَاذِهِ وَرَدَدَ فِيهِ الطَّرْفَ حَتَّى تَحْيِيَّرَا

ورواية التهذيب : « عند جداره » ، ورواية شرح القاموس : « عند قطافه » ، ورواية الديوان : « وردد في العَيْنَ حَتَّى تَحْيِيَّرَا » ، وعلى كل هذه الروايات لا شاهد في البيت ، والتحيير يرجع إلى الطرف ، فقد تحير في ارتفاع النخل وكثرة فروعه .

وقوله تعالى : ﴿ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ أي : ذات الحسن في معانيها القائمة بذاته لا إله إلا هو ، وهذه الأسماء هي التي حصرها رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله عليه الصلاة والسلام : (إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا ، مائة إلا واحداً ، من أحصاها دخل الجنة) (١) ، وقد ذكرها الترمذي وغيره مُسَنَدَةً ، واختلف الرواة في بعضها ، ولم يصح فيها شيءٌ إلا إحصاؤها دون تعيين ، وباقي الآية بين .

كامل تفسير سورة الحشر والحمد لله رب العالمين

(١) حديث (إن لله تسعة وتسعين اسماً) ذكره الإمام السيوطي في «الجامع الصغير» ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، وقال : إنه حديث صحيح ، وقد أخرجه الترمذي ، وابن حبان في صحيحه ، والحاكم في مستدركه ، والبيهقي في شعب الإيمان - هذا والأسماء المذكورة في مسند الترمذي وغيره مع اختلاف الرواة في بعضها كما قال ابن عطية رحمه الله .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين ،
سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين



تفسير سورة الممتحنة (*)

وهي مدنية بإجماع من المفسرين .

قوله عز وجل :

يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ
بِالْمُودَةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ
رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ نَرَجِعُمْ جِهَدًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمُودَةِ
وَإِنَّا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ

السَّبِيلِ ﴿٦٠﴾

(*) قيل : اسم السورة [الْمُتَّحِنَةُ] بفتح الحاء ، إضافة إلى المرأة التي نزلت فيها ،
وهي أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط ، امرأة عبد الرحمن بن عوف ، وقيل : هي
[الْمُسْتَحِنَةُ] بكسر الحاء ؛ إذ أُضيف الفعل إلى السورة مجازاً .

«الْعَدُوُّ» اسم يقع للجمع والمفرد ، والمراد به ها هنا كفار قريش ، وهذه الآية نزلت بسبب حاطب بن أبي بلتعة (١) ، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أراد الخروج إلى مكة عام الفتح ، فورى عن ذلك بِخَيْبَر ، فشاع في الناس أنه خارج إلى خيبر ، وأخبر هو جماعة من أصحابه بقصده إلى مكة ، منهم حاطب بن أبي بلتعة ، فكتب حاطب إلى قوم من كفار مكة يخبرهم بقصد رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم ، فجاء الخبر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك فبعث علياً والزبير وثالثاً ، قيل هو المقداد ، وقيل أبو مرثد (٢) ، وقال : انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ (٣) فإن بها ظعينة (٤) معها

(١) هو حاطب بن أبي بلتعة اللخمي ، صحابي جليل ، شهد الوقائع كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان من أشد الرماة ، وكانت له تجارة واسعة ، بعثه النبي صلى الله عليه وسلم بكتابه إلى المقوقس حاكم مصر ، كان أحد فرسان قريش وشعرائها ، مات في المدينة . (الإصابة) .

(٢) المقداد بن عمرو بن ثعلبة ، البهراني ، ثم الكندي ، ثم الزهري ، تبناه الأسود بن عبد يغوث الزهري فنسب إليه فقيل : المقداد بن الأسود ، صحابي مشهور ، من السابقين ، لم يكن بيد فارساً غيره ، مات سنة ثلاث وثلاثين ، وأما أبو مرثد فهو كَنَاز بن الحصين بن يربوع الغنوي ، أبو مرثد - بفتح الميم وثاء بعد الراء الساكنة ، صحابي بدري مشهور بكنيته ، مات سنة اثني عشرة للهجرة (تقريب التهذيب) ، وأما عليُّ والزبير فغنيان عن التعريف .

(٣) مكان بين مكة والمدينة ، على بعد اثني عشر ميلاً من المدينة .

(٤) الظعينة : المرأة في الهودج .

كتاب من حاطب إلى المشركين ، فانطلقوا حتى وجدوا المرأة ، واسمها سارة ، مولاة لقوم من قريش ، وقيل : بل كانت امرأة من مزينة ولم تكن سارة ، فقالوا لها : أخرجي الكتاب ، فقالت : ما معي كتاب ، ففتشوا جميع رحلها فما وجدوا شيئاً ، فقال بعضهم : ما معها كتاب ، فقال علي رضي الله عنه : ما كذب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا كُذِب ، والله لتخرجن الكتاب أو لنُجرِدَنَّكِ ، فقالت : اعرضوا عني ، فحلته من فروة رأسها ، وقيل : أخرجته من حجرتها ، فجاءوا به رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) ، فقال لحاطب : من كتب هذا ؟ فقال أنا يا رسول الله ، ولكن لا تعجل علي ، فوالله ما فعلت ذلك ارتداداً عن ديني ولا رغبة عنه ، ولكني كنت امرأةً ملصقاً في قريش ولم أكن من أنفسها ، فأحبيت أن تكون لي عندهم يدٌ يرعونني بها في قرابتي ، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (صدق حاطب ، إنه من أهل بدر ، وما يُدريك يا عمر لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرتُ لكم ، لا تقولوا

(١) قيل : كان في الكتاب ما يأتي : « إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد توجه إليكم بجيش كالليل ، يسير كالسيل ، وأقسم بالله لو لم يسر إليكم إلا وحده لأظفره الله بكم ، وأنجز له مواعده فيكم ، فإن الله وليه وناصره » .

لحاطب إلا خيراً) ، فنزلت الآية لهذا السبب (١) . وروي أن حاطباً كتب : « إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد غزوكم في مثل الليل والليل ، وأقسم بالله لو غزاكم وحده لنصر عليكم فكيف وهو في جمٌّ كثير » .

و [تُلْقُونَ] في موضع الصفة لـ [أَوْلِيَاءَ] ، و «أَلْقَيْتُ» يتعدى بحرف الجر وبغير حرف الجر ، فدخل الباء وزوالها سواءً ، وهذا نظير قوله عز وجل : (وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي) (٢) ، وقوله تعالى : (سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ) (٣) ، وروي المولى عن عاصم أنه قرأ : (وَقَدْ كَفَرُوا لِمَا) بلام .

وقوله تعالى : [يُخْرِجُونَ] في موضع الحال من الضمير في [كَفَرُوا] ، والمعنى : يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَيُخْرِجُونَكُمْ ، وهي حال مؤكدة فلذلك ساق الفعل مستقبلاً والإخراج قد مر ، وتضييق الكفار على النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين إخراج إذ كان مؤدياً إلى الإخراج ،

(١) أخرجه أحمد ، والحميدي ، وعبد بن حميد ، والبخاري ، ومسلم ، وأبو داود ، والترمذي ، والنسائي ، وأبو عوانة ، وابن حبان ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والبيهقي وأبو نعيم معاً في الدلائل ، عن علي رضي الله عنه . (الدر المنثور) .

(٢) من الآية (٣٩) من سورة (طه) .

(٣) من الآية (١٥١) من سورة (آل عمران) .

وقوله تعالى : ﴿ أَنْ تُوْمِنُوا ﴾ مفعول من أجله ، أي أخرجوكم من أجل أن آمنتم بربكم ، وقوله تعالى : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ ﴾ شرط جوابه متقدم في معنى ما قبله ، وجاز ذلك لما لم يظهر عمل الشرط ، والتقدير : إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَاداً فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي فَلَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ ، و [جِهَاداً] نصب على المصدر ، وكذلك [أَبْتِغَاءَ] ، ويجوز أن يكون ذلك مفعولاً من أجله ، و «الْمَرْضَاةُ» مصدر كالرَضَى ، و [تُسِرُّونَ] بدلٌ من [تُلْقُونَ] ، ويجوز أن يكون في موضع خبر ابتداءٍ كأنه تعالى قال : أَنْتُمْ تُسِرُّونَ ، ويصح أن يكون فعلاً مرسلًا ابتداءً به القول ، والإلقاء بالمودة معنىً مآ ، والإسراءُ بها معنى زائد على الإلقاء ، فترجح بهذا أن [تُسِرُّونَ] فعلٌ ابتدئ به القول ، أي تفعلون ذلك وأنا أعلم ، وقوله تعالى : [أَعْلَمُ] يحتمل أن يكون «أفعل» ، ويحتمل أن يكون فعلاً لأنك تقول : «علمتُ بكذا» فتدخل الباء ، وقوله تعالى : ﴿ وَأَنَا أَعْلَمُ ﴾ الآية ... جملةٌ في موضع الحال ، وقرأ أهل المدينة : [وَأَنَا] بإشباع الألف في الإدراج ، وقرأ غيرهم : [وَأَنَا] بطرح الألف في الإدراج .

والضمير في [يَفْعَلُهُ] عائد على الاتخاذ المذكور ، و [سَوَاءَ] يجوز أن يكون مفعولاً بـ [ضَلَّ] ، وذلك على تعدّي [ضَلَّ] ، ويجوز

أَنْ يَكُونَ ظَرْفًا عَلَى غَيْرِ التَّعَدِّي لِأَنَّهُ يَجِيءُ بِالْوَجْهِينِ ، وَالْأَوَّلُ أَحْسَنُ فِي الْمَعْنَى ، وَ «السَّوَاءُ» : الْوَسْطُ ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ تَتَسَاوَى نَسْبَتُهُ إِلَى أَطْرَافِ الشَّيْءِ ، وَ «السَّبِيلُ» هُنَا شَرَعُ اللَّهِ تَعَالَى وَطَرِيقُ دِينِهِ .

قوله عز وجل :

﴿ إِنْ يَشْفِقُوا كُمْ يَكُونُوا الْكُرَّاعِدَاءُ وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴾ ٦
 لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصَلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٦﴾ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنْبَأْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٦﴾

أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّ مَدَارَةَ هَوْلَاءِ الْكُفَّارِ غَيْرُ نَافِعَةٍ فِي الدُّنْيَا وَأَنَّهَا ضَارَّةٌ فِي الْآخِرَةِ ، لِيَبَيِّنَ فِسَادَ رَأْيِ مُصَانِعَتِهِمْ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنْ يَشْفِقُوا كُمْ ﴾ أَي : إِنْ يَتِمَكَّنُوا مِنْكُمْ وَتَحَصَّلُوا فِي ثِقَافِهِمْ ظَهَرَتِ الْعَدَاوَةُ وَانْبَسَطَتْ أَيْدِيَهُمْ بِضُرْرِكُمْ وَقَتْلِكُمْ ، وَأَلْسِنَتُهُمْ بِسَبِّكُمْ ،

وهذا هو السوء ، وأشد من هذا كله أنهم إنما يُقْنَعُهُمْ منكم أن تكفروا ، وهذا هو وُدُّهم .

ثم أخبر تعالى أن هذه الأرحام التي رغبتم في وصلها ليست بنافعة يوم القيامة ، فالعامل في [يَوْمَ] قوله تعالى : [تَنْفَعَكُمُ] ، وقال بعض النحاة في كتاب الزهراوي : العامل فيه [يَفْصِلُ] وهو مما بعده لا مما قبله .

وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، والعامية : [يُفْصِلُ] بضم الياء وسكون الفاء وتخفيف الصاد مفتوحة ، وقرأ ابن عامر ، والأعرج ، وعيسى : [يُفْصِلُ] بضم الياء وفتح الفاء وشد الصاد منصوبة ، واختلف - على هاتين القراءتين - في إعراب قوله تعالى : [بَيْنَكُمْ] - فقيل : نُصِبَ على الظرف ، وقيل : رُفِعَ على ما لم يُسَمَّ فاعله إِلَّا أَنْ لفظه بقي منصوباً لأنه كذلك كثر استعماله ، وقرأ عاصم ، والأعمش : [يَفْصِلُ] بفتح الياء وسكون الفاء وكسر الصاد خفيفة ، وقرأ حمزة ، والكسائي ، وابن وثاب : [يُفْصِلُ] بضم الياء وفتح الفاء وشد الصاد المكسورة ، وإسناد الفعل في هاتين القراءتين إلى الله تعالى ، وقرأ النَّخَعِي ، وطلحة بن مصرف : [نُفْصِلُ] بنون العظمة مرفوعة وفتح الفاء وشد الصاد ، وفي قوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ وعيد وتحذير .

وقرأ جمهور السبعة : [إِسْوَةٌ] بكسر الهمزة ، وقرأ عاصم وحده :
 [أُسْوَةٌ] بضمها ، وهما لغتان ، والمعنى : قُدوة وإمام ، و «إِبْرَاهِيمُ»
 صلى الله عليه وسلم هو خليل الرحمن عزَّ وجلَّ ، واختلف الناس
 في «الذين معه» - فقال قوم من المتأولين : أراد من آمن به من الناس ،
 وقال الطبري وغيره : أراد الأنبياء الذين كانوا في عصره عليه السلام
 وقريباً من عصره ، وهذا القول أرجح لأنه لم يُرَوَّ أن إبراهيم عليه
 السلام كان له أتباع مؤمنون في مكافحته نمرود ، وفي البخاري أنه
 عليه الصلاة والسلام قال لسارة حين رحل بها إلى الشام مهاجراً من
 بلد النمرود : ما على الأرض من يعبد الله غيري وغيرك ، وهذه الأُسوة
 مفيدة في التَّبري من الإِشراك وهو مُطَّرِد في كل ملة ، وفي نبينا صلى الله
 عليه وسلم أُسوة حسنة على الإطلاق لأنها في العقائد وفي أحكام الشرع كلها .

وقرأ جمهور الناس : [بُرَاءَةٌ] على وزن فُعْلَاءَ ، والهمزة الأولى
 لام الفعل ، وقرأ عيسى الثقفي : [بِرَاءَةٌ] على وزن فِعَالٍ بكسر الفاء
 ككريم وكرامٍ ، وقرأ يزيد بن القعقاع : [بُرَاءَةٌ] على وزن فُعَالٍ
 بضم الفاء كَتَّوَامٍ ، وقد رُويت عن عيسى قراءة - قال أبو حاتم :
 زعموا أنه عيسى الهمداني - ، «ويَجُوزُ» : [بِرَاءَةٌ] على المصدر بفتح
 الباء ، يُوصَفُ به الجمع والإفراد (١) .

(١) يريد أن يقول : قال أبو حاتم : زعموا أن عيسى الهمداني قرأ : [بِرَاءَةٌ] على المصدر بفتح الباء ، ويجوز أن يكون كلام أبي حاتم صحيحاً .

وقوله تعالى : ﴿ كَفَرْنَا بِكُمْ ﴾ معناه : كذَّبناكم في أقوالكم ولم نؤمن بشيءٍ منها ، ونظير هذا قوله عليه الصلاة والسلام حكاية عن الله عزَّ وجلَّ : (فهو مؤمن بي كافر بالكوكب) (١) ، ولم يُلحق العلامة في [بَدَا] (٢) لَأَنَّ تَأْنِيثَ العداوة والبغضاء غير حقيقي .

ثم استثنى تعالى استغفار إبراهيم عليه الصلاة والسلام لأبيه ، فذكر أنه كان عن موعدة ، وقد فسرنا ذلك في موضعه ، وهذا استثناءٌ ليس من الأول ، والمعنى عند مجاهد ، وقتادة ، وعطاء الخراساني ، وغيرهم أن الأُسوة لكم في هذا الوجه لا في هذا الآخر لأنه كان في علة ليست في نازلتكم ، ويحتمل أن يكون الاستثناء من التبري والقطيعة التي ذكرت ، أي لم تبق صلة إلا كذا .

وقوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا ﴾ الآية ... حكاية عن قول إبراهيم عليه الصلاة والسلام والذين معه أنه هكذا كان .

(١) هذا جزءٌ من حديث رواه مسلم في الإيمان ، والبخاري في الأذان والاستسقاء والمغازي والتوحيد ، وأبو داود في الطب ، ومالك في باب الاستسقاء من الموطأ ، ولفظه كما في صحيح مسلم عن زبير بن خالد الجهني : قال : صلَّى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الصبح بالحدِيثِيَّة في إثر السماء كانت من الليل ، فلما انصرف أقبل الناس فقال : هل تدرون ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : قال : أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر ، فأما من قال : مُطَرْنَا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب ، وأما من قال : مُطَرْنَا بِنُوءٍ كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب .

(٢) في أكثر النسخ : ولم تلحق العلامة في [بُرءاء] ، وهو خطأ من النَّسَاح . والمراد أن علامة التأنيت لم تلحق بالفعل [بَدَا] لأن التأنيت في « العداوة والبغضاء مجازي .

قوله عز وجل :

﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَآخِرُ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُفْرِهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ
الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٦﴾ * عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ
وَبَيْنَ الَّذِينَ كَفَرْتُمْ مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧﴾ *

قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا ﴾ الآية ... حكاية عن إبراهيم عليه السلام ومن معه ، والمعنى : لا تغلبهم علينا فنكون لهم فتنةً وسببَ ضلالة لأنهم يتمسكون بكفرهم ويقولون : إنما غلبناهم لأننا على الحق وهم على الباطل ، نحا هذا المعنى قتادة ، وأبو مجلز ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : لا تُسلطهم علينا فيفتنونا عن أدياننا ، فكأنه قال : لا تجعلنا مفتونين ، فعبر عن ذلك بالمصدر .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا أرجح الأقوال لأنهم إنما دعوا لأنفسهم ، وعلى منحنى قتادة إنما دعوا للكفار ، أما إن مقصدهم إنما هو أن يندفع عنهم ظهور الكفار الذي بسببه فتن الكفار ، فجاء في المعنى تحليق بليغ ، ونحوه

قول النبي صلى الله عليه وسلم : (بئس الميت سعد) (١) ليهود ؛ لأنهم يقولون : لو كان محمد نبياً لم يمت صاحبه .

وقوله تعالى : ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ﴾ الآية ... خطاب لأمة محمد صلى الله عليه وسلم ، وقوله سبحانه : ﴿لِمَنْ﴾ بدل من قوله : ﴿لَكُمْ﴾ ، وكرر حرف الجر ليتحقق البدل ، وذلك عُرف هذه المبدلات ، ومنه قوله تعالى : ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ﴾ (٢) ، وهو في القرآن كثير ، وأكثر ما يلزم من الحروف اللام ، ثم أعلم تعالى باستغنائه عن العبادة ، وأنه الحميد في ذاته وأفعاله ، لا ينقص ذلك كفر كافر ولا نفاق منافق .

وروي أن هذه الآيات لما نزلت وأزعج المؤمنون امتثال أمرها وصرّم حبال الكفرة وإظهار عداوتهم ، لحقهم تأسف على قراباتهم أن لم يؤمنوا ولم يهتدوا حتى يكون بينهم الوُدُّ والتواصل ، فنزلت ﴿عَسَى

(١) هذا جزء من حديث أخرجه البخاري في الجنازات ومناقب الأنصار والقرائض . ومسلم ، ومالك في موطنه في الوصية ، وهو عن سعد بن أبي وقاص ، قال : (مرضت بمكة مرضاً فأشفيت منه على الموت ، فأتاني النبي صلى الله عليه وسلم يعودني ، فقلت : يا رسول الله ، إن لي مالا كثيراً وليس يرثني إلا ابنتي ، أفأتصدق بثلثي مالي ؟ قال : لا ، قال : قلت : فالشطرُ؟ قال : لا ، قلت : الثلثُ ؟ قال : الثلث كبير ، إنك إن تركت ولدك أغنياء خير من أن تتركهم عالة يتكفّفون الناس ، وإنك لن تُنفق نفقةً إلا أُجرتَ عليها حتى اللقمة ترفعها إلى في امرأتك ، فقلت : يا رسول الله ، أُخَلِّفُ عن هجري ، فقال : لن تُخَلِّفَ بعدي فتعمل عملاً تُريد به وجه الله إلا ازددت به رفعة ودرجة ، ولعلَّ أن تُخَلِّفَ بعدي حتى ينتفع بك أقوامٌ ويُضُرَّ بك آخرون ، لكن البائس سعد بن خولة يرثني له رسول الله صلى الله عليه وسلم أن مات بمكة) ، قال سفيان : وسعد بن خولة رجلٌ من بني عامر بن لؤي .

(٢) من الآية (٨) من سورة (الحشر) ، وقوله سبحانه [لِلْفُقَرَاءِ] بدل من قوله قبلها ﴿وَالْمَسَاكِينَ وَآبْنِ السَّبِيلِ﴾ ، وهما معطوفان على مجرور باللام .

الله ﴿ الآيَةُ مُؤَنَسَةٌ فِي ذَلِكَ ، وَمُرْجِيَةٌ أَنْ يَقَعَ ، فَوْقَ ذَلِكَ بِإِسْلَامِهِمْ فِي الْفَتْحِ ، وَصَارَ الْجَمِيعُ إِخْوَانًا ، وَمَنْ ذَكَرَ أَنَّ هَذِهِ الْمُوَدَّةَ تَزُوجُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُمَّ حَبِيبَةَ بِنْتَ أَبِي سَفِيَانَ وَأَنَّهَا كَانَتْ بَعْدَ الْفَتْحِ فَقَدْ أَخْطَأَ ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَزَوَّجَهَا وَقْتُ هِجْرَةِ الْحَبِشَةِ ، وَهَذِهِ الْآيَاتُ نَزَلَتْ سَنَةَ ثَمَانٍ مِنَ الْهِجْرَةِ ، وَلَا يَصِحُّ ذَلِكَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا إِلَّا أَنْ يَسُوقَهُ مِثَالًا وَإِنْ كَانَ مُتَقَدِّمًا لِهَذِهِ الْآيَةِ لِأَنَّهُ اسْتَمَرَ بَعْدَ الْفَتْحِ كَسَائِرِ مَا نَشَأَ مِنَ الْمُوَدَّاتِ ، وَ«عَسَى» مِنْ اللَّهِ وَاجِبَةُ الْوُقُوعِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

قوله عز وجل :

﴿ لَا يَنْهَكَ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُواكَ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ (٨) إِنَّمَا يَنْهَكَ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩﴾ يَأْتِي الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَاْمْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَأَهُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ﴿١٠﴾

اختلف الناس في هؤلاء الذين لم يئنه عنهم أن يتبرءوا منهم - فقال مجاهد : هم المؤمنون من أهل مكة الذين آمنوا ولم يهاجروا

وكانوا لذلك في رتبة سوءٍ لتركهم فرص الهجرة ، وقال آخرون :
أراد المؤمنين التاركين للهجرة كانوا من أهل مكة وغيرهم ، وقال
الحسن ، وأبو صالح : أراد خُزاعة وبني الحارث وقبائل من العرب
كفاراً إلا أنهم كانوا مظاهرين للنبي صلى الله عليه وسلم ، مُحِبِّين
فيه وفي ظهوره ، ومنهم كنانة وبنو الحارث بن عبد مناة ومُزَيْنَةَ ،
وقال قوم : أراد من كفار قريش من لم يقاتل ولا أخرج ولا أظهر
سوءاً ، وعلى هذين القولين فالآية منسوخة بالقتال ، وقال عبد الله
ابن الزبير رضي الله عنهما : أراد النساء والصبيان من الكفرة ، وقال :
إن الآية نزلت بسبب أمٍّ أسماء حين استأذنت النبي صلى الله عليه
وسلم في برِّها وصلتها فأذن لها ، وكانت المرأة خالتها فيما روي
فسمَّتها في حديثها أمًّا ، وقال أبو جعفر بن النحاس ، والثعلبي :
أراد المستضعفين من المؤمنين الذين لم يستطيعوا الهجرة ، وهذا
قول ضعيف ، وقال مرةً الهمداني ، وعطية العوفي : نزلت في قوم
من بني هاشم منهم العباس رضي الله تعالى عنه ، وقال قتادة : نسختها
﴿ فَاَقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ﴾ (١) . وقوله تعالى : ﴿ أَنْ
تَبَرُّوهُمْ ﴾ بدل ، وهذا هو بدل الاشتمال ، و « الإِقْسَاطُ » : العدلُ ،

(١) من الآية (٥) من سورة (التوبة) .

و [ظَاهَرُوا] معناه : عاونوا ، و «الَّذِينَ قَاتَلُوا فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوهُمْ»
مَرَدَّةٌ قَرِيش .

قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ﴾ الآية...
نزلت إثر صلح الحديبية ، وذلك أَنَّ الصَّلْحَ تَضَمَّنَ أَنَّ يَرُدُّ الْمُؤْمِنُونَ
إِلَى الْكُفَّارِ كُلِّ مَنْ جَاءَ مُسْلِمًا مِنْ رَجُلٍ أَوْ امْرَأَةٍ ، فنقض الله تعالى
من ذلك أمر النساء بهذه الآية ، وحكم بأن المهاجرة المؤمنة لا تُردُّ
إِلَى دَارِ الْكُفْرِ بَلْ تَبْقَى تَسْتَبْرِئُ وَتَتَزَوَّجُ ، وَيُعْطَى زَوْجَهَا الْكَافِرَ
الصَّدَاقَ الَّذِي أَنْفَقَ ، وَأَمْرٌ أَيْضًا الْمُؤْمِنِينَ بِطَلْبِ صَدَاقٍ مِنْ فَرَّتْ
امْرَأَتُهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَحُكْمٌ تَعَالَى بِهَذَا فِي النَّازِلَةِ ، وَسَمَّاهُنَّ تَعَالَى
مُؤْمِنَاتٍ قَبْلَ أَنْ يُتَيَقَّنَ ذَلِكَ لِأَنَّهُ ظَاهِرٌ أَمْرَهُنَّ ، وَ [مُهَاجِرَاتٍ] نَصَبَ
عَلَى الْحَالِ ، وَ [أُمْتَحِنُوهُنَّ] مَعْنَاهُ: جَرَّبُوهُنَّ وَاسْتَخْبَرُوا حَقِيقَةَ مَا عِنْدَهُنَّ .

واختلف الناس في هذا الامتحان ، كيف كان ؟ فقال ابن عباس ،
وقتادة ، ومجاهد ، وعكرمة : كَانَ بَأَنَّ تُسْتَحْلَفُ الْمَرْأَةُ أَنَّهَا مَا هَاجَرَتْ
لِبَغْضِ زَوْجِهَا ، وَلَا بِجَرِيرَةِ جَرَّتِهَا ، وَلَا بِسَبَبٍ مِنْ أَعْرَاضِ الدُّنْيَا
سِوَى حُبِّ اللَّهِ تَعَالَى وَرَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالدَّارِ الْآخِرَةِ ، وَقَالَ
ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَيْضًا : الْامْتِحَانُ أَنَّ تُطَالَبُ بَأَنَّ تَشْهَدَ أَنَّ
لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ، فَإِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ لَمْ تُرَدَّ ، وَقَالَ

فريق منهم عائشة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها : هو أن تعرض عليها الشروط التي في الآية بعد هذا من ترك السرقة والزنى والبهتان والعصيان ، فإذا أقرت المرأة بذلك فهو امتحانها ، وقيل : إن هذه الآية نزلت في أميمة بنت بشر امرأة حسّان بن الدحداحة ، وفي كتاب الثعلبي أنها نزلت في سبيعة بنت الحارث (١) .

وقوله تعالى : ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِنَ ﴾ إشارة إلى الاسترابة ببعضهن ، وحض على امتحانهن ، وذكر تعالى العلة في ألا يُردّ النساء إلى الكفار وهي امتناع الوطء وحرّمته ، وقرأ طلحة : ﴿ لَا هُنَّ يَحْلِلْنَ لَهُمْ ﴾ .

قوله عز وجل :

﴿ وَءَاتَوْهُمْ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُمْ أَجُورَهُمْ
وَلَا تُمْسِكُوا بِعَصَمِ الْكُوفِرِ وَسْءَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْءَلُوا مَا أَنْفَقُوا ذَلِكَ حُكْمُ
اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى
الْكُفَّارِ فَعَاقِبْتُمْ فَاتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي
أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

(١) في « أسد الغابة » أن اسمها « سعيذة بنت الحارث الأسلمية » ، راجع الجزء الخامس

أمر الله تعالى بأن يُؤْتَى الكَفَّارُ مهوور نساءهم اللاتي هاجرن مؤمنات ،
ورفع الجناح في أن يتزوجن بعد إيتاء أجورهن ، وأمر المسلمين بفراق
الكافرات وألاً يمسكوا بِعَصَمِهِنَّ ، فقليل : الآيات في عابدات الأوثان
ومن لا يجوز نكاحها ابتداءً ، وقيل : هي عامة نُسخ منها نساء
أهل الكتاب .

و «العِصْمُ» جمع عصمة ، وهي أسباب الصحبة والبقاء في الزوجية ،
وكذلك العصمة في كل شيء هي السبب الذي يُعْتَصَمُ به ويعتمد
عليه ، وقرأ جمهور السبعة والناسُ : ﴿ تَمْسِكُوا ﴾ بضم التاء وكسر
السين وتخفيفها ، من «أمسك» ، وقرأ أبو عمرو (١) وحده ، وابن جبير ،
ومجاهد ، والأعرج ، والحسن - بخلاف : ﴿ وَلَا تَمْسِكُوا ﴾ ، من
«مسك» بالشد في السين ، وقرأ الحسن ، وابن أبي ليلى ، وابن عامر -
في رواية عبد الحميد - : ﴿ وَلَا تَمَسُّكُوا ﴾ بفتح التاء والميم وفتح
السين وشدّها ، وقرأ الحسن : ﴿ وَلَا تَمْسِكُوا ﴾ بفتح التاء وسكون
الميم وكسر السين مخففة ، ورأيت لأبي علي الفارسي أنه قال :
سمعتُ الفقيه أبا الحسن الكرخي يقول في تفسير قوله تعالى :
﴿ وَلَا تَمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ ﴾ : إنه في الرجال والنساء ، فقلت له :

(١) يعني : وحده من بين السبعة المشهورين ، وإلا فقد قرأ بها غيره كما ذكر المؤلف .

النحويون لا يرون هذا إلا في النساء ؛ لأن «كَوَافِر» جمع «كافرة» ،
فقال : وايش يمنع من هذا ؟ أليس الناس يقولون : طائفة كافرة
وقرية كافرة ؟ فَبُهتُ وقلت : هذا تأييد (١) .

وأمر الله تعالى أن يُسأل أيضاً الكافرون أن يدفعوا الصدقات التي
أعطاهم المؤمنون لمن فرَّ من أزواجهم إلى الكفار ، وقرر الحكم بذلك
على الجميع ، فروي عن ابن شهاب أن قريشاً قالت : نحن لا نرضى
هذا الحكم ولا نلتزمه ولا ندفع لأحدٍ صداقاً ، فنزلت بسبب ذلك
هذه الآية الأخرى ﴿وَإِنْ فَاتَكُمْ﴾ الآية ، فأمر الله تعالى المؤمنين
أن يدفعوا إلى من فرَّت زوجته ففانت بنفسها إلى الكفار صداقه
الذي أنفق ، قال ابن عباس رضي الله عنهما - في كتاب الثعلبي - :
خمس نسوة من نساء المهاجرين رجعن عن الإسلام وَلَحِقْنَ بالمشركين :
أمُّ الحكم بنت أبي سفيان ، وكانت تحت عياض بن شداد (٢) ،

(١) علّق أبو حيان الأندلسي في (البحر المحيط) على كلام أبي علي الفارسي بقوله :
« وهذا الكوفي معتزلي فقيه ، وأبو علي معتزلي ، فأعجبه هذا التخريج ، وليس بشيء ؟ لأنه
لا يقال «كافرة» في وصف الرجال إلا تابعاً لموصوفها أو يكون محذوفاً مُراداً ، أما بغير ذلك
فلا يُجمع فاعلة على فواعل إلا ويكون للمؤنث » .

(٢) هو عياضُ بن شداد بن غنم بن زهير بن أبي شداد القرشي الفهري ، شهد المواقع

كلها ، وكان يُسمّى : زاد الراكب لأنه كان يؤثر رفقته بزاده .

وفاطمة بنت أبي أمية أخت أم سلمة ، وكانت تحت عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وعبدة بنت عبد العزيز ، كانت تحت هشام بن العاص . وأم كلثوم بنت جروول ، كانت تحت عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فأعطاهم النبي صلى الله عليه وسلم مهور نسائهم من الغنيمة (١) .

واختلف الناس ، من أي مال يُدفع إليه الصداق؟ فقال محمد ابن شهاب الزهري : يُدفع إليه من الصدقات التي كانت تدفع إلى الكفار بسبب من هاجر من أزواجهم ، أراد الله تعالى دفعها إليهم حين لم يرضوا حكمه حسب ما ذكرناه ، وهذا قول صحيح يقتضيه قوله تعالى : [فَعَاقَبْتُمْ] ، وسنين ذلك عند تفسير اللفظة إن شاء الله تعالى ، وقال مجاهد ، وقتادة : يُدفع إليه من غنائم المغازي ، وقال هؤلاء : المعاقبة هي الغزو والمغنم ، وتأولوا اللفظة بهذا المعنى ، وقال الزهراوي أيضاً : يُدفع إليه من أيٍّ وجوه الفيء أمكن .

و «المعاقبة» في هذه الآية ليست بمعنى مجازاة السوء بسوء ، ولكنها بمعنى : قَصِرْتُمْ منهم إلى الحال التي صاروا إليها منكم ،

(١) لم يذكر هنا غير أربع ، والذي في كتاب الثعلبي أنهم ست نسوة ، ويضاف إلى ما هنا : بَرُوع بنت عتبة ، كانت تحت شماس بن عثمان ، وشهبه بنت غيلان ، ولم يذكر اسم زوجها.

وذلك بأن يفوت إليكم شيء من أزواجهم ، وهكذا هو التعقيب على الحمل والدواب ، أن يركب هذا عُقْبَةَ وهذا عُقْبَةَ ، وقرأ ابن مسعود رضي الله عنه : «وَأِنْ فَاتَكُمْ أَحَدٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ» ، ويقال : عاقب الرجل صاحبه في كذا ، أي : جاء فعل كل واحد منهما بعقب فعل الآخر ، ويقال : أعقب الرجل ، ومنه قول الشاعر :

وَحَارَدَتِ النَّكْدُ الْجِلَادُ وَلَمْ يَكُنْ لِعُقْبَةِ قَدْرِ الْمُسْتَعِيرِينَ مُعْقِبٌ (١)

ويقال : عَقِبَ - بشد القاف - أي أصاب عُقْبِي ، والتعقيب : غزو إثر غزو ، ويقال : عَقَبَ - بتخفيفها - ، ويقال : عَقِبَ - بكسرهما - ، كل ذلك بمعنى يقرب بعضه من بعض ، ويجمع ذلك قُرْبَى . وقرأ جمهور الناس : [عَاقَبْتُمْ] ، وقرأ الأعرج ، ومجاهد ،

(١) هذا البيت للكُميت ، وهو في الديوان والتاج واللسان ، وهو في وصف الإبل ، ومعنى حَارَدَتِ : انقطعت ألبانها أو قَلَّتْ ، يقال : ناقه مُحَارِدٌ ومُحَارِدَةٌ : بمعنى : شديدة الحِرَادِ ، والنُّكْدُ : التي ماتت أولادها ، والجلاد : الغِلاظُ الجلود ، القصارُ الشعور ، الشَّدَادُ النصوص ، وهذا النوع من الإبل أقوى وأصبر وأقلُّ لَبَنًا من نوع آخر أغزر لَبَنًا وأضعف ويقال له : الحور ، والعُقْبَةُ من التعقيب ، وهو أن يأتي شيء بعد شيء ، يقال : عَقَبَ هذا هذا إذا جاء بعده ، ويقال أيضاً : أعقَبَ هذا هذا ، فهو عُقْبَةٌ له ، والبيت شاهد على أن أعقَبَ بمعنى عَقَبَ ، فالشاعر يقول : مُعْقِبٌ ، والقيدر : إناة يُطبخ فيه - وهي مؤنثة وقد تذكَّر - ، يقول : لقد جفَّت ألبان الإبل حتى لم يبق شيء يأخذه أحد من المستعيرين بعد آخرهم ، أي لم يبق بعد الآخر آخر ثان .

والزهري ، وعكرمة ، وحميد : [عَقَبْتُمْ] بالتشديد في القاف ،
 وقرأ الأعرج أيضاً وأبو حيوة ، والزهراوي أيضاً : [عَقَبْتُمْ] بفتح
 القاف خفيفة ، وقرأ النخعي ، والزهري أيضاً : [عَقَبْتُمْ] بكسر
 القاف ، وكلها بمعنى : غَنِمْتُمْ ، ورؤي عن مجاهد : [أَعَقَبْتُمْ] بـالف
 مقطوعة قبل العين . وهذه الآية كلها قد ارتفع حكمها . ثم ندب
 تعالى إلى التقوى وأوجبها ، وذكر العلة التي بها تجب التقوى وهي
 الإيمان بالله تعالى والتصديق بوحدانيته وصفاته وعقابه وإنعامه .

قوله عز وجل :

﴿ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعُنَكَ عَلَىٰ أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْعًا
 وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ
 أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْنَهُنَّ وَأَسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ ۚ إِنَّ
 اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ
 يَسُؤْنَ مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَبِئْسَ الْكُفَّارِينَ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴿١٣﴾ ﴾

هذه بيعة النساء في ثاني يوم الفتح على جبل الصفا ، وهي
 كانت في المعنى بيعة الرجال قبل فرض القتال ، وسماهم تبارك وتعالى :
 «المؤمنات» بحسب الظاهر من أمرهن ، ورفض الإشراك هو محض

الإيمان ، وقتل الأولاد هو من خوف الفقر والفاقة ، وكانت العرب تفعل ذلك . وقرأ الحسن ، وأبو عبد الرحمن : [يُقْتَلْنَ] بضم الياء وفتح القاف وكسر التاء مشددة .

و «الإتيان بالبهتان» قال أكثر المفسرين : معناه أن تنسب إلى زوجها ولداً ليس هو له ، واللَّفْظُ أعم من هذا التخصيص ، وإن الفرية بالقول على أحد من الناس بعزيمة لمن هذا (١) ، وإن الكذب فيما أوتمن عليه من الحيض والحمل لفرية بهتان ، وبعض أقوى من بعض ، وذلك أن بعض الناس قال : (بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ) يراد به اللسان في الكلام ، والفم في القبلة ونحوها ، و «بين الأرجل» يراد به الفروج ، ووُلِدَ الإلحاق ونحوه . و «المعروف» الذي نُهي عن العصيان فيه ، قال أنس ، وابن عباس ، وزيد بن أسلم رضي الله عنهم : هو النوح وشق الجيوب ووشم الوجوه ووصل الشعر وغير ذلك من أوامر الشريعة فرضها وندبها .

ويُروى أن جماعةً من النساء فيهن هند بنت عتبة - بايعن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقرأ عليهن الآية ، فلما قررن على ألا يُشركن قالت هند : وكيف نطمع أن تقبل منا ما لم تقبله من الرجال ، بمعنى أن هذا بين لزومه ، فلما وقف على السرقة قالت : والله إنني

(١) يعني أن الافتراء على أحد من الناس بالقول أنه ارتكب عزيمة من الأمور لهي من هذا النوع .

لأصيب الهنة من مال أبي سفيان لا أدري ما يحلُّ لي من ذلك ،
فقال أبو سفيان - وكان حاضراً - : ذلك حلالٌ فيما مضى وبقي ،
وقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : كُلِّي وولديك بالمعروف ، وقد
تكرر هذا المعنى في الحديث الآخر ، قولها : « إن أبا سفيان رجل مسيك » ،
فلما وقف على الزنى قالت : يا رسول الله وهل تزني الحرّة ؟ قال لها
رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا ، ما تزني الحرّة ، وذلك أن الزنى
في قريش إنما كان في الإمام في أغلب الأمر ، وفيما يعرف مثل هند ،
وإلا فالبغايا قد كنَّ أحراراً ، فلما وقف على قتل الأولاد قالت : نحن
ربيناهم صغاراً ، وقتلتهم أنت ببدرٍ كباراً ، فضحك رسول الله
صلى الله عليه وسلم ، فلما وقف على العصيان في المعروف قالت :
ما جلسنا هذا المجلس وفي أنفسنا أن نعصيك (١) . ويروى أن جماعة
نساء بايعن النبي صلى الله عليه وسلم فقلن : يا رسول الله نبايعك
على كذا وكذا الآية . فلما فرغن قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
فيما استطعتنَّ وأطقتنَّ ، فقلن : الله ورسوله أرحم بنا منا بأنفسنا .

(١) أخرجه سعيد بن منصور ، وابن سعد ، عن الشعبي رضي الله عنه ، وأخرج مثله
ابن جرير ، وابن مردويه ، عن ابن عباس رضي الله عنهما . (الدر المشور) .
هذا وحديث المبايعات المذكور في البخاري ، ومسلم ، وابن مردويه ، عن أم عطية .

وقوله تعالى : [فَبَايِعُنَّ] معناه : امض معهن صفقة الإيمان بأن يُعْطِينَ ذلك من أَنْفُسِهِنَّ وَيُعْطِينَ عليه الجنة ، واختلفت هيئات مبايعة رسول الله صلى الله عليه وسلم النساء بعد الإجماع على أنه لم تمس يده الشريفة يد امرأة أجنبية - فيروى عن عائشة رضي الله عنها وغيرها أنها قالت : إنه بايع النساء قولاً (١) ، وقال : (إنما قولي لمائة امرأة كقولي لامرأة واحدة) (٢) ، وقالت أسماء بنت يزيد بن

(١) روى البخاري عن عُرْوَةَ أن عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم أخبرته أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يتمحن من هاجر إليه من المؤمنات بهذه الآية ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ ﴾ إلى قوله : ﴿ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ، قال عُرْوَةَ : قالت عائشة : فمن أقر بهذا الشرط من المؤمنات قال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : (قد بايعتكم) كلاماً ، ولا والله ما مسّت يدهُ يَدَ امرأةٍ في المبايعة قط ، ما يُبَايِعُنَّ إلا بقوله : (قد بايعتكم على ذلك) ، هذا لفظ البخاري ، وقد أخرج الحديث أيضاً عبد الرزاق ، وعبد بن حميد ، وابن ماجه ، وابن المنذر ، وابن مردويه ، عن عائشة رضي الله عنها . (الدر المنثور) . وأخرجه أيضاً أحمد (٦-١٥٣) والترمذي .

(٢) أخرجه عبد الرزاق ، وسعيد بن منصور ، وعبد بن حميد ، وابن سعد ، وأحمد ، والترمذي وصححه ، والنسائي ، وابن ماجه ، وابن جرير ، وابن المنذر . وابن مردويه ، عن أميمة بنت رقيقة ، ولفظه كاملاً أنها قالت : أتيت النبي صلى الله عليه وسلم في نساء نبايعه ، فأخذ علينا ما في القرآن : « أَلَا نَشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئاً » حتى بلغ ﴿ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ ﴾ فقال : فيما استطعتن وأطقتن ، قلنا : الله ورسوله أرحم بنا من أنفسنا ، يا رسول الله ألا تصافحنا ؟ قال : (إني لا أصافح النساء ، إنما قولي لمائة امرأة كقولي لامرأة واحدة) . (الدر المنثور) .

السكن : كنتُ في النسوة المبايعات ، فقلت : يا رسول الله ، ابسطُ يدك نبايحك ، فقال لي صلى الله عليه وسلم : (إِنِّي لَا أَصَافِحُ النِّسَاءَ لَكِنْ آخُذُ عَلَيْهِنَّ مَا أَخَذَ اللَّهُ عَلَيْهِنَ) (١) ، وذكر النقاش حديثاً أن النبي صلى الله عليه وسلم مدَّ يده المكرمة من خارج بيت ، ومدَّ نساءً من الأنصار أيديهن من داخله فَبَايَعَنَ (٢) ، وما قَدَّمْتُهُ أثبت ، وروي عن الشعبي أنه صلى الله عليه وسلم لفَّ ثوباً كثيفاً على يده ، وجاء نسوة فَلَمَسْنَ يده كذلك (٣) ، وروى عن الكلبي أنه قدم عمر بن

(١) أخرجه سعيد بن منصور ، وابن سعد ، وأحمد ، وابن مردويه ، عن أسماء بنت يزيد رضي الله عنها ، قالت : بايعتُ النبي صلى الله عليه وسلم في نسوة فقال : (إِنِّي لَا أَصَافِحُكُمْ ، وَلَكِنْ أَخُذُ عَلَيْكُمْ مَا أَخَذَ اللَّهُ) . (الدر المنثور) .

(٢) أخرج أحمد ، وابن سعد ، وأبو داود ، وأبو يعلى ، وعبد بن حميد ، وابن مردويه ، والبيهقي في الشعب ، عن إسماعيل بن عطية ، عن جدته أم عطية رضي الله عنها ، قالت : لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة جمع نساء الأنصار في بيت ، فأرسل إليهن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه ، فقام على الباب فسلم ، فقال : أنا رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم إليكن ، تبايعن على ألا تشركن بالله شيئاً : ولا تسرقن ، ولا تزنين ... الآية ؟ قلنا : نعم ، فمدَّ يده من خارج البيت ، ومددنا أيدينا من داخل البيت ، قاله إسماعيل : فسألت جدتي عن قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ ﴾ قالت : نهانا عن النياحة .

وهذه الرواية عن أم عطية تفيد أن الذي تكلم مع النساء ومدَّ يده هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، أما رواية النقاش التي ذكرها ابن عطية فتفيد أن النبي صلى الله عليه وسلم هو الذي مدَّ يده المكرمة ، ونلاحظ أن ابن عطية علّق على رواية النقاش بقوله : « وما قدمته أثبت » .

(٣) أخرجه سعيد بن منصور . وابن سعد ، عن الشعبي رضي الله عنه ، قال : كان رسول الله

صلى الله عليه وسلم يبايع النساء ووضع على يده ثوباً . فلما كان بعد كان يخير النساء فيقرأ عليهن =

الخطاب رضي الله عنه فلمس النساء يده وهو خارج من بيتٍ وهُنَّ فيه لا يراهنَّ (١) ، وذكر النقاش وغيره أن النبي صلى الله عليه وسلم بايعه النساء بمكة على الصِّفَا وعمر بن الخطاب رضي الله عنه يصفحهن (٢) ، ورُوي من حديث عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جدِّه ، رفعه النقاش عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وعن عروة بن مسعود الثقفي أنه صلى الله عليه وسلم غَمَسَ يده في إناءٍ فيه ماءٌ ، ثم دفعه إلى النساء يغمسن أيديهن فيه (٣) .

ثم أمره تبارك وتعالى بالاستغفار لهنَّ ، ورجَّهنَّ في عُفرانه ورحمته بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

= هذه الآية ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ ﴾ الآية... ثم ذكر حضور هند امرأة أبي سفيان وكلامها . (الدر المنثور) .

(١) راجع الهامش رقم (٢) صفحة (٤١٨) ، هذا وقد أخرجه أيضاً ابن جرير الطبري عن أم عطية رضي الله عنها .

(٢) في تفسير ابن كثير أن مقاتل بن حيان قال : أنزلت هذه الآية يوم الفتح ، بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم الرجال على الصفا ، وعمر بايع النساء يُحَلِّفُهُنَّ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم... ثم قال ابن كثير : رواه ابن أبي حاتم . ثم ساق روايته ، فيها خبر هند بنت عتبة .

(٣) أخرجه ابن سعد ، وابن مردويه ، عن عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جدِّه ، قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا بايع النساء دعا بقُدْحٍ من ماءٍ فغمس يده فيه ثم يغمسن أيديهن ، فكانت هذه يبعته .

قوله تعالى : ﴿ قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ ، قال ابن زيد ، والحسن ،
ومنذر بن سعيد : هم اليهود لأن غضب الله عز وجل قد صار عرفاً لهم ،
وقال ابن عباس رضي الله عنهما : هم في هذه الآية كفار قريش ؛
لأن كل كافر فعليه غضب الله تعالى لا يرد ذلك ثبوت غضب الله
على اليهود .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ولا سيما في المردة ككفار قريش ، إذ أعمالهم معصية ليست
بمجرد ضلال بل فيها مناورات (١) مقصودة ، وفي الكلام في التشبيه
الذي في قوله تعالى : ﴿ كَمَا يَيْسُ ﴾ يتبين الاحتياج إلى هذا الخلاف ،
وذلك أن اليأس من الآخرة إما أن يكون بالتكذيب بها ، وهذا هو
يأس كفار مكة ، وإما أن يكون باليأس عن الحظ فيها والنعمة
مع التصديق بها ، وهذا هو يأس اليهود ، فمن قال إن القوم المشار
إليهم هم كفار مكة قال : معنى قوله تعالى : ﴿ كَمَا يَيْسُ الْكُفَّارُ ﴾ :
كما ييس الكافر من صاحب قبر ؛ لأنه إذا مات له حميم قال : هذا

(١) اختلفت الأصول في هذه الكلمة ، ففي بعضها جاءت : « سرارات » وفي بعضها

كانت « سرارات » .

آخر العهد به ، لن يُبعث أبداً ، فمعنى الآية أن اعتقاد أهل مكة في الآخرة كاعتقاد الكافر في البعث ولقاء موتاه ، وهذا هو تأويل ابن عباس ، والحسن ، وقتادة في معنى قوله تعالى : ﴿ كَمَا يَتَّبِعُ الْكُفَّارُ ﴾ . ومن قال إن القوم المشار إليهم هم اليهود قال : معنى قوله تعالى : ﴿ كَمَا يَتَّبِعُ الْكُفَّارُ ﴾ : كما يتبع الكافر من الرحمة إذا مات وكان صاحب قبر ، وذلك أنه يُروى أن الكافر إذا كان في قبره عُرض عليه مقعده من الجنة إن لو كان مؤمناً ، ثم يُعرض عليه مقعده من النار الذي يصير إليه (١) ، فهو يئس من رحمة الله تعالى مع علمه بها ويقينه ، وهذا تأويل مجاهد ، وابن جبير ، وابن زيد في قوله تعالى : ﴿ كَمَا يَتَّبِعُ الْكُفَّارُ ﴾ ، فمعنى الآية أن يئس اليهود من رحمة الله تعالى في الآخرة مع علمهم بها كيئس ذلك الكافر في قبره ، وذلك لأنهم قد رينَ على قلوبهم ، وحملهم الحسد على

(١) حديث إن الميت يعرض عليه مقعده . الخ . أخرجه البخاري في الجنائز وبدء الخلق والرقاق ، ومسلم في الجنة ، والترمذي في الجنائز ، وكذلك كل من النسائي ، ومالك في الجنائز ، وابن ماجه في الزهد ، وأحمد في مسنده (٢-١٦ ، ٥١ : ١١٣ ، ١٢٣) ، ولفظه كما في مسند أحمد : عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ما منكم أحد إلا يعرض عليه بالغداة والعشي ، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة ، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار ، يقال : هذا مقعدك حتى تبعث إليه) .

ترك الإيمان ، وغلب على ظنونهم أنهم مُعَذَّبُونَ ، وهذه كانت صفة كثير من مُعاصري النبي صلى الله عليه وسلم .

و [مِنْ] في قوله تعالى : ﴿ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴾ على القول الأول لابتداء الغاية ، وفي القول الثاني هي لبيان الجنس أو للتبويض ، يتوجَّهان فيها ، وبيان الجنس أظهر .



كامل تفسير سورة الممتحنة والحمد لله رب العالمين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الخلق
سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين



وهي مدنية في قول الجمهور ، وقال مكي عن ابن عباس رضي الله
عنهما ، والمهدوي عن عطاء ومجاهد : إنها مكية ، والأول أصح لأن
معاني السورة تعضده ، ويشبه أن يكون فيها المكي .

قوله عز وجل :

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾
يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَمْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ
أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا
كَانَهُمْ بَنِينَ مَرْصُوصًا ﴿٤﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تَقُولُونَ
مَا لَا تَعْمَلُونَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَا تَزُغُوا أَزَاغَ اللَّهِ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي
الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٥﴾ ﴾

قد تقدم القول غير مرة في تسبيح الجمادات ، و «العزیز» في
سلطانه وقدرته ، و «الحكيم» في أفعاله وتدبيره ، واختلف الناس

في السبب الذي نزلت فيه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾
 - فقال ابن عباس ، وأبو صالح : نزلت بسبب أن جماعة قالوا :
 لَوَدِدْنَا أَنْ نَعْرِفَ أَحَبَّ الْأَعْمَالِ إِلَى رَبِّنَا حَتَّى نَعْتَنِي بِهِ ، ففرض الله
 تعالى الجهاد ، وأعلمهم بفضله لديه ، وأنه يحب المقاتلين في سبيله
 كالبنين المرصوص ، وكان إذ فُرض قد تكررهم قوم منهم ، وفرَّ
 من فرَّ يوم أُحد ، فعاتبهم الله تعالى بهذه الآية ، وقال قتادة والضحاك :
 نزلت بسبب أن جماعة من شباب المسلمين كانوا يتحدثون عن أنفسهم
 في الغزو بما لم يفعلوا ، ويقولون فعلنا وصنعنا ، وذلك كذب ، فنزلت
 الآية في ذلك ، وقال ابن زيد : نزلت في المنافقين لأن جملة منهم
 كانوا يقولون للمؤمنين : نحن منكم ومعكم ، ثم يظهر من أفعالهم
 خلاف ذلك ، فنزلت الآية عتاباً لهم .

وحكم هذه الآية باق غابر الدهر ، وكل من يقول ما لا يفعل
 فهو ممقوت مَدَقِ الْكَلَامِ (١) ، والقول الأخير في المنافقين إنما يتوجه
 بأن يكونوا غير مُجَلِّحِينَ بالنفاق (٢) ، فلذلك خوطبوا بالمؤمنين ،

(١) من معاني كلمة « المَدَقِ » : الكذب وعدم الإخلاص .

(٢) يعني : ركبوا رُءُوسَهُمْ فِي النِّفَاقِ وَمَضُوا فِيهِ إِلَى غَايَتِهِ .

أي : في زعمكم وما تُظهرون ، والقول الأول يترجَّح بما يأتي بعد من أمر الجهاد والقتال .

و «المَقْتُ» : البغض من أجل ذنب أو ريبة أو دناءة يصنعها المقوت ، هذا حدُّ المقت ، فتأملهُ ، و [مَقْتًا] نصب على التمييز ، والتقدير كَبُرَ فِعْلُكُمْ مَقْتًا ، والمراد : كبر مَقْتُ فِعْلِكُمْ ، فحذف المضاف إليه ونصب المضاف على التمييز ، وهذا كما تقول : تَفَقَّأَ شحماً بطنك ، ثم تقول : تَفَقَّأَ بطنك شحماً ، و (أَنْ تَقُولُوا) يحتمل أن يكون بدلاً من المقدر ، ويحتمل أن يكون خبر ابتداءٍ مضمَّر ، ويحتمل - على غير هذا التقدير - أن يكون فاعلاً بـ [كَبُرَ] ، وقول المرء ما لا يفعل يوجب مقت الله تعالى ، ولذلك فرَّ كثير من العلماء من الوعظ والتذكير وآثروا السكوت .

ثم أكد تعالى الإخبار بمحبته للمقاتلين صفًا ، ومحبة الله تعالى هي ما يظهر عليهم من نصره وكرامته ، وهي هنا صفة فعل وليست بمعنى الإرادة لأنَّ الإرادة لا يصح أن يقع ما يخالفها ، ونحن نجد المقاتلين على غير هذه الصفة كثيراً ، وقال بعض الناس : قتال الرَّجَالَةِ (١) أفضل من قتال الفرسان لأنَّ التَّراصَّ فيه يتمكن .

(١) جمع راجِلٍ وهو الذي يقاتل وهو على رجليه .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا ضعيف خفي على قائله مقصد الآية ، وليس المراد نفس التصاف ، وإنما المقصد الجد في كل أوطان القتال وأحواله ، وقصد بالذکر أشد الأحوال وهي الحالة التي تحوج إلى القتال صفاً متراصاً ، ونابت هذه الحال المذكورة مناب جميع الأحوال ، وقضت الآية بأن الذين يبلغ جدّهم إلى هذه الحال حريون ألا يتقصروا عن حال ، و « المرصوص » : المصفوف المتضام ، وقال أبو بحرية (١) : « إذا رأيتموني ألتفت في الصف فجزوا فؤادي » (٢) ، ومنه قول الشاعر :

بِالشَّامِ بَيْنَ صَفَائِحِ صُمُّ تَرَصُّصٍ بِالْجَنُوبِ (٣)

(١) اختلفت النسخ في كتابة اسمه ، فهو في بعضها : أبو يحيى ، وفي بعضها : أبو بحيرة ، والصواب ما أثبتناه ، وهو عبد الله بن قيس الكندي السكوني الراغمي أبو بحيرة الحمصي ، شهد خطبة عمر بالجابية ، وروى عن معاذ بن جبل ، وأبي الدرداء ، وأبي عبيدة بن الجراح وأبي هريرة ، وروى عنه ابنه وخلق كثير ، قال ابن عبد البر : « هو تابعي ثقة » ، وقال الحافظ في التقریب : « حمصي مشهور مخضرم ، ثقة ، مات سنة سبع وسبعين » رضي الله عنهم أجمعين .

(٢) الذي في الطبري : « فجئوا لحبي » ، وهي من وجأه إذا دقعه يجمع كفه في الصدر أو العنق .

(٣) الصفائح : جمع صفيحة وهي كل عريض من حجارة أو لوح ونحوهما ، والصم : المضممة الصلبة ، وترصص : أحكم جمعه وضم بعضه إلى بعض ، وكل ما أحكم وضم فقد رص ، وهو موضع الاستشهاد هنا ، ولم أقف على هذا البيت في المراجع التي بين يدي .

وقال منذر بن سعيد ، والفراء ، وغيرهما : المرصوصُ : المعقود بالرصاص ، وهذا يحتمل أن يكون أصل اللفظه .

ثم ذكر تعالى مقالة موسى عليه السلام ، وذلك ضرب مثل للمؤمنين الذين يقولون مالا يفعلون ، ذكَّره^١م الله تعالى بقوم آذوا نبيَّهم على علم منهم بنبوته ، وَزَاغُوا فَزَاغَ اللهُ تعالى قلوبهم ، فاحذروا أيها المؤمنون أن يُصيرَكم العصيان وقول الباطل إلى مثل حالهم .
وقال أبو أمامة : هم الخوارج ، وقال سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه : هم الحرورية .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

المعنى أنهم أشباههم في أنهم لما زاغوا أزاع^١ الله تعالى قلوبهم .
وقوله تعالى : ﴿لِمَ تُؤْذُونَنِي﴾ تقرير ، والمعنى : تؤذونني بتعنُّتكم وعصيانكم واقتراحاتكم ، وهذه كانت أفعال بني إسرائيل .
وانظر أنه تعالى أسند الزينغ إليهم لكونه فعل حطيطة (١) ، كما قال تعالى : ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ (٢) ، وهذا بخلاف قوله

(١) نزول في المكاة وتحقير .

(٢) من الآية (١٩) من سورة (الحشر) .

تعالى : ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾ (١) فقد أسند التوبة إلى نفسه لكونها فعل رفعة ، ومنه قوله تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام : ﴿وَإِذَا مَرَضْتُ فَبُهِرَ اللَّهُ لِيُفْشِلُنِي﴾ (٢) ، و «زَاغَ» معناه : مال ، وصار عرفها في الميل عن الحق ، و ﴿أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ معناه : طبع عليها وختم وكثر ميلها عن الحق ، وهذه هي العقوبة على الذنب بالذنب ، وأمال ابن أبي إسحق [زَاغُوا] .

قوله عز وجل :

﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَبْنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّورَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدٌ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٦٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٦٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِعُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾

المعنى : واذكر يا محمد إذ قال عيسى - عليهما الصلاة والسلام - ، وهذا مثال آخر ضربه الله تعالى لكفار قريش ، وحكي عن موسى عليه

(١) من الآية (١١٨) من سورة (التوبة) .

(٢) الآية (٨٠) من سورة (الشعراء) .

السلام أنه قال : ﴿ يَا قَوْمِ ﴾ وعن عيسى عليه السلام أنه قال : ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيل ﴾ من حيث لم يكن له فيهم أب . و [مُصَدِّقًا] حال مؤكدة ، و [مُبَشِّرًا] عطف عليه ، وقوله : ﴿ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي ﴾ وقوله : ﴿ أَسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ جملتان كل واحدة منهما في موضع خفض على الصفة ل [رَسُولٍ] ، و « أَحْمَدُ » فعل سمي به ، ويحتمل أن يكون أفعل كَأَسْوَدَ ، وهو في هذه الآية للكلمة لا الشخص ، وليست على حدِّ قولك : جَاءَنَا أَحْمَدُ ؛ لَأَنَّكَ هَا هُنَا أَوْقَعْتَ الْأِسْمَ عَلَى مَسْمَاهُ ، وفي هذه الآية إنما أراد : اسمه هذه الكلمة ، وذكر أبو علي هذا العرض ، ومنه ينفك إعراب قوله تعالى : ﴿ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴾ (١) ، وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، ونافع ، وعاصم - في رواية أبي بكر - : ﴿ مِنْ بَعْدِي ﴾ بفتح الياء ، وقرأ ابن عامر ، وحمزة ، والكسائي ، وعاصم - في رواية حفص - : ﴿ مِنْ بَعْدِي ﴾ بسكون الياء .

وقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ الآية... يحتمل أن يريد عيسى عليه السلام ، وتكون الآية وما بعدها تمثيلاً بأولئك لهؤلاء المعاصرين لمحمد صلى الله عليه وسلم ، ويحتمل أن يكون التمثيل قد فرغ عند قوله : [أَحْمَدُ] ، ثم خرج إلى ذكر أحمد ، لما تطرَّق

(١) من الآية (٦٠) من سورة (الأنبياء) .

ذكره فقال تعالى مخاطبة للمؤمنين : فلما جاء أحمد هؤلاء الكفار قالوا : هذا سحر مبين ، و « البينات » هي الآيات والعلامات ، وقرأ جمهور الناس : (هَذَا سِحْرٌ) إشارة إلى ما جاء به ، وقرأ ابن مسعود ، وطلحة ، والأعمش ، وابن وثاب : (هَذَا سَاحِرٌ) إشارة إليه بنفسه .
وقوله تعالى : (وَمَنْ أَظْلَمُ) تعجيب وتقرير ، أي لا أحد أظلم منه ، و « افتراء الكذب » هو قولهم : « هذا سحر » وما جرى مجرى هذا من الأقوال بغير دليل ، وقرأ الجمهور : [يُدْعَى] على بناء الفعل للمفعول ، وقرأ طلحة بن مصرف : [يَدْعِي] بمعنى : ينتمي وينتسب ، ومن ذلك قول الشاعر :

فَرَمَيْتُ فَوْقَ مَلَأَةٍ مَجْبُوكَةً وَأَبْنَتُ لِلْأَشْهَادِ حَزَّةً أَدْعِي (١)

(١) قال هذا البيت ساعدة بن العجلان الهذلي يرثي أخاه مسعوداً حين قتله ضمرة بن بكر ، وهو من قصيدة مطلعها :

لَمَّا سَمِعْتُ دُعَاءَ ضَمْرَةَ فِيهِمْ وَذَكَرْتُ مَسْعُوداً تَبَادَرَ أَدْمُعِي

الملاءة : الملقحة ، ومجبوكة : مشدودة محكمة ، وأبنتُ للأشهاد : أعلنت للملأ والحضور ، وحزّة : حين ، وأدعي : أنتسب ، يقول : إنه رمى هذه الرمية فأصاب الملاءة المجبوكة على عدوّه ، وإنه أعلن عن نفسه بقوله : خذها وأنا ابن فلان ، والشاهد هنا أن « أدعي » بمعنى : انتسب وأنتمي .

والمعنى - على هذه القراءة - إنما هو إشارة إلى الأنبياء عليهم السلام ،
لما حكى عن الكفار أنهم قالوا : « هذا سِحْرٌ » بين بعد ذلك أن العقل
لا يقبله ، أي : وهل أظلم من هذا الذي يزعم أنه نبيٌّ ويدَّعي إلى
الإسلام وهو مع ذلك مُفْتَرٍ على ربه ؟ وهذا دليل واضح لأن مسالك
أهل الافتراء والمخرقة (١) إنما هي دون هذا وفي أمور خسيصة ، وضبط
النقاش هذه القراءة [يُدعى] بضم الياء وفتح الدال المشددة على ما لم
يسم فاعله .

والضمير في [يُرِيدُونَ] للكفار ، واللام في قوله تعالى : [لِيُطْفِئُوا]
لام مؤكدة دخلت على المفعول ؛ لأن التقدير : يريدون أن يطفئوا ،
و « أن » مع الفعل في تأويل المصدر ، فكأنه تعالى قال : يريدون إطفاءً ،
وأكثر ما تلزم هذه اللام المفعول إذا تقدم ، تقول : لزيدٍ ضربت
ولرؤيتك قصدت . و « نور الله » هو شرعه سبحانه وبراهينه ، وقوله
تبارك وتعالى : [بِأَفْوَاهِهِمْ] إشارة إلى الأقوال ، أي بقولهم : سِحْرٌ
وشِعْرٌ وتكهنٌ وغير ذلك .

(١) المخرقة : الاختلاق والافتراء ، قال أبو الهيثم : « الاختراق والاختلاق والاختلاص

والافتراء واحد » .

وقرأ نافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وأبو بكر عن عاصم ،
وابن محيصن ، والحسن ، وطلحة ، والأعرج : ﴿وَاللَّهُ مُتِمُّهُ﴾ بالتنوين
[نُورُهُ] بالنصب ، وقرأ ابن كثير ، وحمزة ، والكسائي ، وحفص
عن عاصم ، والأعمش : ﴿وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ﴾ بالإضافة ، وهي في معنى
الانفصال ، وفي هذا نظر .

قوله عز وجل :

﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظَاهِرَهُ عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ ۗ
وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿١٠﴾ يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تَجْرَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ
عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿١١﴾ تُوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۗ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ
وَأَنْفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٢﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ
جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسْكِنٍ طَيِّبَةٍ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ
الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ ﴾

هذا تأكيد لأمر الرسالة وشد لأزرها ، كما يقول الإنسان لأمر
يشبته ويقويه : أنا فعلته ، أي : فمن يقدر على معارضته فليعارض ،
و «الرسول» المشار إليه هو محمد صلى الله عليه وسلم . وقوله تعالى :
﴿عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ﴾ لفظ يصلح للعموم ، وأن يكون المعنى : ألا يبقى

موضع فيه دين غير الإسلام ، وهذا لا يكون إلا عند نزول عيسى عليه السلام ، قاله أبو هريرة ، ومجاهد ، ويحتمل أن يكون المعنى : أن يظهره حتى لا يوجد دين إلا والإسلام أظهر منه ، وهذا قد كان ووجد .

ثم ندب تعالى المؤمنين وحضهم على الجهاد بهذه التجارة التي بينها ، وهي أن يعطي المرء نفسه وماله ويأخذ ثمناً جنة الخلد ، وقرأ جمهور الناس والقراء : [تُنَجِّكُمْ] بتخفيف النون وكسر الجيم دون شد ، وقرأ ابن عامر وحده (١) ، والحسن ، والأعرج ، وابن أبي إسحق : [تُنَجِّكُمْ] بفتح النون وشد الجيم . وقوله تعالى : [تُؤْمِنُونَ] لفظه لفظ الخبر ومعناه الأمر ، أي : آمنوا ، وفي مصحف عبد الله بن مسعود رضي الله عنه «أَلِيمٌ ، آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا» . وقوله تعالى : [تُؤْمِنُونَ] فعل مرفوع تقديره : ذلك أنه تؤمنون (٢) ، وقال الأخفش : هو عطف بيان على [تِجَارَةٍ] ، قال المبرد : هو بمعنى : آمنوا على الأمر ، ولذلك جاء [يَغْفِرُ] مجزوماً ، وقوله تعالى : [ذَلِكُمْ] إشارة إلى الجهاد والإيمان ، و [خَيْرٌ] هنا يحتمل أن يكون للتفضيل ،

(١) أي : من السبعة .

(٢) علّق أبو حيان الأندلسي على كلام ابن عطية هذا بعد أن نقله بقوله : « وهذا ليس بشيء لأن فيه حذف المبتدأ وحذف «أنه» وإبقاء الخبر ، وهذا لا يجوز » . البحر المحيط

فالمعنى: من كل عمل، ويحتمل أن يكون إخباراً أن هذا خير في ذاته ونفسه.
والجزم في قوله تعالى: [يَغْفِرُ] على الجواب للأمر المقدر في [تُؤْمِنُونَ]،
أو على ما يتضمنه قوله: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ﴾ من الحض والأمر، وإلى
نحو هذا ذهب الفراء، وروى عن أبي عمرو بن العلاء أنه قرأ:
«يَغْفِرُكُمْ» بإدغام الراء في اللام، ولا يجوز ذلك سيبويه، وقوله
تعالى: [وَمَسَاكِينَ] عطف على [جَنَاتٍ]، و«طيب المساكين»: سعتها
وجمالها، وقيل: طيبها المعرفة بدوام أمرها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا هو الصحيح، وأي طيب مع الفناء والموت؟

قوله عز وجل:

﴿ وَأُخْرَىٰ يُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِيرٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِّلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى
اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَعَامَّتْ طَّائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ
طَّائِفَةٌ ۚ فَأَيُّدْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَىٰ عُدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴿١٤﴾ ﴾

قوله تعالى: [وَأُخْرَى]، قال الأنخفش: هي في موضع خفض
عطفاً على [تجارة]، وهذا قول قلقت قد رد عليه ناس واحتج له

آخرون ، والصحيح ضعفه لأن هذه «الأخرى» ليست مما دلت عليه ، إنما هي مما أُعطي ثمناً وجزاءً على الإيمان والجهاد بالنفس والمال . وقال الفراء : [وأخرى] في موضع رفع ، وقال قوم : [أخرى] في موضع نصب بإضمار فعل ، كأنه تعالى قال : يغفر ذنوبكم ويدخلكم جنات ويمنحكم أخرى وهي النصر والفتح القريب ، وقرأ ابن أبي عبلة : ﴿نَصْرًا مِنْ اللَّهِ وَفَتْحًا﴾ بالنصب فيهما ، ووصفها تعالى بأن النفوس تحبها من حيث هي عاجلة في الدنيا ، وقد وكلت النفس بحب العاجل ، ففي هذا تحريض ، ثم قواه تعالى بقوله : ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ، وهذه الألفاظ في غاية الإيجاز وبراعة المعنى .

ثم ندب الله تعالى المؤمنين إلى النصر ، ووضع لهم هذا الاسم وإن كان العرف قد خصَّ به الأوس والخزرج ، وسماهم الله تعالى به . وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، والأعرج ، وعيسى : [أَنْصَارًا] منوناً [لِلَّهِ] ، وقرأ الباقر (١) ، والحسن ، والجحدري بالإضافة ، وفي حرف عبد الله (٢) : «أَنْتُمْ أَنْصَارُ اللَّهِ» .

ثم ضرب تعالى المثل بقوم بادروا حين دُعوا ، وهم الحواريون ، والحواريون خُلصان (٣) الأنبياء عليهم السلام ، سُموا بذلك لأنه

(١) أي : من السبعة .

(٢) في بعض النسخ : «وفي حرف أبي» .

(٣) الخُلصان : الخالص من الأخذان ، يستوي فيه الواحد والجمع . (المعجم الوسيط) .

رَدَّدَ اختيَارَهُم وتصفيتهم وكذلك رَدَّدَ تخيل الحواري ، واللفظتان من « الحَوْر » ، وقيل : سُمُوا بذلك لبياض ثيابهم ، وكانوا غَسَّالِينَ (١) نصرُوا عيسى عليه السلام ، واستعمل اسمهم حتى قيل للناصر العاضد : حواري ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم : (حواري الزبير) (٢) ، وافتراق طوائف بني إسرائيل هو في أمر عيسى عليه السلام ، قال قتادة : والطائفة الكافرة ثلاث فرق : اليعقوبية وكلُّهم قالوا : هو الله ، والإسرائيلية وهم قالوا : هو ابن الله ، والنسطورية وهم قالوا : هو إله ، وأمه إله ، والله تعالى ثالثهما ، تعالى الله سبحانه عن أقوالهم علواً كبيراً .

قوله تعالى : ﴿ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴾ ، قيل : ذلك قبل محمد صلى الله عليه وسلم ، وبعد فترة من رفع عيسى عليه السلام ، ردَّ الله تعالى الكرة عليهم لمن آمن به فغلبوا الكافرين الذين قتلوا صاحبه الذي ألقى عليه الشبه ، وقيل : ذلك لمحمد صلى الله عليه وسلم ، أصبح المؤمن بعيسى عليه السلام ظاهراً لإيمانه

(١) المشهور أنهم كانوا قَصَّارِينَ ، أي يدقُّون الثياب ويبيِّضونها .

(٢) أخرجه الشيخان ، كما أخرجه البزار عن عائشة رضي الله عنها ، وأخرجه الإمام أحمد في مسنده ، والبزار والطبراني عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما : (تفسير ابن كثير ، ومجمع الزوائد ٩-١٥١) ، كما أخرجه ابن ماجه في المقدمة ، ولفظه كما جاء في البخاري - باب فضائل الصحابة - عن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن لكل نبي حواري ، وإن حواري الزبير بن العوام) .

بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وذلك أنه لا يؤمن أحد حق الإيمان ببعيسى عليه السلام إلا وفي ضمن ذلك الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه بشر به وحرّض عليه ، وقيل : كان المؤمنون قديماً به ظاهرين بالحُجَّة وإن ظلُّوا مفترقين في البلاد ، مغلوبين في ظاهر الحياة الدنيا ، وقرأً مجاهد ، وحميد ، والأعرج ، وابن محيصة : [فآيَدُنَا] مخففة الياء ممدودة الألف .



كامل تفسير سورة الصف والحمد لله رب العالمين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين ،
سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين



تفسير سورة الجمعة (*)

وهي مدنيّة ، وذكر النقاش قولاً أنّها مكّيّة ، وذلك خطأٌ ممّن
قاله ؛ لأنّ أمر اليهود لم يكن إلّا بالمدينة ، وكذلك أمر الجمعة لم
يكن قط بمكّة ، أعني إقامتها وصلاتها ، وأمّا أمر الانفضاض فلا مرية
في كونه بالمدينة ، وذكر النقاش عن أبي هريرة رضي الله عنه قال :
كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ نَزَلَتْ سُورَةُ الْجُمُعَةِ (١) ،

(*) في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
(خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة ، فيه خلق آدم ، وفيه أدخل الجنة ، وفيه أخرج
منها ، ولا تقوم الساعة إلا في يوم الجمعة) ، وأخرجه أيضاً الترمذي ، وابن مردويه .
(١) ذكر الإمام ابن كثير في تفسيره أن هذا الحديث رواه البخاري ، ومسلم ، والترمذي ،
والنسائي ، وابن أبي حاتم ، وابن جرير ، من طرق ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، وزاد =

وهذا أيضاً ضعيف ؛ لأن أبا هريرة رضي الله عنه إنما أسلم أيام خيبر .

قوله عز وجل :

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ
 ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ
 وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَنِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ
 لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ ۗ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ
 ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٤﴾ ﴾

تقدم القول في مثل ألفاظ الآية الأولى بأجمعها ، واختلفت
 القراءة في إعراب الصفات في آخرها ، فقرأ جمهور الناس : [الْمَلِكِ]
 بالخفض نعتاً [لله] ، وكذلك ما بعده ، وقرأ أبو وائل شقيق (١) ،

= الإمام السيوطي في الدر المنثور نسبه إلى سعيد بن منصور ، وابن المنذر ، وابن مردويه ،
 وأبو نعيم والبيهقي معاً في الدلائل عن أبي هريرة رضي الله عنه ، ولفظه كما ذكره السيوطي :
 (كنا جلوساً عند النبي صلى الله عليه وسلم حين أنزلت سورة الجمعة ، فتلاها فلما بلغ ﴿ وَآخَرِينَ
 مِنْهُمْ ۗ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ ﴾ قال له رجل : يا رسول الله ، من هؤلاء الذين لم يلحقوا بنا ؟
 فوضع يده على رأس سلمان الفارسي رضي الله عنه وقال : (والذي نفسي بيده لو كان الإيمان
 بالثريا لنال رجال من هؤلاء) ، وتأمل قول المؤلف : إن هذا ضعيف .

(١) هو شقيق بن سلمة الأسدي ، أبو وائل ، الكوفي ، قال عنه في التقريب : « ثقة ،

مخضرم ، مات في خلافة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه وله مائة سنة » .

ومسلمة ، وأبو الدينار : [أَلْمَلِكُ] بالرفع على القطع ، وكذلك ما بعده ،
وفتح أبو الدينار القاف من [أَلْقُدُوسِ] .

و «الأُمِّيُونَ» يراد بهم العرب ، والأُمِّيُّ في اللغة : الذي لا يكتب
ولا يقرأ ، منسوب إلى «أمّ القرى» وهي مكة ، وهذا ضعيف ؛ لأن
الوصف بالأُمِّيِّين - على هذا - يقف على قريش . وإنما المراد جميع
العرب ، وفيهم قال النبي صلى الله عليه وسلم : (إِنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ لَا نَحْسِبُ
وَلَا نَكْتُبُ ، الشَّهْرُ هَكَذَا وَهَكَذَا) (١) ، وهذه الآية تعيد نعم الله
تعالى عليهم فيما أولاهم ، و «الآيَاتُ الْمَتْلُوءَةُ» : القرآن ، و [يُزَكِّيهِمْ]
معناه : يطهرهم من الشُّرك ، وينمي الخير فيهم ، و «الكتاب» :
الوحي المتلُّو ، و «الحِكْمَةُ» : السُّنَّةُ التي هي على لسانه عليه الصلاة
والسلام .

ثم أظهر تعالى تأكيد النعمة بذكر حالهم التي كانت في الضد
من الهداية ، وذلك في قوله تعالى : ﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ

(١) أخرجه البخاري ، ومسلم ، وأبو داود ، والنسائي ، وابن المنذر ، وابن مردويه ،
ذكر ذلك السيوطي في الدر المنثور ، وقد أخرجه أيضاً الإمام أحمد في مسنده (٢-٤٣ ، ٥٢ ،
١٢٢ ، ١٢٩) ، ولفظه فيه أن الأسود بن قيس قال : سمعت سعيد بن عمرو بن سعيد يحدث
أنه سمع ابن عمر يحدث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (إِنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ لَا نَكْتُبُ
وَلَا نَحْسِبُ ، الشَّهْرُ هَكَذَا وَهَكَذَا وَهَكَذَا - وعقد الإبهام في الثالثة - ، والشهر هكذا وهكذا
وهكذا ، يعني تمام الثلاثين) .

مُبِينٍ) ، و [آخِرِينَ] في موضع خفض عطفاً على [الْأُمِّيِّينَ] ،
أو في موضع نصب عطفاً على الضمائر المتقدمة ، واختلف الناس
في المَعْنِيِّين بقوله تعالى : [وَأَخْرَيْنَ] - فقال أبو هريرة رضي الله
عنه وغيره : أراد فارس ، وقد سُئِلَ رسول الله صلى الله عليه وسلم :
من الآخرون ؟ فأخذ بيد سلمان الفارسي رضي الله عنه وقال : (لو كان
الدين في الثرى لنالته رجال من هؤلاء) ، خرجه مسلم (١) ، وقال سعيد
ابن جبير ، ومجاهد : أراد الروم والعجم ، فقوله تعالى : [مِنْهُمْ]
- على هذين القولين - إنما يريد به : في البشرية والإيمان ، كأنه تعالى
قال : وآخرين من الناس ، وقال مجاهد أيضاً ، وعِكْرِمَةُ ، ومقاتل :
أراد التابعين من أبناء العرب (٢) ، فقوله تعالى : [مِنْهُمْ] يريد به
النَّسَبَ والإيمان ، وقال ابن زيد ، ومجاهد ، والضحاك ، وابن
حبان : أراد بقوله تعالى : [وَأَخْرَيْنَ] جميع طوائف الناس ، ويكون
[مِنْهُمْ] في البشرية والإيمان على ما قلناه ، وذلك أننا نجد بعنه عليه
الصلاة والسلام إلى جميع الخلائق ، وقال ابن عمر رضي الله عنهما
لأهل اليمن : أنتم هم .

(١) راجع الهامش رقم (١) صفحة (٤٣٨) .

(٢) روى ابن أبي حاتم عن سهل الساعدي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
(إن في أصلاب أممي رجالاً ونساءً يدخلون الجنة بغير حساب ، ثم تلا : ﴿ وَأَخْرَيْنَ مِنْهُمْ
لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ ﴾ ، قال الإمام القرطبي : والقول الأول أثبت .

وقوله تعالى : ﴿لَمَّا يَلْحَقُوا﴾ نفي لما قُرْب من الحال ، والمعنى أنهم مزعمون أن يلحقوا بهم ، وهي «لم» زيدت عليها «ما» تأكيداً ، قال سيبويه : «لَمَّا» نفي قولك : «قد فعل» ، و «لَم» نفي قولك : «فعل» دون «قَدْ» .

وقوله تعالى : ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ﴾ الآية ... تبيين لموقع النعمة وتخصيصه إياهم بها .

قوله عز وجل :

﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٦٦﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنْكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦٧﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنْ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾﴾

الذين حُمِلُوا التوراة هم بنو إسرائيل والأحبار المعاصرون لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، و [حُمِلُوا] معناه : كُلَّفُوا القيام بأوامرها

ونواهيها ، فهذا كما حمل الإنسان الأمانة ، وليس ذلك من الحمل على الظهر وإن كان مُشْتَقًّا منه ، وذكر تعالى أنهم لم يَحْمِلُوهَا ، أي : لم يُطِيقُوا أمرها وَيَقِفُوا عند حُدِّها حين كذبوا بمحمد صلى الله عليه وسلم والتوراةُ تنطقُ بِنُبُوَّتِهِ ، فكأن كل خير لم ينتفع به من حُمَّلِهِ ، كمثل حمارٍ عليه أسفارٌ فهي عنده والزَّيْلُ وغير ذلك بمنزلة واحدة .

وقرأ يحيى بن يَعْمَرُ : [حَمَلُوا] بفتح الحاء والميم مخففة ، وقرأ المأمون العباسي : «يُحْمَلُ» بضم الياء وفتح الحاء وشد الميم المفتوحة ، وفي مصحف ابن مسعود : «كَمَثَلِ حِمَارٍ» بغير تعريف ، و «السُّفْرُ» : الكتابُ المجتمع الأوراقُ مُنْضَدةٌ ، ثم بين تعالى حال مثلهم وفساده بقوله سبحانه : ﴿بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ﴾ ، والتقدير : بئس المثل مثل القوم .

قوله تعالى : ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ﴾ الآية . روي أنها نزلت بسبب أن يهود المدينة لما ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم خاطبوا يهود خيبر في أمره ، فذكروا نبوته ، وقالوا لهم : إن رأيتم اتباعه أطعناكم ، وإن رأيتم خلافه خالفناه معكم ، فجاءهم جواب أهل خيبر يقولون : نحن أبناء إبراهيم خليل الرحمن ، وأبناء عزيز ابن الله ، ومنا الأنبياء ، ومتى كانت النبوة في العرب ؟ نحن أحق

بالنبوة من محمد - عليه الصلاة والسلام - ، ولا سبيل إلى اتباعه ،
 فنزلت الآية بمعنى : إنكم إذا كنتم من الله بهذه المنزلة فقربه وفراقُ
 هذه الحياة الخسيسة أحب إليكم فتمنوا الموت إن كنتم صادقين
 تعتقدون في أنفسكم هذه المنزلة .

ثم أخبر تعالى عنهم أنهم لا يتمنونوه ولا يلقونه إلا كرهاً لعلمهم
 بسوء حالهم عند الله تعالى وبعدهم عنه ، هذا هو اللازم من ألفاظ
 الآية ، وروى كثير من المفسرين أن الله تعالى جعل هذه الآية معجزة
 لمحمد صلى الله عليه وسلم ، وآية باهرة ، وأعلمه أنه إن تمنى أحد
 منهم الموت في أيام معدودة مات وفارق الدنيا ، فقال لهم رسول الله
 صلى الله عليه وسلم : تمنوا الموت على جهة التعجيز وإظهار الآية ،
 فما تمناه أحدٌ خوفاً من الموت وثقةً بصدق محمد صلى الله
 عليه وسلم (١).

(١) عن ابن عباس رضي الله عنهما أن أبا جهل قال : إن رأيتُ محمداً عند الكعبة لآتيته
 حتى أطأ على عنقه ، قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لو فعل لأخذته الملائكة
 عياناً ، ولو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ورأوا مقاعدهم من النار ، ولو خرج الذين يباهلون
 رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجعوا لا يجدون أهلاً ولا مالاً) ، أخرجه الإمام أحمد ،
 والبخاري ، والترمذي ، والنسائي .

ثم توعدهم تعالى بالموت الذي لا محيد لهم عنه ، ثم بما بعده من الرد إلى الله تعالى ، وقرأ ابن مسعود رضي الله عنه : « تَفِرُّونَ مِنْهُ مُلَاقِيكُمْ » بإسقاط [فإنه] .

وقوله تعالى : [فَيُنَبِّئُكُمْ] أي : إنباءً مُعَاقِبٍ مُجَازٍ عليه بالتعذيب ، وقرأ ابن أبي إسحق : (فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ) بكسر الواو ، وكذلك يحيى بن يعمر .

قوله عز وجل :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهِوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّزِقِينَ ﴿١٣﴾ ﴾

النداء بالجمعة هو في ناحية المسجد ، وكان على الجدار في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال السائب بن يزيد (١) : كان

(١) هو السائب بن يزيد بن سعيد بن ثمامة الكندي ، ويعرف بابن أخت النَّمير ، صحابي صغير ، له أحاديث قليلة ، وحجَّ به في حجة الوداع وهو ابن سبع سنين ، وولاه =

للنبي صلى الله عليه وسلم مؤذن واحد على باب المسجد ، وفي مصحف أبي داود : وكان بين يديه وهو على المنبر أذان ، وهو الذي استعمل بنو أمية ، وبقي بقرطبة إلى الآن ، ثم زاد عثمان رضي الله عنه النداء على الزوراء يُسمع الناس ، فقوم عبّروا عن زيادة عثمان بالثاني كأنهم لم يعتدوا الذي كان بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم ، وقومٌ عبّروا عنه بالثالث . وقرأ ابن الزبير ، والأعمش : [الْجُمُعَةَ] بإسكان الميم ، وهي لغة .

والمأمور بالسعي هو المؤمن الصحيح البالغ الحرُّ الذَّكَرُ ، ولا جمعة على مسافر في طاعة ، فإن حضرها أحسن وأجزته ، واختلف الناس في الحدِّ الذي يلزم منه السعي - فقال مالك : ثلاثة أميال من منزل الساعي إلى المنادي ، وقال فريق : من منزل الساعي إلى أول المدينة التي فيها النداء ، وقال أصحاب الرأي : يلزم أهل المدينة كلها السعي من سمع النداء ومن لم يسمع وإن كانت أقطارها فوق الثلاثة أميال ، وقال أبو حنيفة : ولا يلزم من منزله خارج المدينة كزرارة من الكوفة ، وإنما بينهما مجرى نهر ، ولا تجوز لهم إقامتها لأن من شروطها الجامع والسُّلطان القاهر والسُّوق القائمة ، وقال بعض أهل العلم :

= عمر سوق المدينة ، مات سنة إحدى وتسعين ، وقيل : قبل ذلك ، وهو آخر من مات بالمدينة من الصحابة . (تقريب التهذيب) .

السعي من خمسة أميال ، وقال الزهري : من ستة أميال ، وقال أيضاً : من أربعة أميال ، وقاله ابن المنكدر ، وقال ابن عمر ، وابن المسيب ، وابن حنبل : إنما يلزم السعي من سمع النداء ، وفي هذا نظر .

والسعي في الآية ليس الإسراع في المشي كالسعي بين الصفا والمروة ، وإنما هو بمعنى قوله تعالى : ﴿ وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴾ (١) ، فالقيام والوضوء ولبس الثوب والمشى سعي كُله إلى ذكر الله تعالى ، قال الحسن ، وقتادة ، ومالك ، وغيرهم : إنما تؤتى الصلاة بالسكينة ، والسعي هو بالنية والإرادة والعمل (٢) ، و «الذكر» هو وعظ الخطبة ، قاله ابن المسيب ، ويؤيد ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم : (إن الملائكة على أبواب المسجد يوم الجمعة ، يكتبون الأول فالأول ، فإذا

(١) الآية (٣٩) من سورة (النجم) ، ومثل هذه الآية قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ ﴾ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ إِنْ سَعَيْتُمْ لَشَتَى ﴾ ، فالسعي في هذه الآيات هو العمل ، ومن هذا المعنى قول زهير بن أبي سلمى :

سَعَى بَعْدَهُمْ قَوْمٌ لِكَيْ يُدْرِكُوهُمْ
فَلَمْ يُفْلِحُوا وَلَمْ يَلْمُوا وَلَمْ يَأْلُوا
فمعنى «سعى» في كل هذه الأمثلة : عَمِلَ .

(٢) وقيل : إن معنى «السعي» هنا هو القصد ، قال الحسن : والله ما هو بسعي على الأقدام ولكنه سعي بالقلوب والنية ، وقيل : إن السعي في الآية هو سعي على الأقدام ، وهو الدرجة العالية ، فهو فضل وليس بشرط ، أما السعي بمعنى الجري والاشتداد فيه فهو غير مراد .

خرج الإمام طُويتُ الصُّحفُ وجلست الملائكة يستمعون الذكر) ،
والخطبة عند جمهور العلماء شرط في انعقاد الجمعة ، وقال الحسن :
هي مستحبة ، وقرأ عمر بن الخطاب ، وعليٌّ ، وابن مسعود ، وابن
عباس ، وابن عمر ، وابن الزبير ، وجماعة من التابعين رضوان
الله عليهم أجمعين : ﴿ فَاْمُضُوا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ (١) ، وقال ابن مسعود :
لو قرأتُ : [فَاَسْعَوْا] لِأَسْرَعْتُ حَتَّى يَقَعَ رِدَائِي .

واختلف الناس في البيع في الوقت المنهي عنه إذا وقع : ما الحكم
فيه ؟ بعد إجماعهم على وجوب امتناعه بدءًا - فقال الشافعي : يمضي ،
وقال مرةً : يُفْسَخُ ما لم يفت ، فإن فات مضي . وقال مالك : يُفْسَخُ
ما لم يفت ، فإن فات أصلح بالقيمة ، واختلف في وقت التقويم -
فقليل : وقت القبض ، وقيل : وقت الحكم .

وقوله تعالى : [ذَلِكُمْ] إشارة إلى السعي وترك البيع ، وقوله سبحانه :
[فَاَنْتَشِرُوا] أجمع الناس على أن مقتضى هذا الأمر الإباحة ، وكذلك
قوله تعالى : ﴿ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ﴾ أنه للإباحة في طلب المعاش ،
وأن ذلك مثل قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا ﴾ (٢) ، إلا ما روي

(١) هذه القراءة تبين أن المراد مجرد العمل والمضي فيه لا أنه السعي بالجرى والاشتداد فيه .

(٢) من الآية (٢) من سورة (المائدة) .

عن أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (ذلك الفضلُ المُبتَغى هو عيادة مريض أو صلّة صديق أو اتباع جنازة) (١).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وفي هذا ينبغي أن يكون المرء بقية يوم الجمعة (٢) ، ويكون تخيره (٣) صباح يوم السبت ، قاله جعفر بن محمد الصادق ، وقال مكحول : الفضلُ المُبتَغى : العلم ، فينبغي أن يطلب إثر الجمعة .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا ﴾ الآية ، نزلت بسبب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان قائماً على المنبر يخطب يوم الجمعة ، فأقبلت عيرٌ من الشام تحمل ميرةً (٤) ، وصاحبُ أمرها دحية ابن خليفة الكلبي ، قال مجاهد : وكان من عرفهم أن تدخل العير المدينة بالطبل والمعازف والصياح من ورائها ، فدخلت العير بمثل ذلك ، فانفض أهل المسجد إلى روية ذلك وسماعه ، وتركوا رسول الله صلى الله عليه وسلم قائماً على المنبر ، ولم يبق معه غير اثني عشر رجلاً ، قال جابر بن عبد الله رضي الله عنه : أنا أحدهم .

(١) أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره عن أنس رضي الله عنه .

(٢) يعني : ينبغي أن يكون في عيادة المريض أو صلة الصديق أو اتباع الجنازة أو ما شابه ذلك من الفضل .

(٣) يقصد تخيير العمل وأن ذلك يكون صباح يوم السبت .

(٤) الميرة : الطعام يجمع للسفر ونحوه .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ولم تمرَّ بي تسميتهم في ديوان فيما أذكر (١) ، إلا أنني سمعت أبي رحمه الله تعالى يقول : هم العشرة المشهود لهم بالجنة ، واختلف في الحادي عشر ، ف قيل : عمار بن ياسر رضي الله عنه ، وقيل : عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه ، وقال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما في كتاب الثعلبي : بقي معه ثمانية نفر ، وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (لولا هؤلاء لكانت الحجارة سُومت على المنفضين من السماء) (٢) ، وفي حديث آخر (والذي نفس محمد بيده لو تتابعتم حتى لا يبقى منكم أحدٌ لسال عليكم الوادي ناراً) (٣) ، وقال قتادة :

(١) روى أسد بن عمرو والد أسد بن موسى بن أسد حديثاً مرسلًا فيه أسماؤهم ، وجاء فيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يبق معه إلا أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي ، وطلحة ، والزبير ، وسعد بن أبي وقاص ، وعبد الرحمن بن عوف ، وأبو عبيدة بن الجراح ، وسعيد بن زيد ، وبلال ، وعبد الله بن مسعود في إحدى روايتين ، وفي الرواية الأخرى عمار ابن ياسر رضوان الله عليهم أجمعين .

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان عن مقاتل بن حيان ، وقد ذكر فيه قصة العبر التي قدمت مع دحية يوم الجمعة ورسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب على المنبر ، وفي آخره : (فقال النبي صلى الله عليه وسلم عند ذلك : لولا هؤلاء - يعني الذين بقوا في المسجد عند النبي صلى الله عليه وسلم -- لقصدت إليهم الحجارة من السماء ، ونزل ﴿ قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التَّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾) . (الدر المنثور)

(٣) أخرجه عبد بن حميد عن الحسن ، وأخرج مثله عن قتادة ، كذلك أخرجه مثله البيهقي في شعب الإيمان . (الدر المنثور) .

بلغنا أنهم فعلوا ذلك ثلاث مرات ؛ لأنَّ قدوم العير كان يوافق يوم الجمعة ، بسبب أن المراحل كانت تُعطي ذلك ، وقال تعالى : [إِلَيْهَا] ولم يقل : «إليهما» تقدماً للأهم إذ كانت هي سبب اللّهُو ولم يكن اللّهُو سببها (١) ، وفي مصحف ابن مسعود رضي الله عنه : «ومن التجارة لِلَّذِينَ اتَّقَوْا وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ» .

وتأملُ أن قُدِّمت التجارة مع الرؤية لأنها أهمُّ ، وأُخِّرت مع التفضيل لتقع النفس أولاً على الأبين .

وفي هذه الآية قيام الخطيب ، وأول من استراح في الخطبة عثمان رضي الله عنه ، وأول من خطب جالساً معاوية رضي الله عنه . و «الرِّزَاقُ» صفة فعل ، وقد يتصف بها بعض البشر تجوزاً إذا كان سبب رزق الحيوان ، والله تعالى خير الرازقين .

كامل تفسير سورة الجمعة والحمد لله رب العالمين

(١) قال أبو حيان في البحر المحيط : «وقرئ [إِلَيْهِمَا] بالثنية للضمير ، كقوله تعالى : ﴿إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَكِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ ، ونخرجه على أن يُتجوَّزَ بـ [أَوْ] فتكون بمعنى «الواو» . « . » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين ،
سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين



وهي مدنيّة بإجماع ، وذلك أنها نزلت في غزوة بني المصطلق (١)
بسبب أن عبد الله بن أبيّ بن سلول كان منه في تلك الغزوة أقوال ،
وكان له أتباع يقولون قوله ، فنزلت السورة كلها بسبب ذلك ،
ذكر الله تعالى فيها ما تقدم من المنافقين من حلفهم وشهادتهم في
الظاهر بالإيمان ، وأنهم كذّبة ، وذكر تعالى فيها ما تأخر منهم ووقع
في تلك الغزوة ، وسيأتي بيان ذلك فصلاً فصلاً عند تفسير الآيات
إن شاء الله تعالى .

(١) سبب النزول ذكره الواحدي في كتابه «أسباب النزول» ، وأخرجه ابن إسحق في
السيرة ، وكذا أخرجه الطبري من طريقه ، وأصل القصة في الصحيحين من طريق أبي إسحق
عن زيد بن أرقم ، ورواها الترمذي ، والنسائي ، والحاكم من طريق أبي سعد الأودي .

قوله عز وجل :

﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَسْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ
لِرَسُولِهِ وَاللَّهُ بِشَهِدٍ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ كَاذِبُونَ ﴿١﴾ أَخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً
فَصَدُّوا عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ
كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ ﴾ * وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ
أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشْبٌ مُسْنَدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ
صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرهُمْ قَتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾ ﴾ *

فضح الله تعالى بهذه الآية سريرة المنافقين ، وذلك أنهم كانوا يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم : نشهد أنك لرسول الله ، وهم في إخبارهم هذا كاذبون ؛ لأن حقيقة الكذب أن يخبر الإنسان بصد ما في قلبه ، وكسرت الألف من [إِنَّ] في الثلاثة لدخول اللام المؤكدة في الخبر وذلك لا يكون مع المفتوحة ، وقوله تعالى : [يَشْهَدُ] وما جرى مجراها من أفعال اليقين والعلم تجاب بما يجاب به القسم ، وهي بمنزلة القسم .

وقرأ الناس : [أَيْمَانُهُمْ] جمع يمين ، وقرأ الحسن بن أبي الحسن - بخلاف عنه - : [إِيمَانُهُمْ] بكسر الألف ، أي : هذا الذي يُظهرون ،

وهذا على حذف مضاف تقديره : إظهار ، و « الْجَنَّةُ » : ما يُتَسْتَرُّ به في الأجرام والمعاني ، وقوله تعالى : [فَصَدُّوا] يحتمل أن يكون غير مُتَعَدِّ ، تقول : « صدَّ زيدٌ » ، ويحتمل أن يكون متعدياً كما قال :

صَدَدْتُ الْكَأْسَ عَنَّا أُمَّ عَمْرٍو (١)

فالمعنى : صدوا غيرهم ممن كان يريد الإيمان ، أو من المؤمنين في أن يقاتلوهم أو ينكروا عليهم ، وتلك سبيل الله تعالى فيهم ، وقد تقدم تفسير نظير هذه الآية .

وقوله تعالى : [ذَلِكَ] إشارة إلى فعل الله تعالى بهم في فضيحتهم وتوبيخهم ، ويحتمل أن تكون الإشارة إلى سوء ما عملوا ، فالمعنى : ساء عملهم بأن كفروا بعد إيمان .

(١) هذا صدر بيت هو الخامس في معلقة عمرو بن كلثوم في كثير من الروايات ، وأسقطه وبيتين بعده أبو بكر الأنباري في « شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات » ، والبيت بتمامه :

صَدَدْتُ الْكَأْسَ عَنَّا أُمَّ عَمْرٍو وَكَانَ الْكَأْسُ مَجْرَاهَا الْيَمِينَا

والرواية في « موسوعة الشعر العربي » : « صَبَّتِ الْكَأْسَ » بمعنى : صرَّفتِ ، وعلى هذا فلا شاهد فيه . يقول : صرفت الكأس عنا يا أم عمرو ؟ وكان مجرى الكأس على اليمين فأجريتها على اليسار . يعني أنها تعمدت إبعادها عنه .

وقوله تعالى : ﴿ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ﴾ إِمَّا أَنْ يَرَادَ بِهِ : مِنْهُمْ مَنْ كَانَ آمِنًا ثُمَّ نَافِقٌ بَعْدَ صِحَّةٍ مِنْ إِيمَانِهِ ، وَقَدْ كَانَ هَذَا مُوجُودًا ، وَإِمَّا أَنْ يَرِيدُهُمْ كُلَّهُمْ ، فَالْمَعْنَى : ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ أَظْهَرُوا الْإِيمَانَ ثُمَّ كَفَرُوا فِي بَاطِنِ أَمْرِهِمْ ، فَسُمِّيَ ذَلِكَ الْإِظْهَارَ إِيمَانًا ، وَقَرَأَ بَعْضُ الْقُرَاءِ : [فَطَبَعَ] عَلَى بِنَاءِ الْفِعْلِ لِلْفَاعِلِ ، وَقَرَأَ جَمْهُورُ الْقُرَاءِ : [فَطَبِعَ] بِضَمِّ الطَّاءِ عَلَى بِنَائِهِ لِلْمَفْعُولِ بِغَيْرِ إِدْغَامٍ ، وَأَدْغَمَ أَبُو عَمْرٍو (١) ، وَقَرَأَ الْأَعْمَشُ : « فَطَبَعَ اللَّهُ » ، وَعَبَّرَ اللَّهُ تَعَالَى بِالطَّبْعِ عَلَى مَا خَلَقَ فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الرِّيبِ وَالشُّكِّ وَحَتَمَ عَلَيْهِمْ بِهِ مِنَ الْكُفْرِ وَالْمَصِيرِ إِلَى النَّارِ .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ ﴾ تَوْبِيخٌ لَهُمْ ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا رِجَالًا أَجْمَلُ شَيْءٍ وَأَفْصَحُهُ ، فَكَانَ مَنَظَرُهُمْ يَرُوقُ وَقَوْلُهُمْ يَخْلُبُ ، لَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَهُمْ كَالْخَشْبِ الْمُسْنَدَةِ إِذْ لَا أَفْهَامَ لَهُمْ نَافِعَةَ ، وَلَا نَظَرَ يَصِيبُ ، فَذَلِكَ الْمَنَظَرُ لَا مَخْبَرَ لَهُ كَالْخَشْبِ الْمُسْنَدَةِ ، إِنَّمَا هِيَ أَجْرَامٌ لَا عُقُولَ لَهَا ، مَعْتَمِدَةٌ عَلَى غَيْرِهَا ، لَا تَثْبُتُ بِنَفْسِهَا ، وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ : « تَسَانَدَ الْقَوْمِ » إِذَا اصْطَفَوْا وَتَقَابَلُوا لِلْقِتَالِ ، وَقَدْ يَحْتَمِلُ أَنْ يُشَبَّهَ اصْطَفَافُهُمْ فِي الْأَنْدِيَةِ بِاصْطَفَافِ الْخَشْبِ الْمُسْنَدَةِ ، وَخَلُوهُمْ مِنَ الْأَفْهَامِ النَّافِعَةِ بِخُلُوهِ الْخَشْبِ

(١) يعني أدغم عين [فَطَبِعَ] في عين [عَلَى] .

من ذلك ، وقال رجل لابن سيرين : رأيتني في النوم محتضناً خشبة ، فقال ابن سيرين : أظنك من أهل هذه الآية ، وتلا ﴿ كَانَهُمْ خُشْبٌ مُّسْنَدَةٌ ﴾ .

وقرأ عكرمة ، وعطية : [يُسْمَعُ] بالياء مضمومة ، وقرأ نافع ، وابن عامر ، وحمزة ، وعاصم : [خُشْبٌ] بضم الخاء والشين ، وقرأ قنبل ، وابن كثير ، وأبو عمرو ، والكسائي : [خُشْبٌ] بضم الخاء وسكون الشين ، وهي قراءة البراء بن عازب رضي الله عنه ، واختيار أبي عبيد ، وقرأ سعيد بن جبير ، وسعيد بن المسيب : [خَشَبٌ] بفتح الخاء والشين ، وذلك كله جمع «خَشَبَةٌ» بفتح الخاء والشين ، فالقراءتان أولاً كما تقول : بَدَنَةٌ وَبُدُنٌ وَبُدُنٌ ، قاله سيبويه ، والأخيرة على الباب في ثَمَرَةٍ وَثَمَرٌ .

وكان عبد الله بن أبي من أبهى المنافقين وأطولهم ، ويدل على ذلك أنه لم يوجد قميص يكسو العباس رضي الله عنه غير قميصه ، وقد تقدم في سورة البقرة تحرير أمر المنافقين وكيف سترهم الإسلام .

وقوله تعالى : ﴿ يَخْشَوْنَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ﴾ فضح أيضاً لما كانوا يُسِرُّونه من الخوف ، وذلك أنهم كانوا يتوقعون أن يأمر النبي صلى الله عليه وسلم - عن الله - بقتلهم ، قال مقاتل : فكانوا متى

سمعوا نُشْدان ضالة ، أو صياحاً بأيّ وجه كان ، أو أُخبروا بنزول وحي ، طارت قلوبهم وطاشت عقولهم حتى يسكن ذلك ويكون في غير شأنهم ، وجرى هذا اللَّفْظ مثلاً في الخائف ، ونحوه قول الشاعر :

يُرْوَعُهُ السَّرَّارُ بِكُلِّ أَرْضٍ مَخَافَةً أَنْ يَكُونَ بِهِ السَّرَّارُ (١)

وقول جرير :

مَا زِلْتَ تَحْسَبُ كُلَّ شَيْءٍ بَعْدَهُمْ خَيْلاً تَكْرُّ عَلَيْهِمْ وَرِجَالاً (٢)

ثم أخبر تعالى بأنهم هم العدو ، وحذّر منهم ، و «العدوّ» يقع للواحد وللجمع . وقوله تعالى : ﴿ قَاتِلْهُمْ اللَّهُ ﴾ دعاء يتضمن الإقصاء والمنابذة وتمني الشرّ لهم .

(١) السَّرَّارُ : المُسَارَّةُ والمناجاة ، وفي حديث عمر أنه كان يحدثه عليه الصلاة والسلام كأخي السَّرَّار ، لخفض صوته ، وَيُرْوَعُهُ : يُفْزَعُهُ وَيُخِيفُهُ ، يقول : إنه يخاف من المناجاة وخفي الأصوات خشية أن يكون هذا السَّرَّارُ خاصّاً به . ولم أقف على قائل هذا البيت .

(٢) لم أجد هذا البيت في ديوان جرير ، وقد نسبه الزمخشري والقرطبي إلى الأخطل ، وذكر صاحب البحر المحيط أن ابن عطية نسبه إلى جرير ، وأن الزمخشري نسبه للأخطل . وَحَسِبَ الشَّيْءَ يَحْسَبُهُ : ظَنَّهُ ، وَكَرَّرَ يَكْرُرُ : رَجَعَ إِلَى الْمَجْمُوعِ ، وَهُوَ خِلَافُ الْقَرَّرِ ، يَصُوِّرُ خَوْفَهُ الَّذِي يَوْقَعُ فِي ظَنِّهِ أَنْ كُلَّ شَيْءٍ عَدُوٌّ بِهَا جَمَهُمْ . وَرِجَالاً فِي الْبَيْتِ مَعْطُوفَةٌ عَلَى « خَيْلاً » .

هذا والمعنى المقصود في البيتين كثير مطروق في الشعر العربي ، وقد غالى المتنبي فيه حين قال :

وَصَاقَتِ الْأَرْضُ حَتَّى صَارَ هَارِبُهُمْ إِذَا رَأَى غَيْرَ شَيْءٍ ظَنَّهُ رَجُلاً

وقوله تعالى : ﴿أَنْتَى يُؤْفَكُونَ﴾ معناه : يُصرفون ، فيحتمل أن تكون [أنتى] استفهاماً ، كأنه تعالى قال : كيف يُصرفون ؟ أو : لأي سبب لا يرون رُشد أنفسهم ؟ ويحتمل أن تكون [أنتى] ظرفاً لـ [قَاتَلَهُمْ] كأنه تعالى قال : قَاتَلَهُمُ اللهُ كيف انصرفوا وُصرفوا ، فلا يكون في القول استفهام على هذا .

قوله عز وجل :

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّأَ رُءُوسَهُمْ
وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴿٦٦﴾ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ
لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٦٧﴾ هُمْ
الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تَنْفِقُوا عَلَيَّ مِنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا ﴿٦٨﴾ وَلِلَّهِ خَزَائِنُ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٦٩﴾ يَقُولُونَ لِنَ رَجَعْنَا
إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ
وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾﴾

كان من أمر عبد الله بن أبي بن سلول أنه خرج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة بني المصطلق ، فبلغ الناس إلى ماء سبق

إليه المهاجرون ، وكانهم غلبوا الأنصار عليه بعض الغلبة ، فقال عبد الله بن أبي لأصحابه : قد كنت قلت لكم في هؤلاء الجلابيب ما قلت فلم تسمعوا مني ، وكان المنافقون ومن لا يتحرى يسمون المهاجرين رضي الله عنهم الجلابيب ، ومنه قول حسان بن ثابت :
 أَرَى الْجَلَابِيبَ قَدْ عَزَّوْا وَقَدْ كَثُرُوا وَابْنُ الْفُرَيْعَةِ أَمْسَى بِيضَةَ الْبَلَدِ (١)
 فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أتخص علينا يا حسان ؟ ثم إن الجهجاء الغفاري - وكان أجيراً لعمر بن الخطاب رضي الله عنه - ورد إلى الماء بفرس لعمر ، فزدحم هو وسنان بن وبرة الجهني - وكان حليفاً للأوس - ، فكسع الجهجاء سناناً ، فغضب سنان وتثاورا ، ودعا

(١) البيت في ديوان حسان ، والرواية فيه : «أمسى الخلابيس ...» ومعناها : المتفرقون الذين يأتون من هنا وهناك ، والرواية في اللسان ، والتهديب ، وشرح الشواهد الكبرى للعيني ، والأغاني ، ومعجم ما استعجم ، وسمط اللآلي ، وتاريخ الطبري : «أمسى الجلابيب» ، وبيضة البلد هي بيضة النعامة تركها في الصحراء لا راعي يرعاها ولا حامي يحميها ، فهي مثال للذلة والهوان ، وابن الفريعة هو حسان ، قال في القاموس : «وحسان ابن ثابت يعرف بابن الفريعة كجهينة ، وهي أمه» ، ويعني حسان بكلامه في البيت أن أذل الناس وسفلتهم قد عزوا وقد كثروا بعد هذه الذلة وأنه وهو ابن الفريعة الذي كان ذا ثروة وثراء قد أحر عن شرفه القديم ، واستبد بالأمر من دونه ، فهو بمنزلة بيضة البلد التي تبيضها النعامة ثم تركها للضياع في الفلاة فلا تحضنها ولا ترعاها ، وقد روي عن أبي العباس أن العرب تقول للرجل الكريم : هو بيضة البلد يمدحونه ، ويقولون للآخر : هو بيضة البلد يمدونه ، فهو من الأضداد - راجع اللسان - .

الجهجاه بالمهاجرين ، ودعا سنان بالأنصار ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : (ما بال دعوى الجاهلية) ، فلما أخبر بالقصة قال : (دعوها فإنها مُنتنة) ، واجتمع في الأمر عند عبد الله بن أبي قحافة من المنافقين - وكان فيهم زيد بن أرقم (١) فتى صغيراً لم يُتَحَفَّظْ منه - ، فقال عبد الله بن أبي قحافة : أَوْ قَدْ تَدَاعَوْا عَلَيْنَا ؟ وَاللَّهِ مَا مَثَلْنَا وَمَثَلَهُمْ إِلَّا كَمَا قَالَ الْأَوَّلُ : « سَمِّنْ كَلْبَكَ يَا كَلْبُكَ » (٢) ، وقال لهم : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعزُّ منها

(١) هو زيد بن أرقم الخزرجي الأنصاري ، صحابي جليل ، غزا مع النبي صلى الله عليه وسلم سبع عشرة غزوة ، وشهد صفين مع علي رضي الله عنه ، وله في كتب الحديث سبعون حديثاً ، ومات سنة ست وستين ، وقيل : ثمان وستين . (تهذيب التهذيب ، وتقريب التهذيب ، وخزانة البغدادي) .

(٢) هذا مثل معروف ، ويروى : « أسمن كلبك ... » ، قالوا : أول من قاله هو حازم بن المنذر الحماني ، وذلك أنه وجد طفلاً صغيراً فحملة إلى بيته وأمر أمته له أن ترضعه ، فأرضعته حتى فُطم وأدرك وراهنق ، فجعله راعياً لغنمه ، وسمّاه جحيشاً ، فكان يرعى الشاة والإبل ، ثم أحبت ابنة لحازم يقال لها : راعوم ، وأحسَّ حازم بالعلاقة بينهما فرصدهما ثم تبعهما حتى رأهما في موقف سوء ، فقال : « سَمِّنْ كَلْبَكَ يَا كَلْبُكَ » ، فأرسلها مثلاً ، وشدَّ على جحيش بالسيف فأفلت منه ولحق بقومه همدان ، وانصرف حازم إلى ابنته وهو يقول : « موتُ الحُرَّةِ خيرٌ من العَبْرَةِ » فأرسلها مثلاً ، فلما وصل إليها وجدها قد ماتت محتقة فقال : « هان على التُّكُّلِ لِسُوءِ الفِعْلِ » فأرسلها مثلاً ، ثم أنشأ يقول أحياناً منها :

قَدْ هَانَ هَذَا التُّكُّلُ لَوْلَا أَنِّي أَحْبَبْتُ قَتْلَكَ بِالْحُسَامِ الصَّارِمِ
وَلَقَدْ هَمَمْتُ بِذَلِكَ لَوْلَا أَنِّي شَمَّرْتُ فِي قَتْلِ اللَّعِينِ الظَّالِمِ

الأذلُّ ، وقال لهم : إنما يقيم هؤلاء المهاجرون مع محمد بسبب معونتكم لهم وإنفاقكم عليهم ، ولو قطعتم ذلك عنهم لَفَرُّوا ، فذهب زيد بن أرقم إلى عمه - وكان في حجره - وأخبره ، فأتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره ، وقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : (يا زيد ، غضبت على الرجل ، أو لعلك وهمت) ؟ فأقسم زيد ما كان شيء من ذلك ، ولقد سمع من عبد الله بن أبي ما حكى ، فعاتب رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن أبي عند رجال من الأنصار ، فبلغه ذلك فجاء وحلف ما قال ، وكذب زيدا ، وحلف معه قوم من المنافقين ، فكذب رسول الله صلى الله عليه وسلم زيدا وصدق أيمن عبد الله بن أبي ، فبقي زيد في منزله لا يتصرف حياءً من الناس ، فنزلت هذه السورة عند ذلك ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم في زيد وقال : لقد صدقك الله يا زيد ووفت أذنك ، فحزى عند ذلك عبد الله بن أبي بن سلول ، ومقتته الناس ، ولامه المؤمنون من قومه ، وقال بعض منهم : امض إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم واعترف بذنبك فيستغفر لك ، فلوى رأسه إنكاراً لهذا الرأي وقال لهم : لقد أشرتم علي بالإيمان فأمنت ، وأشرتم علي أن أعطي زكاة مالي ففعلت ، ولم يبق لكم إلا أن تأمروني بالسجود لمحمد .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

فهذا هو قصص هذه السورة موجزاً .

و «تعال» نداء يقتضي لفظه أنه دعاء الأعلى للأسفل ، ثم استعمل في كل داعٍ لما فيه من حسن الأدب ، وقرأ نافع ، والمفضل عن عاصم : [لَوَوَا] بتخفيف الواو ، وهي قراءة الحسن - بخلاف - ، ومجاهد ، وأهل المدينة ، وقرأ الباقون ، وأبو جعفر ، والأعمش : [لَوَوَا] بشد الواو على تضعيف المبالغة ، وهي قراءة طلحة ، وعيسى ، وأبي رجاء ، وزر ، والأعرج ، وقرأ بعض القراء هنا : [يَصِدُّونَ] بكسر الصاد ، والجمهور بضمها .

قوله تعالى : ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ﴾ الآية . روي أنه لما نزلت : ﴿إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ (١) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لأزيدنَّ على السبعين) (٢) ، وفي حديث آخر (لو علمتُ أنني إن زدتُ غُفِرَ لهم لزدتُ) (٣) ، فكأنه عليه الصلاة

(١) من الآية (٨٠) من سورة (التوبة) .

(٢) هذا جزء من حديث أخرجه ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، عن عروة وأخرج مثله ابن أبي شيبة ، وابن جرير ، وابن المنذر ، عن مجاهد . (الدر المنثور) .

(٣) أخرج هذا الحديث أحمد ، والبخاري ، والترمذي ، والنسائي ، وابن أبي حاتم ، والنحاس ، وابن حبان ، وابن مردويه ، وأبو نعيم في الحلية ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ، =

والسلام رجا أن هذا الحد ليس على جهة الحتم جملة ، بل على أن ما يجاوزه يخرج عن حكمه ، فلما فعل ابن أبي وأصحابه ما فعلوا شدد الله تعالى عليهم في هذه السورة ، وأعلم أنه لا يغفر لهم دون حد في الاستغفار (١) ، وفي قول النبي صلى الله عليه وسلم : (لو علمت أني لو زدت غفر لهم) نص على رفض دليل الخطاب (٢) .

= قال : سمعت عمر يقول : لما توفي عبد الله بن أبي دعي رسول الله صلى الله عليه وسلم للصلاة عليه ، فقام عليه ، فلما وقف قلت : أعلى عدو الله عبد الله بن أبي القائل كذا وكذا ، والقائل كذا وكذا ؟ أعدد أيامه ورسول الله صلى الله عليه وسلم يتسم ، حتى إذا أكثرت قال : يا عمر أحر عني ، إنني قد خيَّرت ، وقد قيل لي : ﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ، إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴾ ، فلو أعلم أني إن زدت على السبعين غفر له لزدت عليها ، ثم صلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومشى معه حتى قام على قبره حتى فرغ منه ، فعجبت لي وليجراتي على رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله ، والله ورسوله أعلم ، فوالله ما كان إلا يسيراً حتى نزلت هاتان الآيتان : ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ ﴾ ، فما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم على منافق بعده حتى قبضه الله عز وجل . (الدر المنثور) .

(١) يقول ابن عطية في تفسير قوله تعالى : ﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ ، وإذا ترتب التخيير في هذه الآية صح أن ذلك التخيير هو الذي نسخ بقوله تعالى في سورة المنافقين : ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ .

(٢) لأن دليل الخطاب يقتضي أن الزيادة على السبعين يغفر معها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لو علمت) فجعل ذلك مما لا يعلمه ومما ينبغي أن يتعلم ويطلب علمه من الله عز وجل ، وفي هذا حجة عظيمة للقول برفض دليل الخطاب ، وابن عطية بما قاله هنا يشير إلى ما قاله مالك رحمه الله في مسائل تقتضي القول بدليل الخطاب . (راجع الجزء السادس ص ٥٨١ من هذا التفسير) .

وقرأ جمهور الناس : [أَسْتَغْفَرْتَ] بالقطع وألف الاستفهام .
 وقرأ أبو جعفر بن القعقاع : [أَسْتَغْفَرْتَ] بمدّ على الهمزة ، وهي ألف
 التسوية ، وقرأ أيضاً بوصل الألف دون همز على الخبر ، وفي هذا
 كله ضعف ؛ لأنه في الأولى أثبت همزة الوصل وقد أغنت عنها
 همزة الاستفهام ، وفي الثانية حذف همزة الاستفهام وهو يريد بها ،
 وهذا مما لا يُستعمل إلا في الشعر .

وقوله تعالى : ﴿ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ ﴾ إشارة إلى عبد الله بن أبي
 ومن قال بقوله ، قاله علي بن سليمان (١) ، ثم سغه تعالى أحلامهم
 في أن ظنوا أن إنفاقهم هو سبب رزق المهاجرين ، ونسوا أن حرمان
 الرزق بيد الله تعالى ، إذا انسد باب انفتح غيره . وقرأ الفضل بن
 عيسى الرقاشي (٢) : ﴿ حَتَّى يُنْفِضُوا ﴾ بضم الياء وتخفيف الضاد ،
 يقال : أنْفَضَ الرجلُ إذا فني طعامه فنفض وعاءه . و « الخزائن »
 موضع الإعداد ، ونجد القرآن قد نطق في غير موضع بالخزائن ،

(١) قال عنه في التقریب : « شامي مجهول ، من الطبقة السابعة » .

(٢) هو الفضل بن عيسى بن أبان الرقاشي ، أبو عيسى البصري الواعظ ، منكر الحديث ،

ورمي بالقدر ، من الطبقة السادسة .

ونجد في الحديث (خزنة الريح) (١) ، وفي القرآن ﴿مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ﴾ (٢) ، فجائز أن يكون هذا عبارة عن القدرة ، وأن هذه الأشياء إيجادها عند ظهورها ، وجائز - وهو الأظهر - أن منها أشياء مخلوقة موجودة يصرفها الله تعالى حيث يشاء ، وظواهر ألفاظ الشريعة تعطي هذا ، ومعناه في التفسير قال : عنت على الخزان (٣) ، وفي الحديث (ما انفتح باب من خزائن الريح على قوم عادٍ إلا قدر حلقة الخاتم ، ولو انفتح من خزائن الريح على قدر منخر الثور لهلكت الدنيا) (٤) ،

(١) التعبير بلفظ «خَزَانَةٌ» كثير في الحديث الشريف ، ومنه ما رواه أحمد في مسنده (٢-٣٦٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من أنفق زوجاً - أو قال زوجين - من ماله ، - أراه قال : في سبيل الله - دَعَتَهُ خَزَانَةُ الْجَنَّةِ : يَا مُسْلِمُ ، هذا خير هَلُمَّ إِلَيْهِ) . وما رواه أيضاً عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما ، قال : (خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً كالمودع فقال : أنا محمد النبي الأمي ، قالها ثلاث مرات - ولا نبي بعدي . أوتيت فواتح الكلم وخواتمه وجوامعه ، وعلمت كم خزانة النار وحمامة العرش ...) الخ . أمّا ما أشار إليه ابن عطية فلم أقف عليه بهذا اللفظ ، لكنه ورد بلفظ (خزائن) في الحديث الذي سيذكره المؤلف بعد هذا مباشرة .

(٢) من الآية (٤٣) من سورة (الثور) .

(٣) في بعض النسخ : «ومعنا في التفسير ... الخ» : وعلى كل فالتعبير قلبي مما يدل على أن فيه تحريفاً من النسخ .

(٤) أخرج ابن أبي الدنيا ، وأبو يعلى ، والطبراني ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ما فتح الله على عاد من الريح التي هلكوا فيها إلا مثل الخاتم ...) الحديث . وأخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن عمر رضي الله عنهما ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (الريح مسجنة في الأرض الثانية ، فلما أراد الله أن يهلك عاداً أمر خازن الريح أن يرسل عليهم ريحاً تهلك عاداً ، قال : أي رب ، =

وقال رجل لحاتم الأصم : من أين تأكل ؟ فقراً : ﴿وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ، وقال الجنيد : «خزائن السماء الغيوب ، وخزائن الأرض القلوب» .

وقرأ الجمهور : ﴿لِيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ﴾ بضم الياء وكسر الراء ، بمعنى أن العزيز يُخرج الدليل ويُبعده ، وقرأ أبو حاتم : [لِنُخْرِجَنَّ] بنون الجماعة مفتوحة وضم الراء [الْأَعَزُّ] نصباً ﴿مِنْهَا الْأَذَلُّ﴾ أيضاً نصباً على الحال ، وذكرها أبو عمرو الداني عن الحسن (١) ، ورويت هذه القراءة : [لِنُخْرِجَنَّ] بضم النون وكسر الراء ، وقرأ قوم - فيما حكى الفراء والكسائي ، وذكرها المهدي - : ﴿لِيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلُّ﴾ بفتح الياء وضم الراء ونصب [الْأَذَلُّ] على الحال ، بمعنى أننا نحن الذين كنا أعزّة سنخرج أذلاء (٢) ، وجاءت هذه الحال معرفة وفيها شذوذ ، وقد حكى سيبويه : «ادخلوا الأول فالأول» .

= أرسل عليهم من الريح قدر منخر ثور ؟ قال له الجبار : لا ، إذا تكفأ الأرض ومن عليها ، ولكن أرسل عليهم بقدر خاتم ، فهي التي قال الله : ﴿مَا تَدْرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْتَهُ كَالرَّمِيمِ﴾ .

(١) قال أبو حيان في البحر بعد أن ذكر هذه القراءة : «وتصّب [الْأَعَزُّ] على الاختصاص ، كما قال : «نحن العرب أقرى الناس للضيف» ، ونصب [الْأَذَلُّ] على الحال .
(٢) تعبير الفراء أدق وأوضح ، قال : «كأنك قلت : لِيُخْرِجَنَّ العزيزُ منها ذليلاً» .

ثم أعلم الله تعالى أن العزة لله سبحانه ، وللرسول صلى الله عليه وسلم ، وللمؤمنين ، وفي ذلك وعيد ، ورُوي أن عبد الله بن عبد الله ابن أبي - وكان رجلاً صالحاً - لما سمع الآية جاء إلى أبيه وقال له : أنت والله يا أبت الذليل ورسول الله صلى الله عليه وسلم العزيز ، فلما وصل إلى المدينة وقف عبد الله بن عبد الله على باب السكّة التي يسلكها أبوه ، وجرّد السيف ومنعه الوصول ، وقال : والله لا دخلت إلى منزلك إلا أن يأذن لك في ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعبد الله بن أبي في أذل حال ، وبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فبعث إليه أن خله يمضي إلى منزله ، فقال : أما الآن فنعم .

قوله عز وجل :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٠﴾ وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١﴾ وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ ﴿١٢﴾ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾ ﴾

الإلهاء : الاشتغال بشهوة ولذة ، و « ذكّر الله » هنا عام في التوحيد والصلاة والدعاء وغير ذلك من فرض ومندوب ، هذا قول الحسن

وجماعة من المفسرين ، وقال الضحاك ، وعطاء وأصحابه : المراد بالذكر الصلاة المكتوبة ، والأول أظهر ، وكذلك قوله تعالى : ﴿وَأَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ﴾ قال جمهور من المتأولين : المراد الزكاة ، وقال آخرون : ذلك عام في مفروض ومندوب ، وقوله تعالى : ﴿يَأْتِيَا أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ أي علاماته وأوائل أمره ، وقوله : ﴿لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ طلباً للكرّة والإمهال ، وفي مصحف أبي بن كعب رضي الله عنه : [أَخَّرْتَنِي] بغير ياء ، وسماه تعالى قريباً لأنه آت ، وأيضاً فإنما يتمنى ذلك ليقضي فيه العمل الصالح فقط ، وليس يتسع الأمل حينئذ لطلب العيش وتصرفه ، وفي مصحف أبي : [فَأَتَصَدَّقَ] ، وقوله تعالى : ﴿وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ظاهره العموم ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : هو الحج ، ورؤي عنه أنه قال في مجلسه يوماً : « ما من رجل لا يؤدي الزكاة والحج إلا طلب الكرّة عند موته » ، فقال له رجل : أما تتقي الله ؟ أمؤمن يطلب الكرّة ؟ فقال له ابن عباس رضي الله عنهما : نعم وقرأ الآية (١) .

(١) روى الترمذي عن الضحاك بن مزاحم عن ابن عباس رضي الله عنهما ، قال : « من كان له مال يبلغه حج بيت ربه أو نجب عليه فيه زكاة فلم يفعل ، سأل الرجعة عند الموت » ، فقال رجل : يا ابن عباس اتق الله ، إنما سأل الرجعة الكفار ، فقال سألتو عليك =

وقرأ جمهور السبعة والناس : [وَأَكُنْ] بالجزم عطفاً على الموضع ؛ لأن التقدير : إن تُؤخِّرني أَصْدَقُ وَأَكُنُّ من الصَّالِحِينَ ، هذا مذهب أبي علي الفارسي ، فأما ما حكاه سيبويه عن الخليل فهو غير هذا ، وهو أنه جزم على توهم الشرط الذي يدل عليه التمني ، ولا موضع هنا لأن الشرط ليس بظاهر ، وإنما يعطف على الموضع حيث يظهر الشرط ، كقوله تعالى : ﴿ مَنْ يُضِلِّ اللهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذُرُهُمْ ﴾ (١) ، فمن قرأ بالجزم عطف على موضع ﴿ فَلَا هَادِيَ لَهُ ﴾ لأنه لو وقع هناك فعل كان مجزوماً ، وكذلك من قرأ : [وَيُكْفِّرُ] بالجزم عطفاً على موضع ﴿ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ (٢) ، وقرأ أبو عمرو ، والحسن ، وأبو رجاء ، وابن أبي إسحاق ، ومالك بن دينار ، وابن محيصن ، والأعمش ، وابن جبير ، وعبيد الله بن الحسن العنبري : [وَأَكُونَ] بالواو نصباً .

= بذلك قرأنا ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ : إلى قوله ﴿ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ ، قال : فما يوجب الزكاة ؟ قال : إذا بلغ المال مائتين فصاعداً ، قال : فما يوجب الحج ؟ قال : الزَّادُ والراحلة .

(١) من الآية (١٨٦) من سورة (الأعراف) .

(٢) من الآية (٢٧١) من سورة (البقرة) . هذا والفرق بين العطف على الموضع والعطف على التوهم - وهو أساس الخلاف بين الفارسي وسيبويه - أن العامل في العطف على الموضع موجود دون مؤنَّث ، والعامل في العطف على التوهم مفقود وأثره موجود ، ومن هذا نرى أنه خلاف مبني على مجرد التقدير .

قال أبو حاتم - وكان من العلماء الفصحاء - : [وَأَكُونُ] بالنصب عطفاً على [فَأَتَصَدَّقَ] ، وقال أبو حاتم في كتبها في المصحف بغير واو : إنهم حذفوا الواو كما حذفوها من «اتَّخَذَ» وغيره ، ورجحها أبو علي ، وفي مصحف أبي بن كعب ، وابن مسعود رضي الله عنهما : «فَأَتَصَدَّقَ وَأَكُونُ» .

وفي قوله تعالى : ﴿وَلَنْ يُؤَخَّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجْلُهَا﴾ حضٌّ على المبادرة ومساابقة الأجل بالعمل الصالح ، وقرأ السبعة والجمهور : [تَعْمَلُونَ] بالتاء على المخاطبة لجميع الناس ، وقرأ عاصم - في رواية أبي بكر - : [يَعْمَلُونَ] بالياء على تخصيص الكفار بالوعيد .

كامل تفسير سورة المنافقون والحمد لله رب العالمين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف الخلق
سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين



قال بعض المفسرين : هي مدنية ، وقال آخرون منهم : هي مكية
إلا من قوله تعالى وجلّ : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن مِّنْ أَرْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ)
إلى آخر السورة فإنه مدني (١) ، وذكر الثعلبي عن ابن عمران أن النبي
صلى الله عليه وسلم قال : (ما من مولود يولد إلا وفي تشابيك رأسه
مكتوب خمس آيات من فاتحة سورة التغابن) (٢) .

(١) وقال الضحاك : هي مكية .

(٢) أخرجه ابن حبان في الضعفاء . والطبراني ، وابن مردويه . وابن عساكر ، عن
عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، ولفظه كما ذكره في « فتح القدير » : « ما من مولود يولد
إلا مكتوب في تشابيك رأسه خمس آيات من سورة التغابن » ، وقال ابن كثير في تفسيره :
أورده ابن عساكر في ترجمة الوليد بن صالح ، وهو غريب جداً بل مُنكّر ، وأخرج البخاري
في تاريخه عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : ما من مولود يولد إلا مكتوب في تشابيك
رأسه خمس آيات من أول سورة التغابن . هذا وفي اللسان قال : « والشبكة : الرأس » .
وجمعها شبك ، والشبك في الأصل : الخلط والتداخل .

قوله عز وجل :

﴿ يَسْبَحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ
عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْكُمْ كَافِرًا وَمِنْكُمْ مُؤْمِنًا وَاللَّهُ
بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ
صُورَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٣﴾ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ
وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ عمومٌ معناه التنبيه ،

و «الشيء» هو الموجود .

وقوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ ﴾ تعديد نعمة ، والمعنى : فمنكم

كافر لنعمته في الإيجاد حين لم يوجد لجهله بالله ، ومنكم مؤمن بالله ،

والإيمان بالله تعالى شكر لنعمته ، فالإشارة - على هذا التأويل في الإيمان

والكفر - هي إلى اكتساب العبد ، هذا قول جماعة من المتأولين ،

وحجتهم قول النبي صلى الله عليه وسلم : (كلُّ مولود يولد على الفطرة) (١) ،

(١) رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(ما من مولود إلا يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ، كما تنتج -

وقول الله تعالى : ﴿ فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ (١) ، وكانَّ العبارة في قوله تعالى : [فَمِنْكُمْ] تعطي هذا كله ، وكذلك يقوِّيه قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ .

وقيل : المعنى : خلقكم منكم مؤمن ومنكم كافر في أصل الخلق ، فهي جملة في موضع الحال ، فالإشارة - على هذا - في الإيمان والكفر هي إلى اختراع الله تعالى وخلقته ، وهذا تأويل ابن مسعود ، وأبي ذر رضي الله عنهما ، ويجري مع هذا المعنى قول النبي صلى الله عليه وسلم : (إِنَّ أَحَدَكُمْ يَكُونُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ نَظْفَةً أَرْبَعِينَ يَوْمًا ، ثُمَّ عَلَقَةٌ أَرْبَعِينَ يَوْمًا ، ثُمَّ مَضْغَةٌ أَرْبَعِينَ يَوْمًا ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكٌ فَيَقُولُ : يَا رَبِّ ، أَذَكَرَ أَمْ أُنْثَى ؟ أَشَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ ؟ فَمَا الرِّزْقُ ؟ فَمَا الأَجَلُ ، فَيَكْتُبُ ذَلِكَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ) (٢) ، فقوله في الحديث : (أَشَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ) ؟

=البهيمةُ بهيمةٌ جمعاء ، هل تحسُّون فيها من جدعاء؟ ثم يقول أبو هريرة رضي الله عنه : واقراءوا إن شئتم ﴿ فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ... ﴾ الآية . ورواه الإمام أحمد في مسنده بلفظ : (ليست نسمة تولد إلا ولدت على الفطرة) ، وفي رواية لمسلم (كل إنسان تلده أمه على الفطرة) .

(١) من الآية (٣٠) من سورة (الرؤم) .

(٢) أخرجه عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ،

عن أبي ذر رضي الله عنه ، ولفظه كما في ابن جرير والدر المنثور : (إذا مكث المني في الرحم =

هو في هذه الآية ﴿فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ﴾ ، ويجري مع هذا المعنى قوله في الغلام الذي قتله الخضر : (إنه طبع يوم طبع كافراً) (١) ، وما روى ابن مسعود رضي الله عنه أنه عليه الصلاة والسلام قال : (خلق الله فرعون في البطن كافراً ، وخلق يحيى بن زكرياء مؤمناً) (٢) ، وقال عطاء بن أبي رباح : معنى الآية : فمنكم كافرٌ بالله مؤمن بالكوكب ، ومؤمن بالله كافر بالكوكب ، وقدم الكافر لأنه أعرف من جهة الكثرة .

وقوله تعالى : [بِالْحَقِّ] أي : حين خلقها محقوقاً في نفسه ليس عبثاً ولا لغير معنى ، وقرأ جمهور الناس : [صُورَكُمْ] بضم الصاد ، وقرأ أبو رزَيْن : [صِوْرَكُمْ] بكسرها ، وهذا تعديد النعمة في حسن

= أربعين ليلة أتاه ملك النفوس فخرج به إلى الرب ، فيقول : يا رب ، أذكر أم أنثى ؟ فيقضي الله ما هو قاض ، فيقول : أشقي أم سعيد ؟ فيكتب ما هو لاقٍ ، وقرأ أبو ذرٍّ من فاتحة التغابن خمس آيات إلى قوله : ﴿وَصُورَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ . (١) أخرجه مسلم في القدر وفي الفضائل ، وأبو داود في السنَّة ، والترمذي في تفسير سورة الكهف ، وأحمد في مسنده (٥-١١٩ ، ١٢١) ، ولفظه كما في صحيح مسلم ، عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن الغلام الذي قتله الخضر طبع كافراً ، ولو عاش لأرهمق أبويه طغياناً وكفراً) .

(٢) ذكره القرطبي في تفسيره عن ابن مسعود رضي الله عنه ، ولفظه : قال النبي صلى الله عليه وسلم : (خلق الله فرعون في بطن أمه كافراً ، وخلق يحيى بن زكريا في بطن أمه مؤمناً) .

الخلقة لأن أعضاء ابن آدم متصرفة في جميع ما تتصرف به أعضاء الحيوان وبزيادات كثيرة فضل بها ، ثم هو مفضل بحسن الوجه وجمال الجوارح ، وحجة هذا قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ (١) ، وقال بعض العلماء : النعمة المعددة هنا إنما هي صورة الإنسان من حيث هو إنسان مدرك عاقل ، فهذا هو الذي حَسُنَ له حتى لحق ذلك كمالات كثيرة .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والقول الأول أجرى على لغة العرب لأنها لا تعرف الصور إلا الشكل . وذكر تعالى علمه بما في السموات والأرض ، فعلم أعظم المخلوقات ، ثم تدرج القول إلى أخفى من ذلك وهو جميع ما يقوله الناس في سرٍّ وعلَنٍ ، ثم تدرج إلى خفيٍّ وهو ما يهجس بالخواطر ، و « ذاتُ الصَّدرِ » : ما فيه من خطرات واعتقادات ، كما يقال : « الذئب مغبوطٌ بذئ بطنه » (٢) ، والصدر هنا عبارة عن القلب .

(١) الآية (٤) من سورة (التين) .

(٢) هذا مثل معروف ، ويروى : « الذئب يُغبط بغير بطنه » ، و « يُغبط ما في بطنه » ،

قال أبو عبيدة : وذلك أنه ليس يُظن به الجوع أبداً ، إنما يُظن به البِطْنَةُ لأنه يعدو على الناس =

قوله عز وجل :

﴿الرِّبَايَا نَكْرًا نَبِؤًا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاتُوا رَبَّالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥٦﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرًا يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٥٧﴾ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٥٨﴾﴾

﴿الْمَ يَأْتِكُمْ﴾ جزم ، أصله : يأتاكم ، قال سيبويه : «واعلم أن الآخر إذا كان يُسَكَّن في الرفع حذف في الجزم» ، والخطاب في هذه الآية لقريش ، ذكروا ما حلَّ بعادٍ وثمود وقوم إبراهيم عليه الصلاة والسلام وغيرهم ممن سمعت قريش أخبارهم ، و «وبال الأمر» : مكروهه وما يسوء منه .

وقوله تعالى : ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُ﴾ إشارة إلى ذوق الوبال وكون عذاب الآخرة لهم ، ثم ذكر تعالى من مقالات أولئك الماضين ما هو مشبه

= والماشية ، قال الشاعر :

وَمَنْ يَسْكُنُ الْبَحْرَيْنِ يَعْظُمُ طَحَالَهُ وَيَغْبَطُ مَا فِي بَطْنِيهِ وَهُوَ جَائِعٌ
وقال غيره : إنما قيل له ذلك لأنه عظيم الجفرة أبداً ، لا يبين عليه الضمور وإن جهده الجوع ،
وقال الشاعر :

لَكَالذُّئْبِ مَغْبُوطُ الْحَشَا وَهُوَ جَائِعٌ

لقول الكفار من قريش من استبعاد بعثة الله تعالى للبشر ، ونبوة أحد من بني آدم ، وحسد الشخص المبعوث . وقولهم : [أَبَشْرٌ] رفع بالابتداء ، وجمع الضمير في [يَهْدُونَنَا] من حيث كان «البَشْر» اسم هذا النوع الآدمي ، كأنهم قالوا : أناسٌ هداؤنا؟ وقوله تعالى : ﴿وَأَسْتَعْنِي اللَّهُ﴾ عبارة عما ظهر من هلاكهم وأنهم لن يضرُّوا الله شيئاً فبان أنه كان غنياً أولاً ، وبسبب ظهور هلاكهم بعد أن لم يكن ظاهراً ساغ استعمال هذا الغناء مُستنداً إلى اسم الله تعالى ؛ لأن بناء «اسْتَفْعَلَ» إنما هو لطلب الشيء وتحصيله بالطلب .

وقوله تعالى : ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يخصُّ قريشاً ثم هي بعدُ تعمُّ كل كافر بالبعث ، وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : «الزَّعْمُ كنية الكذب» ، وقال عليه الصلاة والسلام : (بئس مطية الرجل زعموا) (١) ، ولا توجد «زَعَم» مستعملة في فصيح من الكلام إلا عبارة عن الكذب أو قول انفرد به قائله فيريد قائله أن يلقي عهده على الزاعم ، ففي ذلك ما ينحو إلى تضعيف الزعم ، وقول سيبويه : «زَعَم الخليل» إنما يجيء فيما ينفرد به الخليل .

(١) أخرجه أحمد في مسنده ، وأبو داود ، عن حذيفة ، ورمز له السيوطي في «الجامع

الصغير» بأنه ضعيف .

ثم أمره الله تعالى أن يجيب نفيهم بما يقتضي الرد عليهم وإيجاب البعث وأن يؤكد ذلك بالقسم ، ثم توعدهم في آخر الآية بأنهم يُخبرون بأعمالهم على جهة التوقيف والتوبيخ المؤدي إلى العقاب .

قوله عز وجل :

﴿ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾
يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا
يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا
ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ
النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَيَسَّ الْمَصِيرُ ﴿١٢﴾ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ
وَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٣﴾ ﴾

هذا دعاء إلى الله تعالى وتبليغ وتحذير ، و «النور» : القرآن .
والعامل في [يَوْمَ] يحتمل أن يكون [تُنْبِؤُنَّ] ، ويحتمل أن يكون
[خَبِيرٌ] ، وهو تعالى خبير في كل يوم لكن يخص ذلك اليوم لأنه
يومٌ تضرهم فيه خيرة الله تعالى بأموالهم ، وقرأ جمهور السبعة :
[يَجْمَعُكُمْ] بضم العين ، وقرأ أبو عمرو بسكونها ، ورؤي عنه أنه

أَشْمَهَا الضَّمُّ ، وقرأ سلام ، ويعقوب : [نَجْمَعُكُمْ] بالنون وضم العين ، وهذا على جواز تسكين الحركة وإن كانت للإعراب ، كما قال جرير :
 فَلَمْ تَعْرِفِكُمْ الْعَرَبُ (١)

و «يوم الجمع» هو يوم القيامة ، وهو يوم التغابن ؛ وذلك أن كل واحد يُبعث من قبره وهو يرجو حظاً أو منزلةً ، فإذا وقع الجزاء غير المؤمنون الكافرين لأنهم يُجزون الجنة ويحصل الكفار في النار ، نحا هذا المعنى مجاهد وغيره ، وليس هذا الفعل في «التغابن» من اثنين ، بل هو كتَوَاضَعَ وتَحَامَلَ (٢) .

(١) هذه الجملة آخر بيت قاله جرير يهجو بني العم الذين أعانوا عليه الفرزدق ، والبيت بتمامه مع بيت قبله :

مَا لِلْفِرَزْدَقِ مِنْ عِزٍّ يَلُودُ بِهِ إِلَّا بَنُو الْعَمِّ فِي أَيْدِيهِمُ النُّحُشُبُ
 سِيرُوا بَنِي الْعَمِّ فَأَلْهَوَا زُ مَنْزِلِكُمْ وَتَهَرُّ تِيرَى فَلَمْ تَعْرِفِكُمْ الْعَرَبُ

ونهر تيرى بلد من نواحي الأهواز .

(٢) وقيل : بل هو تغابن بين أهل الجنة وأهل النار ، وذلك أن أهل الجنة غبنوا أهل النار ، لأن أهل الجنة أخذوا الجنة ، وأهل النار أخذوا النار ، على طريق المبادلة ، فوقع الغبن لأجل مبادلة الخير بالشر ، والجيد بالردىء ، والنعيم بالعذاب ، يقال : غَبَنْتُ فلاناً إذا بايَعْتَهُ أو شَارَيْتَهُ فكان النقص عليه والغلبة لك ، وكذلك أهل الجنة وأهل النار ، وإذا قيل إنه لم تقع بينهما معاملة حتى يكون هناك غبن قيل : هو تمثيل للغبن في الشراء والبيع ، كما قال تعالى :
 (أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى) .

وقرأ نافع ، وابن عامر ، والمفضل عن عاصم : [نُكْفَرُ] بنون ،
وكذلك [نُدْخِلُهُ] ، وهي قراءة الأعرج ، وأبي جعفر ، وشيبة ،
والحسن - بخلاف - وطلحة ، وقرأ الباقون (١) ، والأعمش ، وعيسى ،
والحسن في الموضعين بالياء ، على معنى : يُكْفَرُ الله ، والأول هو نون
العظمة .

وقوله تعالى : ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ ﴾ يحتمل أن يريد المصائب
التي هي رزايا ، وخصها بالذكر لأنها الأهم على الناس
والأبين أثراً في نفوسهم ، ويحتمل أن يريد جميع الحوادث من
خيرٍ وشرٍّ ، وذلك أن الحكم واحد في أنها بإذن الله تعالى ، و «الإذن»
في هذا الموضع عبارة عن العلم والإرادة وتمكين الوقوع .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾ قال فيه المفسرون :
المعنى : من آمن بالله تعالى وعرف أن كل شيء بقضاء الله وقدره وعلمه ،
هانت عليه مُصِيبَتُهُ ، وسلم الأمر لله تعالى . وقرأ سعيد بن جبير ،
وطلحة بن مُصَرِّف : [نَهْدِ] بالنون ، وقرأ الضحاك : [يُهْدَى] بضم
الياء وفتح الدال [قَلْبُهُ] رفعاً ، وقرأ عكرمة ، وعمرو بن دينار :

(١) أي : من السبعة .

{يَهْدَأُ قَلْبَهُ} (١) برفع القلب ، ورؤي عن عكرمة أنه سكن بدل
 الهمزة ألفاً ، على معنى أن صاحب المصيبة يُسَلِّم فتسكن نفسه ،
 ويُرشد الله تعالى المؤمن به إلى الصواب في الأمور . وقوله تعالى :
 {وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} عموم مطلق على ظاهره .

قوله عز وجل :

{ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ
 الْمُبِينُ } (١٢) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ } (١٣) يَا أَيُّهَا
 الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن مِّنْ أَرْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعَفَوْا
 وَتَصَفَّحُوا وَتَغَفَرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ } (١٤) إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ
 وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ } (١٥)

قوله تعالى : { وَأَطِيعُوا اللَّهَ } عطف على قوله : [فَآمِنُوا] ، وفي
 قوله سبحانه : { فَإِن تَوَلَّيْتُمْ } إلى آخر الآية وعيد وتبرئة
 لمحمد صلى الله عليه وسلم إذا بلغ ، وفي قوله تعالى : { وَعَلَى اللَّهِ

(١) بفتح الياء وبهمزة ساكنة في آخر الفعل ، من الهدوء ، ذكر ذلك أبو حيان الأندلسي

في « البحر المحيط » .

فَلَيْتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿ تحريضٌ للمؤمنين على مكافحة الكفار والصبر على دين الله تعالى .

وقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ﴾ إلى آخر السورة ، قرآنٌ مدنيٌّ ، اختلف الناس في سببه - فقال عطاء بن أبي رباح : إنه نزل في عوف بن مالك الأشجعي ، وذلك أنه أراد غزواً مع النبي صلى الله عليه وسلم ، فاجتمع أهله وأولاده فشبَّطوه وشكوا إليه فراقه ، فلم يَغْزُ ، ثم إنه ندم وهمَّ بمعاقبتهم ، فنزلت الآية بسببه محذرةً من الأزواج والأولاد وفتنتهم ، ثم صرف تعالى عن معاقبتهم بقوله سبحانه : ﴿ وَإِنْ تَعَفَّوْا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا ﴾ .

وقال بعض المفسرين : سبب الآية أن قوماً آمنوا بالله تعالى وثبَّطهم أزواجهم وأولادهم عن الهجرة فلم يهاجروا إلا بعد مُدَّة ، فوجدوا غيرهم قد تفقَّه في الدين ، فندموا وأسفوا وهموا بمعاقبة أزواجهم وأولادهم .

ثم أخبر تعالى أن الأموال والأولاد فتنة تشغل المرء عن مرآشده ، وتحمله من الرِّغبة في الدنيا على ما لا يحمد في آخرته ، ومنه قوله

صلى الله عليه وسلم : (الولد مَبْخَلَةٌ مَجْبَنَةٌ) (١) ، وخرَّج أبو داود حديثاً في مُصَنَّفِهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَخْطُبُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ حَتَّى جَاءَ الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنَ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمَا ، وَعَلَيْهِمَا قَمِيصَانِ أَحْمَرَانِ يَجْرَانُهُمَا ، يَعَثْرَانِ وَيَقُومَانِ ، فَنَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الْمَنْبَرِ حَتَّى أَخَذَهُمَا وَصَعَدَ بِهِمَا ، ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ وَقَالَ : إِنِّي رَأَيْتُ هَذَيْنِ فَلَمْ أَصْبِرْ ، ثُمَّ أَخَذَ فِي خُطْبَتِهِ (٢) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذه ونحوها هي فتنة الفضلاء ، فأما فتنة الجهال الفسقة فمؤديةٌ إلى كل مهلكة ، وقال ابن مسعود رضي الله عنه : « لا يقولنَّ

(١) أخرجه أبو يعلى في مسنده ، ولفظه كما ذكره السيوطي في الجامع الصغير (الولد ثمرة القلب ، وإنه مَجْبَنَةٌ مَبْخَلَةٌ مَحْزَنَةٌ) . وقد رمز له السيوطي بأنه حديث ضعيف ، وأخرجه البرزاري عن أبي سعيد بهذا اللفظ ثم قال : « لا نعرفه إلا بهذا الإسناد » ، وقال أحمد : حدثنا الأشعث بن قيس قال : قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم في وفد من كندة ، فقال : (هل لك من ولد) ؟ قلت : غلام وُلد لي في مخرجي إليك من ابنة حمد ، ولوددت أن بمكانه سبع القوم ، فقال : (لا تقولن ذلك فإن فيهم قررة عين وأجرأ إذا قبضوا) ، ثم قال : (ولتين قلت ذلك إنهم لَمَجْبَنَةٌ مَحْزَنَةٌ) ، قال الإمام ابن كثير في تفسيره : نَفَرَدَ بِهِ أَحْمَدُ .

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة ، وأحمد ، وأبو داود ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجه ، والحاكم ، وابن مردويه ، عن بُرَيْدَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وَأَخْرَجَ مِثْلَهُ ابْنُ مَرْدُويه عَنْ عَبْدِ اللَّهِ ابْنِ عَمْرِو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا (الدر المنثور) .

أحدكم : اللهم اعصمني عن الفتنة ، فإنه ليس يرجع أحد إلى أهلٍ
ومالٍ إلا وهو مشتمل على الفتنة ، ولكن ليقل : اللهم إني أعوذ بك
من مُضَلَّاتِ الْفِتَنِ ، وقال عمر لحذيفة رضي الله عنهما : كيف
أصبحتَ ؟ قال : أصبحتُ أحبُّ الفتنة وأكره الحقَّ ، فقال عمر :
ما هذا ؟ قال : أحبُّ ولدي وأكره الموت .

وقوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ تزهيد في الدنيا وترغيب
في الآخرة .

قوله عز وجل :

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِّأَنْفُسِكُمْ
وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا
حَسَنًا يَضْعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ
الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾

قال قتادة وفريق من الناس : إنَّ قوله تعالى : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾
ناسخٌ لقوله تعالى : ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ ﴾ (١) ، ورُوي أن الأمر نزل

(١) من الآية (١٠٢) من سورة (آل عمران) .

بحقِّ التُّقَاةِ فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَى النَّاسِ حَتَّى نَزَلَ ﴿مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ ، وَذَهَبَتْ
فِرْقَةٌ مِنْهُمْ أَبُو جَعْفَرِ النَّحَّاسِ إِلَى أَنَّهُ لَا نَسْخَ فِي الْآيَتَيْنِ ، وَأَنَّ قَوْلَهُ
تَعَالَى : ﴿حَقُّ تَقَاتِهِ﴾ مَقْصُودُهُ : فِيمَا اسْتَطَعْتُمْ ، وَلَا يُعْقَلُ (١) أَنَّ
يَطِيعُ أَحَدٌ فَوْقَ طَاقَتِهِ وَاسْتَطَاعَتِهِ ، فَهَذِهِ عَلَى التَّأْوِيلِ مُبَيَّنَةٌ لِنَتِجَةِ ،
وَتَحْتَمِلُ هَذِهِ الْآيَةُ أَنَّ تَكُونَ : فَاتَّقُوا اللَّهَ مُدَّةَ اسْتَطَاعَتِكُمْ التَّقْوَى ،
وَتَكُونَ [مَا] ظَرْفًا لِلزَّمَانِ كُلِّهِ ، كَأَنَّهُ يَقُولُ : حَيَاتِكُمْ وَمَا دَامَ الْعَمَلُ مُمْكِنًا .

قَوْلُهُ تَعَالَى : [خَيْرًا] ، ذَهَبَ بَعْضُ النَّحَاةِ إِلَى أَنَّهُ نَصَبٌ عَلَى
الْحَالِ ، وَفِي ذَلِكَ ضَعْفٌ ، وَذَهَبَ آخَرُونَ مِنْهُمْ إِلَى أَنَّهُ نَصَبٌ بِقَوْلِهِ
سُبْحَانَهُ : [أَنْفِقُوا] ، قَالُوا : وَالْخَيْرُ هَذَا الْإِلَّالُ ، وَذَهَبَ فَرِيقٌ آخَرُونَ
مِنْهُمْ إِلَى أَنَّهُ نَعْتٌ لِمَصْدَرٍ مَحْذُوفٍ تَقْدِيرُهُ : إِنْفَاقًا خَيْرًا ، وَمَذَهَبُ
سَبَبِيئِهِ أَنَّهُ نَصَبٌ بِإِضْمَارِ فِعْلِ يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى : [أَنْفِقُوا] .

وَقَرَأَ أَبُو حَيَوَةَ : [يُوقَ] بِفَتْحِ الْوَاوِ وَشَدِّ الْقَافِ ، وَقَرَأَ ابْنُ عَمْرٍو
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا : [شِحَّ] بِكَسْرِ الشَّيْنِ ، وَتَقَدَّمَ تَفْسِيرُهُ فِي سُورَةِ
الْحَشْرِ ، وَقَالَ الْحَسَنُ : نَظَرْتُ إِلَى امْرَأَةٍ لَا تَمْلِكُهَا مِنَ الشُّحِّ ، وَقِيلَ :
يَا رَسُولَ اللَّهِ ، مَا يُدْخِلُ الْعَبْدَ النَّارَ ؟ قَالَ : (شِحُّ مَطَاعٍ ، وَهُوَ

(١) فِي بَعْضِ النُّسخِ : « وَلَا يُتَمَّصَد » .

مُتَّبِعٌ ، وَجِبْنٌ هَالِعٌ ، وإعجاب المرء بنفسه) ، ذكره النقاش (١) ،
والحديث في المصنفات أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (إذا رأيتَ
شُحًا مُطَاعًا وهوى مُتَّبِعًا وإعجابَ كلِّ ذي رأيٍ برأيه ، فعليك
بِخَوِيصَةِ نَفْسِكَ) (٢) .

وقرأ جمهور السبعة : [يُضَاعِفُهُ] ، وقرأ ابن كثير وابن عامر :
[يُضَعِّفُهُ] (٣) ، وذهب بعض العلماء إلى أن هذا الحَضُّ هو على أداء
الزكاة المفروضة ، وذهب آخرون منهم إلى أن الآية في المندوب إليه ،
وهو الأصح إن شاء الله تعالى .

وقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ شَكُورٌ ﴾ إخبارٌ بمجازاته تعالى على الشيء ،
وأنه يحط به عن شاء الله العظيم ، لا ربَّ غيره .

كامل تفسير سورة التغابن والحمد لله رب العالمين

(١) وأخرج البخاري في تاريخه ، وأبو داود ، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي
صلى الله عليه وسلم قال : (شرُّ ما في رجلٍ شُحٌّ هَالِعٌ وَجِبْنٌ خَالِعٌ) ، ذكر ذلك السيوطي
في « الجامع الصغير » ورمز له بأنه حديث حسن . وزاد في « الدر المنثور » نسبه إلى ابن أبي
شيبه ، وابن مردويه ، والبيهقي .

(٢) أخرجه الترمذي في التفسير ، وأبو داود في الملاحم ، وابن ماجه في الفن .

(٣) اختلفوا في حذف الألف من [يُضَاعِفُهُ] هنا وفي البقرة ، واختلفوا في تضعيف

العين . راجع كتاب : النشر في القراءات العشر « لابن الجزري .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين ،
سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين



وهي مدنية بإجماع من أهل التفسير .

قوله عز وجل :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ
وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمُ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يُخْرِجَنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ
مُبِينَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي
لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ
فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكَ يُوعَظُ
بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ
مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴿٣﴾ إِنَّ اللَّهَ بَلِّغُ أَمْرَهُ قَدْ
جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٤﴾ ﴾

الطلاق على الجملة مكروه لأنه تبيد شامل في الإسلام ، وروى
أبو موسى الأشعري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

(لا تطلّقوا النساء إلا من ريبة ، فإن الله لا يحب الذواقين
ولا الذواقات) (١) ، وروى أنس عنه عليه الصلاة والسلام قال :
(ما حلف بالطلاق ولا استحلف به إلا منافق) (٢) .

واختلف في البداية بالنبي صلى الله عليه وسلم ثم قوله تعالى
بعد ذلك [طَلَّقْتُمْ] - فقال بعض النحويين - حكاه الزهراوي - :
ذلك خروج من مخاطبة أفرادٍ إلى مخاطبة جماعة ، وهذا موجود ،
وقال آخرون منهم : إن في نداء النبي صلى الله عليه وسلم أُريدت
أُمته معه ، فلذلك قال تعالى : [طَلَّقْتُمْ] ، وقال آخرون منهم : إن
المعنى : يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَهُمْ : إِذَا طَلَّقْتُمْ ، وقال آخرون : إنه من حيث
يقول الرجل العظيم : « فَعَلْنَا ، وَضَعْنَا » ، خوطب النبي صلى الله عليه وسلم
في هذه بـ [طَلَّقْتُمْ] إظهاراً لتعظيمه ، وهذا على نحو قوله تعالى في
عبد الله بن أبي : ﴿ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ ﴾ (٣) إذا كان قوله مما يقوله

(١) أخرجه الطبراني في الكبير ، عن أبي موسى رضي الله عنه ، ورمز له الإمام السيوطي
في « الجامع الصغير » بأنه حديث ضعيف .

(٢) أخرجه ابن عساكر عن أنس رضي الله عنه ، ذكره الإمام السيوطي في « الجامع
الصغير » ، ورمز له بالضعف .

(٣) من الآية (٧) من سورة (المنافقون) .

جماعة ، فكذلك النبي صلى الله عليه وسلم في هذه الآية ما يُخاطب به فهو خطاب لجماعة .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والذي يظهر لي في هذا أنهما خطابان مفترقان ، خوطب النبي صلى الله عليه وسلم على معنى تشبيهه لسماع القول وتلقّي الأمر ، ثم قيل له : ﴿ إِذَا طَلَّقْتُمْ ﴾ ، أي أنت وأمتك (١) ، فقوله تعالى : ﴿ إِذَا طَلَّقْتُمْ ﴾ ابتداءً كلام كما لو ابتداءً السورة به ، وطلاق النساء حلٌ عُضْمَتِهِنَّ ، وصورة ذلك وتنويعه مما لا يختص بالتفسير .

وقوله تعالى : ﴿ فَطَلَّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ ﴾ ، أي : لاستقبالها وقوامها وتقريبها عليهن . وقرأ عثمان ، وابن عباس ، وأبي بن كعب ، وجابر بن عبد الله ، ومجاهد ، وعليُّ بن الحسين ، وزيد بن علي ، وجعفر بن محمد رضي الله عن الصحابة والتابعين : ﴿ فِي قُبُلٍ عِدَّتِهِنَّ ﴾ ، وروي عن بعضهم وعن ابن عمر رضي الله عنهما : ﴿ لِقُبُلٍ عِدَّتِهِنَّ ﴾ ، أي لاستقبالها ، وروى ابن عمر القراءتين عن النبي صلى الله عليه

(١) بقول بعض العلماء : إن الخطاب له والمعنى له وللمؤمنين ، وإذا أراد الله بالخطاب المؤمنين لاطفه بقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ ﴾ ، فإذا كان الخطاب باللفظ والمعنى جميعاً له قال : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ ﴾ .

وسلم (١) ، وقرأ ابن مسعود رضي الله عنه : «لِقُبْلِ طُهْرِهِنَّ» .
ومعنى هذه الآية ألا يطلق أحد امرأته إلا في طهر لم يمسه فيها ،
هذا على مذهب مالك رحمه الله وغيره ممن قال : إن «الأقراء» :
الأطهار ، فيطلق عندهم المطلق في طهر لم يمسه فيها ، وتعتمد به المرأة
ثم تحيض حيضتين تعتد بالطهر الذي بينهما ، ثم تقيم في الطهر
الثالث مُعْتَدَةً به ، فإذا رأت أول الحيضة الثالثة حلت ، ومن قال
بأن «الأقراء» : الحيض - وهم العراقيون - قال : [لِعِدَّتِهِنَّ] معناه :
أن تطلق طاهراً فتستقبل ثلاث حيض كوامل ، فإذا رأت الطهر
بعد الثالثة حلت ، ويخف عند هؤلاء مس في طهر الطلاق أو لم يمسه ،
وكذلك مالك يقول : «إن طلق في طهر قد مس فيه مضى الطلاق» ،
ولا يجوز طلاق الحائض لأنها تطول العدة عليها ، وقيل : بل تعتد ،
ولو علل بالتطويل لا ينبغي أن يجوز ولو رضيته (٢) ، والأصل في

(١) أخرج عبد الرزاق في المصنف ، وابن المنذر ، والحاكم ، وابن مردويه ، عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ : (فَطَلَّقُوهُنَّ فِي قُبْلِ عِدَّتِهِنَّ) ، وأخرج ابن الأنباري ، عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قرأ : (فَطَلَّقُوهُنَّ لِقُبْلِ عِدَّتِهِنَّ) ، وقيل الشيء هو إقباله وأوله .

(٢) الرأي الذي عليه علماء المسلمين أن من طلق في طهر لم يجامع فيه نفذ طلاقه وأصاب السنة ، فإن طلق حائضاً نفذ طلاقه وأخطأ السنة ، ويرى سعيد بن المسيب أن الطلاق في الحيض لا يقع لأنه خلاف السنة ، وإلى ذلك ذهب الشيعة .

ذلك حديث ابن عمر رضي الله عنهما ، قال : طَلَّقْتُ امْرَأَتِي وَهِيَ حَائِضٌ ، فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقَالَ لِعُمَرَ : (مُرُّهُ فَلْيِرْاجِعْهَا ثُمَّ لِيُمْسِكْهَا حَتَّى تَطْهَرَ ثُمَّ تَحِيضُ ثُمَّ تَطْهَرَ ثُمَّ يَطْلُقْهَا إِنْ شَاءَ ، فَتِلْكَ الْعِدَّةُ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِهَا أَنْ يُطَلَّقَ لَهَا النِّسَاءُ) (١) ، وَرَوَى حَدِيثَهُ أَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَالَ : (طَلَّقُوا الْمَرْأَةَ فِي قُبْلِ طُهْرِهَا) (٢) . ثُمَّ أَمَرَ تَعَالَى بِإِحْصَاءِ الْعِدَّةِ لِمَا يَلْحَقُ ذَلِكَ مِنْ أَحْكَامِ الرَّجْعَةِ وَالسُّكْنَى وَالْمِيرَاثِ وَغَيْرِ ذَلِكَ (٣) .

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى بِأَنَّهِنَّ أَحَقُّ بِسُكْنَى بَيْوتِهِنَّ الَّتِي طَلَّقْنَ فِيهَا ، فَفَهِيَ عَنْ إِخْرَاجِهِنَّ وَعَنْ خُرُوجِهِنَّ (٤) ، وَسُنَّةُ ذَلِكَ أَلَّا تُبَيِّتَ الْمَرْأَةَ

(١) أَخْرَجَهُ مَالِكٌ ، وَالشَّافِعِيُّ ، وَعَبْدُ الرَّزَاقِ فِي الْمَصْنُفِ ، وَأَحْمَدُ ، وَعَبْدُ بْنُ حَمِيدٍ ، وَالبخاري ومسلم ، وأبو داود ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجه ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وأبو يعلى ، وابن مردويه ، والبيهقي في سننه ، عن ابن عمر رضي الله عنهما ، وَأَخْرَجَ مِثْلَهُ ابْنُ مَرْدَوَيْهِ عَنْ ابْنِ عُمَرَ أَيْضًا وَلَكِنْ مِنْ طَرِيقِ أَبِي الزُّبَيْرِ . (الدر المنثور) .
(٢) لَمْ أَقْفِ عَلَيْهِ .

(٣) وَهَذَا فِي الْمَدْخُولِ بِهَا ؟ لِأَنَّ غَيْرَ الْمَدْخُولِ بِهَا لَا عِدَّةَ عَلَيْهَا لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُونَهَا ﴾ .

(٤) أَي : لَا يَجُوزُ لِلزَّوْجِ أَنْ يُخْرِجَهَا مِنْ مَسْكَنِ النِّكَاحِ مَا دَامَتْ فِي الْعِدَّةِ ، وَلَا يَجُوزُ لَهَا هِيَ أَنْ تَخْرُجَ إِلَّا لِلضَّرُورَةِ ، فَإِنْ خَرَجَتْ فَهِيَ آثِمَةٌ ، لَكِنَّ الْعِدَّةَ لَا تَنْقَطِعُ بِخُرُوجِهَا . قَالَ الْإِمَامُ الْقُرْطُبِيُّ : « وَالرَّجْعِيَّةُ وَالْمَبْتُوتَةُ فِي هَذَا سَوَاءٌ ، وَهَذَا لِصَيَانَةِ مَاءِ الرَّجُلِ ، وَهَذَا مَعْنَى إِضَافَةِ =

المطلقة «بعيدة» (١) عن بيتها ولا تغيب عنه نهراً إلا في ضرورة
وما لاخطب له من جائز التصرف ، وذلك لحفظ النسب والتحرز بالنساء ،
فإن كان البيت ملكاً للزوج أو بكراً منه فهذا حكمه ، فإن كان لها
فعليه الكراء ، فإن كان قد امتعته مدة الزوجية ففي لزوم خروج العدة
له قولان في المذهب : اللزوم رعاية لانفصال مكارمة النكاح ، والسقوط
من أجل أن العدة من سبب النكاح .

واختلف الناس في معنى قوله تعالى : ﴿ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبِينَةٍ ﴾
- فقال قتادة ، والحسن ، ومجاهد : ذلك الزنى ، فيخرجن المحد ،
وهو قول الشعبي ، وزيد بن أسلم ، وحماد ، والليث . وقال ابن عباس
رضي الله عنهما : ذلك البذاء على الأحماء ، فتخرج ويسقط حقها
في السكنى ، وتلزم الإقامة في مسكن تتخذه حفظاً للنسب ، وفي مصحف
أبي بن كعب رضي الله عنه : « إِلَّا أَنْ يَفْحُشْنَ عَلَيْكُمْ » ، وقال ابن
عباس رضي الله عنهما أيضاً : الفاحشة جميع المعاصي ، فمتى سرقت
أو زنت أو أربت في تجارة أو غير ذلك فقد سقط حقها في السكنى ،

= البيوت إليهن ، فهي إضافة إسكان وليست إضافة تملك ، على أن هناك خلافاً بين الفقهاء
وتشريعاً بين الرجعية والمبتوتة ، وبين الخروج نهراً والخروج ليلاً ، وموضعه كتب الفقه .
(١) ما بين العلامتين سقط من الأصول .

وقال ابن عمر ، والسُّدي : الفاحشةُ الخروجُ عن البيت خروج انتقال ، فمتى فعلت ذلك سقط حقها في السكنى ، وقال قتادة أيضاً : المعنى : أن يأتين بفاحشةٍ في نشوز عن الزوج فيطلق بسبب ذلك فلا يكون عليه سكنى ، وقال بعض الناس : الفاحشةُ متى وردت معرفةً فهي الزنى ، ومتى جاءت منكراً فهي في المعاصي ، فمرة يراد بها سوءُ عشرة الزوج ومرة غير ذلك .

وقرأ عاصم : [مُبَيَّنَةٌ] بفتح الياء المشددة (١) ، تقول : بان الأمرُ وبينته على التضعيف على التعدية ، وقرأ الجمهور بكسرها ، تقول : بان الأمرُ وبين معنى واحد ، إلا أن التضعيف للمبالغة ، ومن ذلك قولهم : قد بين الصُّبحُ لذي عينين .

وقوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ﴾ إشارة إلى جميع أوامره في هذه الآية ، وقوله سبحانه : ﴿ لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ﴾ ، قال قتادة وغيره : يريد به الرجعة ، أي : أحصوا العدة ، وامثلوا هذه الأوامر المثقفة لنسائكم ، الحافظة لأنسابكم ، وطلقوا على السنة ، تجدوا المخلص إن ندمتم ، فإنكم لا تدرن لعل الرجعة تكون بعد ،

(١) لعلها قراءة أبي بكر عنه ، أما قراءة حفص عن عاصم فهي بكسر الياء المشددة

كما هو ثابت في المصحف :

والإحداثُ هنا بين التوجيه ، عبارة عما يوجد من التراجع ، وجوز قوم أن يكون المعنى : أمراً من النسخ ، وفي ذلك بُعد .

وقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ ﴾ يريد به آخر القرء ، و «الإمساكُ بالمعروفِ» هو حُسنُ العشرة في الإنفاق وغير ذلك ، و «المفارقة بالمعروفِ» هي أداءُ المهر والمتعة ودفعُ جميع الحقوق والوفاء بالشروط وغير ذلك حسب نازلة نازلة ، وقوله تعالى : ﴿ وَأَشْهَدُوا ذَوِي عَدْلٍ مِنْكُمْ ﴾ يريد : على الرجعة ، وذلك شرط في صحة الرجعة ، وللمرأة منع الزوج من نفسها حتى يُشهد ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : المراد : على الرجعة وعلى الطلاق ؛ لأن الإِشهاد يرفع من النوازل إشكالات كثيرة ، وتقيد تاريخ الإِشهاد من الإِشهاد ، وقال النخعي : العَدْلُ مَنْ لَمْ تَظْهَرْ مِنْهُ رَيْبَةٌ ، وهذا قول الفقهاء ، والعَدْلُ حَقِيقَةٌ الَّذِي لَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ تَعَالَى ، وقوله سبحانه : ﴿ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ﴾ أمرٌ للشهود ، وقوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ يُوعِظُ بِهِ ﴾ إشارة إلى إقامة الشهادة ، وذلك أن جميع فصول الأحكام والأُمور فإنما تدور على إقامة الشهادة .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ ، قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وكثير من المتأولين : هو في معنى الطلاق ، أي : ومن لا يتعدى في طلاق السنة

إلى طلاق الثلاث وغير ذلك يجعل الله له مخرجاً إن ندم بالرجعة ،
 ويرزقه ما يطعم أهله ، ويوسع عليه ، ومن لا يتق الله فربما طلق
 وبت وندم فلم يكن له مخرج ، وزال عنه رزق زوجته ، وقد فسّر
 ابن عباس رضي الله عنهما نحو هذا ، فقال لمُطَلِّقٍ ثلاثاً : إنك لم
 تتق الله تعالى ، فبانت منك امرأتك ولا أرى لك مخرجاً ، وقال ابن
 عباس أيضاً : معنى ﴿يَجْعَلُ لَهُ مَخْرَجاً﴾ : يخلصه من كرب الدنيا
 والآخرة ، واختلفت ألفاظ رُواة هذه القصة عن ابن عباس رضي الله
 عنهما ، لكن هذا هو المعنى .

وقال بعض رواة الآثار : نزلت هذه الآية في عوف بن مالك الأشجعي ،
 وذلك أنه أسر ولده ، وقدر عليه ، فشكا ذلك إلى رسول الله صلى الله
 عليه وسلم ، فأمره بالتقوى ، فقيل : لم يلبث أن تفلت ولده ،
 وأخذ قطع غنم للقوم الذين أسروه ، وجاء أباه ، فسأل عوف رسول الله
 صلى الله عليه وسلم : أتطيب له تلك الغنم ؟ فقال رسول الله صلى الله
 عليه وسلم : نعم ، ونزلت الآية في ذلك .

وقوله تعالى : ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ الآية كلها
 عظةٌ لجميع الناس ، و «الحسبُ» : الكافي المرضي ، وقال ابن مسعود
 رضي الله عنه : هذه أكثر الآيات حُضاً على التفويض ، وروي أن

رجلاً قال لعمر رضي الله عنه : وَلَنِي مِمَّا وَّلَاكَ اللهُ تَعَالَى ، فقال له عمر : أَتَقْرَأُ الْقُرْآنَ ؟ قال : لا ، قال عمر : فَإِنِّي لَا أُولِي مِنْ لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ ، فتعلم الرجل رجاءً الولاية ، فلما حفظ كثيراً من القرآن تخلف عن عمر ، ثم لقيه يوماً فقال له عمر رضي الله عنه : مَا أَبْطَأَ بِكَ ؟ قال : تَعَلَّمْتُ الْقُرْآنَ فَأَغْنَانِي اللهُ عَنْ عَمْرٍ وَعَنْ بَابِهِ ، ثم قرأ هذه الآية من هذه السورة :

وقوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ بِأَلْسِنِ أُمَّرِهِ﴾ بيانٌ وحضٌّ على التوكل ، أي : لا بد من نفوذ أمر الله تعالى توكلت أيها المرء أم لم تتوكل ، قاله مسروق ، فإن توكلت كفاك وتعجلت الراحة والبركة ، وإن لم تتوكل وكذلك إلى عجزك وتسخطك ، وأمره عز وجل في الوجهين نافذ .

وقرأ داود بن أبي هند (١) - ورويت عن أبي عمرو - ﴿بِأَلْسِنِ أُمَّرِهِ﴾ برفع الأمر (٢) ، وحذف مفعول تقديره : بالغ أمره ما شاء ،

(١) هو داود بن أبي هند القشيري ، مولاهم ، أبو بكر أو أبو محمد ، البصري ، ثقة متقن ، كان بهم بأخرة ، من الطبقة الخامسة ، مات سنة أربعين ، وقيل : مات قبلها ، (تقريب التهذيب) .

(٢) مع تنوين [بألسن] .

وقرأ جمهور السبعة ، والناسُ : ﴿بَالِغُ أَمْرِهِ﴾ بنصب الأمر (١) ،
 وقرأ حفصُ والمفضل عن عاصم : ﴿بَالِغُ أَمْرِهِ﴾ على الإضافة وترك
 التنوين في [بَالِغُ] ، ورويت عن أبي عمرو ، والأعمش ، وهي
 قراءة طلحة بن مصرف . وقرأ جمهور الناس : [قَدْرًا] بسكون الدال ،
 وقرأ بعض القراء : [قَدْرًا] بفتح الدال ، وهذا كله حُضُّ على التوكل .

قوله عز وجل :

﴿ وَالَّذِي يَبْتَسِنُ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ أَرَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ
 وَالَّذِي لَا يَحِيضُ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ
 يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ إِسْرًا ﴿٦﴾ ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَىٰ كُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ
 يَكْفِرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ﴿٧﴾ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ
 وَجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أُولَاتٍ حَمِلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ
 حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَعَاتِبُوهُنَّ أَجْرَهُنَّ وَأَتَمُّوا بَيْنَكُمْ
 بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاَسَرْتُمْ فِستَرْضِعْ لَهُنَّ أُخْرَىٰ ﴿٨﴾ لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ
 قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يَكْلِفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَاءً أَتَاهَا
 سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٩﴾ ﴾

(١) مع التنوين في [بَالِغُ] أيضاً .

«اللَّائِي» هو جمع ذات فيما حكى أبو عبيدة ، وهو ضعيف ،
والذي عليه الناس أنه جمع «التي» ، وقد يجيء جمعاً لـ «الذي» ،
والبيئاتُ من المحيض على مراتب ، فيأيسة هو أول يأسها فهذه ترفع
إلى السنة ويبقيها الاحتياط على حكم من ليست بيأيسة لأنها لا تدري
لعل الدم يعود ، ويأيسة قد انقطع عنها الدم لأنها طعنت في السن ثم
طلقت وقد مرت عادتها بانقطاع الدم إلا أنها ممن يخاف أن تحمل
نادراً ، فهذه التي في الآية على أحد التأويلين في قوله تعالى :
{إِنْ أَرْتَبْتُمْ} ، وهو قول من جعل الارتباب بأمر الحول ، وهو
الأظهر ، ويأيسة قد هرمت حتى تيقن أنها لا تحمل ، فهذه ليست
في الآية لأنها لا ترتاب بحملها ، لكنها في حكم الأشهر الثلاثة إجماعاً
فيما علمت ، وهي في الآية على تأويل من يرى أن قوله تعالى :
{إِنْ أَرْتَبْتُمْ} معناه في حكم البيئات ، وذلك أنه روى إسماعيل
ابن أبي خالد أن قوماً منهم أبي بن كعب رضي الله عنه ، وخالد
ابن النعمان (١) لما سمعوا قول الله تعالى : {وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ

(١) جاء في الإصابة أنه خالد بن النعمان الأنصاري ، وأن مقاتل أبو سليمان ذكر في
تفسيره أنه سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن عِدَّةِ الْبَيِّ لَا نَحِيضُ ، فنزلت {وَاللَّائِي يَتَرَبَّصْنَ
مِنَ الْمَحِيضِ} الآية .

بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ) (١) قالوا : يا رسول الله ، فما عِدَّةٌ من لا قُرءَ لها من صِغَرٍ أو كِبَرٍ؟ فنزلت هذه الآية ، فقال قائل منهم : فما عِدَّةُ الحامل ؟ فنزلت ﴿وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ (٢) ، وقد تقدَّم ذكر الخلاف في تأويل ﴿إِنْ أَرْتَبْتُمْ﴾ .

و «أولات» جمع ذات ، وأكثر أهل العلم على أن هذه الآية تعم الحوامل المطلقات والمعتدات من الوفاة ، والحُجَّةُ حديثُ سُبَيْعَةَ الأَسلمية ، قالت : «كنت تحت سعد بن خولة ، فتوفي في حَجَّةِ الوداع» ، ووضعت حملها قبل أربعة أشهر ، فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم : (قد حَلَلْتِ) ، وأمرها أن تتزوج (٣) . وقال ابن مسعود رضي الله عنه : نزلت سورة النساء القصص بعد الطُّولى ، يعني أن قوله تعالى :

(١) من الآية (٢٢٨) من سورة (البقرة) .

(٢) أخرجه عبد الرزاق ، وابن المنذر ، من طريق الثوري ، عن إسماعيل ، هكذا قال السيوطي في «الدر المنثور» ، وليس في النص الذي أورده ذكر لمن سأل الرسول صلى الله عليه وسلم .

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة ، وابن مردويه ، عن سُبَيْعَةَ الأَسلمية ، وفيه أنها وضعت بعد وفاة زوجها بخمس وعشرين ليلة ، وأخرج مثله ابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وابن مردويه ، عن أبي السنابل بن بعكك ، وفيه أن سُبَيْعَةَ وضعت بعد وفاة زوجها بثلاث وعشرين ليلة ، وفي رواية لعبد الرزاق ، وعبد بن حميد ، عن المسور بن مَخْرمة أنها لم تمكث إلا ليالي يسيرة . (الدر المنثور) .

(وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ) نزل بعد قوله تعالى :
 (وَالَّذِينَ يَتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبِّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ
 أَشْهُرٍ وَعَشْرًا) (١)، وقال علي بن أبي طالب ، وابن عباس رضي الله
 عنهم : إنما هذه في المطلقات ، وأما في الوفاة فعدة الحامل آخر الأجلين ،
 فإن وضعت قبل أربعة أشهر وعشر تمادت إلى آخرها ، والقول الأول
 أشهر ، وعليه الفقهاء ، وقرأ الضحاك : [أَحْمَالُهُنَّ] على الجمع .

وأمر الله تعالى إسكان المطلقات ، ولا خلاف في التي لم تُبْت ،
 وأما المَبْتُوتة فمالك رحمه الله تعالى يرى لها السكنى لمكان حفظ النسب ،
 ولا يرى لها نفقة لأن النفقة بإزاء الاستمتاع ، وهو قول الأوزاعي ،
 والشافعي ، وابن أبي ليلى ، وأبي عبيد ، وابن المسيب ، وعطاء ،
 والشَّعبي ، وسليمان بن يسار . وقال أصحاب الرأي والشورى : لها
 السكن والنفقة ، وقال جماعة من العلماء : ليس لها سكنى ولا نفقة .

و «الْوَجْدُ» : السَّعة في المال ، وضَمُّ الواو وفتحها وكسرها هي كلها
 بمعنى واحد ، وقرأ الجمهور : [وَجْدِكُمْ] بضم الواو بمعنى السَّعة في
 الحال ، وقرأ الأعرج - فيما ذكر عِصْمَة - : [وَجْدِكُمْ] بفتح الواو ،

(١) من الآية (٢٣٤) من سورة (البقرة) .

وذكرها أبو عمرو عن الحسن ، وأبي حيوة ، وقرأ الفياض بن غزوان ،
 ويعقوب بكسر الواو ، وذكرها المهدي عن الأعرج ، وعمرو بن ميمون .
 وأما الحامل فلا خلاف في وجوب سكنائها ونفقتها ، بُتت أو لم
 تُبت ؛ لأنها مُبَيَّنَةٌ في الآية ، واختلفوا في نفقة الحامل المتوفى عنها
 زوجها على قولين لعلماء الأمة ، فمنعها قوم ، وأوجبها في التركة قوم ،
 وكذلك النفقة على المرضع واجبة وهي الأجر مع الكسوة وسائر المؤن
 التي بسطها في كتب الفقه .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَنْتُمْرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ ﴾ ، أي : ليأمر كل
 واحد صاحبه بخير ، ولاشك أن من أمر بخير فهو أسرع إلى فعل ذلك
 الخير ، وليقبل كل أحد ما أمر به من المعروف فالقبول والامتثال
 هو الائتثار ، وقال الكسائي : [أَنْتُمْرُوا] معناه : تشاوروا ، ومنه
 قوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَمْثَلًا يُاتَمِرُونَ بِكَ لِيُقْتَلُوكَ ﴾ (١) ، ومنه قول
 امرئ القيس :

وَيَعْدُو عَلَى الْمَرْءِ مَا يَأْتَمِرُ (٢)

(١) من الآية (٢٠) من سورة (القصص) .

(٢) هذا عجز بيت قاله امرؤ القيس في مطلع قصيدة له يصف فيها فرسه وخروجه إلى
 الصيد ، والبيت بتمامه :

أَحَارِبُ بَنَ عَمْرٍو كَأَنِّي خَمِيرٌ وَيَعْدُو عَلَى الْمَرْءِ مَا يَأْتَمِرُ =

وقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تَعَاَسَرْتُم ﴾ أي : تشطّطت المرأة في الحدّ الذي يكون أجره على الرضاع فللزّوج أن يسترضع أخرى بما فيه رفقه ، إلا إن لم يقبل المولود غير أمّه فتجبر حينئذ على رضاعه بأجرة مثلها ومثل الزوج في حالهما أو غناهما . ثم حصّ الله تعالى أهل الجدة على الإنفاق وأهل الإقتار على التوسط ، كلٌّ بقدر حاله ، وهذا هو العدل بينهم لثلاث تضيع هي ولا يتكلّف هو ما لا يطيق .

واختلف العلماء في الذي يعجز عن نفقة امرأته - فقال مالك ، والشافعي ، وأحمد ، وإسحق ، وأبوهريرة ، وابن المسيّب ، والحسن : يُفرّق بينهما ، وقال أصحاب الرأي ، وعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ، وجماعة : لا يُفرّق بينهما ، ثم رجّى تعالى باليسر تسهياً على النفوس وتطييباً لها .

وقرأ الجمهور : [وَيُعْظِمُ] بالياء ، وقرأ الأعمش : [وَنُعْظِمُ] بالنون ، واختلف عنه (١) .

= والخمير: الذي خالطه داءٌ أو وجع أو سُكْرٌ، ويعدو: يرجع ، و « ما يَأْتِمِرُ »: ما يدبره ويريد أن يوقعه بغيره ، يقول مخاطباً الحارث بن عمرو : إنه يشعر بحالة غير عادية ، كأنه مريض أو سكران ، وإن ما يدبره الإنسان لغيره من شرور يعود عليه هو .
(١) لاحظ أن هذا تأخر عن موضعه .

قوله عز وجل :

﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا
وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نَكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا
﴿٩﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ الَّذِينَ ءَامَنُوا قَدْ أَنزَلَ
اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ
ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ
صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ
أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ وَرِزْقًا ﴿١١﴾ ﴾

« كَأَيِّنْ » هي كاف الجر دخلت على « أَيِّ » ، وهذه قراءة الجمهور ،
وقرأ ابن كثير ، وعبيد عن أبي عمرو : [وَكَأَيِّنِ] ممدودة مهموزة ،
كما قال الشاعر :

وَكَأَيِّنْ بِالْأَبَاطِحِ مِنْ صَدِيقٍ (١)

(١) البيت لجرير ، وهو من قصيدة يمدح بها الحجاج بن يوسف ، وقد ذكر المؤلف
صدر البيت فقط ، والبيت بتمامه :

وَكَأَيِّنْ بِالْأَبَاطِحِ مِنْ صَدِيقٍ يَرَانِي لَوْ أَصِيبْتُ هُوَ الْمُصَابَا =

وقرأ بعض القراء : [وَكَايِنٍ] بتسهيل الهمزة ، وفي هذين الوجهين قلب ؛ لأن الياء قبل الألفات . و «الْعُتُو» : ترك الائتمار والقبول .

وقوله تعالى : [فَحَاسِبْنَآهَا] قال بعض المتأولين : الآية في الآخرة ، أي : ثم هو الحساب والتعذيب والذوق وخسارة العاقبة ، وقال آخرون : ذلك في الدنيا ، ومعنى ﴿حَاسِبْنَآهَا حِسَابًا شَدِيدًا﴾ لم نغفر لهم زلّة بل أخذوا بالدقائق من الذنوب . وقرأ نافع ، وأبو بكر ، وابن ذكوان : [نُكْرًا] بضم الكاف ، وأسكنها الباقون ، وهي قراءة عيسى ، وقوله تعالى : ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ يظهر منه أنه بيان لوجه خسران عاقبتهم ، فيتأيد بذلك أن تكون المحاسبة والتعذيب والذوق في الدنيا .

ثم ندب تعالى أولي الألباب إلى التّقوى تحذيراً ، وقوله تعالى : ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ صفة لـ «أولي الألباب» ، وقرأ نافع ، وابن عامر :

= والأباطح : جمع أبطح ، وهو مسيل واسع للماء فيه دقاق الحصى ، والمصيبة : ما أصاب من الدهر ، يتكلم عن التعاون والوفاء والمساندة بين الأصدقاء في وقت كبر فيه وذهب شبابه ، يقول في مطلع القصيدة :

سَمِئْتُ مِنَ الْمُوَاصَلَةِ الْعِتَابَا وَأَمْسَى الشَّيْبُ قَدَ وَرَثَ الشَّبَابَا

[نُدْخِلْهُ] بالنون ، وكذلك روى المفضل عن عاصم ، وقرأ الباقون بالياء ، وقوله تعالى : ﴿ قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا رَسُولًا ﴾ ، اختلف الناس في تقرير ذلك - فقال قوم من المتأولين : المراد بالاسمين القرآن ، و «رَسُولًا» بمعنى رسالة ، وذلك موجود في كلام العرب ، وقال آخرون : [رَسُولًا] نعت أو كالنعت لقوله سبحانه : [ذِكْرًا] ، فالمعنى : ذِكْرًا ذا رسولٍ ، وقيل : «الرسول» ترجمة عن «الذِّكْر» كأنه بدلٌ منه ، وقال آخرون : المراد بهما جميعاً محمد صلى الله عليه وسلم ، والمعنى : ذا ذِكْرٍ رسولًا ، وقال بعض حُذَّاق المتأولين : الذِّكْرُ اسمٌ من أسماء الرسول عليه الصلاة والسلام ، واحتج بهذه القضي أبو بكر الباقلاني في تأويل قوله تعالى : ﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُخَدَّثٍ ﴾ (١) ، وقال بعض النحاة : معنى الآية : ذِكْرًا بعث رسولًا ، فهو منصوب بإضمار فعل ، وقال أبو علي الفارسي : يجوز أن يكون [رَسُولًا] معمولًا للمصدر الذي هو الذِّكْر (٢) .

(١) من الآية (٢) من سورة (الأنبياء) .

(٢) وقيل : الذِّكْرُ هنا هو الشرف ، كقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ ، ثم بيّن الله تعالى هذا الشرف بقوله : [رَسُولًا] ، وقيل : إن الرسول هنا هو جبريل ، فيكون هو والذِّكْر مُنَزَّلَيْن .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وأبين الأقوال عندي معني أن يكون «الذَّكْر» القرآن ، و «الرَّسُولُ» مُحَمَّدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، والمعنى : بعث رسولاً ، لكن الإيجاز اقتضى اختصار الفعل الناصب للرسول ، ونحا هذا المنحى السُّدِّي .

وقرأ نافع ، وابن كثير ، وأبو عمرو ، وأبو بكر : [مُبَيِّنَاتٍ] بفتح الياء ، وقرأها بكسر الياء ابن عامر ، وحفص ، وحمزة ، والكسائي ، والحسن ، والأعمش ، وعيسى . وسائر الآية بَيْنٌ ، والرزقُ المشار إليه رزق الجنة لدوامه ودُروره .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ اللهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِنَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ۝١٤﴾

لا خلاف بين العلماء أن السموات سبعٌ لأن الله تعالى قال : ﴿سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا﴾ (١) ، وفسر رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرهن في

(١) من الآية (٣) من سورة (المُلْك) .

حديث الإسراء ، وقال عليه الصلاة والسلام لسعد رضي الله عنه :
 (حكمت فيهم بحكم الملك من فوق سبع أرقعة) (١) ، ونطقت بذلك
 الشريعة في غير ما موضع ، وأما الأرض فالجمهور على أنها سبع أرضين ،
 وهو ظاهر هذه الآية ، وأن المماثلة إنما هي في العدد ، ويستدل بقول
 رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من غصب شبراً من أرض طوقه
 من سبع أرضين) (٢) ، إلى غير هذا مما وردت به روايات ، وروي عن
 قوم من العلماء أنهم قالوا : الأرض واحدة ، وهي مماثلة لكل سماء
 بانفرادها في ارتفاع جرمها ، وفي أن فيها عالماً يعبد ، كما في كل
 سماء عالم يعبد .

(١) جاء ذلك في حادثة نزول بني قريظة على حكم سعد بن معاذ رضي الله تعالى عنه ،
 وقد ذكره ابن هشام في السيرة ، قال ابن إسحق : فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة ، عن
 عبد الرحمن بن عمرو عن سعد بن معاذ ، عن علقمة بن وقاص الليثي ، قال : قال رسول الله
 صلى الله عليه وسلم لسعد : (لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة) ، والأرقعة :
 السموات ، والواحدة رقيع .

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق ، ومسلم في المساقاة ، ولفظه كما في البخاري ، عن
 أبي سلمة بن عبد الرحمن - وكانت بينه وبين أناس خصومة في أرض - فدخل على عائشة
 رضي الله عنها فذكر لها ذلك فقالت : يا أبا سلمة ، اجتنب الأرض ، فإن رسول الله صلى الله
 عليه وسلم قال : (من ظلم قيد شبر طوقه من سبع أرضين) . وذكر السيوطي في الجامع
 الصغير أن أحمد أخرجه هو والبخاري ومسلم عن عائشة وعن سعيد بن زيد ، ثم رمز له
 بأنه صحيح .

وقرأ الجمهور : [مِثْلُهُنَّ] بالنصب ، وقرأ عاصم : [مِثْلُهُنَّ] بالرفع (١) ، و «الأمر» هنا الوحي وجميع ما يأمر به تعالى مَنْ يعقل ومن لا يعقل ، فإن الرياح والسحاب وغير ذلك مأمورٌ كله ، وباقى السُّورة حُضُّ على توحيد الله تعالى .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ عموم معناه الخصوص ،
وقوله تعالى : ﴿ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ عموم على إطلاقه .



كامل تفسير سورة الطلاق والحمد لله رب العالمين

(١) قراءة عاصم - في رواية حفص - بالنصب مثل الجمهور .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الخلق
سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين



وهي مدنية بإجماع من أهل العلم بلا خلاف (١).

قوله عز وجل :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ
غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١﴾ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ
الْحَكِيمُ ﴿٢﴾ وَإِذْ أَسْرَأَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ
اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضُهُمْ وَأَعْرَضُ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَاكَ هَذَا
قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٣﴾ ﴾

رُوي في الحديث عن زيد بن أسلم والشعبي وغيرهما ما معناه
أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أهدى إليه المقوقس مارية القبطية

(١) وتُسَمَّى سورة «النَّبِيِّ» .

اتخذها سرية (١) ، فلما كان في بعض الأيام وهو يوم حفصة بنت عمر رضي الله عنهما - وقيل : بل كان في يوم عائشة رضي الله عنها - جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيت حفصة فوجدها قد مرت لزيارة أبيها ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم في جاريته ، فقال معها (٢) ، فجاءت حفصة فوجدتهما ، فأقامت خارج البيت حتى أخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم مارية وذهبت ، فدخلت حفصة غير متغيرة ، فقالت : يا رسول الله ، أما كان في نسائك أهون عليك مني ؟ أفي بيتي وعلى فراشي ؟ فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم مترضياً لها : أيرضيك أن أحرمها ؟ قالت : نعم ، فقال : إنني قد حرمتها ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : وقال مع ذلك : والله لا أطؤها أبداً ، ثم قال : لا تخبري بها أحداً ، فمن قال : إن ذلك كان في يوم عائشة قال : استكتمها خوفاً من غضب عائشة ، وحسن عشرة لها ، ومن قال : بل كان في يوم حفصة قال : استكتمها

(١) قال أهل اللغة في الجارية التي يتسراها مالکها لم سُميت سرية ؟ : نسبت إلى السرّ - وهو الجماع - وضُمَّت السّين للفروق بين الحرّة والأمة ، فقيل للحرّة التي تنكح سرا : سرّية ، وقيل للمملوكة التي يتسراها صاحبها : سرّية . وقيل : سُميت سرّية لأنها موضع سرور الرجل .

(٢) أي : قضى معها وقت القيلولة .

لنفس الأمر ، ثم إن حفصة قرعت الجدار الذي كان بينها وبين عائشة رضي الله عنهما لتبشّرها بالأمر ، ولم تر في إفشائه إليها حرجاً ، واستكتمتها ، فأوحى الله بذلك إلى نبيه صلى الله عليه وسلم ، ونزلت الآية (١) .

وروي عن عكرمة أن هذا نزل بسبب أم شريك التي وهبت نفسها للنبي صلى الله عليه وسلم (٢) ، وذكر النقاش نحوه عن ابن عباس رضي الله عنهما . وروي عبّيد بن عمير عن عائشة رضي الله عنها أن هذا التحريم المذكور في الآية إنما هو بسبب الشراب العسل الذي

(١) أخرج هذا الخبر ابن جرير ، وابن المنذر ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وأخرج مثله ابن سعد ، وابن مردويه ، عن ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً ، وأخرج مثله عبد بن حميد ، عن قتادة ، قال ابن العربي : « إن من روى أنه صلى الله عليه وسلم حرّم مارية فإنه أمثل في السند وأقرب إلى المعنى ، لكنه لم يُدَوَّن في الصحيح ، وروى مرسلًا » . ونقل ابن كثير في تفسيره هذا الحديث عن ابن جرير ، عن زيد بن أسلم ، وعن الهيثم بن كليب ، عن عمر رضي الله عنه ، ثم قال : « وهذا إسناد صحيح ، ولم يُخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة ، وقد اختاره الحافظ الضياء المقدسي في كتابه المستخرج .

(٢) قال ابن كثير : « وهذا قولٌ غريبٌ » ، وقال ابن العربي عن هذا أنه أضعف الأقوال ، قال : « أما ضعفه في السند فلعدم عدالة رواته ، وأما ضعفه في معناه فلأن ردّ النبي صلى الله عليه وسلم للموهوبة ليس تحريمًا لها ، لأن من ردّها ما وهب له لم يحرم عليه ، وإنما حقيقة التحريم أنه يكون بعد التحليل » ، هذا وأم شريك هذه اختلف في اسمها ، فقيل : غزيرة ، وغزيرة ، وقيل : غزيلة ، وقيل : ليلي بنت حكيم ، وشهرتها : أم شريك بنت جابر الأسديّة .

شربه عند زينب بنت جحش ، فتمالأت عائشة وحفصة وسودة على أن تقول له من دنا منها : أكلت مغاير - والمغاير صمغ العُرْفُط - وهو حلوٌ ثقيل الريح ، ففعان ذلك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا ، ولكني شربت عسلاً ، فقلن له : جَرَسَتْ نَحْلُهُ العُرْفُط ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا أشربه أبداً ، وكان يكره أن توجد منه رائحة ثقيلة ، فدخل - بعد ذلك - على زينب رضي الله عنها فقالت له : ألا نسقيك من ذلك العسل ؟ فقال : لا حاجة لي به ، قالت عائشة رضي الله عنها : تقول سودة حين بلغها امتناعه : والله لقد حرمناه ، قلت لها : اسكتي (١) .

والقول الأول - أن الآية نزلت بسبب مارية - أصحُّ وأوضح . وعليه تفقّه الناس في الآية ، ومتى حرّم الرجل مالاً أو جاريةً دون

(١) أخرجه ابن سعد ، وعبد بن حميد ، والبخاري ، وابن المنذر ، وابن مردويه ، عن عائشة رضي الله عنها ، وأخرج مثله ابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والطبراني ، وابن مردويه بسند صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما . قال القرطبي : « وهو أصحُّ الأقوال » ، وقال ابن كثير : « والصحيح أن ذلك كان في تحريمه العسل كما في البخاري عند هذه الآية » ، ثم ساق كلام البخاري ، وذكر بعد ذلك أن مسلماً روى هذا الحديث في كتاب الطلاق . ومعنى (جَرَسَتْ نَحْلُهُ العُرْفُط) : رَعَتْ نَحْلَهُ شَجَرُ العُرْفُط الذي صمغه المغاير ، فلهذا ظهر ريحُه في العَسَل الذي شربته يا رسول الله ، والجرس هو الأكل ، والمغاير : بقلة أو صمغ متغيرة الرائحة ، فيها حلاوة ، والعُرْفُط : نبت له ريحٌ كريح الخمر .

أن يعتق أو يشترط عتقاً أو نحو ذلك فليس تحريمه بشيء ، واختلف العلماء إذا حرم زوجته بأن يقول : «أنتِ عليّ حرامٌ» أو : «الحلالُ عليّ حرامٌ» ، ولا يستثنى زوجته - فقال مالك : هي ثلاث في المدخول بها ، وينوي في غير المدخول بها . فهو ما أراد من واحدة أو اثنتين أو ثلاث ، وقال عبد الملك بن الماجشون : هي ثلاث في الوجهين ، ولا ينوي في شيء ، وقال أبو المصعب وغيره - ورواه ابن خويّر منداد عن مالك - : إنّها واحدة بائنة في المدخول بها ، ورؤي عن عبد العزيز بن الماجشون أنه قال : يحملها على واحدة رجعية ، وقال غير واحد من أهل العلم : التحريم لاشيء ، وإنما عاتب الله رسوله صلى الله عليه وسلم فيه ودلّه على تحلّة اليمين المبينة في المائدة لقوله : (قد حرّمها ووالله لا أطؤها أبداً) ، وقال مسروق : ما أبالي أحرمتها أو قصعة من ثريد ، وكذلك قال الشعبي : «ليس التحريم بشيء» ، قال تعالى : ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ﴾ (١) ، وقال تعالى : ﴿لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتٍ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾ (٢) ، ومُحَرَّمٌ زوجته قد سمى حراماً ما جعله الله حلالاً ، وحرّم ما أحلّ

(١) من الآية (١١٦) من سورة (النحل) .

(٢) من الآية (٨٧) من سورة (المائدة) .

الله له . وقال أبو بكر الصديق ، وعمر الفاروق ، وابن مسعود ،
 وابن عباس ، وعائشة ، وابن المسيب ، وعطاء ، وطاوس ، وسليمان
 ابن يسار ، وابن جُبَيْر ، وقتادة ، وأبو ثور الأوزاعي ، والحسن ،
 وجماعة : التحريم يلزم فيه تكفير يمين بالله تعالى ، والتَّحِلَّةُ إنما هي
 من أجل التحريم ، ولم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم : « والله
 لا أطؤها » ، وقال أبو قلابة : « التحريم ظهار » ، وقال أبو حنيفة ،
 وسفيان ، والكوفيون : « هو ما أراد من الطلاق ، فإن لم يرد بذلك
 طلاقاً فهو لا شيء » ، وقال آخرون : « هو ما أراد من الطلاق ، فإن
 لم يُرد طلاقاً فهي يمين » .

ودعا الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم باسم النبوة الذي هو دال
 على شرف منزلته وعلى فضيلته التي خصّه بها دون البشر وقدره ،
 كالمعاتب على سبب تحريمه على نفسه ما أحلَّ الله تعالى له .

وقوله تعالى : ﴿ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ ﴾ جملة في موضع الحال
 من الضمير الذي في [تُحْرَمُ] ، و « المَرْضَاةُ » مصدر كالرَضَى ،
 ثم غفر له تعالى ما عاتبه فيه ورحمته .

وقوله تعالى : ﴿ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ ﴾ أي : بَيَّنَّ وَأَثَبَتْ ، وقال قوم
 من أهل العلم : هذه إشارة إلى تكفير التحريم ، وقال آخرون : هي

إشارة إلى تكفير اليمين المقتترنة بالتحريم . و «التَّحِلَّةُ» مصدر ،
 وَزَنَاهَا «تَفْعِلَةٌ» ، وادغم لاجتماع المثلين ، وأحال في هذه الآية على
 الآية التي فسّر فيها الإطعام في كفارة اليمين بالله تعالى ، و «المَوْئِي» :
 المُوَالِي النَّاصِرُ العَاضِدُ .

وقوله تعالى : ﴿وَإِذْ أَسْرَّ النَّبِيُّ﴾ الآية معناه : اذكر يا محمد ذلك
 على وجه التأنيب والعتب لهن ، وقال الجمهور : «الحديث» هو
 قوله صلى الله عليه وسلم في أمر مارية ، وقال آخرون : إنما هو قوله
 عليه الصلاة والسلام : إنما شربتُ عسلاً ، و «بَعْضُ أَزْوَاجِهِ» هي حفصة
 رضي الله عنها ، و [نَبَّأْتُ] معناه : أخبرت ، وهذه قراءة الجمهور ،
 وقرأ طلحة : [أَنْبَأْتُ] ، وكان إخبارها لعائشة رضي الله عنها ، وهذا
 ونحوه هو التظاهر الذي عوتبتنا فيه ، وقال ميمون بن مهران : الحديث
 الذي أسرّ إلى حفصة أنه قال لها : وأبشري بأن أبا بكر وعمر يملكان
 أمر أمتي من بعدي خلافةً ، وتعدت «نَبَّأً» في هذه الآية مرة إلى مفعولين
 ومرة إلى واحد لأن ذلك يجوز في أنبأً ونبأً إذا كان دخولهما على غير
 الابتداء والخبر ، فمتى دخلت على الجملة تعدت إلى ثلاثة مفعولين ،
 ولا يجوز الاقتصار ، وقوله سبحانه : ﴿وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾
 أي أطلعه .

وقرأ الكسائي وحده ، وأبو عبد الرحمن ، وطلحة ، والحسن .
وقتادة : [عَرَفَ] بتخفيف الراء ، وقرأ الباقرن وجمهور الناس :
[عَرَفَ] بشدها ، والمعنى في اللفظة مع التخفيف : جاري بالعُتْب واللوم ،
كما تقول لإنسان يؤذيك : قد عرفتُ لك هذا ، ولأعرفنَّ لك هذا ،
بمعنى : لأُجازينك عليه ، ونحوه في المعنى قوله تعالى : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ
يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ (١) فعلم الله تعالى زعيم بمجازاتهم ،
وكذلك معرفة النبي صلى الله عليه وسلم ، والمعنى مع الشدِّ في الراء :
أعلم به وأبتَّ عليه ، وقوله تعالى : ﴿وَأَعْرِضْ عَنْ بَعْضِ﴾ أي تكراً
وحياءً وحُسنِ عشرة ، قال الحسن : ما استقصى كريم قط ، وروي
أن رسول الله صلى الله عليه وسلم طلق حينئذ حفصة رضي الله عنها ،
ثم إن الله تعالى أمره بمراجعتها ، وروى أن رسول الله صلى الله عليه
وسلم عاتبها ولم يطلقها ، فلما أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم
بالخبر وأنها أفشته إلى عائشة ظنت أن عائشة فضحتها ، فقالت :
«من أنبأك هذا» ؟ على جهة التثبُّت ، فلما أخبرها أن الله تعالى أخبره
سكتت وسلمت .

(١) من الآية (٦٣) من سورة (النساء) .

قوله عز وجل :

﴿ إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ
مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴿١٠﴾ عَسَىٰ رَبُّهُ
إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنْكَن مِّن مِّنَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَنَنَاتٍ تَيبَاتٍ
عَبِيدَاتٍ سَيَجْعَلُ لَّيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ حَرَجٌ وَلَا يَكْفُرُونَ ﴾

المخاطبة بقوله تعالى : ﴿ إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ ﴾ هي لحفصة وعائشة رضي الله عنهما ، وفي حديث البخاري وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قلت لعمر : من اللتان تظاهرتا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : حفصة وعائشة . وقوله تعالى : ﴿ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ معناه : مالت عن المعدلة والصواب ، والصغأ : الميل ، ومنه صاغية الرجل ، وهم حواشيه الذين يميلون إليه ، ومنه : أصغى إليه بسمعه ، وأصغى الإناء ، وفي قراءة ابن مسعود رضي الله عنه : « فقد زاغت قلوبكُمَا » ، والزَيْغُ : الميل ، وعُرفه في خلاف الحق : قال مجاهد : كنا نرى « صَغَتْ » شيئاً هيناً حتى سمعنا قراءة ابن مسعود : « زاغت » ، وجمع القلوب من حيث الاثنان جَمْعٌ ، ومن حيث لا لبس

في اللفظ ، وهذا نظير قول الشاعر :

.....
ظَهْرَاهُمَا مِثْلُ ظُهُورِ الثُّرْسَيْنِ (١)

ومعنى الآية : إِنْ تَبَّتْما فقد كان منكما ما ينبغي أَنْ يُتاب منه ، وهذا الجواب الذي هو للشرط هو متقدم في المعنى ، وإنما ترتب جواباً في اللفظ ، و (إِنْ تَظَاهَرَا) معناه : تتعاوننا ، فأدغمت التاء في الظاء بعد البدل ، وقرأ عكرمة مولى ابن عباس بتاءين على الأصل ، وقرأ الكوفيون ، وطلحة ، وأبو رجاء ، والحسن بتخفيف الظاء على حذف التاء الواحدة ، ورؤي عن أبي عمرو أنه قرأ بتشديد الظاء والهاء

(١) هذا البيت من رجز الشاعر الإسلامي الخطام المجاشعي ، يقول :

وَمَهْمَهُ قَدَقَيْنِ مَرَّتَيْنِ ظَهْرَاهُمَا مِثْلُ ظُهُورِ الثُّرْسَيْنِ

والمهْمَةُ : القَقْرُ المخوف ، والقَدَقُ - بفتح القاف والذال وقد تكونان بالضم - هو البعيد من الأرض ، وفي رواية قَدَقَيْنِ ، والقَدَقُ : الأرض المستوية ، والمرْتُ - بفتح الميم وسكون الراء بعدهما تاء - هو الأرض التي لا ماء فيها ولا نبات ، والظَهْرُ : ما ارتفع من الأرض ، وهو يستشهد بالبيت على جواز معاملة المثني على أنه جمع ، والعرب يقولون : أقلُّ الجمع اثنان ؟ لأن التثنية جمع شيء إلى مثله ، قال سيبويه : سألت الخليل عن قوله « ما أحسن وجوههما » ؟ فقال : الاثنان جماعة ، وعلى هذا جاء قوله تعالى : ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا ﴾ ، وقال الزجاج نقلاً عن بعض النحويين : إنما جعلت تثنية ما في الإنسان منه واحد . جمْعاً ؛ لأن أكثر أعضائه فيه منها اثنان ، فحمل ما كان فيه الواحد على مثال ذلك .

دون ألف ، و «المَوَلَى» : الناصر والمعين . وقوله تعالى : ﴿وَجِبْرِيلُ
وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يحتمل أن يكون عطفاً على اسم الله تعالى في
قوله : [هُوَ] ، فيكون ﴿جِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ في الولاية ،
ويحتمل أن يكون [جِبْرِيلُ] رفعاً بالابتداء وما بعده عطف عليه
و [ظَهيرٌ] الخبر ، فيكونون حينئذ من الظهر لا في الولاية ، ويختص
بأنه مولى الله سبحانه وتعالى .

واختلف الناس في «صالح المؤمنين» - فقال الطبري وغيره من
العلماء : ذلك على العموم يدخل في ذلك كل صالح ، وقال الضحاك ،
وابن جبير ، وعكرمة : المراد أبو بكر وعمر رضي الله عنهما ، رواه
ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم (١) ، وقال مجاهد نحوه .
وقال أيضاً : وعليّ رضي الله عنه ، وروى عليّ رضي الله عنه عن النبي
صلى الله عليه وسلم أنه قال : (صالح المؤمنين علي بن أبي طالب) (٢)
ذكره الثعلبي ، وقال قتادة ، والعلاء بن زياد ، وغيرهما : هم الأنبياء
عليهم الصلاة والسلام ، وإنما يترتب ذلك بأن تكون مظاهرتهم

(١) أخرجه ابن عساكر عن ابن مسعود رضي الله عنه ، وأخرج مثله الطبراني في الأوسط ،
وابن مردويه ، عن ابن عمر ، وابن عباس رضي الله عنهم . (الدر المنثور) .
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم بسند ضعيف عن عليّ رضي الله عنه ، وأخرج مثله ابن مردويه
عن أسماء بنت عميس . (الدر المنثور) .

بأنهم قدوة وأسوة ، فهم عونٌ بهذا المعنى . وقوله تعالى : ﴿ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ يحتمل أن يكون اسم جنس مفرد ، ويحتمل أن يريد : «وصالحوها» فحذفت الواو في خط المصحف كما حذفوها في قوله تعالى : ﴿ سَدُّعُ الزَّبَانِيَةِ ﴾ (١) وغير ذلك .

ويروى عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال للنبي صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله ، لا تكثرت بأمر نساءك ، والله معك وجبريل معك وأبو بكر معك وأنا معك ، فنزلت الآية موافقةً نحوه من قول عمر (٢) . ، قال المهدي : روي أن هذه الآية نزلت على لسان عمر رضي الله عنه ، وكذلك روي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال لزوجات النبي صلى الله عليه وسلم : «عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ» ، فنزلت الآية على نحو قوله (٣) ، وقال عمر رضي الله عنه : قالت لي أم سلمة : «يا بُنَّ الخطاب أدخلتَ نفسك في كل شيءٍ حتى دخلتَ بين الرسول

(١) الآية (١٨) من سورة (العلق) .

(٢) رواه البخاري ، عن أنس رضي الله عنه ، كذلك رواه ابن أبي حاتم عنه . (الدر المنثور) .

(٣) جاء هذا في حديث طويل رواه مسلم في صحيحه ، وأخرجه عبد بن حميد ، وابن مردويه . عن ابن عباس رضي الله عنهما .

صلى الله عليه وسلم وبين نسائه» ، فأخذتني أخذاً كسرتني به ، وقالت لي زينب بنت جحش : يا عمر : أما يقدر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعظ نساءه حتى تعظهن أنت ؟

وقرأ الجمهور : [طَلَّقَكُنْ] بفتح القاف وإظهارها ، وقرأ أبو عمرو - في رواية عباس عنه - بإدغامها في الكاف وشدها ، قال أبو علي : وإدغام القاف في الكاف حَسَنٌ ، وقرأ ابن كثير ، وابن عامر ، والكوفيون ، والحسن ، وأبو رجاء ، وابن محيصن : ﴿ أَنْ يُبَدِّلَهُ ﴾ بسكون الباء وتخفيف الدال ، وقرأ نافع ، وأبو عمرو ، والأعرج : وأبو جعفر : ﴿ أَنْ يُبَدِّلَهُ ﴾ بفتح الباء وشدَّ الدال ، وهذه لغة القرآن في هذا الفعل .

وكرر تعالى الصفات مبالغة وإن كان بعضها يتضمن بعضاً ، فالإسلام إشارة إلى التصديق والعمل ، والإيمان تخصيص وتنبيه على شرف وقعه ، و « قانتات » معناه : مطيعات ، و « السائحات » قيل : معناه : صائمات ، قاله أبو هريرة ، وابن عباس ، وقتادة ، والضحاك ، وذكر الزجاج أن النبي صلى الله عليه وسلم قاله ، وقيل : معناه : مهاجرات ، قاله زيد بن أسلم ، وقال ابن زيد : ليس في الإسلام سياحة إلا الهجرة ، وقيل : معناه : ذاهبات في طاعة الله تعالى ، وشبه

الصائم بالسائح من حيث ينهمك السائح ولا ينظر في زاد ولا مطعم ، وكذلك الصائم يمسك عن ذلك فيستوي هو والسائح في الامتناع وشظف العيش بفقد الطعام ، وقوله تعالى : ﴿ثِيَابٍ وَأَبْكَاراً﴾ تقسيم لكل واحدة من الصفات المتقدمة ، وليست هذه الواو مما يمكن أن يقال فيها : واو الثمانية ؛ لأنها هنا ضرورية ولو سقطت لاختل المعنى .

قوله عز وجل :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَدُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ ءَامَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمُ سَيِّئَاتِكُمْ
وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا
مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا
إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ﴾ معناه : اجعلوا وقاية بينكم وبين النار ، وقد تقدم غير مرة تعليل اللفظة ، وقوله تعالى : ﴿وَأَهْلِيكُمْ﴾

معناه: بالوصية لهم والتقديم والحمل على طاعة الله تعالى ، وفي حديث (لا تزني فيزني أهلك) ، وفي حديث آخر (رحم الله رجلا قال : يا أهلاه ، صلاتكم ، صيامكم ، مسكينكم ، يتيمكم) (١) ، وقرأ الجمهور: [وَقُودَهَا] بفتح الواو ، وقرأ مجاهد ، والحسن ، وطلحة ، وعيسى ، والفياض بن غزوان ، وأبو حيوه بضمها ، وقيل : هما بمعنى ، وقيل : الضم مصدر والفتح اسم ، ويروى أن الحجارة هي حجارة الكبريت ، وقد تقدم في البقرة ، ويروى أنها جميع أنواع الحجارة ، وفي بعض الحديث أن عيسى بن مريم عليه السلام سمع أنيناً بفلاة من الأرض ، فتتبعه حتى بلغ إلى حجر يثن ويحزن ، فقال له : مالك أيها الحجر ؟ قال : يا روح الله إني سمعت الله تعالى يقول : ﴿ وَقُودَهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾ فخفت أن أكون من تلك الحجارة ، فعجب منه عيسى عليه السلام وانصرف ، ويشبه أن يكون هذا المعنى

(١) لم أقف على هذا الحديث والذي قبله ، والحديث الواضح في معنى الآية هو الذي رواه أحمد ، وأبو داود ، والترمذي ، من حديث عبد الملك بن الربيع بن سبرة ، عن أبيه ، عن جده ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (مُرُوا الصَّيِّءَ بِالصَّلَاةِ إِذَا بَلَغَ سَبْعَ سِنِينَ ، فَإِذَا بَلَغَ عَشْرَ سِنِينَ فَاضْرِبُوهُ عَلَيْهَا) ، وهذا لفظ أبي داود ، ومثله في معنى الآية ما أخرجه ابن مردويه ، عن زيد ابن أسلم ، قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية ﴿ قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ﴾ ، قالوا : يا رسول الله كيف نقى أهلنا ناراً ؟ قال : تأمروهم بما يحبه الله وتنهونهم عما يكره الله .

في التوراة أو في الإنجيل ، فذلك الذي سمع الحجر إذا عُبر عنه بالعربية كان هذا اللفظ .

ووصف الملائكة بالغلظة معناه في القلوب والبطش الشديد والفظاظة ، كما قال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَنْفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ (١) ، و «الشدة» : القوة ، وقيل : المراد شدتهم على الكفار فهي بمعنى الغلظة . ثم وصفهم تعالى بالطواعية لربهم ، وكرر المعنى تأكيداً بقوله سبحانه : ﴿ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ وفي قوله تعالى : ﴿ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ ما يقتضي أنهم يدخلون الكفار النار بجد واختيار ويغلظون عليهم ، فكأنه قال بعد تقرير هذا المعنى : فيقال للكفار : «لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ» ، أي أن المذرة لا تنفعكم ، وإنما تجزون بأعمالكم ، فلا تلوموا إلا أنفسكم .

ثم أمر عباده بالتوبة ، والتوبة فرض على كل مسلم ، و «تاب» معناه : رجع ، فتوبة العبد رجوعه من المعصية إلى الطاعة ، وتوبة الله تعالى على العبد إظهار صلاحه ونعمته عليه في الهداية للطاعة ، وقبول توبة الكافر يُقطع على الله تعالى بها إجماعاً من الأمة ، واختلف الناس

(١) من الآية (١٥٩) من سورة (آل عمران) .

في توبة العاصي - فجمهور أهل السنة على أنه لا يُقطع بقبولها ولا ذلك على الله تعالى بواجب ، والدليل على ذلك دعاء كل أحد من التائبين في قبول التوبة ، ولو كان مقطوعاً بها لما كان للدعاء معنى في قبولها ، وظواهر القرآن في ذلك هي كلها بمعنى المشيئة ، وروي عن الحسن الأشعري أنه قال : التوبة إذا توافرت شروطها قطع على الله تعالى بقبولها لأنه أخبر بذلك .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا تمسك بظواهر القرآن ، وعلى هذا القول أطبقت المعتزلة ، والتوبة : الندم على فارط معصية ، والعزم على ترك مثلها في المستقبل ، هذا من الممكن ، وأما غير الممكن كالمجبوب في الزنى فالندم وحده يكفيه ، والتوبة عبادة كالصلاة وغيرها ، فإذا تاب العبد وحصلت توبته بشروطها وقبلت ثم عاود الذنب فتوبته الأولى لا تفسدها عودة ، بل هي كسائر ما يحصل من العبادات .

و «النُّصُوحُ» بناءً مبالغة من النُّصَح ، أي توبة نصحت صاحبها وأرشدته ، وقرأ الجمهور : [نُصُوحاً] بفتح النون ، وقرأ أبو بكر عن عاصم ، وخارجة عن نافع ، والحسن ، والأعرج ، وعيسى : [نُصُوحاً] بضم النون ، وهو مصدر ، يقال : نصح ينصح نصيحةً

وَنُصُوحاً ، قاله الزجاج ، فوصف التوبة بالمصدر كالعَدل والزور
 ونحوه ، وقال عسر بن الخطاب رضي الله عنه : التوبة النَّصُوحُ
 هي أن يتوب ثم لا يعود ولا يريد أن يعود ، وقال أبو بكر الوراق :
 هي أن تضيق عليك الأرض بما رحبت كتوبة الذين خَلَّفُوا .

وقوله تعالى : ﴿ عَسَى رَبُّكُمْ ﴾ الآية ترجية ، وقد روي أن « عَسَى »
 من الله تعالى واجبة ، والعامل في [يَوْمَ] هو [يُدْخِلُكُمْ] ، وروي في
 معنى قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ ﴾ أن محمداً صلى الله
 عليه وسلم تضرع في أمر أمته فأوحى الله تعالى إليه : إن شئت جعلتُ
 حسابهم إليك ، فقال : يا رب أنت أرحم بهم ، فقال الله تعالى :
 إِذَا لَا أُخْزِيكَ فِيهِمْ ، فهذا معنى قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ ﴾ .
 والخِزْيُ المكروه الذي يترك الإنسان حيران خجلاً مهموماً بأن يرى
 نقصه أو سوء منزلته .

وقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ ﴾ يحتمل أن يكون معطوفاً
 على [النَّبِيِّ] فيخرج المؤمنون من الخزي ، ويحتمل أن يكون ابتداءً .
 و ﴿ نُورُهُمْ يَسْعَى ﴾ جملة هي خبره ، ويبقى النبي صلى الله عليه وسلم
 مخصوصاً مفضلاً بأنه لا يخزي ، وقد تقدم القول في نظير قوله

تعالى : ﴿ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ ﴾ ، وقرأ سهل بن سعد : [بِأَيْمَانِهِمْ] بكسر الهمزة . وقولهم : ﴿ أَتَمِّمُ لَنَا نُورَنَا ﴾ قال الحسن ابن أبي الحسن : هو عندما يرون من انطفاء نور المنافقين حسب ما تقدم تفسيره ، وقيل : يقوله من أعطي من النور بقدر ما يرى من موضع قدميه فقط .

قوله عز وجل :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١﴾ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطَ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ ﴿٢﴾ ﴾

هذه الآية تأكيد لأمر الجهاد وفرضه المتقدم ، والمعنى : دُم على جهاد الكافرين بالسيف ، وجاهد المنافقين بإقامة الحدود عليهم ، وضربهم في كل جرائمهم وعند قوة الظن بهم ، ولم يعين الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم منافقاً يقع القطع بنفاقه ؛ لأن التشهد الذي كانوا يُظهرون كان مُلبساً لأمرهم ، مُشبهاً لهم بالعصاة من

الأئمة ، و «الغِلْظَةُ عَلَيْهِم» هي فظاظة القلب والانتهاز وقلة الرفق بهم ، وقرأ الضحاك : [وَأَغْلِظُ] بكسر اللام وقطع الألف .

وهذان المثالان اللذان للكفار والمؤمنين معناهما أن من كفر لا يُغني عنه من الله شيءٌ ، ولا ينفعه وَزْرٌ (١) ولو كان متعلقاً بأقوى الأسباب . وأن من آمن لا يدفعه دافع عن رضوان الله تعالى ولو كان في أسوأ منشا وأخس حال ، وقال بعض الناس: إن في المثليين عبرة لزوجات النبي صلى الله عليه وسلم حين تقدم عتابهن ، وفي هذا بُعد لأن النص أنه للكفار يُبعد هذا .

واختلف الناس في خيانة هاتين المرأتين - فقال ابن عباس وغيره : خانتا في الكفر ، وفي أن امرأة نوح كانت تقول للناس : إنه مجنون . وأن امرأة لوط كانت تقول لقومه متى ورد ضيف ، فتخبر به . قال ابن عباس رضي الله عنهما : وما بغت زوجة نبي قط ولا ابتلي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في نسائهم بهذا ، وقال الحسن - في كتاب النقاش - : خانتاهما بالكفر والزنى وغيره ، وقرأ الجمهور : [يُغْنِيَا] بالياء ، وقرأ بشر بن عبيد : [تُغْنِيَا] بالتاء من فوق .

(١) الوَزْر : الملجأ والمُعْتَصِم .

قوله عز وجل :

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ
بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرِيَمَ
ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ
رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا إِحْسَانٌ ﴿١٢﴾ ﴾

امرأة فرعون اسمها «آسية» ، وقولها : [وَعَمَلِهِ] معناه : وكفره
وما هو عليه من الضلالة ، هذا قول كافة المفسرين ، وقال جمهور
من المفسرين : معناه : من ظلمه وعقابه وتعذيبه لي ، ورؤي في هذا
أن فرعون اتصل به إيمانها بموسى عليه السلام ، وأنها تحب أن تغلب ،
فبعث إليها قوماً فقال : إن رأيتم منها ذلك فابطحوها في الأرض ،
وَوَتَّدُوا يَدَيْهَا وَرَجْلَيْهَا ، وَأَلْقَوْا عَلَيْهَا أَعْظَمَ حَجْرٍ ، وَإِنْ لَمْ تَرَوْا ذَلِكَ
فَهِيَ امْرَأَتِي ، قال : فذهب القوم ، فلما أَحَسَّت الشَّرَّ مِنْهُمْ دَعَتْ بِهَذِهِ
الدَّعَوَاتِ ؛ فقبض الله تعالى روحها ، ووضع أولئك الحجر بشخص
لا روح فيه ، ورؤي غير هذا مما يطول فاختصرته لعدم صحته .
وقال آخرون - في كتاب النقاش - : [وَعَمَلِهِ] كناية عن الوطء
والمضاجعة ، وهذا ضعيف .

واختلف الناس في الفرج التي أحصنت مريم عليها السلام -
فقال الجمهور: هو فرج الدُّرْع الذي كان عليها ، وأنها كانت صبيّة ،
وأن جبريل عليه السلام نفخ فيه الروح من جيب الدُّرْع ، وقال قوم :
هو الفرج الجارحة ، ولفظة [أَحْصَنَتْ] - إذا كان فرج الجارحة -
ممكنة حقيقة ، والإحصانُ : صَوْنُهُ ، وهي فيه مستعملة ، وإذا
قدرناه فرج الدُّرْع فلفظة [أَحْصَنَتْ] مستعارة من حيث أحصنته
وصانته ومن حيث سار مسلماً لولدها .

وقوله تعالى : [فَنَفَخْنَا] عبارة عن فعل جبريل عليه السلام ،
ونَفَخَ جبريل عليه السلام حقيقة ، وإن ذهب ذاهب إلى أن النَّفْخَ
فعل الله تعالى ، فهو عبارة عن خلقه واختراعه الولد في بطنها ، وشبه
ذلك بالنفخ الذي من شأنه أن يُسير الشيء برفق ولطف . وقوله تعالى :
﴿ مِنْ رُوحِنَا ﴾ إضافة مخلوق إلى خالق ، ومملوك إلى مالك ، كما تقول :
بَيْتُ اللَّهِ ، وناقاة الله ، كذلك الروح والجنس كله هو روح الله .

وقرأ الجمهور : [وَصَدَّقَتْ] بشدِّ الدال ، وقرأ أبو مجلز بتخفيفها ،
وقرأ جمهور الناس : [بِكَلِمَاتٍ] على الجمع ، وقرأ الجحدري :
[بِكَلِمَةٍ] على الإفراد ، فأما الإفراد فَيُقَوِّي أَنْ يريد أمر عيسى عليه
السلام ، ويحتمل أن يريد اسم جنس وهو التوراة ، ومن قرأ بالجمع

فَيَقْوِي أَنَّهُ يَرِيدُ التَّوْرَةَ ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَرِيدَ أَمْرَ عَيْسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ .
 وَقَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ ، وَابْنُ عَامِرٍ ، وَحَمَزَةُ ، وَالْكَسَائِيُّ ، وَأَبُو بَكْرٍ عَنِ
 عَاصِمٍ ، وَنَافِعٍ : [وَكُتِّبَ] عَلَى التَّوْحِيدِ ، وَقَرَأَ أَبُو عَمْرٍو ، وَحَفْصُ
 عَنِ عَاصِمٍ ، وَخَارِجَةُ عَنِ نَافِعٍ : [وَكُتِّبَ] بِضَمِّ التَّاءِ عَلَى الْجَمْعِ ،
 وَقَرَأَ أَبُو رَجَاءٍ بِسُكُونِ التَّاءِ : [وَكُتِّبَ] ، وَذَلِكَ كُلُّهُ مُرَادٌ بِهِ التَّوْرَةُ
 وَالْإِنْجِيلُ .

و «الْقَانِتُونَ» : الْعَابِدُونَ ، وَالْمَعْنَى : كَانَتْ مِنْ الْقَوْمِ الْقَانِتِينَ
 فِي عِبَادَتِهَا وَحَالَ دِينِهَا .



كَمَلُ تَفْسِيرِ سُورَةِ التَّحْرِيمِ ، وَبِهَا كَمَلُ تَفْسِيرِ الْجِزْءِ الرَّابِعِ عَشَرَ
 وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

انتهى الجزء الرابع عشر بعون الله وتوفيقه ،
والحمد لله رب العالمين ، ويليه الجزء الخامس عشر
بمشيئة الله تعالى وتوفيقه ويبدأ بقوله تبارك وتعالى :
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ : ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ
الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ .

فهرس الآيات

رقم الصفحة	الآية
١	تفسیر سورة (الذاریات)
١	قوله عزَّ وجلَّ : (وَالذَّارِيَاتِ ذُرُوءًا ، فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ، فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ، فَالْمَقْسِمَاتِ أَمْرًا) إلى آخر الآية ١٦
١٢	قوله عزَّ وجلَّ : (كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ، وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ) إلى آخر الآية ٢٦
٢٥	قوله عزَّ وجلَّ : (فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ، فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَحْزَنْ وَبَشِّرُوهُ بَغْلَامٍ عَليمٍ) إلى آخر الآية ٣٦
٣٠	قوله عزَّ وجلَّ : (وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ، وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ) إلى آخر الآية ٤٤
٣٥	قوله عزَّ وجلَّ : (فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُتَّصِرِينَ ، وَقَوْمِ نُوحٍ إِذْ لَمَّسَهُمْ قَوْمًا قَوْمًا فَاسْقِينَ) إلى آخر الآية ٥٢
٣٨	قوله عزَّ وجلَّ : (أَتَواصُوا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ، فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ ، وَذَكَرْنَا فِرْعَانَ الَّذِي نَكَرَ يُنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ) إلى آخر الآية ٦٠
٤٦	تفسیر سورة (الطور)
٤٦	قوله عزَّ وجلَّ : (وَالطُّورِ ، وَكِتَابٍ مُسْطُورٍ ، فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ ، وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ) وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ) إلى آخر الآية ١٤

رقم الصفحة	الآية
٥٤	قوله عز وجلّ : (أفسِحِرْ هذا أم أنتم لا تبصرون ، أصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواءً عليكم إنما تُجْزَوْنَ ما كنتم تعملون) إلى آخر الآية ٢٠ ...
٥٧	قوله عز وجلّ : (والذين آمنوا واتَّبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء كل أمرىء بما كسب رهين) إلى آخر الآية ٢٨ ...
٦٥	قوله عز وجلّ : (فذكرّ فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون) إلى آخر الآية ٣٦ ...
٧١	قوله عز وجلّ : (أم عندهم خزائن ربك أم هم المصيطرون) إلى آخر الآية ٤٤ ...
٧٤	قوله عز وجلّ : (فلدرهم حتى يُلاقوا يومهم الذي فيه يُصعقون ، يوم لا يُغني عنهم كيدهم شيئاً ولا هم يُنصرون) إلى آخر الآية ٤٩ ...
٧٩	تفسير سورة (النجم) ...
٨٠	قوله عز وجلّ : (والنَّجم إذا هوى ، ما ضلّ صاحبكم وما غوى ، وما ينطق عن أهوى ، إن هو إلا وحيّ يوحى) إلى آخر الآية ١١ ...
٩٥	قوله عز وجلّ : (أفتمارونه على ما يرى ، ولقد رآه نزلةً أخرى ، عند سِدرة المتنى ، عندها جنة المأوى) إلى آخر الآية ١٨ ...
١٠٠	قوله عز وجلّ : (أفرأيتم اللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى ، ألكم الذِّكر وله الأثنى ، تلك إذا قسمة ضيزى) إلى آخر الآية ٢٦ ...

رقم الصفحة	الآية
١٠٧	قوله عز وجل : (إن الذين لا يؤمنون بالآخرة لَيُسْمَوْنَ بِاللَّامِئَةِ تَسْمِيَةَ الْأُنثَى) إلى آخر الآية ٣١
١٠٩	قوله عز وجل : (الذين يَحْتَنِبُونَ كِبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّامِئَةَ إِن رَّبُّكَ وَاسِعُ الْغُفْرَةِ) إلى آخر الآية ٣٨
١٢٠	قوله عز وجل : (وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ، وَأَن سَعِيَ سِوَف يُبْرَى ، ثُمَّ يُجْزَاهُ أَجْزَاءُ الْأَوْفَى) إلى آخر الآية ٥١
١٣٠	قوله عز وجل : (وَقَوْمَ نوحٍ مِّن قَبْلِ إِنْهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْفَى ، وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى ، فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى ، فَبَآءَ آلَاءِ رَبِّكَ تَمَارَى) إلى آخر الآية ٦٢
١٣٧	تفسير سورة (القمر)
١٣٨	قوله عز وجل : (أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ) إلى آخر الآية ٨
١٤٧	قوله عز وجل : (كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ) إلى آخر الآية ١٧
١٥٤	قوله عز وجل : (كَذَّبَتْ عادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَدَابِي وَنُذِرَ) إلى آخر الآية ٢٦
١٦١	قوله عز وجل : (إِنَّا مَرَّسَلْنَا النَّاقَةَ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَمَبَهُمْ وَأَصْطَبِرَ ، وَنِيَئَهُمْ أَن أَمَاءَ قِسْمَةَ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ) إلى آخر الآية ٣٥
١٦٥	قوله عز وجل : (وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ، وَلَقَدْ رَاودُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرَ) إلى آخر الآية ٤٤

رقم الصفحة	الآية
١٦٩	قوله عزَّ وجلَّ : (سِيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلَّثُونَ الْدُّبُرَ ، بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدهى وَأمرُّ) إلى آخر الآية ٥٥
١٧٧	تفسير سورة (الرحمن)
١٧٨	قوله عزَّ وجلَّ : (أَلرَّحْمَنُ ، عَلَّمَ الْقُرْآنَ ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ ، عَلَّمَهُ الْبَيَانَ) إلى آخر الآية ١٣
١٨٨	قوله عزَّ وجلَّ : (خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ، وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ ، فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) إلى آخر الآية ١٨
١٩٠	قوله عزَّ وجلَّ : (مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ، بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ ، فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) إلى آخر الآية ٢٨
١٩٨	قوله عزَّ وجلَّ : (يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ، فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) إلى آخر الآية ٣٦
٢٠٦	قوله عزَّ وجلَّ : (فَإِذَا أَنْشَقَّتْ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ، فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) إلى آخر الآية ٤٥
٢٠٩	قوله عزَّ وجلَّ : (وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ ، فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) إلى آخر الآية ٥٧
٢١٤	قوله عزَّ وجلَّ : (كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ، فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) إلى آخر الآية ٦٩

رقم الصفحة	الآية
٢١٧	قوله عزَّ وجلَّ : (فيهنَّ خيرات حسان ، فبأي آلاء ربكما تكذَّبان) إلى آخر الآية ٧٨
٢٢٦	تفسير سورة (الواقعة)
٢٢٧	قوله عزَّ وجلَّ : (إذا وقعت الواقعة ، ليس لوقعتها كاذبة) إلى آخر الآية ١٢ ...
٢٣٥	قوله عزَّ وجلَّ : (ثلَّة من الأولين ، وقليل من الآخرين ، على سرر موضونة ، متكئين عليها متقابلين) إلى آخر الآية ٢٦
٢٤٤	قوله عزَّ وجلَّ : (وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين ، في سدر مخضود ، وطلح منضود ، وظل ممدود) إلى آخر الآية ٤٠
٢٥١	قوله عزَّ وجلَّ : (وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال ، في سَّموم وحميم ، وظل من يحموم) إلى آخر الآية ٥٠
٢٥٥	قوله عزَّ وجلَّ : (ثمَّ إنكم أيُّها الضالُّون المكذَّبون ، لآكلون من شجرٍ من زقوم ، فمالئون منها البطون) إلى آخر الآية ٦٢
٢٦٠	قوله عزَّ وجلَّ : (أفأرأيتم ما تحرثون ، أنتم تزرعونه أم نحن الزارعون) إلى آخر الآية ٧٤
٢٦٥	قوله عزَّ وجلَّ : (فلا أقسم بمواقع النجوم ، وإنه لقسَم لو تعلمون عظيم) إلى آخر الآية ٨٧
٢٧٦	قوله عزَّ وجلَّ : (فأما إن كان من المقربين ، فروحٌ وريحان وجنَّة نعيم) إلى آخر الآية ٩٦

رقم الصفحة	الآية	تفسير
٢٨٢	تفسير سورة (الحديد)	٧١٤
	قوله عز وجل : (سبح لله ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ، له ملك السموات والأرض يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير)	٧١٥
٢٨٣	إلى آخر الآية ٤	٧١٦
	قوله عز وجل : (له ملك السموات والأرض وإلى الله ترجع الأمور ، يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وهو عليم بذات الصدور)	٧١٧
٢٨٧	إلى آخر الآية ٩	٧١٨
	قوله عز وجل : (وما لكم ألا تنفقوا في سبيل الله والله ميراث السموات والأرض)	٧١٩
٢٩١	إلى آخر الآية ١١	٧٢٠
	قوله عز وجل : (يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم)	٧٢١
٢٩٨	إلى آخر الآية ١٤	٧٢٢
	قوله عز وجل : (فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا مأواكم النار هي مولاكم وبئس المصير)	٧٢٣
٣٠٦	إلى آخر الآية ١٧	٧٢٤
	قوله عز وجل : (إن المصدقين والمصدقات وأقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعف لهم ولهم أجر كريم)	٧٢٥
٣١١	إلى آخر الآية ١٩	٧٢٦
	قوله عز وجل : (اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد) إلى آخر الآية ٢٠	٧٢٧

رقم الصفحة	الآية
٣١٨	قوله عز وجل : (سابقوا إلى مغفرةٍ من ربكم وجنةٍ عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسوله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم) إلى آخر الآية ٢٣
٣٢١	قوله عز وجل : (الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ومن يتول فإن الله هو الغني الحميد) إلى آخر الآية ٢٦
٣٢٥	قوله عز وجل : (ثم قضيْنَا على آثَارهم برُسُلِنَا وَقضيْنَا بعِيسَى ابنِ مريمَ وَآتَيْنَاهُ الإنجِيلَ وجعلْنَا في قلوبِ الَّذِينَ أتبعوه رَأفَةً وَرَحمةً وَرهبَانِيَّةً) إلى آخر الآية ٢٨
٣٣٠	قوله عز وجل : (لَسَلَا يَعْلَمُ أَهْلَ الْكِتَابِ أَلَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ) إلى آخر الآية ٢٩
٣٣٢	تفسير سورة (المجادلة)
٣٣٢	قوله عز وجل : (قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير) إلى آخر الآية ٢
٣٣٧	قوله عز وجل : (والذين يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِم ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَا ذَلِكَ تَوْعظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) إلى آخر الآية ٤
٣٤١	قوله عز وجل : (إنَّ الَّذِينَ يُحَادِّثُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُتِبَتْ لَهُم مِّن قَبْلِهِم وَقد أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ) إلى آخر الآية ٧

رقم الصفحة	الآية
٣٤٤	قوله عزَّ وجلَّ : (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَجَّوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ) إِلَى آخِرِ الْآيَةِ ٨
٣٤٦	قوله عزَّ وجلَّ : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَجَّوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبَرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ) إِلَى آخِرِ الْآيَةِ ١٠
٣٤٩	قوله عزَّ وجلَّ : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ) إِلَى آخِرِ الْآيَةِ ١٢
٣٥٥	قوله عزَّ وجلَّ : (ءَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذَا لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) إِلَى آخِرِ الْآيَةِ ١٦
٣٥٨	قوله عزَّ وجلَّ : (لَنْ نُنْفِئَهُمْ عَنْهُمُ أَمْوَالَهُمْ وَلَا أَوْلَادَهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) إِلَى آخِرِ الْآيَةِ ٢١
٣٦٠	قوله عزَّ وجلَّ : (لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ) إِلَى آخِرِ الْآيَةِ ٢٢
٣٦٣	تفسير سورة (الحشر)
٣٦٤	قوله عزَّ وجلَّ : (سَبَّحَ اللَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ، هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأُولَى الْحَشْرِ) إِلَى آخِرِ الْآيَةِ ٢

رقم الصفحة	الآية
٣٦٨	قوله عز وجل : (ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعدّ بهم في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب النار) إلى آخر الآية ٦
٣٧٣	قوله عز وجل : (ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل) إلى آخر الآية ٨
٣٧٧	قوله عز وجل : (والذين توبوا ألدّارَ والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) إلى آخر الآية ١٠
٣٨٣	قوله عز وجل : (ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لتين أخرجتن لتخرجن معكم ولا نطع فيكم أحداً أبداً) إلى آخر الآية ١٣
٣٨٥	قوله عز وجل : (لا يُقاتِلونكم جميعاً إلا في قرى محصنة أو من وراء جُدُرٍ بأسُهم بينهم شديد) إلى آخر الآية ١٧
٣٨٩	قوله عز وجل : (يأيّها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لِغَدٍ واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون) إلى آخر الآية ٢١
٣٩١	قوله عز وجل : (هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم) إلى آخر الآية ٢٤
٣٩٥	تفسير سورة (المتحنة)
٣٩٥	قوله عز وجل : (يأيّها الذين آمنوا لا تتخلوا عدوِّي وعدوكم أولياء تُلقون إليهم بالموذّة وقد كفروا بما جاءكم من الحق) إلى آخر الآية ١

رقم الصفحة	الآية
٤٠٠	قوله عز وجل : (إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء وودوا لو تكفرون) إلى آخر الآية ٤
٤٠٤	قوله عز وجل : (ربنا لا تجعلنا فتنه للذين كفروا وأغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم) إلى آخر الآية ٧
٤٠٦	قوله عز وجل : (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرؤهم وتسقطوا إليهم إن الله يحب المقسطين) إلى قوله عز وجل : (لا هن حيل لهم ولا هم يحلون لهن) من الآية ٩
٤٠٩	قوله عز وجل : (وآتوهم ما أنفقوا ولا جناح عليكم أن تنكحوهن إذا آتيتهن إذا جورهن ولا تمسكوا بعهص الكوافر) إلى آخر الآية ١١
٤١٤	قوله عز وجل : (يأيتها النبي إذا جاءك المؤمنات يبأعنك على أن لا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين بهتاناً يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك في معروف) إلى آخر الآية ١٣
٤٢٣	تفسير سورة (الصف)
٤٢٣	قوله عز وجل : (سبح لله ما في السموات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم ، يأيتها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون) إلى آخر الآية ٥
٤٢٨	قوله عز وجل : (وإذا قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد) إلى آخر الآية ٨

رقم الصفحة	الآية
٤٣٢	قوله عز وجل : (هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون) إلى آخر الآية ١٢
٤٣٤	قوله عز وجل : (وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين) إلى آخر الآية ١٤
٤٣٨	تفسير سورة (الجمعة)
٤٣٩	قوله عز وجل : (يسبح الله ما في السموات وما في الأرض الملك القدوس العزيز الحكيم ، هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين) إلى آخر الآية ٤
٤٤٢	قوله عز وجل : (مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين) إلى آخر الآية ٨
٤٤٥	قوله عز وجل : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) إلى آخر الآية ١١
٤٥٢	تفسير سورة (المنافقون)
٤٥٣	قوله عز وجل : (إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ) إلى آخر الآية ٤

رقم الصفحة	الآية
٤٥٨	قوله عزَّ وجلَّ : (وَإِذَا قِيلَ لَهُم تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوَّاْ رُؤُوسِهِمْ وَرَأَيْتَهُمْ يُصَدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ) إلى آخر الآية ٨
٤٦٧	قوله عزَّ وجلَّ : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ) إلى آخر الآية ١١
٤٧١	تفسير سورة (التغابن)
٤٧٢	قوله عزَّ وجلَّ : (يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْكُمْ كَافِرًا وَمِنْكُمْ مُؤْمِنًا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) إلى آخر الآية ٤
٤٧٦	قوله عزَّ وجلَّ : (أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) إلى آخر الآية ٧
٤٧٨	قوله عزَّ وجلَّ : (فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورَ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) إلى آخر الآية ١١
٤٨١	قوله عزَّ وجلَّ : (وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ) إلى آخر الآية ١٥
٤٨٤	قوله عزَّ وجلَّ : (فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) إلى آخر الآية ١٨

رقم الصفحة	الآية
٤٨٧	تفسير سورة (الطلاق)
٤٨٧	قوله عز وجل : (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تَخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَّةٍ) إلى آخر الآية ٣
٤٩٧	قوله عز وجل : (وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ أَرَبْتُمْ فَعِدَّتِهِنَّ ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحْضُنَّ وَأُولَاتِ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ) إلى آخر الآية ٧
٥٠٣	قوله عز وجل : (وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرَسَلِهَا فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَدَّ بِنَاهَا عَذَابًا نَكْرًا) إلى آخر الآية ١١
٥٠٦	قوله عز وجل : (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) إلى آخر الآية ١٢
٥٠٩	تفسير سورة (التحريم)
٥٠٩	قوله عز وجل : (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تَحْرِمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) إلى آخر الآية ٣
٥١٧	قوله عز وجل : (إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةَ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ) إلى آخر الآية ٥
٥٢٣	قوله عز وجل : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ) إلى آخر الآية ٨

رقم
الصفحة

الآية

قوله عز وجل : (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَأُوْاهِمِ
جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) إلى آخر الآية ١٠ ٥٢٧

قوله عز وجل : (وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةٌ فَرَعُونَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ أَيْنَ لِي
عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْبَلَدِ وَنَجِّنِي مِنَ الْفُرُوقِ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ
الظَّالِمِينَ) إلى آخر الآية ١٢ ٥٢٩

رقم الايداع بدار الكتب القطرية
٩١/٣١٧

مؤسسة دار الفقه الإسلامي
للطباعة والنشر والتوزيع
الدوحة - قطر



مكتبة دار الفنون
شعبة المخطوطات والنشر
ص ١٦٧١ - النسخة - قطر